

عبد السلام ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الكتاب: **الإحسان، ج2**

المؤلف: **عبد السلام ياسين**

الطبعة الثانية: 1439 هـ/ 2018م

السحب: **دار لبنان للطباعة والنشر**

رقم الإيداع القانوني: 9789920740005

عبد السلام ياسين



الجزء الثاني



الطبعة الثانية : 1439/ 2018

ISBN: 9789920740005

بشامون - الطريق العام ـ مجمع بشامون الصناعي

هاتف و فاكس : 5813203 - 00961

البريد الإلكتروني: dar@darlubnan.com

الموقع الإلكتروني: www.darlubnan.com

رقم الحساب للتحويل المصرفي

Name: DAR LOUBNAN LIL TIBAA WAL NASHR

ACC: 1578046

BLOM BANK SAL- MAIN BRANCH

RACHID KARAMEH STREET

BEIRUT LEBANON

IBAN: LB61 0014 0000 4002 3041 5780 4614

(CURRENT USD)

SWIFT CODE: BLOMLBBX

الجزء الثاني

- العلم
- العمل
- السمت الحسن
- التؤدة
- الاقتصاد
- الجهاد
- خاتمة

الفصل السابع

العلم

- العلم علمان
- سياج علم الشريعة
- العقـل
- الرؤيا الصالحة
- عين القلب
- الفراسة
- علوم الأولياء
- الذوق
- العارفون الواصلون
- مشاهدة الله عز وجل
- شعب الإيمان

العلم علمان

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾. اللهم إني أسألك الذي هو خير في عاقبة أمري. اللهم اجعل ما تعطيني من الخير رضوانك والدرجات العلى في جنات النعيم.

أخرج البخاري في صحيحه في كتاب العلم حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين من العلم. فأما أحدهما فقد بَثَثْتُه، وأما الآخر فلو بثثته قُطع هذا البلعوم». قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث: «حمل العلماء الوعاء الذي لم يبثَّه على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم. وقد كان أبو هريرة يُكْني عن بعضه ولا يصرِّح به خوفا على نفسه منهم كقوله: أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان، يشير إلى إمارة اليزيد بن معاوية لأنها كانت سنة ستين للهجرة». وقال: قال ابن المنير: «جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم، حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهرا وباطنا، وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين».

قلت ولا يزال الخلاف في فهم حديث أبي هريرة قائما بين الصوفية وبين أهل الحديث، الصوفية يستدلون به على وجود علم خاص علَّمه رسول الله ﷺ بعض أصحابه أمثال حذيفة وأبي هريرة دون بعض، يتعلق بما يسمى «علم الحقيقة»، والمحدثون يسدُّون هذه الذريعة وينكرون هذا التفسير مخافة أن يدخل على الدين ما ليس منه كما فعل الباطنية الكفار الذين تأولوا الدين من أوله إلى آخره زاعمين أن ظاهر الشريعة قِشْرٌ على لباب، وملهاة للعامة، وأن الحقيقة وراء مظاهر ما يُتلى وظواهر ما يُفعل.

وفي اشتراك الصوفية مع غيرهم من الزنادقة في استعمال كلمتي «باطن» و«ظاهر» ما يعرِّض كلامهم لسوء الفهم. وليس إطلاع رسول الله ﷺ على حوادث الغيب المستقبلة كأحوال أمراء السوء وزمنهم وإطلاعه خاصة من أصحابه عليها أمراً قادحا في الشريعة، كما لا يقدح فيها إطلاع الله بعضَ عباده، من خاصة أحبابه، رأسا، بوحي منام أو إلهام، على حوادث كونية ودقائق فهمية. ولا يزال أئمة هذا الدين منذ عهد الصحابة إلى الآن يعرفون للصالحين من نور القلب ولا ينكرون.

ولئن وقف طائفة من المحدثين على ذريعة التعارض المحتمل بين الظاهر والباطن ليصدوا الزنادقة ويمنعوهم عن التلاعب بالدين فإن كبار الصوفية أنفسهم كانوا في طليعة من حارب الباطنية وجادلهم وكفرهم، ناهيك بكتاب الغزالي في «الرد على الباطنية».

يقصد السادة الصوفية بمصطلح «علم الباطن» ما يفتح الله للصادقين من علوم قلبية وأنوار هي، إلزاما، نتيجة تطبيقهم للشرع ووفائهم لأمره ونهيه وأقواله وأفعاله، مع إخلاص النية وتوجه الهمة لله عز وجل. روى ابن أبي شيبة والدارمي حديثا مرسلا بإسناد حسن عن الإمام حسن البصري قال: «العلم علمان: فعلم في القلب فذاك العلم النافع. وعلم على اللسان فذاك حجة الله على ابن آدم».

وقال الإمام مالك: «من شأن ابن آدم أن لا يعلم ثم يعلم. أما سمعت قوله تعالى: ﴿إن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾؟» وقال أيضا: «إن الحكمة مَسْحَةُ مَلَك على قلب العبد». وقال: «الحكمة نور يقذفه الله في قلب العبد». وقال: «يقع بقلبي أن الحكمة الفقه في دين الله وأمرٌ يدخله الله القلوب من رحمته وفضله».[1]

هذا كلام واضح في أن أئمة الدين قبل ظهور كلمة «تصوف» كانوا على علم تام بنور القلب والحكمة و«مسحة الملك»، بل كانوا من أهل هذا الشأن أصالة وبحق. وكيف لا يكونون كذلك وإنما يقذف الله عز وجل نور الحكمة في قلب من أقرَّ في قلبه الإيمان فرعى الشريعة حق رعايتها.

(1) نقلا عن «الموافقات»، للشاطبي، ج 4، ص:61.

وقد كان الإمام الشافعيُّ صاحب فراسة وكشف كما سنقرأ إن شاء الله في فقرة مقبلة. وهو الذي كتب في رسالته: «العلم علمان: علم عامة لا يَسَعُ بالغًا غيرَ مغلوب على أمره جهلُه (...)، (وعلم خاص بـــ) ما ينوب العبادَ من فروع الفرائض وما يخص به من الأحكام وغيرها مما ليس فيه نص كتاب ولا في أكثره نص سنة. وإن كانت في شيء منه سنة فإنما هي من أخبار الخاصة لا أخبار العامة».[1]

وإن كان الإمام الشافعي، والصوفية يعتبرونه من خاصة أولياء الله، لم يتحدث عن أنوار القلب في الرسالة كحديث مالك رحمه الله، فإنه أصَّل لمن بعده، كما قرأنا، مفهومين أساسيين: «العامة» و«الخاصة». وللمستشرقين وتلامذتهم وَلوعٌ بالحديث عن «الخاصة» و«العامة» يتخذون المفهومين سنداً وآلة لتحليل التاريخ الإسلامي والفقه الإسلامي على هواهم تحليلا ماديا طبقيًا. كما يلعبون على التقابل بين «الظاهر» و«الباطن» ليعمقوا فكرة أن التصوف فلسفة دخيلة على الإسلام دين البدو الغلاظ، لم يعرفوا شيئا عن القلب ونور القلب إلا من مخالطتهم للحضارات والديانات العريقة عند الفرس والروم والسِّند والهِند.

نفتح كتاب الله عز وجل لنقرأ من خبر موسى مع العبد الصالح الذي سمته السنة خضراً. أخبرنا الله عز وجل أن موسى رحل مع فتاه، بوحي من الله، ليلقى ﴿**عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً**﴾.[2]

بقية القصص الحق تدل على أن من عباد الله من يعلمهم الله من عنده، ومن يأمرهم بأمره، ومن ينصبهم معلمين لعباده. قال الخضر لموسى حين التقيا: ﴿**إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً**﴾[3]. وجاء في صحيح البخاري، كتاب التفسير، عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ أن الخضر قال لموسى: «يا موسى! إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه». وجاء بالقصة في سياق طويل.

(1) رسالة الشافعي، ص:154.

(2) الكهف، 65.

(3) الكهف، 67-69.

في قول الله عز وجل ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ مُستَمسَك القائلين بالعلم اللدُني، مُستمسَك ومرجع للمصطلح، أما المصطلح عليه فعطاء من الله عز وجل لا يد لأحد فيه، و﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[1]. وفتح الله لأوليائه خبَرٌ متواتر على مر الأجيال، يُنكره من جَهل ويجحده من حُرِم. وما علينا إلا أن نُسمع شهادة الحق لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

الخضر عليه السلام شخصية مباركة، ثبت في الصحيح، كما قال الحافظ، أنه جاء الصحابة معزِّيا في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويقول بعض المحدثين، وفي مقدمتهم الإمام البخاري، إنه عليه السلام مات بعد ذلك، بينما يؤكد أئمة آخرون من أهل الحديث أنه حي يُرزق أنظره الله إلى يوم يبعثون. قال الإمام ابن الصلاح في فتاويه: «أما الخضر ﷺ فهو من الأحياء عند جماهير الخاصة من العلماء والصالحين، والعامة معهم في ذلك. وإنّما شذَّ بإنكار ذلك بعضُ أهل الحديث. وهو صلى الله عليه وعلى نبينا وعلى آل كلٍّ وسلم نبي. واختلفوا في كونه مرسلا. والله أعلم».[2]

وقد ألف الحافظ الكبير ابن حجر العسقلاني رسالة سماها: «الزهر النَّضِر في نبإ الخضر»[3] نقل فيه عن الإمام النووي المحدث الكبير الصوفي من خاصة أهل الله قوله: «قال الأكثرون من العلماء هو (أي الخضر) حي موجود بين أظهرنا. وذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة. وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه وسؤاله وجوابه وحضوره في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثرُ من أن تُحصى وأشهر من أن تذكر».

شيخ الإسلام ابن تيمية ممن يؤكد في كل مؤلفاته أن الباطن هو أصل الظاهر وعمادُه، وإن كان يحذر من تصور الشيطان لبعضهم يزعم أنه الخضر. ويشدد ابن تيمية رحمه الله وأحسن إليه في أمر الاتباع كما يشدِّد النّكير على من زعم أن

(1) فاطر، 2.

(2) فتاوى ابن الصلاح، الجلد الأول من الرسائل المنيرية، ص:24.

(3) انظر الرسائل المنيرية، المجلد الثاني.

النبي ﷺ جاء بعلم الظاهر ولم يجئ بعلم الباطن، وكلامه في غاية الجودة. قال: «إن كل من بلغه رسالة محمد ﷺ لا يكون وليا لله إلا باتباع محمد ﷺ. وكل ما حصل له من الهدى ودين الحق هو بواسطة محمد ﷺ. وكذلك من بلغه رسالة رسول إليه لا يكون وليا لله إلا إذا اتبع ذلك الرسول الذي أرسل إليه، ومن ادعى أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ من له طريق إلى الله لا يحتاج فيها إلى محمد ﷺ فهو كافر ملحد. وإذا قال: أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر دون علم الباطن، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة فهو شر من اليهود والنصارى (...). وكذلك هذا الذي يقول: إن محمدا بُعث بعلم الظاهر دون علم الباطن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض، فهو كافر وهو أكفر من أولئك، لأن علم الباطن، الذي هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها، هو علم بحقائق الإيمان الباطنة. وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة».[1]

هذه كلمة رجل شديد سديد في موضوع «العلم علمان». وهاك كلمات أئمة هذا الشأن ممن لهم الباع الطويل في علمي الظاهر والباطن.

قال الإمام الرفاعي: «لا تقولوا كما يقول بعض المتصوفة: نحن أهل الباطن، وهم أهل الظاهر. هذا الدين الجامع باطنه لُبُّ ظاهره، وظاهره ظرف باطنه. لولا الظاهر لما كان الباطن ولما صح. القلب لا يقوم بلا جسد. بل لولا الجسد لفسد. والقلب نور الجسد».

«هذا العلم الذي سماه بعضهم بعلم الباطن هو إصلاح القلب. فالأول (علم الظاهر) عمل بالأركان، والثاني (علم الباطن) تصديق بالجنان. إذا انفرد قلبك بحسن نيته، وطهارة طويَّته، وقتلت وسرقتَ وزَنَيْتَ وأكلت الربا وشربت الخمر وكذبت وتكبرت وأغلظت القول فما الفائدة من نيتك وطهارة قلبك. وإذا عبدت الله وتعففت وصمت وصدَّقت وتواضعت وأبطن قلبك الرياء والفساد فما الفائدة من عملك؟»

(1) مجلة «الفرقان»، ص: 73.

«فإذا تعين لك أن الباطن لب الظاهر، والظاهر ظرف الباطن، ولا فرق بينهما، ولا غنى لكليهما عن الآخر فقل: نحن من أهل الظاهر، وكأنك قلت: ومن أهل الباطن. قل نحن من أهل ظاهر الشرع وقد ذكرت باطن الحقيقة. أيُّ حالة باطنة للقوم لم يأمر ظاهر الشرع بعملها؟ أيُّ حالة ظاهرة لم يأمر الشرع بإصلاح الباطن لها؟»

«لا تعملوا بالفرق والتفريق بين الظاهر والباطن، فإن ذلك زيغ وبدعة. لا تهملوا حقوق الفقهاء والعلماء، فإن ذلك جهل وحمق. لا تأخذوا بحلاوة العلم وتُبطلوا مرارة العمل، فإن تلك الحلاوة لا تنفع إلا بتلك المرارة. وإن تلك المرارة تتيح الحلاوة الأبدية».[1]

كلام معلم كبير يعالج أمراض الغرور عند بعض المريدين الحديثي العهد بالانتساب للقوم، تحدوهم نشوة الأذواق وسكرة القلوب ونورانية الكرامات فتختل موازينهم.

أما الأولياء الكمل فيعطون كل ذي حق حقه، ويعظمون أهل العلم، لاسيما العاملين منهم، وإن كانت أعين قلوبهم التي صقلها الذكر وأحيتها الصحبة وفتح لها فضل الله ترى ما لا يراه الغافلون. هم مع الخلق بالحواس المشتركة الظاهرة والعقل المشترك، وهم لهم حاسة باطنة هي القلب المنور.

قال الإمام عبد القادر رحمه الله: «العقلاء النجباء الصديقون قد نُفِخَ في صورهم، وقد أقاموا القيامة على نفوسهم، وأعرضوا عن الدنيا بهممهم، وعبروا الصراط بتصديقهم. وساروا بقلوبهم حتى وقفوا على باب الجنة. وقفوا عند الطريق وقالوا: لا نأكل ولا نشرب وحدنا، لأن الكريم لا يأكل وحده. فرجعوا إلى الدنيا قَهْقَرى يدعون الناس إلى طاعة الله عز وجل، ويخبرونهم بما هناك، فيسهلون الأمور عليهم».

«من قوي إيمانُه، وتمكن في إيقانه، رأى بقلبه جميع ما أخبره الله عز وجل به من أمور القيامة. يرى الجنة والنار وما فيهما. يرى الصور والـمَلَك الموكل به. يرى الأشياء كما هي. يرى الدنيا وزوالها، وانقلاب دول أهلها».[2]

(1) البرهان المؤيد، ص: 68.

(2) الفتح الرباني، ص: 93.

قلت: ما كتمه أبو هريرة بعد أن أخذه رواية عن رسول الله ﷺ هو من هذا القبيل. وليس خبر الدنيا وزوالها وانقلاب دول أهلها ما يشغل العارفين الكمل.

قال الشيخ عبد القادر: «يرى الخلق كأنهم قبور تمشي. وإذا اجتاز على القبور أحسَّ بما فيها من النعيم والعذاب. يرى القيامة وما فيها من القيام والمواقف. يرى رحمة الله عز وجل وعذابه. يرى الملائكة قياما والأنبياء والمرسلين والأبدال والأولياء على مراتبهم. يرى أهل الجنة يتزاورون، وأهل النار في النار يتعاوَوْن».

«من صح يقينه نظر بعين رأسه الخلق، وبعين قلبه فعل الله عز وجل فيهم، يرى تحريكه وتسكينه لهم، فهذا نظر العزة. من أولياء الله عز وجل من إذا نظر إلى شخص رأى ظاهره بعين رأسه، وباطنه بعين قلبه. وينظر مولاه عز وجل بعين سره».

قال عالم حر، معتز بعلمه، صائن له بالعمل والتقوى:

يقولون لي: فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
إذا قيل: هذا مَوْرد، قلت: قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأَخدُم من لاقيت لكن لأُخْدَما
أأغرسه عِزا وأجنيه ذِلةً ... إذاً فاتباع الجهل كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظّموه في النفوس لعُظِّما
ولكن أهانوه فهان ودنّسوا ... محيّاه بالأطماع حتى تَجَهَّما

قلت:

سَاعَةُ العُسْرَةِ دَقَّتْ ... يَا جُنُودَ اللهِ قُومُوا
وَأَعِدُّوا مَا اسْتَطَعْتُم ... عُدَّةَ الدِّينِ عُلُومُ
عِلْمُ قُرآنٍ وَوَحْي ... عِلْمُ دُنْيَا لا تَدُومُ

سياج علم الشريعة

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً﴾.
اللهم اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك.

إن المتقدسين بالعزلة عن دنس الدنيا، المتنزهين عن مخالطة الغافلين، الذاكرين الله كثيرا في الخلوات، كانوا عرضة للخطإ والزيغ من جهات لا يتعرض لها عامة الناس. كانت لهم أذواق تلْطُف أن يُلِمّ بها الخيال، أو يحوم حول حماها كثيف المقال. والأذواق والكشف تخطئ كما يخطئ الرأي، بل يجد الشيطان والهوى منهما مدخلا ليستحوذا على هواجس النفس ويكدرا خواطر القلب. لذا كان مُعوَّل أئمة الصوفية على سياج الشريعة يحوطون به تلامذتهم، ويذكِّرون ويبصِّرون. إذ لا عاصم من الزيغ العامد والخطإ غير الراشد إلا معيار التقوى وتعليم الهدى. وما زال أئمة التربية يوصون بحفظ الشرع والوقوف عند الأمر والنهي تلامذتهم الـمُقدمين على خوض لُجّة الرياضات وسلوك فجاج الخلوات.

كان أبو سعيد الخراز يقول: «كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل». ويقول الإمام الجنيد: «علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله ﷺ». ويقول: «سمعت أبا سليمان الداراني يقول: ربما تقع في نفسي النكتَةُ من نُكتِ القوم (يعني الذوق من أذواقهم) أيامـًا، فلا أقبل منها إلا بشاهدين عدلين: الكتابِ والسنةِ». ويقول أبو يزيد البسطامي: «لو نظرتم إلى رجل أُعطِيَ من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود». ويقول سري السقَطِيُّ: «من ادعى باطن علم ينقض ظاهر حكم فهو غالط». ويقول أبو بكر الشفاف: «من ضيع حدود الأمر والنهي في الظاهر حرم مشاهدة القلب في الباطن». ويقول الجريري: «أمْرُنا هذا مجموع كله على فضل واحد، وهو أن تلزم قلبك المراقبة ويكون العلم

على ظاهرك قائما». ويقول أبو جعفر: «من لم يَزِن أقواله وأفعاله وأحواله بالكتاب والسنة ولم يتهم خاطره فلا تعُدَّه في ديوان الرِّجال».

قال الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس»[1] بعد أن سرد مقالات الأئمة هذه: «وإذ قد ثبت هذا من أقوال شيوخهم، وقعت من بعض أشياخهم غلطات لبعدهم عن العلم. فإن كان ذلك صحيحا عنهم توجه الرد عليهم، إذ لا محاباة في الحق، وإن لم يصِحَّ عنهم حذرنا من مثل هذا القول، وذلك (هو) المذهب من أي شخص صدر».

ابن الجوزي رحمه الله في كتابه نموذج للعلماء القائمين على الحدود، الحافظين لسياج الشريعة أن يُخْترق، الذابّين عن حرمتها أن تنتهك. لذا فهو يندِّدُ بما نقل من خطإ وعيب نُسب إلى شخص، ويحذر مما لم يقع مخافة أن يقع. فذلك مذهبه في سد الذرائع. إذا أضفنا إلى هذا أنه كتب كتابه ليؤدي أمانة العلم كما قال بِتِبْيانِ غلط كل الغالطين، وأنه خصص لثلب الصوفية مائتين وثمانية وأربعين صفحة بينما لم يذكر الأمراء والسلاطين وتلبيس إبليس عليهم إلا في ثلاث صفحات ظهر التحامُل، ومالت كِفة الميزان عن استقامة العدل.

الله وحده يعلم ما آل إليه أمر العلامة ابن الجوزي في آخر حياته، وقد تآمر عليه ابن له عاقٌّ فسُجن وهو في الثمانين من عمره في بيت وحده مدة خمس سنوات. الله أعلم متى كتب مثالب الصوفية وهل رجع وهو في محنته النهائية عن قوله في المكاشفة: «كلام فارغ»[2]، وقد كان له ابن آخر غير العاق قدمه لشيخ صوفي ألبسه الخرقة ورباه.

ويا ليت المتحاملين على الصوفية من قراء ابن الجوزي السطحيين ينقادون للحق، ويعرضون أفعال الصوفية، بعد أن يخالطوهم ويتثبّتوا من صحة المعطيات، على الكتاب والسنة بدل أن يقلدوا منهجية الشك والحكم على ما صح عن بعضهم وما لم يصح كما أعلن ذلك ابن الجوزي نفسه.

(1) تلبيس إبليس، ص: 188-189.

(2) نفس المصدر، ص: 148.

على أن ابن الجوزي رحمهُ الله، مع تطرفه، لم يكن من المكفرين الـمُغْلَقين. فإنه يقول: «وقد يكون الرجل من الأولياء وأهل الجنة وله غلطات، فلا تمنع منزلته من بيان زَلَلِه».[1]

ويا ليت لقراء ابن تيمية الحاملين لواء التبديع والتكفير عُشر ما عند الرجل من معرفة بأحوال الصوفية إن لم يكن لهم عشر ما كان معه من العلم والاطلاع. إذن لكان حُكمهم أقرب إلى التواضع.

ابن الجوزي رحمه الله كان يتكلم من خارج حوزة التصوف، ويذُب عن حِمى الشريعة في حركة واحدة ما هو خطأ وعيب بالفعل، وما هو خطأ وعيب محتمل، وما هو صحيح وما لم يصح.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فكان أوسع أفقا وأكثر تثبتا وأدق معرفة بموضوعه. وما جاء من شذوذ ومبالغات وخطإ في أحكامه على بعض الصوفية فمردُّه إلى قصور ما كان له معهم من «القدر المشترك». ذلك القدر الذي لا يعترف به ابن الجوزي ولا يُقرُّه وإن كان يفرض فرضا أن من الصوفية من قد يكون وليا من أهل الجنة.

أئمة القوم أحق أن يُسْمع لشهادتهم. فهم كانوا ينظرون إلى المشْهَد من داخل بحكم كونهم من أهل مكة الذين هم أدرى بشعابها. ثم هم كانوا ينطقون بلسان الشرع لأنهم كانوا من علماء الشرع الراسخين، ولأنهم قبل كل شيء يعلمون أن ما بلغوه من مقامات القرب عند الله ما كان لتفتَح لهم أبوابهُ إلا بالاتباع للسنة المصطفوية، على حبيبنا محمد أفضل الصلاة والسلام.

لذا فوصاياهم إلى مريديهم رائدها العلم الظاهر، وروحها اليقين العملي «التجريبي» بأن الطريق مغْلقة بلا رَجْعة ولا شفاعة في وجه من يبتغيها عوجا عن استقامة الكتاب والسنة.

قال الإمام الرفاعي لمريد مُعجَب بشطحات الصوفية، يزجره إلى الشرع وأئمته: «أي سادة! تقولون: قال الحرث! قال أبو يزيد! قال الحلاج! ما كان الحال قبل

(1) تلبيس إبليس، ص: 189.

هذه الكلمات؟! قولوا: قال الشافعي، قال مالك، قال أحمد، قال نعمان. صححوا المعاملات البَيْنِيَّة، وبعدها تفكهوا بالمقالات الزائدة. قال الحرث وأبو يزيد لا ينقص ولا يزيد! وقال الشافعي ومالك أنجح الطرق وأقرب المسالك. صححوا دعائم الشريعة بالعلم والعمل وبعدها ارفعوا الهمة للغوامض من أحكام العلم وحكم العمل. مجلس علم أفضل من عبادة سبعين سنة. (أي من العبادات الزائدة عن المفروضات التي يتعبد فيها الرجل بغير علم). ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[1] ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾.[2] أشياخ الطريقة وفرسان ميادين الحقيقة يقولون لكم: خذوا بأذيال العلماء. لا أقول لكم: تفلسفوا، ولكن أقول لكم: تفقهوا. من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين».[3]

كان الإمام أبو الحسن الشاذلي، شيخ مشايخنا رحمه الله لا يقبل مريدا في دائرته حتى يعقد له مجلسا يناظر فيه العلماء.

ومن تعظيم الإمام الرفاعي للعلماء قوله: «أي سادة! عظموا شأن الفقهاء والعلماء كتعظيمكم شأن الأولياء والعرفاء. فإن الطريق واحد. وهؤلاء وُرّاث ظاهر الشريعة وحَمَلَة أحكامها الذين يعلّمونها الناس، وبها يصل الواصلون إلى الله، إذ لا فائدة بالسعي والعمل على الطريق المغاير للشرع. ولو عبد الله العابد خمسمائة عام بطريقة غير شرعية فعبادته راجعة إليه، وَوِزْرُه عليه، ولا يقيم الله له يوم القيامة وزنا. وركعتان من فقيه في دينه أفضلُ عند الله من ألفي ركعة من فقير جاهل في دينه. فإياكم وإهمالَ حقوق العلماء! وعليكم بحسن الظن فيهم جميعا. وأما أهل التقوى منهم، العاملون بما علمهم الله، فهم الأولياء على الحقيقة. فلتكن حُرمتهم عندكم محفوظة».[4]

إنه معيارٌ لا يخطئ في معرفة الصادقين وتمييز أهل الزَّغْل والتخليط: التمسكُ بظاهر الشريعة كما يتمسك الغريق بخشبة النجاة. فإن طريق السلوك وعقباته مزروعة

(1) الزمر، 10.

(2) الرعد، 17 .

(3) البرهان المؤيد، ص:69.

(4) نفس المصدر، ص:67.

بأنواع الابتلاء من نوع الفتن الظاهرة، التي يعاينها الخاص والعام، ومن نوع الفتن الباطنة. فإن كان تمسك المؤمن من العامة بالشريعة واجبا مرة، فهو في حق السالك مؤكد مرتين. وما هَلك من هلَك في هذه الطريق، ونقص من نقص، وهام من هام في أودية الأوهام إلا بحل عقدة الاعتصام بالعلم الموحى به. قال ابن عطاء الله رحمه الله: «ما حرموا الوصول إلا بتضييعهم الأصول».

وقال الإمام عبد القادر قدس الله سره: «عليكم بالإيمان، ثم بالإيقان، ثم بالفَناء والوجود بالله عز وجل لا بك ولا بغيرك. مع حفظ الحدود، مع إرضاء الرسول ﷺ، مع إرضاء المتلوِّ المسموع المقروء. لا كرامة لمن يقول غير هذا! هذا الذي في المصحف والألواح كلامُ الله عز وجل، طرفٌ بيده وطرف بأيدينا. عليك بالله عز وجل، والانقطاع إليه والتعلق به، فإنه يكفيك مؤونَة الدنيا والآخرة، ويحفظك في الحياة والممات، ويذُب عنك في جميع الأحوال. عليك بهذا السواد على البياض (المصحف). اخدمه حتى يخدُمَك، يأخذ بيد قلبك، ويوقفه بين يدي ربه عز وجل. العملُ به يَريشُ جناحي قلبك فيطير بهما إلى ربه عز وجل».[1]

وقال رحمه الله: «كل من لم يتبعْ النبي ﷺ، ويأخذْ شريعته في يده، والكتاب المنزل عليه في اليد الأخرى لا يصل في طريقه إلى الله عز وجل. يَهْلِك ويُهلِك! يَضِلُّ ويُضِل! هما دليلان إلى الحق عز وجل. القرآن دليلك إلى الحق عز وجل. والسنة دليلك إلى الرسول ﷺ. اللهم باعد بيننا وبين نفوسنا».[2]

وقال قدس الله سره: «طر إلى الحق بجناحي الكتاب والسنة. ادخل عليه ويدك في يد الرسول ﷺ. اجعله وزيرك ومعلمك. دع يده تزيِّنك وتمشِّطك! وتعرضك علي! هو الحاكم بين الأرواح، المربي للمريدين، جهبذُ المرادين، أمير الصالحين، قَسّام الأحوال والمقامات بينهم، لأن الحق عز وجل فوض له ذلك، جعله أمير الكل. الخِلَع إذا خرجت من عند الملك للجند إنّما تُقسَّم على يد أميرهم. التوحيد عبادة. والشرك بالخلق عادة».[3]

(1) الفتح الرباني، ص:111.

(2) نفس المصدر، ص:117.

(3) الفتح الرباني، ص:179.

وقال رحمه الله: «يا غلام! تذكُّرُكَ له يقرب قلبك منه. تدخل إلى بيت قربه وتصير ضيفا له. الضيف يُكرَم ولاسيما ضيف الملك. إلى متى تشتغل عن هذا الملك بالملْك؟ والملْك عن قريب تفارقه. مُلْكُكَ مَلَكَكَ! عن قريب تحصُل في الآخرة! وترى كأن الدنيا لم تكن، والآخرة لم تزل. لا تهربوا مني لفقر يدي! فإن عندي غنىً عنكم وعن أهل المشرق والمغرب! إنما أريدكم لكم! في حبالكم أَفْتِلُ!

«لا تبتدع وتُحْدِثْ في دين الله عز وجل شيئا لم يكن. اتبع الشاهدين العدلين الكتاب والسنة فإنهما يوصلانك إلى ربك عز وجل. وأما إذا كنت مبتدعا فشاهداك عقلُك وهواك. فلا جَرَم يوصلانك إلى النار. ويلحقانك بفرعون وهامان وجنودِهما. لا تحتجَّ بالقدر، فلا يقبل منك. لابد لك من الدخول إلى دار العلم والتعلم، ثم العمل، ثم الإخلاص. بك لا يجيء شيء ولابد منك. اجعل سعيك في طلب العلم والعمل، ولا تجعله في طلب الدنيا. عن قريب ينقطع سعيك، فاجعل سعيك فيما ينفعك»[1]. واضح أن موعظة الشيخ موجهة لملك أو أمير.

قال عالم صادق لواعظ كذاب:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما   إذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدا   فالموبقات لَعَمْري أنت جانيها
تعيب دنيا وناسا راغبين لها   وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال آخر لآخر يغشى مجالس الأمراء ويأكل الدنيا بالدين:

يا جاعل العلم له بازِيا   يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها   بحيلة تذهب بالدين
فصرت مجنونا بها بعدما   كنت دواء للمجانين
أين رواياتك في سردها   عن ابن عون وابن سيرين؟

(1) الفتح الرباني، ص:192.

أين رواياتك والقولُ في لزوم أبواب السلاطين؟
إن قلت: أُكْرِهْتُ، فماذا كذا زلَّ حمار العلم في الطين

وقلت:

مُحَيَّاكَ يَا عَالِمَ المُسْلِمِينَ سِراجٌ ومَعْلَمَةٌ في الطَّرِيقْ
أَنَرتَ العُقُولَ وصُغْتَ الفُهوم وَحُطْتَ الشَّريعَةَ دُونَ المُرُوق
رَفَعْتَ نِدَانَا وَصُنْتَ حِمَانَا وبِالرِّفْقِ تُمْسِكُ كفَّ الغرِيقْ

الــعــقـــــل

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾. أسألك تمام النعمة في الأشياء كلها، والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضى، والخِيَرَةَ في جميع ما يكون فيه الخِيَرة بجميع ميسور الأمور كلها لا بمعسورها يا كريم.

يكثر أن يتجادل خصوم الإسلام وأصدقاؤه والمؤمنون بالله في مكانة العقل في الإسلام، يطعن الأعداء في أصل الدين من كونه مناقضا للعقل، ويَدْفَعُ أصدقاء الإسلام من حيث كون التخلف العقلي راجع إلى تخلف المسلمين لا إلى الإسلام الذي أشاد بالعقل. ويقف المؤمنون مواقف متباينة مختلطة يغلب منها الموقف الدفاعي الممجِّد للعقل. ولا يقف المتجادلون ليسأل بعضهم بعضا عن أي عقل نتحدث.

وكما أن لفظة «علم» اكتسبت قدسية في قاموس الحضارة المادية الطاغية المعجبة التائهة بثمرات العلم، فكذلك لفظة عقل. العلم إذا أطلق في عصرنا فهو علم الأكوان من رياضيات وفيزياء وكيمياء وميكانيكا وكهرباء وإلكترونيات وما إليها. والعقل إذا أطلق فهو الآلة التي صنعت النظام العقلاني والمنهجية العلمية الاختراعية.

في حضارة الحواسِّ واللذة التي فَقَدَت منذ تنكرها للدين ورفضها له وجحودها بوجود الخالق جلّ وعلا كلّ إشارة إلى معنى وجود الإنسان وغايته ومصيره بعد الموت تحتل كلمتا «علم» و«عقل» صدر طابور القيم الصنمية الحضارية مثل «تنمية» و«اقتصاد» و«تمويل» و«اختراع» و«مواد أولية» و«سوق» و«استهلاك» و«تقدم» و«إحصاء» و«دخل فردي» و«مستوى معيشة» إلى آخر القاموس.

في حديثنا عن العقل ومرتبته في قاموس الإيمان والإحسان، قاموس القرآن، لابد أن نحدد أولا، انطلاقا من القرآن ورجوعا إلى القرآن معنى «عقل». بعد ذلك يسهل أن نُدرجه في مكان وظيفته حيث يشغل مكانته في حياة المسلمين.

العقل الذي تحدث عنه القرآن وأشاد به وعدَّله واستعمله شاهدا موثوقا لا يكذب، ليس هو العقل الصنم الذي يقرر من داخل منطق الكفر المادي ويمرِّرُ ويُعرِّف ما هو الحق من الباطل. بل هو العقل الذي يتفكر في الخلق، يتفكر في أن لابد للصنع العجيب الذي تشاهده الحواس من صانع. هذه واحدة. الثانية أن هذا العقل الـمُشادَ به في القرآن هو الملَكة التي يستدل بها المتفكرُ، اعتمادا على مسَبَّقات مغروزة في الفطرة، على أن هذا الصنع العجيب لا يمكن أن يكون صانعه الضروري عابثا. الثالثة أن هذا العقل يتدبر القضية الأولى والثانية ليستنتج منها نتيجة وجودية لا نتيجة فكرية منطقية باردة. يستنتج العقل المحمود في القرآن اهتماما حميما بالمصير الشخصيّ بعد الموت لأن الموت من المعطيات الكونية العامة المندرجة في النظام العجيب، المثيرة أكثر من غيرها للسؤال المحوري: هل كل هذا عبث؟

هذه الخصائص الثلاث هي المذكورة في قوله عز وجل من آخر سورة آل عمران: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**.[1]

طلب أولي الألباب العاقلين لربهم عز وجل أن يقيهم عذاب النار، جاء بعد مرحلة الاقتناع بأن لابد لكل صنعة من صانع، ومرحلة الاقتناع الفطري بأن كل صنعة لابد أن يكون لصانعها غاية من صنعها، ومرحلة الهم بالمصير بعد الموت الذي هو ألزم لوازم كل حي. جاء طلب الوقاية من عذاب النار استفادة من السمع الإيماني. عجز العقل الراشد المتدبر الحكيم عن معرفة كنه الصانع والغاية من الصنعة والمصير بعد الموت فلجأ إلى مصدر خارج عنه يَستقي منه العلم.

(1) آل عمران، : 191.

لجأ العقل الراشد إلى شخص جاءه بحجة دامغة مقنعة أنه أقوى وأقدر وأعلم. هذا الشخص هو الرسول المؤيد بالمعجزة، المخبر عن الخالق، المجيب عن الأسئلة الوجودية، المنادي للإيمان. قال العقل الراشد منيبا إلى الله بعد أن أعياه فهم المبادئ والغايات: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾[1].

أما العقل المتكبر فهو العقل الفلسفي الذي استمر في تخميناته فقدَّر ونظَّر وتقدم وأدبَر فأثبت وجود الخالق أو نفاه، وأثبت له سبحانه من عنده افتراء وظنا سيئا ما شاء من الصفات وسَلَبَ. وعاش هذا العقل الفلسفي في نسجه العنكبوتي يشيِّد منظومات ويقوض أخرى، ينتقد اللاحق ما قاله السابقُ، وينتقد نفسه وإفرازاته، ويتطور في صور «علم النفس» و«علم الاجتماع» و«علم التحليل النفسي» و«علم التاريخ» وسائر ما يسمى بالعلوم الإنسانية.

عقل ثالث حديث الميلاد هو العقل السفيه الجبار، جمع بين خصلتين كفيلتين بتدمير الأرض وساكنيها، عقل الاختراع والصناعة والفاعلية والتنظيم. هذا العقل السفيه هو صنم العصر ومطلب أصدقاء الإسلام والناطقين من المؤمنين.

هذا العقل يُخَيَّل للمتجادلين في العقل أنه هو الحقيقة الوسطى في التنزيل الحضاري، وأن لا مناص من أخذه كما هو سيدا مُطاعا معبودا. إذا كان في إسلامنا ما لا يتنافى مع «العقل» فلا بأس من التخفف من بعض أعباء الغيبية كأن نترجم الجن إلى لغة المكروبات، وأن ننكر المعجزة والكرامة، وأن نبقي الوحي ولوازم الوحي في ركن ساتر لكي لا تفضح غباوتَنا أنوار العقل.

العقل القرآني واقف على عتبة القلب، خادم مطيع، سامع لنداء المنادي للإيمان، تائب مستجير بربه عز وجل. نظر في الكون نظرتين فرجع خاسئا حسيرا كالاّ مهزوما لما هالهُ من عظمة الخلق الدالة على عظمة الخالق. قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ

(1) آل عمران، 193.

الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[1].

ونَظَرَ العقلُ الراشد إلى نفسه وضآلتها بإزاء الكون وفنائها فازداد إيمانا، بينما لا يزداد العقل السفيه إلا طغيانا كلما توغل في كشف السماوات والأرض. قال الله تعالى يخاطب العقلاء السفهاء: **﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾**[2]. أسكتَ العقلُ السفيه في عالمه سؤال اقتراب الأجل وانطلق على هواهُ و«موضوعيته العلمية» يسبح في الفضاء على متن صواريخه، أُفُقُه العشرون مليارا من السنوات الضوئية التي بلغها حسُّه الصناعي حتى الآن. ويفتح الله عز وجل بلاءه على من يشاء.

إن ترشيد العقل شرط مسَبَّق على كل عمل لتحوير الحضارة المادية إلى عمارة استخلافية. وإن مكتسبات العقل المخترع ليست سفاهة إلا إن استُعمِلت لأهداف سفيهة. ولا يجدي شيئا أن نحاور العقل المتكبر الفلسفي ولا العقل السفيه المخترع لنُلزمهما بحجة الإيمان ماداما لا يقبلان التحرك إلا في حدود منهجيتهما الممسوحة الممسوخة، لم يبق في منهجيتهما مكان لفطرة الاستدلال بالصنعة على الصانع، ولا لرفض أن يكون هذا الكون المحكم النظام عبثا، ولا لهمِّ المصير بعد الموت.

العقل الجبار والعقل السفيه يعتبران أن التكوين السليم والنظام السليم هو العقلانية الموضوعية الوضعية النفعية. الحديث معهما عن الغاية والمعنى ترفٌ فكري. وانفتاح أقطار السماوات والأرض في وجههما لا يرجعهما إلى شيء من الحسرة والانحسار بل يزيدهما غرورا وتوغلا في المجهول المعلوم. عَلِما وتعلّما الجواب عن الكيف والكم. وأصرا ويُصران عتوا واستكبارا على أنه لا إله ولا غاية ولا شيء بعد الموت.

---

(1) الملك، الآيات الأولى.

(2) الأعراف، 185.

لا يمكننا أن نقول للعقل المخترع الصانع المنظِّم السابح في الفضاء: «قف حتى نحاورك لتطيعَ وتذعن». الراشد الهزيل لا يُسمع له. يُرفض ما معه من الحق مع ما فيه من هزال. ولابد لنا من مباراة العقلانية وتحريرها من إلحادها، وترويضها، وغَنْمها، واكتساب العلوم والتكنولوجيا، وتوطينهما، والمساهمة في توجيههما، والتحكم فيهما لأهداف خير الإسلام وبر الإسلام. ومن مرتفع النماء والكَفَاء وعمارة الأرض تكون لنا جولات حوارية مع العقلين التائهين. المهمة مهمة عملية تتوقف على الإرادة السياسية، ليست مهمة جدل وحذلَقة.

قال الإمام أحمد الرفاعي قدس الله سره: «قال إمامنا الشافعي:

وكــل رياســة مــن غــير علــم أذلُّ مــن الجلــوس على الكُنَاســه

قال: العقل عاقل العلم. لا يتم شرف العلم للمخلوق إلا بالعقل. قال جماعة بإعلاء قدر العلم على العقل. ولكن ذلك بالنسبة إلى الله. لأن العلم صفته تعالى. والعقل صفة المخلوق. أما بالنسبة إلى علمنا وعقلنا فعقلنا أجلُّ مرتبة وأرفع منزلة من علمنا، إذ لولا العقل لما تم لنا العلم. العاقل يكبو ويُصرَع، ولكن يؤمل له النجاح ويرجى له الخير. العاقل من فهم حكمة الدين. بلغنا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه أنه قال: كل عقل لم يَحْظَ بالدين فليس بعقل، وكل دين لم يحظ بالعقل فليس بدين. هذا الدين أتى بأحكام أَلْزَمنا الـمُبَلِّغُ عليه الصلاة والسلام العملَ بها ووعد وأَوْعَد. فإذا تريض العقل بالعمل والاجتناب يصل إلى الإحاطة بسر الوعد والوعيد.

«أي سادة! تفكروا هل من عقل ذكي قــرَّ بطبع سليم يجهل حكمة الأوامر والنواهي الدينية ويردها. لا والله! بل كل عاقل ذكي العقل سليم الطبع تعكُف أشعَّةُ عقله على عَتبة باب الأمر والنهي علما بجمعها بين خيري الدنيا والآخرة».[1]

وخاطب الشيخ عبد القادر رحمه الله جهالا لم يجلس عقلهم على عتبة باب الأمر والنهي فهم عبيد للهوى و«القيم الاستهلاكية»، فقال: «اسمعوا واعملوا يا

(1) البرهان المؤيد، ص:49.

جهالا بالحق عز وجل وأوليائه! يا طاعنين في الحق عز وجل وفي أوليائه! الحق هو الحق عز وجل، والباطل أنتم يا خلق! الحق هو في القلوب والأسرار والمعاني، والباطل في النفوس والأهوية والطباع والعادات والدنيا وما سوى الحق عز وجل. هذا القلب لا يُفلح حتى يتصل بقرب الحق عز وجل القديم الأزليِّ الدائم الأبديِّ. لا تزاحم يا منافق فما عندك خبر من هذا! أنت عبد خبزك وأدَمِكَ وحلاوتك وثيابك وفرسك وسلطانك!

«القلب يسافر عن الخلق إلى الخالق، يرى في الطريق الأشياء، يسلم عليها ويجوز. العلماء العمال بعلمهم نوّاب السلفِ وبقية الخلَف. هم مقدمون بين أيديهم يأمرون بالعمران في مدينة الشرع، وينهون عن خرابها (...) وقد مثل الله عز وجل العالم الذي لا يعمل بعلمه بالحمار في قوله: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾[1]. الأسفار هي كتب العلم. هل ينتفع الحمار بكتب العلم؟ ما يقع على ظهره منها سوى التعب والنصب.

«من ازداد علمه ينبغي أن يزداد خوفه من ربه عز وجل وطواعيته له. يا مُدعي العلم! أين بكاؤك من خوف الله عز وجل؟ أين حذرك وخوفك! أين اعترافك بذنوبك! أين مواصلتك للضياء بالظلام في طاعة الله عز وجل! أين تأديبك لنفسك ومجاهدتُها في جانب الحق عز وجل!».[2]

وقال عاقل عالم مناج متقرب إلى ربه عز وجل يبتغي إليه الوسيلة:

أقام رجالا نظموا حبّه سِلْكا وأقعد قوما في خطاياهمُ هَلْكى
ألا ليت شعري هل لنا من وسيلة تقرب منا ما نؤمِّله منكا!
وإن أنت لم تُبرئ شكايا عقولنا وتَجْلُ عماياها إذن فلِمَنْ يُشكى؟
نعوذ بك اللهم من كل فتنة تطوِّق من حلت به عيشَةً ضَنْكا
فما ذكرتك النفس إلا وَشفَّها بُكائيَ من نفسي، على مثلها يُبْكى

(1) الجمعة، 5.

(2) الفتح الرباني، ص: 67.

رجعنا إليك الآن فاقبل رجوعنا   وقلِّب قلوبًا طال إعراضُها عنْكا
وقد آثرت نفسي رضاك وقطَّرت   عليك جفوني من جواهرها سِلْكا

وقلت:

خَـــاطَبَتْ آيَـــاتُ رَبِّـــي   لُـــبَّ قـــومٍ يَعْـقِـلُـــونْ
مـــا لأهـــلِ الكُفْـرِ قَلْـبٌ   عَـــاقِـــلٌ، لا يَهْـتَـدُونْ
الهُـدَى طَاعَـةُ مَـــا جَـــاءَ   بِـــهِ الـوَحْـيُ المبِيـــنْ

الرؤيا الصالحة

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾. اللهم هب لي إيمانا ويقينا ومعافاة ونية.

يهاجم العقلانيون الإيمان بالغيب وينسبون إليه تخلفَ العقل المسلم وخرافيته وجناية المنامات والحكايات وكتب المناقب المحشوة بالكرامات على توازن الوعي العام عند المسلمين. والحل عندهم هو قطع مادة الخرافية من أصولها وتبني النظرة الوضعية المادية. ومن هنا جاءت محاولات أصحاب «الإصلاح» الذين أنكروا المعجزات، وأوّلوا وجود الجن، وهوّنوا من شأن النبوءة والوحي حتى جعلوها نوعا من فطرة النمل والنحل والحشرات. وهذا تخريب للدين من قواعده. فلا عقلانية الكفار اكتسبنا، ولا ديننا حفظنا. وما قيمة عقلانية فاعلة في العالم إن خسرنا آخرتنا وضيعنا أمانة الرسالة التي وُكِل إلينا حملُها؟

إن جناية المنامات والحكايات على العقل المسلم جنايةٌ حقيقيّة في صفوف العوام. ولمّا تقلَّصَ ظل العلماء وضعفت إفاداتهم التربوية راجت الخرافة ونَفَقَتْ في أسواق العِرافة والشعوذة والسحر وتعبير المنام، يتصدّى لتعبيره بالرأي الكالِّ والفهم السقيم والنية الكاذبة كل من هب ودب، وتُبنى عليه العزائم والأعمال، ويَفْصِل في الأمر العويص ظهورُ شبحِ شَيْخٍ لحالم مُتبَرِّعٍ أو لـمُتحلِّم محترف.

وكان للشيطان، ولا يزال، الحفلةُ الكبرى في خطوطه الهاتفية، يوحي إلى أوليائه في المنام ما عجز عن تفهيمه لبلداء أنصاره وأتباعهم في اليقظة.

الرؤيا الصالحة كرامة تتميز عن الاستدراج النفسي وعن التلاعب الشيطاني. الرؤيا الصالحة للرجل الصالح يراها أو يراها له صادق، حادثة في غاية الأهمية

والدّلالة على واقع الإيمان في قلبه، وموهوب الهداية الربانية له، وعاجل البشرى بالفلاح والنجاح والزُّلْفى عند الله تعالى وتقدس.

وقد كان للرؤيا الصالحة في حياة الأنبياء عليهم السلام ما قصه الله عز وجل علينا في كتابه العزيز. فرؤياهم وحيٌ، وتنفيذ ما يوحى إليهم مناما صدق لعصمتهم من الشيطان. قال الله تعالى عن عبده إبراهيم لما صدق رؤيا ذبح ولده وبدأ في التنفيذ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح والمرأة قد تقع في الاعتبار إلى مقام الإحسان كما تدل على ذلك الآية. رؤيا إبراهيم عليه السلام الإحسانية كانت متعلقة بأمر إلهي كوني يتضمن ابتلاء عظيما ابتلي به الرسول الكريم في ولده، فاقتحم العقبة، عقبة الطبع والعادة والحنان الأبوي. أما في الأفراد المؤمنين فالرؤيا الصالحة الكونية المخبِرة بأنه وقع كذا أو سيقع كذا فقد تتضمن بلاء أو تقترح خيارا، وقد يكون لها شأن عظيم في حياة الأمة، كما كان لرؤيا الملك في سورة يوسف، لكنها ليست من الإحسان في شيء، لأن الرؤيا الكونية الـمُطابقةَ لواقع مضى أو لواقع مستقبل يستوي في تلقيها المؤمن والكافر، وتختلط منابعُها من أعماق النفس البشرية الجارية على قدَر إلهي من معانيه ومقاصده الرئيسية ابتلاءُ العباد.

الرؤيا الإحسانية هي التي تبشر العبد الصالح بالقرب من ربه عز وجل، وتريه وجه رسول الله ﷺ، وتُسمعه منه ومن عباد الله الصالحين إشارات الفوز، وتمثل له النجاة من العذاب والانضواء تحت لواء الأخيار الأبرار.

كان رسول الله ﷺ يعقد كل صباح بعد صلاة الفجر مجلسا يسأل فيه أصحابه عن رؤاهم فيعبرها، أو يقص عليهم رؤاه وهي وحي يتعلمونه على أنه الحق الصريح أو المضروب مثلا. عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان مما يكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأى أحد منكم رؤيا؟» الحديث. أخرجه البخاري في صحيحه في «كتاب التعبير»، باب «تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح».

(1) الصافات، 105.

كانوا يقصون على الحبيب ﷺ ما شاء الله فيعبِّر ويؤول ويوجه ويربّي. وكان يعظم لأصحابه أمر الرؤيا الصالحة غاية التعظيم، فيقول: «رؤيا المؤمن كلام يكلم به العبدَ ربه في المنام». رواه الطبراني عن عبادة بن الصامت بإسناد صحيح. ويقول ﷺ: «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة». أخرجه الشيخان عن أنس. وذهب بعض الشراح إلى أن نسبة الجزء من ستة وأربعين جزءا هي نسبة الستة أشهر الأولى من بعثته ﷺ التي كان الوحي إليه فيها مقتصراً على رؤيا المنام إلى مدة نبوته وهي ثلاث وعشرون سنة. وهذا تفسير واهٍ كما تدل على ذلك الأحاديث التالية التي تبين أن الرؤيا الصالحة الإحسانية النورانية وحي إلهي وكلام إلهي حقيقي إلى العبد الصالح بتصريح يحمل البشرى أو تلميح يوحي بها ويحتاج إلى تعبير.

وورد في أحاديث أخرى أن الرؤيا الصالحة جزء من سبعين، وغير ذلك، وروى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات» قالوا: «وما المبشرات؟» قال: «الرؤيا الصالحة». وأخرج الإمام أحمد عن أبي الدرداء وعن عبادة بن الصامت من طريقين أن رسول الله ﷺ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾[1]. قال ﷺ: «الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له». وكذا روى ابن جرير وأبو داود الطيالسي.

كان الصحابة رضي الله عنهم، لما سمعوا من البشارة العظمى ببقاء هذا الجزء من النبوة، يهتبلون بالرؤيا الصالحة وينتظرون ويحتفلون. كيف لا وقد جاءهم الوعد ببقائه بعد حزن وشدة. أخرج الترمذي عن أنس بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي». فشق ذلك على الناس. فقال: «لكن المبشرات» فقالوا: يا رسول الله! وما المبشرات؟ قال: «رؤيا المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة».

---

(1) يونس، 62-64.

قال سيدنا عبد الله بن عمر: «إن رجالا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يرون الرؤيا على عهد رسول الله ﷺ فيقصونها على رسول الله ﷺ، فيقول فيها رسول الله ﷺ ما شاء الله. وأنا غلام حديث السن، وبيتي المسجد قبل أن أَنْكِحَ. فقلت في نفسي: لو كان فيك خير لرأيت مثل ما يرى هؤلاء !». رواه البخاري عن ابن عمر، وذكر رؤيا لعبد الله بن عمر مؤداها أنه سلم من عذاب النار. فقصها على أخته أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها، فقصتها على رسول الله ﷺ فقال: «إن عبد الله رجل صالح».

هكذا إذن كان الصحابة يحتفلون بوحي المنام، وهكذا يعتبره الصالحون كرامة، ويعتبرونه كما اعتبره عبد الله بن عمر شهادة من الله عز وجل وبراءة ومنشورا على أن العبد الرائي أو المرئِيَّ له «فيه خير».

إن دواوين الحديث تخصص كتابا للرؤيا الصالحة، أو «كتاب التعبير» دلالةً على أن هذا الجزء المقدس الباقي من النبوءة من صُلب الدين لا من هوامشه. ويروي المحدثون آداب الرؤيا، وأنواعها، وما يفعله من حَزَنَه الشيطان برؤيا سوء، وضرورة تعبيرها. وما زال المسلمون في كل عصر يرجون ويضرعون إلى الله عز وجل في رؤيا المصطفى ﷺ، ويقص بعضهم على بعض رؤياه وبشارتَه لزيد وعمرو من الناس جيلا بعد جيل. وتمتلئ كتب المناقب وصحف الصوفية برؤيا الأموات يقصون ما لقوا في الآخرة وما فعل الله بهم. فيَعتبر بذلك المعتبر، ويتوب التائب.

الرؤيا الصالحة بقية صالحة في هذه الأمة ووصْلة دائمة بالغيب. يقابلها ما نراه عند الشيطانيين والمشركين من استعمال للأحلام في استكناه المغيبات، والتطلع الفضولي لما سيقع، وتفسير الشخصية الإنسانية وغوامضها كما يزعم ذلك فرويد اليهودي ومدارس التحليل النفسي.

وقد ذخر الله رب العزة للاحقين من هذه الأمة ذُخْرَ الرؤيا الصادقة لتكون لهم مذكرة حاضرة ليرجعوا عن إسلام الفكر والثقافة إلى الإسلام الكامل الشامل الذي يكون الإيمان بالغيب والتعامل مع الغيب بميزان الشرع ركنه الركين. روى

الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب». قال بعض الشراح: اقتراب الزمان هو استواء الليل والنهار في الربيع والخريف. وهذا ليس بشيء، وإنما المقصود تقوية المتأخرين من هذه الأمة بالتأييدات الغيبية مثل الرؤيا الصادقة، كما يشهد لهذا ظهور الكرامات في جهاد أفغانستان ظهورا لم يسبِق له مثيل منذ عهد الصحابة.

وإلى هذا التفسير ذهب الإمام ابن القيم حيث قال: «وهي (الرؤيا الصادقة) عند اقتراب الزمان لا تكاد تُخطئ كما قال النبي ﷺ: وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها. فيتعوَّض المؤمنون بالرؤيا. وأما في زمن قوة نور النبوة ففي ظهور نورها وقوَّته ما يغني عن الرؤيا. ونظيرُ هذا الكرامات التي ظهرت بعد عصر الصحابة ولم تظهر عليهم لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم واحتياج من بعدهم إليها لضَعف إيمانهم».[1]

عن ضعف الإيمان وطريق تقويته حدِّثنا أيها الشيخ الجليل عبد القادر. يقول رحمه الله: «اهرُب من الفاسقين والمنافقين، والتحق بالصالحين الصدّيقين. إذا أشكل عليك الأمر ولم تفرق بين الصالح والمنافق فقم من الليل، وصل ركعتين ثم قل: يا رب دلني على الصالحين من خلقك. دلّني على من يدلني عليك، يُطعمني من طعامك، ويسقيني من شرابك، ويَكْحُل عين قلبي بنور قربك، ويخبرني بما رأى عيانا لا تقليدا. القوم أكلوا من طعام فضل الله عز وجل، وشربوا أُنسَه، وشاهدوا باب قربه. لم يقنعوا بالخبر، بل جاهدوا وصابروا وسافروا عنهم وعن الخلق حتى صار الخبر عندهم عيانا. لما وصلوا إلى ربهم أدبهم وهذبهم وعلمهم الحِكم والعلوم. أطلعهم على ملكه، وعلمهم أن ليس في السماء والأرض غيرُه، ولا مُعطي غيرُه، ولا مانع غيرُه، ولا محرك ولا مسكِّن غيرُه، ولا مقدِّر ولا قاضِيَ غيرُه، ولا مُعز ولا مذلَّ غيرُه، ولا مسلِّط ولا مسخِّر غيرُه، ولا قاهر غيرُه.

«يريهم ما عنده، فيرونه بأعين قلوبهم وأسرارهم، فلا يبقى للدنيا ومُلكها عندهم قدر ولا وزن. اللهم أَرِنا كما أريتهم من العفو والعافية».[2]

(1) مدارج السالكين، ج 1، ص:50.

(2) الفتح الرباني، ص:119.

وقال رحمه الله: «ما أراكم تفقهون ما أقول! عليكم بدلالات التوحيد والإصغاء إلى كلمات الصديقين والأولياء. كلامهم كالوحي من الله عز وجل. ينطقون عنه وبأمره من وراء مأمور العوامِّ الطَّغامِ. أنت هَوَسٌ! تؤلف كلامك من الكتب وتتكلم به. إن ضاع كتابك ما تصنع؟ أو وقع الحريق في كتبك؟ أو انطفأ مصباحُك الذي تبصر به؟ إذا انكسرت جرّتك وتبدد الماء الذي فيها؟ (...)

«تنحّوْا يا أبناء اللقلقة، يا أبناء الصُّحف المؤلفة بأيدي النفوس والأهوية. ويلكم! تنازعون المخصوص! تَنقصون وتهلكون! ولا تبلغون حظكم! كيف تتغير السابقة والعلم بجُهدكم! كونوا مؤمنين مسلمين (...).

«القوم استطرحوا بين يدي الحق عز وجل، ونسوا لِمَ وكيف وافعلْ ولا تفعل. يعملون أنواع الطاعات وهم وقوف على قدم الخوف. ولهذا وصفهم الله عز وجل فقال: ﴿**يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ**﴾[1]. يمتثلون أوامر الله عز وجل، وينتهون عن مناهيه. ويصبرون على بلائه، ويشكرون على عطائه، ويسلِّمون أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأعراضهم إلى يد سابقته وقلوبهم وجلة خائفة منه. العارف إذا زهد في الآخرة يقول لها «تَنَحَّيْ عني فإني طالب باب الحق عز وجل. أنتِ والدنيا عندي واحد! الدنيا كانت تحجبني عنكِ وأنتِ تحجبينني عن ربي عز وجل! لا كرامة لكل من يحجبني عنه!»[2]

قال زاهد متشوق إلى معرفة حاله عند الله عز وجل:

إلهـي أرجـو العفـو منك تكرمـا   فإنـك مـولىً لا تخيِّـبُ عبدكـا
فياليـت بشْـرَى لـو أتتني في الكَـرَى   فأعلـم منهـا كـيف حـاليَ عندكـا

(1) المؤمنون، 60.
(2) الفتح الرباني، ص:292.

وقال مشتاق مبتلى:

بَكَيْـت، ودمـع العـين للنفس راحة ... ولكـنَّ دمع الشـوق يُنْكـى به القلـب
وذكـري لما ألقـاه ليس بنـافعي ... ولكنـه شـيء يهيـجُ بـه الكَـرْبُ
فلو قيل لي: ما أنت؟ قلت: مُعذَّب ... بنـار مـواجـيد يُضَرِّمُهـا العَتْـبُ
بُليت بمن لا أستطيع عِتـابـه ... ويُعْتبـني حتى يقـال: لِـيَ الذَّنْـبُ

وقال وامقٌ مفارق لشائق:

قـف بالديـار فهـذه آثـارهـم ... تُبكـي الأحبـة حسـرة وتشـوّقـا
كـم قـد وقفـتُ بهـا أُسـائل مُخـبرا ... عـن أهلهـا أو صادقـا أو مشفقـا
فأجابنـي داعـي الهـوى في رَسْـمِها ... فـارقـت مـن تهـوى فَعـزَّ الملتقـى

وقلت:

هُـبَّ مِنْ سَـكْرَةِ الكـرَى يَـا أُخَي ... أَنْـتَ فِـي مَـدْرَجِ الخَطَـا والهُـوِيِّ
غَـفْلَـةٌ عَنْ نِـدَاءِ رَبٍّ كَرِيـمٍ ... وَخُمـولٌ فِـي قَبْـضِ حُكْـمٍ رَدِيِّ
قُمْ وَأَبْشِـرْ فَـإِنَّ وَعْـدَ إِلَهِـي ... زُفَّ فِـي الوَحْـيِ لِلأَمِـينِ القَـوِيِّ

عين القلب

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء الْحَمْدُ لِلّهِ﴾. اللهم إني أعوذ بك أن تأخذني على غرة أو تذرني في غفلة أو تجعلني من الغافلين.

القلب المؤمن حاسة دقيقة جامعة تصبح آلة لتلقي العلم واستبصار المعلومات واستشفاف المغيَّبات على غاية من اللطف بعد أن يبرأ القلب من أمراضه في مِصحة التربية، وبعد أن تعنى به يدُ الصحبة، ويصقُله الذكر ويكشف الله عز وجل عنه غطاءه، ليجد ما وُعد الصادقون بإخلاص النية من قدم الصدق المكتوبة في سابقة علم الله تعالى.

ما كل المؤمنين يُعطاهم من الفتح القلبي بمقدار ما تنكشف الحجبُ للعين القلبية. وقد يكون طلب الفتح والتعلق به والتماسه بالدعاء والتضرع والأذكار الخاصة حجابا عن الله عز وجل وفتنة. فإن طلب المزيد من العلم، وإن كان مشروعا محمودا ومأمورا به في القرآن في قوله تعالى لحبيبه محمد ﷺ: ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾[1]، قد يصرفُ طالب الحق مريد الله عن وجهته، فإذا هو قد زاغ عن قبلة الطلب، وهي وجه الله، إلى الحظوظ النفسية والمتاهات الكونية، فيكون من الهالكين.

وإن من أعداء الله عز وجل ومن كافة المشركين من يفتح الله سبحانه عليهم عوالـمَه الكونية فيطَّلعون على ما شاء ابتلاؤه وكيدُه ومكرُه منها، فيغرقون في مشاهدة حقائقها، ويُصرفون عن طلب الحق وعن عالم النور إلى عالم الظلمات الكونية. هؤلاء هم أصحاب الرياضات من يوكيين وغيرهم. ويسمَّى الفتح عليهم فتحا

(1) طه، 114.

ظلمانيا. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة له عنوانها «الظاهر والباطن». «طوائف كثيرة آل الأمر بهم إلى مشاهدة الحقيقة الكونية القَدَرية، وظنوا أن من شهدها سقط عنه الأمر والنهي والوعد والوعيد، وهذا هو دين المشركين».[1]

أما أحباب الله، ممن شاء الله أن يكشف عنهم الغطاء، فإن عناية المولى الكريم سبحانه تسلكُ بهم فِجاج مشاهدة «الحقيقة الكونية القدرية» ويتجاوزون مخاطرها وإغراءها، لا يقفون مع شيء دون الله عز وجل. شعارُهم دائما كما يقول الشيخ عبد القادر: وإنك لتعلم ما نريد.

لنسمع إلى أهل الفن في الموضوع لكيلا يتوهم المتوهم أن الفتح والكشف وعجائب القلب حديثُ خرافة، أو أن مبالغة الصوفية ومجازهم وكنايتهم ولغتهم الغامضة سَبْحُ خيالٍ. وقد استَدْعَيتُ للشهادة في الموضوع إماما يحظى بالثقة لأنه هو نفسه لا ينتمي إلى الصوفية وإن كان يعترف ويفتخر ويتحمَّد «بالقدر المشترك» بينه وبينهم. وسترى أن صاحب «القدر المشترك» أبلَغُ بيانا وأشدُّ حرصا وأثبت كلمة في التأكيد على وقائع الفتح، وعلى طَوْرِ ما وراء الحسِّ والعقل. نستمع أولا إلى إمام صوفي، وبعده إلى الإمام المشارك ابن القيم.

قال الإمام الغزالي: «الإيمان بالنبوة أن يقِرَّ بإثبات طور ما وراء العقل، تنفتح فيه عينٌ يدرك بها مدرَكات خاصة. والعقل معزول عنها كعزل السمع عن إدراك الألوان، والبصر عن إدراك الأصوات، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات».[2]

وقال: «ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب، وما سيكون في المستقبل، وأمورا أخرى العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز».[3]

(1) الرسائل المنيرية، ص:251.

(2) المنقذ من الضلال، ص:70.

(3) نفس المصدر، ص:57.

يقول الغزالي هذا في إثبات النبوة والفتح الخاص بالأنبياء عليهم السلام. وله في «الإحياء» حديث طويل عن فتح الأولياء وما يُعطاهم من العلم اللدنيِّ القلبي قامت عليه بسببه قيامة المكذبين منذ تسعة قرون. أما شيخ الإسلام ابن تيمية فرغم نقده للغزالي في مسائل عقلية ونقلية فإنه يتفق معه اتفاقا تاما أو يكاد في أصول المسائل القلبية. ويقول: «أنكر عليه (على الغزالي) طائفة من أهل الكلام والرأي كثيرا مما قاله من الحق، وزعموا أن طريقة الرياضة وتصفية القلب لا تؤثر في حصول العلم. وأخطأوا أيضا في هذا النفي. بل الحق أن التقوى وتصفية القلب من أعظم الأسباب على نيل العلم».[1]

وقال شيخ الإسلام ابن القيم: «فإذا صارت صفات ربه (أي الولي المتقرب بالفرض والنفل حتى يحبه الله) وأسماؤه مشهدا لقلبه أنسته ذكر غَيره، وشغلته عن حب ما سواه (...). فحينئذ يكون الرب سبحانه سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. فبه يسمع، وبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي كما أخبر عن نفسه بلسان رسوله. ومن غَلُظَ حجابه، وكثُفَ طبعُه، وصَلُب عوده، فهو عن فهم هذا بمعزل (...). وبالجملة فيبقى قلب العبد الذي هذا شأنه عرشا للمثل الأعلى، أي عرشا لمعرفة محبوبه ومحبته وعظمته وجلاله وكبريائه. وناهيك بقلب هذا شأنه! فيا له من قلب من ربه ما أدناه! ومن قُربه ما أحظاه! فهو ينزه قلبه أن يساكن سواه أو يطمئن إلى غيره. فهؤلاء قلوبهم قد قطعت الأكوان وسجدت تحت العرش، وأبدانُهم على فرشهم كما قال أبو الدرداء: إذا نام العبد المؤمن عُرِجَ بروحه حتى تسجد تحت العرش».[2]

وقال رحمه الله: «ينجذب (المريد) إليها (الآخرة) بالكلية، ويزهد في التعلقات الفانية، ويدأب في تصحيح التوبة والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة (...). فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه وطلبه والشوق إليه. فإذا صدق

(1) الرد على المنطقيين، ص:511.

(2) طريق الهجرتين، ص:264.

في ذلك رُزِق محبة رسول الله ﷺ واستولت روحانيته على قلبه (...). فإذا رسخ في ذلك فُتِح له في فهم الوحي المنزل (...) فإذا تمكن من ذلك انفتح في قلبه عينٌ أخرى، يشاهد بها صفات الرب جل جلاله، حتى تصير لقلبه بمنزلة المرئي لعينه. فيشهد عُلُوَّ الرب سبحانه فوق خلقه، واستواءه على عرشه، ونزول الأمر من عنده بتدبير مملكته، وتكليمه بالوحي، وتكليمه لعبده جبريل به، وإرساله إلى من يشاء بما يشاء، وصعود الأمور إليه، وعرضها عليه».[1]

وقال رحمه الله: «إن الله سبحانه جعل في العين قوة باصرة، كما جعل في الأذن قوة سامعة، وفي الأنف قوة شامة، وفي اللسان قوة ناطقة وقوة ذائقة (...). وأما معاينة القلب فهي انكشاف صورة المعلوم له، بحيث تكون نسبتهُ إلى القلب كنسبة المرئي إلى العين. وقد جعل الله سبحانه القلب يُبصر ويَعْمَى. قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[2]. فالقلب يرى ويسمع، ويعمى ويَصِمُّ، وعماه وصممُه أبلغ من عمى البصر وصممِه».[3]

وقال رحمه الله: «المعاينة نوعان معاينةُ بصر ومعاينة بصيرة. فمعاينة البصر وقوعُه على نفس المرئي أوْ مثالِه الخارجي كرؤية مثال الصورة في المرآة والماء. ومعاينة البصيرة وقوع القوة العاقلة على المثال العلمي المطابق للخارجي. فيكون إدراكه له بمنزلة إدراك العين للصورة الخارجية. وقد يقْوَى سلطان هذا الإدراك الباطن بحيث يصير الحكم له، ويقوى استحضاره القوة العاقلة لمدركها بحيث يستغرق فيه، فيغلب حكم القلب على حكم الحس والمشاهدة. فيستولي على السمع والبصر بحيث يراه ويسمع خطابه في الخارج وهو في النفس والذهن. لكن لغلبة الشهود وقوة الاستحضار وتمكُّنِ حكم القلب واستيلائه على القوى صار كأنه مرئيٌّ بالعين، مسموع بالأذن. بحيث لا يشك المدرك ولا يرتاب في ذلك البتَّةَ، ولا يقبل عذلا».[4]

(1) مدارج السالكين، ج 3، ص:268.

(2) الحج، 46.

(3) مدارج السالكين، ج 3، ص:246.

(4) نفس المصدر، ص:248.

وقال رحمه الله: «فمن فتح الله بصيرة قلبه وإيمانه حتى خرقها وجاوزها إلى مقتضى الوحي والفطرة والعقل فقد أوتي خيرا كثيرا، ولا يخاف عليه إلا من ضَعف همته. فإذا انضاف إلى ذلك الفتح همة عالية فذاك السابق حقا، واحدُ النّاس بزمانه، لا يُلحق شَأْوُهُ، ولا يُشَقُّ غبارهُ. فشتان ما بين من يتلقى أحواله وارداته عن الأسماء والصفات وبين من يتلقاها عن الأوضاع الاصطلاحية والرسوم (قلت: يعني شتان ما بين أرباب الصدور والمتصفحين للسطور!) أو عن مجرد ذَوْقِه وَوَجده، إذا استحسن شيئا قال: هذا هو الحق!

«فالسير إلى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجَب، وفتحه عجب. صاحبه قد سبقت له السعادة وهو مستلق على فراشه غير تعبٍ ولا مكدود، ولا مشتّت عن وطنه، ولا مشرد عن سكنه».[1]

هذه كلمات قوم سلكوا الطريق وتركوا وصفا للمَشاهِدِ عسى يكون من بعدهم من يصدق الله ورسوله في وعد الله ورسوله لأولياء الله، ابتداء من مطالعة ما مَنَّ به الملك الوهاب على العباد.

يقول الطود الشامخ في أرض الولاية وسمائها الإمام عبد القادر قدس الله سره: «يا غلام! ليكن الخرَسُ دأبك، والخمولُ لباسَك، والهرب من الخلق كلَّ مقصودك. وإن قدرت أن تنقب في الأرض سِرْبا تَخْفى فيه فافعل. يكون هذا دأبَك إلى أن يترعرع إيمانُك، ويقوى قدمُ إيقانك، ويتريَّشُ جناحُ صدقك، وتنفتح عينا قلبك فتُرفَع من أرض بيتك، وتطير إلى جو علم الله. تطوف المشرق والمغرب، البَر والبحر، والسهل والجبل. تطوف السماوات والأرضين وأنت مع الدليل الخفير الرفيق. فحينئذ أَطلِق لسانك في الكلام، واخلع لباس الخمول، واترك الهرب من الخلق، واخرج من سِرْبِك إليهم، فإنك دواء لهم غير مُسْتَضَرٍّ في نفسك. لا تبالِ بقلتهم وكثرتهم، وإقبالهم وإدبارهم، وحمدهم وذمِّهم. أين سقطتَ لَقَطْتَ، أنت مع ربك عز وجل».[2]

---

(1) طريق الهجرتين، ص:206.

(2) الفتح الرباني، ص:48.

وقال رحمه الله: «الصدِّيق إذا فرغ من تعلم العلم المشترك (علم السطور) أدْخِل في العلم الخاص، علم القلوب والأسرار. فإذا تمكن في هذا العلم صار سلطان دين الله عز وجل، يأمر وينهى، ويعطي ويمنع بإذن مُسلطِنِه».

وقلت: وهذا معنى التصريف والفعل بالهمة. وقد مر كلام ابن تيمية الخبير بالموضوع. ومعنى الخلافة في الأرض في حق الكمل من الأولياء. وهذا لا يدركه إلا «واحد الناس بزمانه» كما مرت عبارة ابن القيم.

قال: «يصير سلطانا في الخلق، يأمر بأمر الله عز وجل، وينهى بنهيه (...). العارف واقف بباب الحق عز وجل وقد سلم إليه علم المعرفة والاطلاع على أمور لم يطلع غيره عَليها».[1]

وقال رحمه الله: «العارف المقرَّب يُعطَى أيضا نورا يَرى به قربه من ربه عز وجل. ويرى قرب ربه عز وجل من قلبه. يرى أرواح الملائكة والنبيئين وقلوب الصديقين وأرواحهم. يرى أحوالهم ومقاماتهم. كل هذا في سويداء قلبه، وصفاء سره. هو أبدا في فرحه مع ربه عز وجل. هو واسطة يأخذ منه ويفرق على الخلق. منهم من يكون عليم اللسان والقلب، ومنهم من يكون عليم القلب ألْكَنَ اللسان. وأما المنافق فهو عليم اللسان ألْكَنُ القلب».[2]

وقال رحمه الله: «اسمعوا هذا الكلام فإنه لب علم الله عز وجل، لب إرادته من خلقه وفي خلقه، وهو حال الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين. يا عباد الدنيا ويا عباد الآخرة! أنتم جهال بالله عز وجل وبدنياه وبآخرته! أنتم حيطان! أنت صنمك الدنيا! وأنت صنمك الآخرة! وأنت صنمك الخلق! وأنت صنمك الشهوات واللذات! وأنت صنمك الحمد والثناءُ وقبول الخلق لك! ما سوى الله عز وجل صنم. القوم يريدون وجه الله. الدنيا والآخرة موكَلَتان على باب الحق عز وجل، موكلتان في دار الطبيب، يأخذ منهما ما يريد ويطعم المريض. يا منافقون! ما

(1) الفتح الرباني، ص:182-183.
(2) الفتح الرباني، ص:254.

عندكم من هذا خبر! المنافق لا يقدر يسمع حرفا من هذا،لأنه لا يقدر على سماع الحق. كلامي حق، وأنا على الحق.كلامي من الله عز وجل لا مني، من الشرع لا من الهوَس. ولكن آفة فهمك السقيم!

«ويحك تعلمت وما عملت بعلمك، فكيف ينفعك علمُك! ما خدمت الشيوخَ في حال شبابك، فكيفَ تُخدم في حال كبرك!»[1]

قال محب مشتاق للقاء ربه وهو سمنون المحب:

أنت الحبيب الذي لا شك في خَلَدي ... منه، فإن فقدتك النفسُ لم تَعِشِ

يا معطـــشي بوصالٍ أنت واهبُــه ... هل لي إلى راحة إن صحتُ:واعطشي!

وقال رحمه الله:

أمســى بخـدّي للدمــوع رســوم ... أسفــا عليـك وفي الفــؤاد كُلــوم

والصبر يَحْسُنُ في المصائب كلِّها ... إلا عليــك فإنــه مـذمــوم

وقال رحمه الله:

كــان لـــي قلــب أعيــش بــه ... ضـــاع منـــي في تقلُّبـــــه

ربِّ فـــاردده علـيَّ فقـــد ... ضـــاق صــدري في تطلبـــه

وأغِـــثْ مـــادام بـــي رَمَــق ... يـــا غِيَـــاثَ المستغيث بِـــه

وقلت:

مِـنْ نَـدَاكَ كَـــانَ لِـي طَلَـبٌ ... عَـــينُ قَلْـــبي تُفَـتِّـحُـهَـــا

ربِّ والنصـــــرُ تُعْجِلُـــــهُ ... وَأُمُـــــورِيَ تُنْجِـحُـهَـــا

وَصُـــــدُورُ أَحِبَّـتِـنَـــا ... رَبِّ لِلْبِـــــرِّ تَشْـرَحُـهَـــا

(1) الفتح الرباني، ص:293.

الفراسـة

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. اللهم اجعل عملي صالحا، واجعله لك خالصا، ولا تجعل لأحد فيه شيئا.

الفراسة ومضاتٌ من إدراك القلب المتطهر يطلع بواسطتها على مخفيات الضمائر. وهي من مراتب الهداية القلبية كالإلهام والرؤيا الصادقة والمخاطبات الخاصة بالأولياء والكشفِ وما إلى ذلك مما اصطلح عليه أهل هذا الشأن.

الفِراسة فروسية الضمائر، هي كرامة للولي، وقد تكون عليه فتنة، لذلك يستعيذ الصالحون مما يسمونه «الكشف الشيطاني»، وهو انكشاف ما يفعله الناس وراء الجدران لعين القلب فيطلع على ما أمر الله به أن يستر. أما أصحاب الرياضات والشيطنة فهذا الكشف هو بغيتهُم وغايةُ أملهم نعوذ بالله. وللمشركين والملحدين من «علماء» الباراسيكولوجيا اهتمام شديد بقراءة الضمائر، يسمونها «تِلِباثِي»، يرجون أن يقننوها لتصبح سلاحا يستخدم في الاستعلامات العسكرية. ويعكُف متخصصون مزوّدون بميزانيات عريضة، في أمريكا وروسيا، على إجراء تجارب للسباق إلى إحراز النجاح. لا جَرَم أن تنتهج المادية الإلحادية مناهج الوفاق والتعاون مع أساليب الشيطنة ليتم على حزب الشيطان بلاء الله بالفتح عليهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

عرّف الأستاذ القشيري الفراسة بأنها «خاطر يهجُم على القلب فينفي ما يضاده». وعرَّفها الواسطي بأنها «سواطع أنوار لمعت في القلوب، وتمكين معرفة حملت السرائر في الغيوب، من غيب إلى غيب، حتى يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق سبحانه إياها، فيتكلم على ضمير الخلق».

قال الأستاذ القشيري: «والمتفرِّس ينظر بنور الله تعالى. وذلك سواطع أنوارٍ لمعت في قلبه، فأدرك بها المعاني. وهي (الفراسة) من خواص الإيمان. والذين هم أكثر منها حظاً الربانيون. قال تعالى: ﴿كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ﴾[1] أي علماء حكماء متخلقين بأخلاق الحق نظرا وخلقا. وهم فارغون عن الإخبارِ عن الخلقِ، والنظر إليهم والاشتغال بهم».[2]

فراسة الربانيّين إطلالات على العالم المخلوق وما يجري فيه، يلتفتون إليه عن قصد لمصلحة شرعية، أو يَفْجَأُهم من خبره ما لم يقصدوا إليه. المريد المبتدئ الذي لمّا يتحرر من الدنيا له تشوُّفٌ إلى المخفيات من الغيوب. فإن لم تتداركه عناية الله تلقفته العوالم الكونية وشغله التسكُّع في مشاهدة عجائبها عن الطلب الشريف وهو مشاهدة أنوار الأسماء والصفات، والقُربُ من حضرة الذات. أما المتمكن من العارفين والكامل من الواصلين فهمه الله عز وجل لا سلطان للأكوان عليه، ويعتبِر التفرُّسَ في الخلق لقراءة ضمائرهم بطالة، إلا أن يكون له قصد مشروع فيستعمل حاسته القلبية كما يستعمل جوارحه الأخرى في طاعة الله لتحقيق مطلب شرعي.

وقد أوصى رسول الله ﷺ أن يتعلم المؤمنون خوف الله عز وجل العليم الخبير بما في الصدور من الاعتبار بفراسة المؤمن الكامل الذي يطلعه الله بنوره على ما يفعله غيره. روى الترمذي وحسنه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله».

ويَسْمَع أيضا المؤمن الكامل بسمع الله، وتأتيه المخاطبات والتحديث من قبل الله، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه». وقال ابن عمر: «ما نزل بالناس أمرٌ قط فقالوا فيه وقال عمر إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر». رواه الترمذي وقال حسن صحيح. وموافقات عمر رضي الله عنه للقرآن في أسرى بدر وفي حجاب أمهات المؤمنين وغير ذلك مشهورة، هي من قبيل التأييد الإلهي، بواسطته ينطق عمر بلسان الحق وقلبه.

---

(1) آل عمران، 78.

(2) الرسالة، ص:106.

وقال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيمن كان قبلكم من الأمم ناس محدَّثون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر». رواه الشيخان عن أبي هريرة. وليس معنى هذا أن ليس في الأمة محدّثون غيرُ عمرَ، بل معناه أن عمر أحق بهذه الرتبة من غيره. ولا يعني هذا أيضا أن رتبة التحديث أفضل وأعلى من رتبة الصديقية المعروفة لأبي بكر، بل كبار الصحابة كانوا على نصيب وافر من كل خير، على تفاضلهم رضي الله عنهم.

وقد كان لعمر رضي الله عنه من الفضائل الجامعة، منها الفِراسة والتحديثُ والقوة في الله والشجاعة وسائر خصال الإيمان والإحسان، ما أهَّلَه لتزكية فريدةٍ زكاه بها رسول الله ﷺ. فقد روى الترمذي والإمام أحمد والحاكم بسند صحيح عن عقبة ابن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب».

وإذا كانت الرؤيا الصادقة جزءاً من ستة وأربعين جزءا من النبوءة، فإن الفراسة والمكاشفة وانفتاح عين القلب أقوى وأجلى لكونها مظاهر للمِنَح التي يخُص الله بها أولياءه يتصرفون فيها يقظة وبإرادة. فإن انضافت إلى هذه المنح القلبية التي هي من قبيل الكرامة وخرق العادة ما خص الله عز وجل به الخلفاء الراشدين من منح الرجولة الإيمانية والكمال الخلقي والعقل والمروءة والحكمة والرحمة وحسن السياسة بقوة وأمانة وحفظ وصيانة عرفنا مواصفات المرشحين في غد الإسلام للخلافة الثانية. لا نظن أنه يكون «لثورة إسلامية» مَا أي معنى من معاني الخلافة عن النبي ﷺ إن لم تكن الربانية الجامعة لما شاء الله من أجزاء النبوة سمةً بارزة في دعوة الخلافة، وتربيتها، وفراسة رجالها.

لا أعني أن يعتمد المجاهدون من رجال الدعوة على شيء من الفراسة والرؤيا والمكاشفة اعتمادا يَحُلُّ محل الطرائق الشرعية لاكتشاف الحقائق واتخاذ القرارات. فذلك خروج عن جادة السنة إلى هوامش الخرافية والضلال. وقد كان رسول الله ﷺ، وهو النبي فعلا وكمالا، وكان خلفاؤه الراشدون المتفرِّسون الربانيون، ومنهم عمر المحَدَّث بشهادة النص النبوي، يطرحون المسائل للمشاورة والأخذ والرد والمراجعة والرجوع آخر الأمر إلى الله ورسوله، وإلى ظاهر الشرع.

أعني أن الخلافة الثانية على منهاج النبوة لابد أن تظهر فيها خصائص الربانية التي عُمومُها ومضمُونُها وسياجُها السنة المطهرة الكاملة، من جملة سنة رسول الله ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين الأولين ظهورُ الكرامة والفراسة في مكانها ومرتبتها من الواقع لا تعدوه. فإن تعدى أحد بالفراسة حدود الشرع والسنة فقد خَرَقَ في دينه خَرْقا، ومزَق مزْقـًا.

الفراسة مثل الاجتهاد العقلي تُخطئ وتصيب، ما هنالك معصوم سوى النبيئين. فالعاصم من الخطإ والتيه الشرعُ.

هذا. وإن الفراسة الربانية لَدَلالَةٌ وتقويَة لجناب الخلافة بما هي توفيق من الله وتزكية وبركة. روى البيهقي أن عليَّ بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: «ما كنا نُبعِد أنَّ السكينة تنطق على لسان عمر». وقال عبد الله بن عمر: «ما كان عمر يقول في شيء: «إني لأراه كذا إلا كان كما قال». وقال قيس بن طارق: «كنا نتحدث أن عمرَ ينطق على لسانه ملَكٌ». وقال عمر رضي الله عنه يوصي مَن بعده: «اقتربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون، فإنهم تتجلى لهم أمور صادقة».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن سرد هذه المقالات: «وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنها تتجلى للمطيعين هي الأمور التي يكشفها الله عز وجل لهم. فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات. وأفضل هؤلاء في هذه الأمة بعد أبي بكر عمر رضي الله عنهما»[1].

رأى عمر رضي الله عنه قوما من مَذْحِج فيهم الأشترُ. فصعَّد فيه النظر وصوَّب، ثم قال: قاتَلَهُ الله! إني لأرى للمسلمين منه يوما عصيبا! فكان ذلك كما قال رضي الله عنه. ورُوِيَ عن رجل قال: دخلت على عثمان رضي الله عنه، وكنت رأيت في الطريق امرأةً تأَمَّلْتُ محاسِنَها، فقال عثمان رضي الله عنه: «يدخل علي أحدكم وآثار الزنا ظاهرة على عينه!» فقلت: أوحيٌ بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: «لا! ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة». وقال الإمام علي كرم الله وجهه لأهل الكوفة: «سينزل بكم

(1) الفرقان، ص:52.

أهل بيت رسول الله ﷺ فيستغيثون بكم فلا يُغاثون». فكان منهم في شأن الحسين رضي الله عنه ما كان.

إن أخبار الفِراسة وقراءة الضمير في دواوين الأولياء كالمطر لا تحصى. وما الإخبار عن المكونات بالشأن العظيم الذي تحتفل به الرجال. وأَيَّ شيء حصَّلْتَ إن نصَبتَ عين قلبك منصب المتفرِّج العاطل ألهاه منظر الخيل على باب الملك وتأمُّل زينتها وعيوبها عن طلبِ مقابلة الملك! مثلٌ يضرب لأبناء الدنيا المعظمين للملوك.

وكان لأكابر الدين من غير الأولياء الصوفية فراسات، أشهرهم في ذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه. وكان لسَعَةِ أُفقِه قد طلب كتب «علم الفراسة» وهو من علوم العرب يستدلون بنعوت الخِلقة في الإنسان والحيوان على أخلاقها. وهو «علم» يتلقاه الحاذق الماهر جيلا بعد جيل مما حصلته تجارب الأمم، ليس من الفراسة القلبية الربانية في شيء. وهو علم «محايد» لا حظَّ للكشف الشيطاني منه. وقد وردت أخبار عن استعمال الشافعي للفراسة المتعلَّمة من الكتب لا حاجة لنا بها.

وللإمام الشافعي رضي الله عنه فِراسات قلبية ساطعة. فإنه على فراش الموت أخبر بما يؤول إليه أكابر تلامذته مثل الربيع بن سليمان والبوطي والمزني وغيرهم. فكان من بعدُ كما أخبر رضي الله عنه.

قال الإمام عبد القادر قدس الله سره العزيز: «لولا الصبر لما رأيتموني بينكم. قد جُعِلْتُ شباكا تصطاد الطيور. منْ ليل إلى ليل يفتح عن عيني، ويخلَّى عن رجلي. بالنهار مُغمض العينين ورجلي مشدودة في الشبكة. فَعلَ ذلك لمصلحتكم وأنتم لا تعرفون. لولا موافقة الحق عز وجل، وإلا فهل عاقل يقْعد في هذه البلدة ويعاشر أهلها! قد عمَّ فيها الرياء والنفاق والظلم وكثرة الشبهة والحرام. قد كثُر كفران نِعَم الحق عز وجل والاستعانة بها على الفسق والفجور. وقد كثُر العاجز في بيته المتقي في دكانه، الزنديق في شرابه الصديق على كرسيه. لولا الحكم لتكلمت بما في بيوتكم».[1]

(1) الفتح الرباني، ص:17.

وقال رضي الله عنه: «قلوب القوم صافية طاهرة ناسية للخلق، ذاكرة لله عز وجل. ناسية للدنيا ذاكرة للآخرة. ناسية لما عندكم ذاكرة لما عند الله عز وجل. أنتم محجوبون عنهم وعن جميع ما هم فيه. مشغولون بدنياكم عن أخراكم، تاركون للحياء من ربكم عز وجل، متواقحون عليه (...). سبحان من ألقى في قلبي نُصح الخلق وجعله أكبر همي! إني ناصح ولا أريد على ذلك جزاء. آخرتي قد حصلت لي عند ربي عز وجل، وما أنا بطالب دنيا. ما أنا عبد الدنيا ولا عبد الآخرة ولا ما سوى الحق عز وجل. ما أعبد إلا الخالق الواحد الأحد القديم. فرحي بفلاحكم، وغمّي لهلاككم. إذا رأيتُ وجه مريد صادق قد أفلح على يدي شبِعْتُ وارتويت واكتسيت وفرحت كيف خرج مثله على يدي!»[1]

قال متفرس معتبر بآيات الله الكونية:

ألــم تــر أن نسيــم الصبــا ... لــهُ نفَــسٌ نشــرُه صاعــد
فطــوراً ينــوح وطــوراً يفــوح ... كمــا يفعــل الفاقِــد الواجــد
وسـكْب الغمــام ونــوْح الحمــام ... إذا مــا شكــا غصنُــه المائــد
ونــورُ الصبــاح ونَــوْرُ الأَقــاحِ ... وقــد هــزّه البــارق الراعــد
ووافــى الربيــع بمعنــىً بديــع ... يتــرجمــه وَرْدُه الــوارد
وكــلٌّ لأجــلك مُسْتَنْبَــطٌ ... لمــا فيــه نفعــك يــا جاحــد
وكــل لآلائــه ذاكــر ... مقــرٌّ لــه شاكــر حامــد
وفــي كــل شــيء لــه آيــة ... تــدل عــلى أنــه واحــد

وقال عاشق وامق لا يمل من ذكر حبيبه:

كــرِّرْ علــي فـإني عـاشـق كَلِــفٌ ... كَـرِّرْ عليَّ ففيـه المجـد والشـرف
جـرِّد علي سـيوف الشـوق مُحتسِبا ... واقتـل بهـن فقتلي في الهـوى شرف

(1) نفس المصدر، ص:39.

وقال فاقد واجد متقارب متباعد:

إذا قَرُبَتْ داري كَلِفْتُ وإن نأَتْ أَسِفْتُ فما للقرب أسلو ولا البُعْدِ
وإن وعدت زاد الهوى بانتظارها وإن بَخِلَتْ بالوعد مُتُّ من الوجْد

وقلت:

بِنُـــــورِ اللّــه نُبْصِـــــر وأَرْض اللّـــه نَـعْـمُــــــرْ
نُجَـــــاهِدُ لا نُقَصِّـــــر وَفِــــي الـمَيدَانِ نَصْبِـــرْ
مَقَـــــالَ الحَـــقِّ نُشْهِــــر لِـــواءَ العَــــدْلِ نَنْشُــرْ

علوم الأولياء

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. اللهم توفنا مع الأبرار، ولا تجعلنا في الأشرار، وقنا عذاب النار، وألحقنا بالأخيار.

حديث حارثة مشهور عند السادة الصوفية، يستأنسون به ويستشهدون على حصول علوم المكاشفة للمتقين. روى البزار عن أنس والطبراني عن الحارث بن مالك أن رسول الله ﷺ سأل حارثة: «كيف أصبحت يا حارثة؟» قال: أصبحت مؤمنا حقا! قال ﷺ: «انظُرْ إلى ما تقول! فإن لكل حق حقيقة. فما حقيقة إيمانك؟» قال: عزَفَتْ نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرُها ومدَرها. وسهرت ليلي وأظْمَأْتُ نهاري. وكأني أرى عرش ربي بارزا. وكأنّي أرى أهل الجنة وهم يتزاورون فيها. وأهل النار يتضاغَوْن فيها. قال رسول الله ﷺ: «عبد نوَّر الله قلبَه! قد عرفت يا حارثة فالزم!».

ما عبر عنه الصحابي بقوله: «كأني أرى» جاء من بعده رجال صرّحوا وقالوا رأينا ونرى. ليس من الغريب أن يكرم الله بعض أحبابه بمطالعة ما يغيب عن الخلق عادة، لكن من الفتنة لبعض الناس أن يسمعوا ما لا يفهمون. الأصل أن يكشف لقلب الذاكر الصادق ما هنالك لقوله ﷺ لحنظلة بن الربيع وأبي بكر الصديق: «لو كانت قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تسلم عليكم في الطرق». الحديث رواه مسلم والترمذي.

«إذا كان القلب معمورا بالتقوى انجلت له الأمور وانكشفت بخلاف القلب الخراب المظلم. قال حذيفة بن اليمان: «إن في قلب المؤمن سراجا يُزْهر (...). وكلما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور به، وعرف حقائقها من بواطلها،

وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف. وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم».[1]

الأصل انكشاف الحقائق لقلب المؤمن الذاكر، لكن الفتنة في البَوْحِ بعلوم القلب، لأن الناس تتفاوت استعدادا للنور، وتتفاوت قوةَ إيمان. فينطق هذا مخبراً عن مبلَغ إدراكه الكشفي إلى الخَلِيِّ المظلم القلب الخراب فيكذِّب ويجادل. ويكتُب ذاك في مرحلة من مراحل سلوكه جازما في الحكم على مسألة، ثم يناقِضُ حكمَهُ الأول بعد أن تصفو مرآتُه ويقوى سراجُه تماما كما يحدث لعالم الظاهر يتغير اجتهاده حسب جمعه للأدلة وقدرته على الاستنباط.

والناظر في كتب السادة الصوفية أصحاب القلوب يرى خبر البوّاحين، وخبر الكاتمين لعلوم الولاية، لكنه لا يجد تناقضا عند الكُمَّل المتمكنين فيما يُبدون من علوم، حاشا الخطأ المحتمل الذي يطرأ على عين القلب كما يطرأ على عين العقل، إما في أصل الإدراك أو في التأويل.

كان الصحابة رضي الله عنهم أقوى وأرسخَ في العلم، قلَّما تجد عندهم عبارة ينبو عنها فهمُ عامة الناس. قال الإمام علي كرم الله وجهه: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبّون أن يُكْذَب الله ورسولُه!». أخرجه البخاري. عليٌّ الإمام الذي قال له رسول الله ﷺ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة». وقال له: «أنت مني بمنزلة هرون من موسى». كما رواه البخاري ومسلم. عليٌّ الإمام الذي تنتهي إليه وإلى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما معظم أسانيد التربية الصوفية كان بحراً زخّارا بعلوم الولاية لكنه لا يبوح، ويوصي بالكتمان.

ويتناقل أهل العلم والصلاح الوصيّة بكتم علوم القلب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الحال تعتري كثيرا من أهل المحبة والإرادة في جانب الحق وفي غير جانبه، وإن كان فيها نقص وخطأ فإنه يغيب بمحبوبه عن حبه وعن نفسه (...). وقد يقول في

(1) ابن تيمية في «الفتاوي»، ج 20، ص:45.

هذا الحال: أنا الحق! أو سبحاني! أو ما في الجبة إلا الله! وهو سكران (...)، وذلك السكر يطوَى ولا يُرْوَى».[1]

وقال شيخ الإسلام ابن القيم: «ومِن الغيرةِ الغيرةُ على دقيق العلم وما لا يدركه فهم السامع أن يذكر لَه. ولهذه الغيرة قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله! وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما أنت بمحدِّثٍ قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة! (...). وسئل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن تفسير قوله تعالى: «الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن»، فقال للسائل: وما يُؤَمِّنُكَ أنّي إن أخبرتك بتفسيرها كفرت! فإنك تكذِّبُ بها، وتكذيبك بها كفرك بها».[2]

ولمخافة الفتنة حكم السيوطي مع كثير من العلماء بِحِرْمَة النظر في بعض كتب القوم لمن ليس مصقول القلب. قال بعد أن التمس العذر لما في بعض الكتب: «قلتُ ذلك صونا لك عن الوقيعة في أحد، وحفظًا للِّسان، لا رضىً بالنظر في الكتب المنسوبة إليه، ولا إذنا في قراءتها لكل أحد. ومعاذ الله أن آذن لأحد في ذلك. ثم لا آذن».[3]

نترك إلى فصل مقبل إن شاء الله علوم الحال التي يسكَرُ بها السالك حتى ينطق بما قاله ابن تيمية، ونأخذ مثالا من علوم المكاشفة لنفهم كيف تنشأ الفتنة ومِمَّ تنشأ.

قال الإمام الغزالي: «القلب قد يُتَصَور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته، تارة من الحواس، وتارة من اللوح المحفوظ (...). فإذا للقلب بابان: باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة، وباب مفتوح إلى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة».[4]

(1) الفتاوي، ج 2، ص:397.

(2) روضة المحبين، ص:306.

(3) تأييد الحقيقة العلية، ص:17.

(4) الإحياء، ج 3، ص:18.

ويجيء ابن تيمية فينكر إنكارا شديدا ببيانه الصارم وحكمه القاطع أن اللوح المحفوظ لا يمكن أن يقرأ فيه قارئ. قال رحمه الله: «يقول بعض الشيوخ الذين يتكلمون باللوح المحفوظ على طريقة هؤلاء، إما عن معرفة بأن هذا قولهم، وإما عن متابعة منهم لمن قال هذا من شيوخهم الذين أخذوا ذلك عن الفلاسفة، كما يوجد في كلام ابن عربي وابن سبعين والشاذلي وغيرهم. يقولون إن العارف قد يطلع على اللوح المحفوظ، وأنه يعلم أسماء مريديه من اللوح المحفوظ، ونحو هذه الدعاوي التي مضمونها أنهم يعلمون ما في اللوح المحفوظ. وهذا باطل مخالف لدين المسلمين وغيرِهم من أتباع الرسل».[1]

غفر الله لنا ولابن تيمية ولمن يأخذ كلام أحد ما دون رسول الله ﷺ مأخَذَ المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. لو قال: هذا لا أعرفه لكان أقرب إلى الحكمة بَدَل أن يعمم زاعما أن القول بعلم ما في اللوح المحفوظ ليس من دين المسلمين. يا لطيف!

كان الرجل صادقا، فرقاه الله عز وجل وفتح بصيرته كما فتح للعارفين حتى رأى هو نفسه اللوح المحفوظ في فترة لاحقة من حياته، وحتى قرأ فيه. قال تلميذه ابن القيم: «ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية أمورا عجيبة. وما لم أشاهده منها أعظم وأعظم. ووقائع فراسته تستدعي سِفْرا ضَخما (...). أخبر الناس والأمراءَ سنة اثنتين وسبعمائة لمّا تحرَّك التتار وقصدوا الشام أن الدائرة والهزيمة عليهم، وأن الظفر والنصر للمسلمين. وأقسم على ذلك أكثر من سبعين يمينا. فيقال له: قل إن شاء الله! فيقول: إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا! وسمعته يَقول ذلك. قال: فلما أكثروا عليَّ قلت: لا تُكثروا! كتب الله في اللوح المحفوظ أنهم مهزومون في هذه الكرة، وأن النصر لجيوش الإسلام. قال: وأطعمتُ بعض الأمراء والعسكر حلاوة النصر قبل خروجهم إلى لقاء العدو».[2]

قال ابن القيم: «وكانت الفراسة الجزئية في خلال هتين الواقعتين مثل المطر».

(1) الرد على المنطقيين، ص:475.

(2) مدارج السالكين، ج 2، ص:489.

استَغْفِرِ الله يا صاح من متابعتك للعلماء في أخطائهم، يرجعون عنها وتبقى أنت في الظلام. استغفِرْه من متابعتك ابن تيمية وأمثاله في تكفير المسلمين والجزم بأن «هذا ليس من دين المسلمين»، يتوبون هم ويشفع لهم صدقُهم من حيث لا يشفع لك جهلُك وتقليدُك. هو ذاك شيخ الإسلام في خيمته، في عادته، في بشريته، في نسبيته لا يخرجه عنها فراسته وعلمه، يطعم الأمراء والعساكر طعام الفرح بما قرأه في اللوح المحفوظ، تلك القراءة التي كان ينفيها وينسب القائلين بها للزندقة ويرميهم خارج الملة. وأنت، أنت المقلد للرجال بعقل مرموس وقلب مطموس ما حظك من الله! قل لي!

أنت مع الدليل والنص لا مع الله! وعلوم الأولياء لا دليل عليها مما تصل إليه يدك القاصرة وهمتك الفاترة. «القوم يشيرون إلى الكشف ومشاهدة الحقيقة. وهذا لا يمكن طلبه بالدليل أصلا. ولا يقال: ما الدليل على حصول هذا؟ وإنما يحصل بالسلوك في منازل السير وقطعها منزلة منزلة حتى يصل إلى المطلوب. فالمطلوب إليه بالسير لا بالاستدلال»[1].

قال الإمام أحمد الرفاعي: «الكشف قوة جاذبة بخاصيتها نورَ عين البصيرة إلى فضاء الغيب، فيتصل نورُها به اتّصالَ الشعاع بالزجاجة الصافية حال مقابلتها إلى فيضه. ثم ينصرف نورُه منعكسا بضوئه على صفاء القلب. ثم يترقى ساطعا إلى عالم العقل، فيتصل به اتصالا معنويا له أثر في استفاضة نور العقل على ساحة القلب فيشرف القلب على إنسان عين السِّرِّ، فيرى ما خفيَ عن الأبصار موضعُه، ودق عن الأفهام تصوُّرُه، واستتر عن الأغيار مرآه.

«أي سادة! إذا صلح القلب صار مَهْبِطَ الوحيِ والأسرار والأنوار والملائكة. وإذا فسد صار مهبط الظُّلَمِ والشياطين. إذا صلح القلب أخبر صاحبه بما وراءه وأمامه، ونبهه على أمور لم يكن ليعلمها بشيء دونه».[2]

(1) مدارج السالكين، ج 2، ص:347.

(2) البرهان المؤيد، ص:102.

وقال الإمام عبد القادر قدس الله سره: «إذا جاء الكشف من الله عز وجل، وثَبَتَّ بين يديه، صار أمرك ضياءً. إذا جاء نور قمر المعرفة كشف ظلمة ليلة القدر. فإذا طلعت شمس العلم بالله عز وجل زالت الأقذار والظلمة في الجملة. يتبين لك ما حولك وما هو بعيد عنك. يتبين لك ويتضح ما كان مشكلا عليك من قبل. يميِّزُ لك بين الخبيث والطيب، بين ما لغيرك وما لك. تفرق بين مراد الخلق ومراد الحق عز وجل.

«ترى باب الخلق وباب الحق عز وجل. فترى هنالك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فيأكل القلب من طعام المشاهدة، ويشرب من شراب الأنس، ويُخْلَعُ عليه خِلعُ القبول. ثم يرد إلى الخلق لمصالحهم، وردِّهم من ضلالهم، وهجرِهم لربهم عز وجل، وعصيانهم له. يُرَدُّ مع الحصن الحصين، والحفظ الدائم، والسلامة الدائمة.

«يا من لا يعقل هذا أو لا يؤمن بهذا! أنت قِشر بلا لُب! خشبة مسندة! خشبة نخرة! تصلح للنار إلا أن تتوب وتؤمن وتصدق»[1].

قلت: إنَّ كشف الحجاب عن أسرار الله وكونه النوراني من ملائكة وأرواح وجنة ونار وأحوال الآخرة وعوالم السعادة ومشاهد السعداء حرام على القلوب المظلمة، قلوب أصحاب الرياضة من المشركين الذين يفتح عليهم من عالم الظلمة. أما عند كشف الغطاء في لحظة الموت، فالمائت يرى ما هنالك من مصير كما قال الله عز وجل: ﴿**لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾[2].

قال الشيخ عبد القادر: «ما من مؤمن إلا عند الموت يُكشف عن بصره، فيرى منزله في الجنة، يُشير إليه الحور العين والوِلدان، ويصل إليه من طيب الجنة فيطيب له الموتُ والسكرات. يفعل الحق عز وجل بهم كما فعل بآسية عليها السلام. ومنهم من يعلم بذلك قبل الموت وهم المقربون المفردون المرادون.

(1) الفتح الرباني، ص:242.

(2) ق، 22.

«ويلك يا معترضا على الحق عز وجل! لا تهذِ هذيانا فارغا! القضاء لا يرُّده راد، ولا يصدُّه صادٌّ. سلِّم وقد استرحت! (...). إذا تحقق لك الإيمان قدِّمت إلى باب الولاية، فحينئذٍ تصير من عباد الله المحققين لعبوديته. علامة الولي أن يكون موافقا لربه عز وجل في جميع أحواله. يصير كله موافقة من غير «لِمَ» و«كيف» مع أداء الأوامر والانتهاء عن المناهي».[1]

قال الإمام الشافعي في كتم العلم عن غير أهله:

سأكتم علمي عن ذوي الجهـل طاقتي ... ولا أنثُـر الدَّرَّ الثميـن علـى الغَنَمْ
فـإن يسَّـر الله الكـريـم بفضلـه ... وصـادفـت أهـلا للعلـوم ولِلْحِكَـمْ
بثثـت مفيـدا واستفـدت وِدادهم ... وإلا فمخـزون لـديَّ ومُكـتَـتَـمْ
فمن منـح الجهـال علمـا أضـاعـه ... ومـن منع المستـوجبيـن فقد ظَلَـمْ

وقال في رواية أخرى:

أأنثـرُ دُرّا بيْـن سارِحَـة البَهَـمْ ... وأنظِـم منثـورا لراعيـة الغَنَـمْ!
لعمـري لئـن ضُيِّعـت في شـر بلـدة ... فلسـتُ مُضِـيعـًا فيهُـم غُـرَرَ الكَلِمْ
لئـن سهـل الله العزيـز بلطفـه ... وصادفـت أهـلا للعلـوم وللحِكـم
بثـت مفيـدا واستفـدت وِدادهـم ... وإلا فمكنـون لـديَّ ومُكتتـم
ومـن منـح الجهـال علمـا أضاعـه ... ومـن منـع المسـتوجبين فقـد ظلم

وقلت:

جِـئْتُ يَـا رَبِّ لِبَابِـكْ ... مَـا لَنَـا حَـوْلٌ سِـوَى بِـكْ
وطِئَتْـنَا أَرْجُـلُ القَـو ... م وَدَاسَتْنَـا السَّنَـابِكْ
فَانْصُـرِ اللهُـمْ صَفّـًا ... أَقْبَلُـوا نَحْـوَ جَنَـابِكْ

(1) الفتح الرباني، ص:293.

الـذوق

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء﴾. اللهم عافنا واعف عنا.

أثبت القرآن الكريم أن المؤمن يعقل بقلبه في مثل قوله تعالى عن الكافرين: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾[1]. وأثبت أنه يسمع السمع الفطري بما به يعقل، وهو القلب، بدليل قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾[2]. أضف إلى هذا ما كنا في تفصيله من حديث عن البصيرة وعين القلب. وأَضِفْ حديث مسلم والترمذي عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا». بهذا نعلم أن القلب المفتوح له، قلب المؤمن المحسن الولي، حاسَّةٌ كاملة تسمع وتبصر وتذوق وتعقل بإدراك فوق طاقة الحواس وفوق طَوْر العقل.

وللمؤمن الراضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا بداية ذوقٍ منحه إياها مجرد الرضى والقَبول. ثم يتفاوت المؤمنون في ذوق الإيمان والإحسان على حسب حبهم لله ورسوله، وذكرهم، وصدقهم، وتجرُّدهِم القلبي من الدنيا، وإقبالهم بالكلية على الله عز وجل، «فلا يحبون شيئا إلا له، ولا يتوكلون إلا عليه، ولا يوالون إلا فيه، ولا يعادون إلا له، ولا يسألون إلا إياه، ولا يرجون إلا إياه، ولا يخافون إلا إياه، يعبدونه ويستغنون له وبه، بحيث يكونون عند الحق بلا خلق، وعند الخلق بلا هوى. قد فنيت عنهم إرادة ما سواه بإرادته، ومحبة ما سواه بمحبته، وخوفُ ما سواه بخوفه، ورجاء ما سواه برجائِه، ودعاء ما سواه بدعائه.

(1) الحج، 46.

(2) يونس، 42.

«هو أمر لا يعرفه بالذوق والوجد إلا من له نصيب»[1].

يُكثر شيخ الإسلام ابن تيمية، وأكثر منه ابن القيم، من استعمال لفظ «ذوق»، ومن حصوله للناس بتفاوت، ومن كون إنكار المنكرين لأحوال السالكين ومواجيدهم إنما سببُه عدم ذوقهم لما ذاقوا. وكلمة ذوق كلمة قرآنية حديثية اتخذها الصوفية رضي الله عنهم مصطلحا للإخبار الواسع عن مواجيدَ تتعمق كلما ارتقى السالك في عقبة السير. وذوق الواصلين إلى مراتب الأحوال السَّنِيَّة والتجلِيَّات الربانية يعبر عنه الأستاذ القشيري كما يلي: «من جملة ما يجري في كلامهم (الصوفية) الذوق والشرب. ويعبرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلي ونتائج الكشوفات وبوادِر الواردات. وأول ذلك الذوق، ثم الشرب، ثم الري. فصفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعاني. ووفاء منازلاتهم يوجب لهم الشرب. ودوام مواصلاتهم يقتضي لهم الري.

«فصاحب الذوق متساكر، وصاحب الشرب سكران وصاحب الري صاح. ومن قوِيَ حِسُّهُ تَسَرْمَدَ في شربه».[2]

التجليات ومذاقاتها وشربها وريُّها معية إلهية «لا تدركها العبارة، ولا تنالها الصفة، وإنما تُعلم بالذوق. وهي مَزَلَّةُ أقدامٍ إن لم يصحب العبد فيها تمييزٌ بين القديم والمحدث، بين الرب والعبد، بين الخالق والمخلوق، بين العابد والمعبود (...). والمقصود أنه إن لم يكن مع العبد عقيدة صحيحة وإلا فإذا استولى عليه سلطان الذكر، وغاب بمذكوره عن ذكره وعن نفسه، ولج في باب الحلول والاتحاد ولابد».[3] وهذا ما عبر عنه الصوفية بالسكر وما يؤثر من كلام سكارى السلوك من شطح، نرجع إلى ذلك في فصل مقبل إن شاء الله.

القلب المنوَّر شاهد عدل تقبل شهادته وفتواه. إنه بمثابة الأعضاء والجلود التي تشهد على أصحابها في الآخرة كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ

(1) ابن تيمية في «الفتاوي»، ج 10، ص:335.

(2) الرسالة، ص:39.

(3) ابن القيم في «الوابل الصيب»، ص:62.

﴿وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]. القلب المفتوح له تجاوز العادة وخرقها وأصبح شأنا من شؤون الآخرة. لتجاوز قلبِ المؤمن الذائقِ طعمَ الإيمان العادةَ كان له الإشرافُ والإمارةُ على العقل القاصر المسجون في بيتِ العادة والحجاب عما وراء الحس. وكانت له الفتوى في الدقائق التي لا يدركها العقل ولا تنالها الحواس. القلب المؤمن يسمع ويرى ويذوق ما لطُف من المعاني والحقائق ويُدلي بشهادته.

جاء وابِصَةُ إلى رسول الله ﷺ يتخطى الناس، فقال له: «اُدْنُ يا وابصة!» فدنا من رسول الله ﷺ حتى مست ركبتُه ركبتَه. فقال له رسول الله ﷺ: «يا وابصةُ! أُخْبِرُ ما جئت تسألني عنه أو تسألني؟ فقال: «يا رسول الله! فأخبرني!» قال ﷺ: «جئت تسألني عن البر والإثم؟» قال: نعم! فجمع رسول الله ﷺ أصابعَه الثلاث، فجعل ينكُث بها في صدر وابصةَ ويقول: «يا وابصةُ! استفتِ نفسك. البر ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس. والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس». رواه الإمام أحمد رحمه الله عن وابصة رضي الله عنه.

هذا مقام تصدر فيه القلب للفتوى، صدَّره رسول الله ﷺ وأذِن لَه. أذن له أن يقول كلمته في فهم خاص لرجل في خصوصيات أخلاقه وإدراكه لعموميات البر والإثم. ولا يُستنتجُ من هذا الإذن الشريف أن لقَلبِ وابِصةَ أو لقلب غيره من الأمة أن يشرِّع حدود البر وتخوم الإثم من عنده. إنما يستنتج منه أن البر كما شرعه الله ورسوله، والإثم كما وضع الله عز وجل له حدودا ورسولُه، تطابِقُ معالمهما الفطرة السليمة، فيطمئن القلب السليم للبر، ويحوك الإثم في الصدور ويتردد فيها.

وللقلب فيما عدا الأمر والنهي مسرَح فسيح للتأمل. قال الإمام الغزالي: «فكم من معان دقيقة من أسرار القرآن تخطُر على قلب المتجردين للذكر والفكر، تخلو عنها كتب التفاسير، ولا يطلع عليها أفاضل المفسرين. وإذا انكشف ذلك للمريد المراقب وعرض للمفسرين استحسنوه، وعلموا أن ذلك من تنبيهات القلوب الزكيَّة، وألطاف

(1) النور، 24.

الله تعالى بالهِمَم العالية المتوجهة إليه. وكذلك في علوم المكاشفة، وأسرار علوم المعاملة، ودقائق خواطر القلوب».[1]

يعني الصوفيةُ بالمعاملات معاملةَ العبد مع ربه في خصوصياتهم القلبية من خشوع وذكر ومناجاة وتوكل وخوف ورجاء. لا المعاملات الفقهية بين الناس التي حددها الشرع.

للقلب الذوق الأعلى وهو لذة العلوم الربانية. قال الإمام الغزالي: «لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات، أعني لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس. فإن اللذاتِ مختلفة بالنوع (أعلاها لذة الرياسة). فلذةُ معرفة الله، ومطالعة جمال حضرة الربوبية، والنظرُ إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق. وغاية العبارة عنه أن يقال: فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين. وإنه أعدَّ لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وهذا الآن لا يعرفه إلاّ من ذاق اللذتين جميعا. فإنه لا محالة يوثرُ التبتلَ والتفردَ والفكر والذكر، وينغمس في بحار المعرفة، ويترك الرياسة».[2]

للقلب المنوّر أن يتمتع بانكشاف الأسرار وإشعاع الأنوار والالتذاذ بالمعرفة والانغماس في بحارها ما دام في «التبتل والتجرد والتفرد والفكر والذكر». لكن تصرفه في العالم يجب أن ينضبط بضابِط الشرع. العقل هو وزيره اللازم، وخفيرُه الملازم، وإلا تاه القلب في دوامة المواجيد بلا حدود ولا سدود.

رسول الله ﷺ سيدُ المكاشفين وسيد العالمين، استعمل طاقة القلب وإدراكه في مواطنَ مثل إخباره لوابصة بما يُضمر وابصةُ، لكنه سن للأمة التعامل بالحجة والبرهان والدليل صيانة لحقوق الله وحقوق العباد أن تطير بها العاطفة المجنَّحة في سماء الأوهام. قال ﷺ: «إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض. فمن قضيت له بحق أخيه شيئا بقوله، فإنما أقطع له بقطعة من النار. فلا يأخذها». رواه الشيخان وأصحاب السنن عن أم سلمة رضي الله عنها، واتخذه الفقهاء أصلا

(1) الإحياء، ج 1، ص:63.

(2) نفس المصدر، ص:265.

لئلا يفتِيَ القاضي بعلمه واطلاعه، بل بالحجة تدحض الحجة، وبالشهادة يرجحها العقل. وما شاء رسول الله ﷺ أن يحكم بين الناس بكشفه، ولا أن يقطع رأيا في أمور السلم والحرب دون الشورى.

وأجاد ابن القيم وأحسن، كعادته أحسن الله إليه، حين كتب: «اعلم أولا أن كل حال وذوق وشهود لا يشرق عليه نور العلم المؤيَّد بالدليل فهو من عيش النفس وحظوظها. فلو قُدِّر أن المتكلم إنما تكلم بلسان العلم المجرد، فلا ريب أن ما كشفه العلمُ الصحيح المؤيد بالحجة أنفع من حالٍ يخالف العلمَ والعلمُ يخالفه. وليس من الإنصاف رد العلم الصحيح بمجرد الذوق والحال. وهذا أصل الضلالة ومنه دخل الداخل على كثير من السالكين في تحكيم أذواقهم ومواجيدهم على العلم، فكانت فتنة في الأرض وفساد كبير (...). فما زكّاه شاهد العلم فهو المقبول، وما جرَّحه شاهد العلم فهو المردود. وهذه وصية أرباب الاستقامة من مشايخ الطريق».[1]

وكتب الإمام حسن البنا نضر الله وجهه في أصوله العشرين تحذيرا من سكرة القلب، حديث الخبير: «وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله في قلب من يشاء من عباده. ولكن الإلهامَ والخواطرَ والرؤى والكشف ليست من أدلة الأحكام الشرعية. ولا تُعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه».

وقال الإمام الأعظم الشيخ عبد القادر قدس الله روحه: «يا غلام! ثمَّ أمور باطنة لا تنكشف إلا بعد الوصول إلى الحق عز وجل، والقيام على بابه، ولقاءِ المفردّين والنُوَّابِ، والوقوف هناك. إن صرت إلى باب الحق عز وجل، وأدمت الوقوف مع حسن الأدب والإطراق، فُتح الباب في وجه قلبك، وجذبه من جذب، وقرّبه من قرّب، ونوّمه من نوَّم، وزفَّه من زفّ، وكَحَّله من كَحَّل، وحلاّه من حلى، وفرّحه من فرّح، وآمنه من آمن، وحدثه من حدث، وكلمه من كلم. يا غافلين عن النعيم! أين أنتم! ما أبعد قلوبكم عن الأمر الذي أشير إليه! تظنون أن الأمر سهل، حتى يحصل لكم بالتصنع والتكلف والنفاق!

(1) طريق الهجرتين، ص:421.

«يحتاج هذا الأمر إلى الصدق والصبر على مطارق القَدر. إذا كنت غنيا معافى مشغولا بمعصية الحق عز وجل فتبت عن جميع المعاصي والزلات ما ظهر منها وما بطن، وصرت في الصحاري وفي البراري، وطلبت وجه الله عز وجل، جاءك الاختبار، جاءتك البلايا. فتطلب نفسك ما كانت فيه من الدنيا والعافية. فلا تَقْبَل منها، ولا تعطها ذلك.

«فإن صبرت حصل لك ملك الدنيا والآخرة، وإن لم تصبر فاتك ذلك.

«يا تائب! اثبت، وأخلص، قرر مع نفسك انقلاب الأمر ومجيء البلايا. قرر معها أن الحق عز وجل يُسهر ليلها ويُظْمِئ نهارها، ويوقع بينها وبين الأهل والجيران والأصدقاء والمعارف، وأنه يوقع في قلوبهم المقت لها، وأنه لا يقربها أحد منهم ولا يدنو منها.

«أما سمعت قصة أيوب عليه السلام لما أراد الله عز وجل تحقيق محبته واصطفائه، وأن لا يبقى لغيره فيه حظ، كيف أفرده من ماله وأهله وولده وأتباعه، وأقعده في كوخ على مزبلة خارجا عن العمران (...). انقطعت عنه الأسباب والحول والقُوى، وبقي أسير محبته وقدره وقدرته وإرادته وسابقته. كان أمرُه صبرا، ثم صار عيانا. كان الأول مرا، ثم صار الثاني حُلْوا. طاب له العيش في بلائه كما طاب لإبراهيم عليه السلام في ناره».

قلت: ذاك ابتلاء الله عز وجل لأوليائه في عهد الهروب إلى البراري والصحاري. أما في عهد الجهاد والقومة لإحياء الأمة وبناء وحدتها على منهاج الخلافة النبوية فابتلاء صفوة جند الله الربانيين يكون على صورة الابتلاء المحمدي الصحابي، وسط المجتمع وفي قلب الفتنة وعلى عينها وتحدِّيا لها. والصبر اللازم في السلوك الجهادي أشد لأن الفتنة أشد. لأن القابض على دينه وسط الفتنة كالقابض على الجمر، لا يبلُغ قيظُ أي صحراءَ يسبِّح فيها المتفردون توقُّدَ الفتنة المعاصرة التي يُدعى جند الله لـمُغاضبتها ومقاطعتها وتذليلها. وإن للسالكين المجاهدين، من كانت له سابقة، لنعيما ما عرفه الهاربون بدينهم.

قال الإمام الشافعي يميز العلم الرباني عن الوسواس الشيطاني:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة إلا الحديث وعلم الفقه في الدين
العلم ما كان فيه: قال، حدثنا وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وقال محقق في العلم مدقق:

غموض الحق حين يُذَبُّ عنه يقلل ناصِرَ الخصم المُحِقِّ
تضل عن الدقيق فهوم قوم فتقضي للمجِلِّ على المدِق

وقال ذاكر لربه منتظر وعد لقائه والنظر إليه:

ذكرك لي مؤنس يعارضني يعدُني عنك مِنك بالظَّفَر
فكيف أنساك يا مَدَى هممي وأنت مني بموضع النظر!

وقال واجد هائم في بيداء الحب الالهي والهٌ:

إذا صدَّ من أهوى صددت عن الصد وإن حال عن عهدي أقمتُ على العهد
فما الوجد إلا أن تذوب من الوَجد وتصبح في جَهدٍ يزيد على الجُهد

وقال أبو العباس بن عطاء الصوفي:

أجلُّك أن أشكو الهوى منك إنني أجلك أن تومي إليك الأصابع
وأصْرِف طرفي نحو غيرك عامدا على أنه بالرغم نحوك راجع

وقلت:

ذَاقَ طَعْمَ الإيمَانِ كُلُّ خَليلٍ حَبَّ مِنْ قَلْبِهِ وَليا مُحِقّا
خُلَّةٌ يَسْتَقِي بِهَا الخِلُّ حُبّاً لِلإلهِ ولِلرَّسُولِ وَشَوْقا
يَكْرَهُ الكُفْرَ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ وَيَدُقُّ جَمَاجِمَ الظُّلْمِ دَقّا

العارفون الواصلون

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾. اللهم إن كنت كتبتني في السعادة فأثبتني فيها. وإن كنت كتبتني في الشقاوة فامحني منها وأثبتني في السعادة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب.

كلمتا «عرف» و«علم» وردتا في القرآن. ولم يستعمل الأولياء في الصدر الأول من الإسلام إلا كلمة «عالم». ثم احتاج السالكون الواصلون إلى الله عز وجل إلى كلمة تميز العالم بالله عن العالم بالأحكام والنصوص فاستعملوا كلمة «عارف».

«علم» تدل على الاطلاع على أحوال الشيء المعلوم وصفاتِه كما تدل كلمة سمع على فعل خاص وهو إدراك الأصوات، وكما تدل كلمة رأى على إدراك المظهر الخارجي للشيء المرئي. كلمة «عرف» تتعلق بذات الشيء لا بأحواله وأوصافه وأفعاله ومظهره فقط، فهي تستغرق كل ذلك. عرفت زيدا أشمل من علمت أن زيدا كذا وفعل كذا، ومن رأيت زيداً وسمعت زيدا. على أن هذه المعرفة لزيد على شمولها وذاتيتها لا تعدو أن تكون عملية عقلية تعتمد الحس آخرَ المطاف.

معرفة الله عز وجل والوصول إليه عطاءٌ منه سبحانه مَحْضٌ لمن تقرب إليه جلت نِعَمُه حتى أحبَّه فكان سمعه وبصره ويده ورجله. عطاء يتنزل على القلب. عطاء لا يُكيَّف ومعرفة لا تُكيف. فالعقل السجين في عالم الكم والكيف والعلة والمعلول والفوق والتحت والزمان والمكان آلة فاشلة كل الفشل في هذا المضمار. وإن أطلَّ العقل من خلف سُجُفِ الغيب على ما ينعم به القلب من قرب مولاه عز وجل، ومشاهدته، والأنس به، والمعية معه، فاللسان الذي ينطق به ليعبر عن إطلالته ينطق خطأً. تعبير اللسان عن لمحات العقل المختلَسَة خطأ وعرضة للخطإ، حاشا قولَ المعصوم ﷺ ونطقَه حين بلغ عن ربه «كنت سمعه وبصره ويده ورجله».

وقد تُسْعِف لغة المجاز والكناية والاستعارة اللسان ليعبر عن وجدان القلب ومعرفته لربه عز وجل.

علوم الأولياء المتعلقة بالأكوان وعالم الملكوت وكلِّ ما هو مخلوق يجوز للعقل أن يتكلم فيها باللسان العام ليقرب لأذهان السامعين والقارئين علم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. القنواتُ بين العقل والقلب في عالم الخلق مفتوحة. أما معرفة الحق جل وعلا فالفتح القلبي فرحةٌ للقلب ودهشة للعقل لا تنتهي.

نتقدم بشهادات لرجال الحديث المشاركين في علم السلوك والمعرفة قبل أن نحضُر مجالس أهل الفن أئمةِ العرفان رضي الله عنهم ورضوا عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لفظ «الوصول» لفظ مُجْمَل، فإنه ما من سالك إلا وله غاية يصل إليها. وإذا قيل: وصل إلى الله، أو إلى توحيده، أو إلى معرفته، أو نحو ذلك، ففي ذلك من الأنواع المتنوعة والدرجات المتباينة ما لا يحصيه إلا الله تعالى».[1]

وقال شيخ الإسلام ابن القيم: «ومراد القوم بالاتصال والوصول اتصال العبد بربه ووصوله إليه. لا بمعنى اتصال ذات العبد بذات الرب كما تتصل الذاتانِ إحداهما بالأخرى، ولا بمعنى انضمام إحدى الذاتين إلى الأخرى والتصاقها بها. وإنما مرادهم بالوصول إزالة النفس والخَلْقِ من طريق السير إلى الله تعالى. ولا تتوهَّمْ سوى ذلك، فإنه عينُ المحال».[2]

وقال: «إن الوصول إلى البيت هو غاية الطريق، فإذا وصل فقد انقطعت طريقه، وانتهى سفره. وليس كذلك الوصول إلى الله. فإن العبد إذا وصل إلى الله جذَبه سيرُه، وقوي سفرُه. فعلامة الوصول إلى الله الجد في السير والاجتهاد في السفر (...). بداية الأمر الطلب، وتوسطه السلوك، ونهايتُه الوصول».[3]

(1) الفتاوي، ج 11، ص:389.

(2) مدارج السالكين، ج 3، ص:150.

(3) نفس المصدر، ص:316.

وذكر ابن تيمية رحمه الله مقامات العارفين فقال: «للمؤمنين العارفين بالله، المحبين له من مقامات القرب ومنازل اليقين ما لا تكاد تحيط به العبارة، ولا يعرفه حقَّ المعرفة إلا من أدركه وناله. والرب رب، والعبد عبد. ليس في ذاته شيء من مخلوقاته وليس في مخلوقاته شيء من ذاته».[1]

وعرّف ابن القيم أعلى الله مقامه العارف فقال: «العارف عندهم من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم صدقَ الله في معاملته، ثم أخلص له في قصوده ونياته، ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم تطهَّر من أوساخه وأدرانه ومخالفاته، ثم صبر على أحكام الله في نعمِه وبليّاتِه، ثم دعا إليه على بصيرة بدينه وآياته».[2]

وهذه مقالة له رحمه الله أكتبها عنه مرة بعد مرة يُبْرز فيها مرتبة العارف حتى لا يظن العاميُّ أن العارف عالم من العلماء الورّاقين. قال: «إن العارف صاحب ضياء الكشف أوسعُ بطانا وقلبا وأعظم إطلاقا بلا شك من صاحب العلم. ونسبته إليه كنسبة العالم إلى الجاهل»[3].

العارفون بالله صنف من الأولياء، أعلاهم مرتبة وأقربهم قربا وأَضْوَأُهم قلبا. هم رحمة في العالمين يُشعون على الخلق من نور النبوة الذي ورثوه من رسول الله ﷺ الذي أرسله الله رب العالمين رحمة للعالمين. قال ابن القيم: «جعل الله انبساطهم مع الخلق رحمة لهم، كما قال تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ** ﴾[4]. فالرب سبحانه بسط هؤلاء مع خلقه، ليقتدِيَ بهم السالك، ويهتديَ بهم الحيران، ويُشفى بهم العليل، ويُستَضاءَ بنور هدايتهم ونصحهم ومعرفتهم في ظلمات دياجي الطبع والهوى. فالسالكون يقتدون بهم إذا سكتوا، وينتفعون بهم إذا نطقوا. فإن حركاتِهم وسكونَهم لمّا كانت بالله ولله وعلى أمر الله جذبت قلوب الصادقين إليهم»[5].

---

(1) الفتاوي، ج 11، ص:74.

(2) مدارج السالكين، ج 3، ص:337.

(3) نفس المصدر، ج 2، ص:420.

(4) آل عمران، 159.

(5) مدارج السالكين، ج 3، ص:301.

العارفون الكمّل الوارثون الخلفاء هم بقية الله في الأرض، صحبتهم هي مفتاح السلوك، وباب السير، وزاد السفر. «هم الصفوة من عباده (ألبسهم) ملابس العرفان، خصهم من بين عباده بخصائص الإحسان، فصارت ضمائرهم من مواهب الأنس مملوءة، ومرائي قلوبهم بنور القدس مجلوَّة. فتهيأت لقَبول الأمْداد القُدسيَّة، واستعدت لورود الأنوار العُلْوِيَّة، واتخذت من الأنفاس العطريَّة بالذكر جُلاّسا، وأقامت على الظاهر والباطن من التقوى حرّاسا، وأشعلت في ظُلَمِ البشريّة من اليقين نبْراسـاً، واستحقرت فوائد الدنيا ولذاتها، وأنكرت مصائد الهوى وتبعاتها، وامتطت غوارب الرَّغَبُوتِ والرَّهَبُوتِ، واستفرشت بعلو همتها بساط الملكوت، وامتدت إلى المعالي أعناقُها، وطَمَحَتْ إلى اللامع العلويِّ أحداقُها. واتخذت من الملإِ الأعلى مُسامراً ومحاوراً، ومن النور الأعز الأقصى مزاورا ومُجاورا.

«أجساد أرضية بقلوب سماوية، وأشباح قد شبهت بأرواح عرشية. نفوسهم في منازل الخدمة سيارة، وأرواحهم في فضاء القرب طيارة. مذاهبهم في العبودية مشهورة، وأعلامهم في أقطار الأرض منشورة».[1]

العارفون بالله قرة عين الوجود، أحبهم الله عز وجل فعشقتهم الأكوان. قال الإمام الغزالي: «اعلم أن لكل ذرة في السماوات والأرض مع أرباب القلوب مناجاةً في السرِّ. وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى. فإنها كلمات تَسْتَمِدُّ من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له (...). ثم إنها تتناجى بأسرار الـمُلْك والـمَلَكوت، وإفشاء السرِّ لُؤْمٌ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار».[2]

المعرفة شجرة نورانية لا شرقية ولا غربية. قال الإمام الرفاعي قدس الله سره العزيز: «عندي أن المعرفة كشجرة يغرسها ملِكٌ في بستانه، ثمينة جواهرُها، مثمرةٌ أغصانها، حُلوة ثمارها، طريفة أوراقها، رفيعة فروعها، نقية أرضها، عذب ماؤها، طيب أريجُها. صاحبها مشفق عليها لعزتها، مسرور بحسن زَهرتها. يدفع عنها الآفاتِ، ويمنع عنها البلياتِ. وكذلك شجرة المعرفة التي يغرسها الله تعالى في بستان

(1) السهروردي في «عوارف المعارف على هامش الإحياء»، ج1، ص:184.

(2) الإحياء، ج4، ص:214.

قلب عبده المؤمن، فإنه يتعهدها بكرمه، ويرسل إليها كلّ ساعة سحائبَ المنة من خزائن الرحمة، فيُمطر عليها قطرات الكرامة، برَعْد القدرة، وبرق المشيئة، ليطهرها من غُبار رؤية العبوديّة. ثم يرسل عليها نسيم لَطائِفِ الرأفة من حُجُبِ العناية ليُتمَّ لها شرف الولاية بالصيانة والوقاية.

«فالعارف أبدا يطوف بسره تحت ظلالها، ويشم من رياحينها، ويقطع منها بمِنْجل الأدب ما فسد من ثمارها وحل فيها من الخبث والآفة. فإذا طال مُقام سرِّ العارف تحتها، ودام جَوَلانُه حولها، هاجَ أن يتلذذ بثمارها. فيمُد إليها يد الصفاء، ويجتني ثمارها بأنامل الحُرْمَة، ثم يأكلها بفم الاشتياق، حتى تغلبَه نار الاستغراق. فيضربُ يد الانبساط إلى بحر الوِداد، فيشرب منه شَربة يَسْكَر بها عن كل ما سوى الحقِّ سكرة لا يفيق منها إلا عند المعاينة. ثم يطير بجناح الهمة إلى ما لا تدركه أوهام الخلائق».[1]

ومثل الرفاعي رحمه الله المعرفة بشجرة لها أغصان ليخاطب فينا بلطائف التشبيه حسَّنا الخامد وطموحنا الراكد. قال: «مثل المعرفة كشجرة لها ستة أغصان. أصلها ثابت في أرض اليقين والتصديق، وفرعها قائم بالإيمان والتوحيد. فأول أغصانها الخوف والرجاء مقرونا بغصن الفكرة. والثاني الصدق والوفاء مقرونا بغصن الإخلاص. والثالث الخشية والبكاء مقرونا بغصن التقوى. والرابع القناعة والرضى مقرونا بغصن التوكل. والخامس التعظيم والحياء مقرونا بغصن السكينة. والسادس الاستقامة والوفاء مقرونا بغصن الود والمحبة (...). ومن لم يكن له نور من سراج التوفيق، ولو جمع الكتب والأخبار والأحاديث كلها، لا يزداد إلا نفورا. كمثل الحمار يحمل أسفارا».[2] قلت: التوفيق صُحبة الموفقين والسابقة عند رب العالمين.

وعن علم المعرفة يقول الولي الكامل الرفاعي: «أي سادة! علم المعرفة هو العلم بالله تعالى. وهو نور من أنوار ذي الجلال، وخصلة من أشرف الخصال. أكرم الله قلوب العقلاء، فزيّنها بحسن جماله، وعظيم شأنه، وخص به أهل ولايته ومحبته،

(1) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص:26.

(2) نفس المصدر، ص:72-73.

وفضله على سائر العلوم. وأكثرُ الناس عن شرفه غافلون، وبلطائفه جاهلون، وعن عظيم خطره ساهون، وعن غوامض معانيه لاهون. فلا يدركه إلا أرباب القلوب الموفقون».[1]

للعارف أجنحة يطير بها في فضاء المعاملة والمعرفة. قال الإمام الرفاعي: «أي سادة ! للعارف أربعة أجنحة: الخوف والرجاء والمحبة والشوق. فلا هو بجناح الخوف يستريح من الهرب، ولا بجناح الرجاء يستريح من الطلب، ولا بجناح المحبة يستريح من الطرب، ولا بجناح الشوق يستريح من الشغَب (...). عمَلُ العارف خالص للمولى، وقولُه مُستأنِس بالذكرى، وفكره بالأفق الأعلى. فمَّرةً يتفكر في نعم ربه، ومرة يجول حول سُرادِقات قدسه. فحينئذ يصير حرّا عبدا، عبدا حرّا، وغنيا فقيرا وفقيرا غنيا».[2]

العارف في غمرة الفرح والطرب بربه، جاءته التُّحَف والألطاف تَسْلِيةً له من وَعْثاء السفر، وطول الشقة، ومعاناة الأهوال. لاح لقلبه نور الله فهامت روحه حبا. قال الرفاعي: «يا هذا! لو أن العالم فريقان، فريق يروِّحني بمراوحَ من نَدٍّ، وفريق يقرض جسمي بمقارضَ من نار، لما ازداد هؤلاء عندي ولا نقص هؤلاء. أي بُنَيَّ! اعلم أن من عرف الله حق معرفته تلاشت همته تحت سرور وحدانيته. ولا شيء من العرش إلى الثرى أعظمُ من سرور العارف بربه. والجنة بكل ما فيها في جنب سروره بربه أصغرُ من خردلة لما علم أنه أكبر من كل كبير وأعظم من كل عظيم.

«فمن وجده فأي شيء لا يجد! وبأي شيء يشتغل بعده! وهل رؤية غيره إلا من خساسة النفس، ودناءة الهمة، وقلة المعرفة به! وهل يكون لباس أجمل من لباس الإسلام، أو تاج أجلَّ من تاج المعرفة، أو بساط أشرف من بساط الطاعة؟»[3]

(1) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص:68.

(2) نفس المصدر، ص:39.

(3) نفس المصدر، ص:110.

قلت: جاءتك أخبار الرحلة المجيدة، والكرامة الفريدة، على لسان أولياء الله. كابدوا أهوال الخوف من تصرّم العمر دون الحصول على ما حصل عليه الرجال، وتنسموا نسائم الرجاء في لحظات المناجاة، واستغرقوا في ذكر الله، يبكون على الله، حتى امتدت إليهم يد التوفيق فصحبوا الموفق ووُلِدُوا الميلاد القلبي. لا تجيء المعرفة بالتمني والتغني يا غلام!

قال متنسم لشذى التجليات الإلهية:

يحدثني النسيم عن الخُزامَى ويقرئني عن الشِّيحِ السلاما
فهِمْتُ بما فَهِمْتُ وطبتُ وَجدا فما أحلاه لي لو كان داما!
ويسري تحت جُنح الليل سرا فيوقظني وقد هجع النَّدامَى
وأسكرني شذاها حين هبت كأنّي قد ترشَّفْتُ المُداما
يعارضني بأنفاسٍ مراض كأنفاسي وقد ملِئت غراما
وقد عُرِفَتْ بطيب العَرْف لما كساها اللُّطفُ أخلاقا كِراما
أهيم بنشرها طربا ووجدا فيبْدي البرقُ عن طربي ابتساما
تمر على الرياض بأرض نَجد فتنعطف الغصون لها احتشاما
يقلّقُني حمام الأيكِ نَوْحًا ويُذْكرني المنازلَ والخياما
خيامٌ تجمع الأحبابَ فيها وفيها يبلغ القلب المَراما
تجلّى وجه من أهواه فيها بومضَة نوره يجلو الظلاما

وقلت:

رَبَّاهُ مَنَحْتَ القَوْمَ هُدًى وَسَنَاءً وَتُقًى فِي الصَّدْرِ
وَتَوَلَّيْتَ رِجالاً وَصَلُوا عَتَبَاتِ القُرْبِ والنَّصْرِ
رَبَّاهُ فَأَلحِقْنِي بِهِم لِمَقَامٍ يَتَضَوَّعُ بِالعِطْرِ

مشاهدة الله عز وجل

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾. اللهم إني غليظ فليني، وشحيح فسخني، وضعيف فقوني.

رؤيا الله عز وجل في المنام أعظم وأفخم بشارة يتلقاها المؤمن مع رؤيا رسول الله ﷺ. وهي نموذج للرؤية الحقيقية في الآخرة يتنعم المؤمنون والمؤمنات بالنظر إلى وجهه الكريم كما جاء في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1]. وكما جاء في أحاديث صحيحة منها قوله ﷺ: «إذا دخَل أهل الجنة الجنة يقول تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشفُ الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى. ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[2]. أخرجه مسلم والترمذي رحمهما الله عن صهيب الرومي رضي الله عنه.

واختلفت أمُّنا عائشة رضي الله عنها مع سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في رؤية رسول الله ﷺ ربّه ليلة المعراج. فابن عباس حَبر الأمة وعالِمها، يتبعه في ذلك أكثر علماء السنة، يقول إن رسول الله ﷺ رأى ربه تلك الليلة، وتُنكر ذلك أشدَّ الإنكار أمنا عائشة ويتبعها طائفة من العلماء. وتقول لمسروق بن الأجدع: «من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب». الحديث رواه الشيخان والترمذي رحمهم الله.

لأولياء الله في الدنيا رؤية قلبية تسمى مشاهدة، هي عربون معجل ونموذج لرؤيته في الآخرة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الصحابة والتابعون وأئمة المسلمين على أن الله يرى في الآخرة بالأبصار عيانـًا، وأن أحدا لا يراه في الدنيا بعينه. لكن يُرى

(1) القيامة، 22-23.

(2) يونس، 26.

في المنام، ويحصل للقلوب من المكاشفات والمشاهدات ما يناسب حالها، ومن الناس من تقوى مشاهدةُ قلبه حتى يظن أنه رأى ذلك بعينه وهو غالط. ومشاهدات القلوب تحصل بحسب إيمان العبد ومعرفته في صورة مثالية».[1]

خالفَ المعتزلة جمهور العلماء فزعموا أن رؤية الله بالأبصار مستحيلة كما زعم ذلك الجهم بن صفوان وأتباعه المعطِّلَةُ. واستدل المعتزلة على رأيهم المخالف للحديث الصحيح ولإجماع علماء السنة بأدلة منها أن المرئيَّ بالبصر لابد أن يكون جسما وذلك في حق الله مستحيل، وأن قول الله تعالى: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾[2] حجة حاسمة، وأن قوله لموسى: ﴿لَن تَرَانِي﴾[3] نفي يستغرق المستقبل دنيا وأخرى. وأولوا قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[4] بأنها من الانتظار لا من النظر.

رأي الإمام أحمد رحمه الله وأهل الحديث أن الله عز وجل يرى في الآخرة بالبصر كما جاء بذلك الحديث، وأن الكلام في الموضوع بدعة، وأن الجدل فيه مرفوض.

وندد الأشعري رحمه الله برأي المعتزلة، وأثبت الرؤية محتجا بالنصوص ومستظهرا بالنظر العقلي الذي يثبت أن كل موجود يمكن أن يرى، وجوده هو الشرط لا جسميته، والله عز وجل موجود.

أما المشايخ الصوفية فاتفاقهم على رؤية الله في الآخرة بالأبصار ورؤياه في المنام في الدنيا ومشاهدته القلبية إجماعي.

ويستأنس العارفون بالمأثور عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حين قال لابن الزبير رضي الله عنهما وقد خطب إليه ابنته عند الكعبة: «أتحدثني عن النساء ونحن نتراأى الله في طوافنا!». قال ابن تيمية معلقا على كلمة ابن عمر: «ذلك إنما يتعلق بالمثال العلمي المشهود».[5]

---

(1) الفتاوي، ج 2، ص:336-337.

(2) الأنعام، 103.

(3) الأعراف، 143.

(4) القيامة، الآيتان: 21-22.

(5) الفتاوي، ج 5، ص:251.

للنظر إلى وجه الله عز وجل في الآخرة ولمشاهدته القلبية في الدنيا لذة هي أعظم النعيم وأفخمه. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «كمال النعيم في الدار الآخرة به سبحانه برؤيته، وسماع كلامه، وقربه ورضوانه. لا كما يزعم من يزعم أنه لا لذة في الآخرة إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح. بل اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق تعالى أعظمُ مما يخطر على البال أو يدور بالخيال. وفي دعاء النبي ﷺ الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان والحاكم في صحيحيهما: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مُضِرَّة ولا فتنة مُضِلة».[1]

لا سبيل للدخول مع العارفين المشاهدين في تجلياتهم لمن لم تصف مرآته. فلا يبقى بيدنا إلا أن نستمتع بمشهد النظر في الآخرة كما رواه الشاهد الصادق ﷺ، ثم نستمع لشهادة العارفين، فنقيسُ ونسأل الله أن يلحقنا بالصالحين دنيا وأخرى.

روى أبو يعلى رحمه الله باختصار بإسناد رجاله رجال الصحيح، وروى الدارقطني رحمه الله بإسناد رجاله ثقات عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ هذا المشهد الجليل، قال ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام وفي كفه مثل المرآة البيضاء يَحملها، فيها كالنُّكتَةِ السوداء. فقلت: ما هذه التي في يدك يا جبريل؟ قال: هذه الجمعة. قلت وما الجمعة؟ قال: لكم فيها خير. قلت: وما يكون لنا فيها؟ قال: تكون عيدا لك ولقومك من بعدك، وتكون اليهود والنصارى تبعـًا لكم. قلت: وما لنا فيها؟ قال: لكم فيها ساعةٌ لا يسأل اللهَ عبدُه فيها شيئا هو له قَسْمٌ إلا أعطاه إياه، وليس له بقَسْمٍ إلا ادُّخِر له في آخرته ما هو أعظمُ منه. قلت: ما هذه النكتة التي فيها؟ قال: هي الساعة، ونحن ندعوه يوم المزيد. قلت: وما ذاك يا جبريل؟ قال: إن ربك أعد في الجنة واديا فيه كُثبانٌ من مسك أبيض. فإذا كان يوم الجمعة هبط من عليين عز وجل على كرسيه، فيحُف الكرسيَّ بكراسيَّ من نور، فيجيء النبيئون حتى يجلسوا على تلك الكراسي، ويحف الكرسيَّ بمنابر من نور ومن ذهب مكلَّلة بالجوهر، ثم يجيء الصديقون والشهداء حتى يجلسوا على تلك المنابر، ثم ينزل أهل الغُرف من غرفهم حتى يجلسوا على تلك الكثبان.

(1) طريق الهجرتين، ص:71.

«ثم يتجلى لهم عز وجل فيقول: أنا الذي صَدَقْتُكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي! وهذا محل كرامتي فسلوني!

«فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم، فيفتح لهم في ذلك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وذلك مقدار مُنْصَرَفِكُمْ من الجمعة. ثم يرتفع على كرسيه عز وجل، وترتفع معه النبيئون والصديقون والشهداء. ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم، وهي لؤلؤة بيضاء، وزُمُرُّدَة خضراء، وياقوتة حمراء، غرفها وأبوابُها منها. وأنهارها مطَّرِدَةٌ فيها. وأزواجها وخدّامها. وثمارها متدلياتٌ فيها.

«فليسوا إلى شيء بأحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا منه نظرا إلى ربهم عز وجل ويزدادوا منه كرامة».

هذه بُحبوبة النعيم، يوم يدعى أحباب الله إلى كثبان النظر ومنابره وكراسيه. يومئذ تظهر فضيلة الصديقية والشهادة، جنبا إلى جنب يصطف الصديقون والشهداء مع النبيئين والمرسلين. طوبى لمن قسم الله لهم الحسنى وزيادة! اللهم اجعلنا منهم كرما ومنا.

نعيم لا يوصف قَرَّبَتْهُ لمداركنا الدنيوية تحبيبا وتشويقا ترجمةُ القوي الأمين جبريل عليه السلام في حواره المربي لنا مع عروس ذلك المشهد تاج النبيئين محمد ﷺ. وللأولياء منذ هذه الدار، كلٌّ بحسب مقامه، ذوق قلبي لذلك النعيم الفخيم.

من الأولياء من يتجلى الله عز وجل لقلبه في الصور الحسية والمثالية المدركة، ومنهم من يتجلى لهم في المعنى الذي لا يدركه الحس ولا الخيال، ومنهم من يشهده به سبحانه لا بنفسه. وهذه هي المرتبة العظمى. مراتب ثلاث: علم اليقين، ثم عين اليقين، ثم حق اليقين.

قال الإمام أحمد السرهندي رحمه الله مجدد الطريقة، ومحيي الملة في ربوع الهند على رأس الألف الهجرية: «التجليات الكائنة في الصور الحسية والمثالية، وكذلك التجليات الكائنة في حجب الأنوار، داخلة في علم اليقين في أيِّ صورة كانت، وأيِّ نور كان. وسواء كان النور مكيفا أو ملونا أو متناهيا أو لا، محيطا كان بالكائنات أو لا (...).

«وعين اليقين عبارة عن شهود الحق سبحانه بعد أن كان معلوما بالعلم اليقين. وهذا الشهود مستلزِم لفناء السالك. وعند غلبة الشهود يكون تعيُّنه متلاشيا بالكلية، ولا يبقى أثر منه في عين شهوده، ويكون فانيا ومُسْتَهْلَكا في الشهود (...).

«وحق اليقين عبارة عن شهوده سبحانه بعد ارتفاع التعيُّن، واضمحلال المتعيِّن. وشهوده هذا للحق بالحق سبحانه لا به. لا يحمل عطايا الملك إلا مطاياه! وذلك يُتصور في البقاء بالله الذي هو مقام «بي يسمع وبي يبصر» الذي يَهَبُ الحق سبحانه فيه للسالك وجودا من عنده بمحض عنايته بعد تحققه بالفناء المطلق الذي هو الفناء في ذاته وصفاته سبحانه وتعالى. ويُخرجه من السكر والغيبة إلى الصحو والإفاقة. ويقال لهذا الوجود «الوجود الموهوب الحقاني»».[1]

قلت مع الإمام الرباني: ما للتراب ورب الأرباب! إلا أن يجودَ على عبده، في سابقة علمه، بالوعد الـمُنجز أن يكلمه ويجمله ويتقبله مع الذين أنعم عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً. ذلك الفضل من الله. وكفى بالله عليما.

لكن هذا المخلوقَ الترابيَّ منه ما لا يتحرك إن سمع بأن الفرسان اشتدت في الطلب في ميدانٍ رهانُه فضلُ الله، وكرامة الله، وولاية الله. علامة خسران التراب الخاسر أن لا تحدثه نفسه ساعة من عمره أن ينهض ليتكفف من ربه عز وجل بالذلة والضراعة والرغبة والإرادة والصحبة والذكر والصبر والطاعة والاستقامة على الكتاب والسنة ميلادا جديدا، ووجودا موهوبا، وقلبا منوّرا، وكرسيا من تلك الكراسي ومنبراً.

قال الإمام عبد القادر قدس الله سره: «قيل لبعض الصالحين. هل رأيت ربَّك؟ فقال لو لم أره لتقطعتُ مكاني! إن قال قائل كيف تراه؟ فأقول: إذا خرج الخلق من قلب العبد، ولم يبق فيه سوى الحق عز وجل، يريه ويقربه كما يشاء. يُريه باطنا كما أرى غيره ظاهرا. يريه كما أرى نبينا محمدا ﷺ نفسَهُ ليلةَ المعراج.كما يُرِي

(1) مكتوبات الإمام الرباني، ج 1، ص:300-301.

هذا العبد نفسه. ويقربه ويحدثه مناما. فقد يحدث قلبه يقظة. يغمض عيني وجوده (قلت: ويعطيه الوجود الموهوب).

«ويعطيه معنى آخر فيراه به. يرى قربه. يرى صفاته. يرى كراماته وفضله وإحسانه واللطف به. يرى بره وكَنَفَه.

«من تحققت عبوديته ومعرفته لا يقول أرني ولا تُرني! ولا أعطني ولا تعطني! يصير فانيا مُسْتَغْرَقًا. ولهذا كان يقول بعض من وصل إلى هذا المقام: إيشْ عليَّ مني! ما أحسن ما قال! (معنى قوله): أنا عبده، وليس للعبد مع سيده اختيار ولا إرادة.

«اشترى رجل مملوكا. وكان ذلك المملوك من أهل الدين والصلاح. قال له: يا مملوك إيش تريد أن تأكل؟ فقال: ما تطعمني! فقال له: ما الذي تريد أن تلبس؟ فقال: ما تُلْبسني! فقال له: أين تريد تقعد من داري؟ فقال: موضعَ ما تريد تُقْعِدُني! فقال: ما الذي تحب أن تعمل من الأشغال؟ فقال: ما تأمرني! فبكى الرجل وقال: طوبى لي لو كنت مع ربي عز وجل كما أنت معي! فقال له المملوك: يا سيدي! وهل للعبد مع سيده إرادة أو اختيار! فقال له: أنت حر لوجه الله. وأريد أن تقعد عندي حتى أخدمك بنفسي ومالي.

«كل من عرف الله عز وجل لا يبقى له إرادة ولا اختيار، ويقول: إيش عليَّ مني! لا تزاحم القدر في أموره ولا في أمور غيره. آحاد أفراد من عباد الله عز وجل يزهدون في الخلق، ويستأنسون بالخلوات. يستأنسون بتلاوة القرآن، وبقراءة كلام الرسول ﷺ. فلا جرم تصير لهم قلوب مستأنسة بالحق، قريبة منه يرون بها نفوسهم ونفوس غيرهم. تصح قلوبهم فلا يخفى عليهم شيء مما أنتم عليه. يتكلمون على خواطركم، ويخبرونكم بما في بيوتكم.

«ويحك! كن عاقلا! لا تزاحم القوم بجهلك! بعدُ ما خرجت من الكُتَّاب صعدت تتكلم على الناس! هذا أمر يحتاج إلى إحكام الظاهر وإحكام الباطن. ثم الغنى عن

الكل. ثم يحتاج أن تقع في ضرورتين: الأولى أن لا يبقى في بلدتك غيرُك فتتكلم على الناس ضرورةً، والأخرى أن تُؤْمر بالكلام من حيث قلبُك، فحينئذ ترقى إلى هذا المقام لترد الخلق إلى الخالق.

«ويلك! تدعي أنك صوفي وأنت كَدِر! الصوفي من صفا ظاهره وباطنه بمتابعة كتاب الله عز وجل وسنة رسوله. فكلما ازداد صفاؤه خرج من بحر وجوده، ويترك إرادته واختياره ومشيئته من صفاء قلب. أساس الخير متابعة النبي ﷺ في قوله وفعله. كلما صفا قلب العبد رأى النبي ﷺ يأمره بشيء وينهاه عن شيء. يصير كله قلبا وتنعزل بِنْيته. يصير سرّا بلا جَهر، صفاءً بلا كدر. يتنحى عنه قِشْر ظاهره إلى ناحية، ويبقى لبا بلا قشر. يصير مع النبي ﷺ من حيث معناه. يتربى قلبه معه وبين يديه. يصير يدُه في يده».[1]

قلت: إن ترك الاختيار والإرادة علامة نزول السكينة على من صفا قلبه. أما قبل أن تعرف ما اسمك في الملكوت الأعلى فما أقعدك عن الطلب وعن الاستماتة فيه، وعن هجر الرقاد والتقزز من الحياة!

أنشد حائر في معرفة ربه عز وجل، قال:

أجيروني فإني قد وَحَلتُ ... وفي نفي وإثبات حصلتُ

أنزه خالقي عن ذا وعن ذا ... وأعرفه وليسَ كمن جهلت

وقال واصل يتملّى قلبُه جمال التجلي الإلهي:

يا قلب بشراك أيام الرضى رجعت ... وهذه الدار بالأحباب قَد جَمَعَتْ

أما ترى نفحات الحي قد طلعت ... أنفاسُها وبروق القُرب قد لمعت

فعش هنيّاً بوصلٍ غيرِ منفصل ... معْ من تحب وحُجْب الهجر قد رُفِعَتْ

وانظر جمال الذي من أجل رؤيته ... قلوب عشاقه في حبه انصدعت

(1) الفتح الرباني، ص:254.

وقلت:

يَا قَلبِ بُشْرَى فالَّذِي تَرْجُوه جَادَ بِهِ العَطَاءْ
ذَهَبَ الظَّلاَمُ وَنَوَّرَتْ جَنبَاتُ أَرْبُعِنَا الضِّيَاءْ
وَمَضَتْ بُروقُ القُرْب فَالعِرْفَانُ جا والفَتْحُ جَاءْ

شعب الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ أعوذ بك من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وشماتة الأعداء. وأعوذ بك من السجن والقيد والسوط.

لما صنفت شعب الإيمان رتبت من الإيمان طلب العلم وبذله، ثم التعلم والتعليم بآدابه الشرعية، ثم تعلم القرآن وتعليمه، ثم تعلم الحديث الشريف واتباع السنة النبوية، ثم التعليم بالخطابة، ثم التعليم بالمواعظ والقصص.

لم أتعرض في تصنيفي على مستوى الإيمان أن العلم ظاهر وباطن، ولا إلى انفتاح عين القلب، ولا إلى الفراسة وعلوم الأولياء، ولا إلى المعرفة والوصول ومشاهدة الله عز وجل. لم أفعل ذلك لأن هذه العلوم الإحسانية، وإن كانت من الدين، بل هي جوهر الدين وأشرف أركانه، ليست في متناول عامة المؤمنين الذين يتكون منهم حزب الله وجنده.

فمِنْ مطالع الإحسان أحاوِر هنا الدعاة المعرضين عن التربية الإحسانية، والدعاة الذين لم يسمعوا سمعا مُجْدِيا عن الإحسان.

يا أيها النوابغُ المهتمون بمصير الأمة، المستقبِلون بصدق وحماس وعدَ الله بالنصر الظاهر في آفاق الصحوة الإسلامية، الحاملون أعباء الهم وأعباء التخطيط والتنظير والتنظيم والحركة.

إن مجهوداتكم لَحميدة، وإن جهادكم لمشكور إذ تعلِّمون الناشئة الإسلامية المباركة أن الإنسانية في حاجة إلى الدين الصحيح دين الإسلام، وإذ تخبرونها أن العالم من حولنا عالَمُ توازن القوى وأنه لا سبيل إلى نهضة المسلمين إلا بالوحدة تحت حكم الله، وإذ توضحون أن عمارة الأرض والاستخلاف فيها مطلب شرعي

يجب أن تُرْصَدَ لتحقيقه الجهود الخيِّرة حتى يظهر الله هذا الدين على الدين كله ولو كره الكافرون.

لا يستهين عاقل، ولا يستهين مؤمن بالطاقة التي تجمعونها حولكم، القادرة بإذن الله على تقويض الباطل ودكِّ حصونه.

لكنَّ سؤال الربانيين إياكم يتلخص في بحث الأسباب التي جعلت النداء العقلاني يعلو من منابركم حين يقال: إن الإسلام دين العقل والعلم، ثم يُسكَت عن الغيب سكوتا أخرس، أو سكوت تحريف، أو سكوت إهمال.

مفهوم «العلم» حين يطلق في عصرنا ينصرف إلى العلوم الكونية الرائجة في الأرض، الضرورية للحياة، المهيمنة على مسار البشرية. فتدعو ضرورة أن يتحقق المسلمون بأسباب القوة الناطقَ الإسلاميَّ إلى التركيز على «المعرفة» و«أسلمتها»، وصياغتها صياغة إسلامية، وضبطها لتخدم الأهداف الإسلامية، ورصدها لتحمل الخير للناس كافة بدل أن تكون سبب الدمار الذي يهدد مستقبل العالم لسوء استعمال المشركين الكافرين إياها. وفي الانشغال بهذا التركيز انشغال عن العلم الإيماني وعن المعرفة الإحسانية. وكأنَّ اكتساب المعارف التكنولوجية هو الغاية التي ما بعدها غاية.

إن من اليقظة وفقه الواقع أن ندرك اتساع الفجوة التي تفصل عالم المستضعفين، ونحن المسلمين في مؤخِّرَة القافلة المقهورة، عن العالم المصنع الخبير بقضايا العلوم والتكنولوجيا. ومن الجهاد أن نوقد في الشباب الإسلامي إرادة التقدم بخطى ثابتة إلى معركة بناء القاعدة العلومية التكنولوجية الكفيلة بإعطائنا القوة المادية التي أمرنا في القرآن المنزل من عند رب العالمين بإعدادها. ومن الرجولة أن نَبُثَّ في نفوس الشباب الإسلامي الثقة بأن هذه الفجوة الهائلة بيننا وبينهم خطوةٌ يمكن قطعها بتوفيق الله في جيلين أو ثلاثة أجيال. ومن الإيمان أن نقاوم الاتجاه الاستسلامي الانهزامي الذي يصوِّر للمسلمين مستقبلهم على أنه خيارٌ بين حلين لا ثالث لهما: إما السير في ركاب اليابان والغرب والشرق في ذيل القافلة وإما الموت.

لكنَّ الوعيَ بالفجوة العلمية التكنولوجية، وإرادة عبورها وتقصيرها، انصرافٌ بالهمة والجهد والفكر شرَّ مُنْصَرَف إن لم يزامنه الشعور بالفجوة الهائلة في ديننا. من المنطلق الإحساني يتساءل المرء: ما هو الإسلام الذي يطمح إلى الجمع في تركيبة فريدة بين العلوم التجريبية وبين العلوم الشرعية الفقهية باعتبار أن الإسلام تشريع إلهي سماوي بديل عن التشريع الأرضي البشري! أين إيمان المؤمن وإحسان المحسن! أين الآخرة من الدنيا! أين الغاية التي خلق الله عز وجل لها الإنسان ودعاه لكرامته!

أخشى أن تكون ريحُ المنافسة مع ساكن الأرض حطت من سمو نظرتنا إلى الدين. إن لم نبدأ بنقد الجاهلية من جهة فقدها للمعنى والغاية نقدا كليا شاملا سقطنا في نقدٍ لها جزئيٍّ لن يلبث أن يُعقِبه تَبَنٍّ تدريجي لذهنيتها. إن الحضارة العالمة الصانعة التقنية آلة صماءُ رغم تَنَصُّتِها على الكواكب والنجوم، بكماءُ رغم ضجيجها المثير، عمياء رغم كواكبها الصناعية التي تترصد كل شيء في الأرض ورغم منظاراتها التي تفحص المجرّاتِ.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[1].

إن تلهفنا على اللحاق بالركب التكنولوجي مقدمة ضرورية للجهاد. لكن الرحلة الشاقة تكون تدحرجا إلى الهاوية إن لم نستحضر، وإن لم نتمثل في صميم صميمنا كل لحظة، أن هذه العلوم والاختراعات وسائلُ تملَّكَت البشريةَ الهائمة مع «العقل» الهائم، عقل الصم البكم الذين لا يعقلون، واستعبدتْها، فهي تسير بها مُكْرهة مسلسلة في مسلسل الإنتاج والاستهلاك إلى أسفل دركات الدوابِّيَّة.

الإحسان، وهو طلب وجه الله تعالى ومعرفته وعبادته كأننا نراه، هو الركن الأشرف في الدين. ذاك ما جاء سيدنا جبريل عليه السلام يعلمه الأمة حين جلس إلى حبيب الله ورسوله ﷺ يسأله: أخبرني عن الإسلام، أخبرني عن الإيمان، أخبرني عن الإحسان، أخبرني عن الساعة.

(1) الأنفال، 22.

سكوتنا عن الإحسان اقتضابا أو جهلا أو محاباةً لفكر حرفِيٍّ يكرَهُ أولياء الله ويرفضهم تفريطٌ في الدين، وخرق في الدين، وتضييع للدين، وفجوة في الدين. فإن تركنا هذا الانخراق يتسع، ونسينا ذكر الله، وتنكرنا لِحِلَقِ الذكر، واتهمنا من قال أحب الله وأحب رسول الله، وأوّلنا المعجزات، وجهَّلنا من تحدث عن الكرامات، وتغافلنا عن أعظم بشارة وأفخم إشارة وصلتنا من رب العالمين من أنه لا يزال العبد يتقرب إليه حتى يحبه فيكون سمعه وبصره ويده ورجله فإلى أين نجري؟

ديننا ناقص إن تمسكنا بإيمان الأخلاق والعبادة والاستقامة والطاعة والجهاد دون تطلع إحساني.

ديننا قضية محرفة معكوسة إن اعتبرنا الدين نظاما للجماعة يصوغها ويقنن لها ويوحدها ويوجه جهدها ونسينا أن لله عز وجل قصدا في تمييز العبيد بعضهم من بعض، فردٍ عن فرد، في سباق أعلن سبحانه انطلاقه في قوله: «سارعوا» «سابقوا» وخصص جائزته العظمى في قوله «كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به».

ماذا يبقى من القرآن إن ألغينا منه حبَّ الله للمحسنين، وحبَّه للتوابين والمتطهرين، وحبَّه للذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص، وحبَّه لقوم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم! ماذا بقي من القرآن إن جَمَّدْنا معاني أمراض القلوب وطبها وشفاءها وطمأنينتها وتنوُّرها! ماذا يبقى بعد إسقاط التوبة والإنابة والإرادة والصحبة في الله والصدق والمراقبة والمحاسبة والذكر والتفكر والتقوى والمحبة والتوكل ومخالفة النفس الأمارة والشيطان ومحاربة الهوى!

تبقى الصيغ الآمرة الناهية كأنها إلزام ونَكال إن لم تعلمنا التربية الإحسانية أن الله تعالى أرسل محمدا ﷺ رحمة للعالمين. أرسله شخصا منا، من أنفسنا، فردا ألقى عليه محبة منه ليضرب موعدا للصفوة من عباد الله عند كرسي الله يوم النظر إلى وجه الله.

تبقى، بدون العلم الإحساني والسلوك الإحساني، قصص أنبياء الله في القرآن، وقصص الأمم الهالكة وخبر الملائكة والجنة والنار والبعث والنشور حشوا وزيادات هامشية.

إن حِواري مع الدعاة لا يريد أن ننفُض اليدَ من الدنيا ومشاغلها. فذاك نكوص وارتكاس نعوذ بالله. وإن وجود الأمة وبقاءها على وجه الأرض تحمي بقوتها المادية والعددية بيضة الدين لهو الشرط الأول والضروري لحياة المسلم والمؤمن والمحسن. وإن الصورة الصوفية للسلوك صيغة مصغرة، صغرها الهروب من الساحة العامة، للإحسان الكامل الذي عاشه الصحابة رضي الله عنهم. فينبغي للدعاة أن لا يجفلوا من الإحسان ودعاة الربانية مخافةَ الانطواء كما انطوى الصوفية. ذاك زمان، وتلك ظروف، وهاتيك أعذار. ومستقبل المحسنين مرتبط في غد الخلافة الثانية بمصير الأمة، حظهم من الله مرتبط بقوة الأمة في الأرض، خلافتهم المعنوية مرتبطة بخلافة الأمّة في الأرض، رتبتُهم بين العارفين المحبوبين رهن بما قدموه من جهاد لتكون أمة الإسلام الوارثة في الأرض.

قال الولي الكامل الشيخ عبد القادر: «أولياء الله بالإضافة إلى الخلق صُم بُكم عُمي. إذا قربت قلوبهم من الحق عز وجل لا يسمعون من غيره، ولا يبصرون غيرَه. يُبيحهم القرب، وتغشاهم الهيبة، وتُفيدهم المحبة عند محبوبهم. فهم بين الجلال والجمال. لا يميلون يمينا ولا شمالا. لهم أمام بلا وراء (...). يخدُمهم الحكم والعِلم، يغذيهم الفضل ويُرويهم الأنس. من طعام فضله يأكلون، ومن شراب أنسه يشربون. عندهم شغل عن سماع كلام الخلق. فهم في واد والخلق في واد. يأمرون الخلق بأمر الله عز وجل، وينهونهم بنهيه نيابة عن النبي ﷺ. هم الوارثون على الحقيقة. شُغلهم ردُّ الخلق إلى باب الحق عز وجل. يركبون حجته عليهم، يوقعون الأشياء في مواقعها».[1]

وقال رحمه الله: «يا غلام! استدلَّ بصنعة الله عز وجل عليه. تفكر في الصنعة وقد وصلت إلى الصانع. المؤمن الموفق العارف له عينان ظاهرتان وعينان باطنتان.

(1) الفتح الرباني، ص:23.

فيرى بالعينين الظاهرتين ما خلق الله عز وجل في الأرض، ويرى بالعينين الباطنتين ما خلق الله عز وجل في السماوات. ثم يَرفع الحجُبَ عن قلبه فيراه بلا تشبيه ولا تكييف. فيصير مقربا محبوبا. والمحبوب لا يكتم عنه شيء.

«إنما تُرفع الحجب عن قلب تعرّى عن الخلق وعن النفس والطبع والهوى والشيطان. ألقى مفاتيح كنوز الأرض من يده، واستوى عنده الحجَر والمدَر. كن عاقلا! تدبّر ما أقول وتفَهَّمْ! فإني بلُبِّ الكلام أتكلم. بجوهره. بباطنه. بصحيح معانيه».[1]

وقال أكرمه الله: «يا قوم! اعرفوا هذا الخالق وتأدبوا بين يديه! مادامت قلوبكم بعيدة عنه فأنتم سَيِّئُو الأدب عليه، وإذا قربت حسن أدبها. هذيان الغلمان على الباب قبل أن يركب الـمَلِكُ، فإذا ركب جاء خرَسُهم وحسُن أدبهم لأنهم قريبون منه. كل منهم يهرب إلى زاوية.

«الإقبال على الخلق هو عين الإدبار عن الحق عز وجل. لا فلاح لك حتى تخلع الأرباب، وتقطع الأسباب، وتترك رؤية الخلق في النفع والضر. أنتم أصحاءُ مرضى! أغنياء فقراء! أحياءٌ موتى! موجودون معدومون!

«إلى متى هذا الإباقُ عن الحق عز وجل والإعراضُ عنه! إلى متى عمارة الدنيا وتخريب الآخرة! إنما لكل واحد منكم قلب واحد، فكيف يحب به الدنيا والآخرة. كيف يكون فيه الخلق والحق؟ (...).

«باطنك ظاهر عند الله عز وجل وعند خواصه من عباده. إذا وقع بيدك واحد منهم فتأدب بين يديه، وتب من ذنوبك قبل لقائه. تصاغرْ عنده وتواضع له. إذا تواضعت للصالحين فقد تواضعت لله عز وجل. فتواضع فإن من تواضع رفعه الله عز وجل».[2]

قال محب قلَّ أنيسه بعد فراق الأصحاب يحن إلى تلك الأيام والليالي:

(1) الفتح الرباني، ص:25.

(2) نفس المصدر، ص:49.

أحِـنُّ إلى نجـد ومـن حلَّ فـي نجـد ... ومـاذا الـذي يغنـي حنينيَ أو يُجـدي
وقـد أوطنـوها وادِعيـن وخلَّفـوا ... محبَّهـم رَهـنَ الصَّبَابـة والوَجـد
وضاقـت علي الأرض حتى كأنَّهـا ... وِشـاحٌ بِخَصْـرٍ أو سـوارٌ على زَنْـد
إلى الله أشكـو ما ألاقـي من الجـوَى ... وبعضُ الذي لاقيته من جوًى يُرْدي
فـراق أخـلاء وصـدُّ أحبـة ... كأن صروف الدهر كانت على وعد
ليـاليَ نجني الأنـس من شجـر المنى ... ونقطِفُ زهـر الوصل من شجر الصَّدِّ

وقلت:

مِـنَ الأحْبَـابِ يَاتِينَـا ... نَسِيمُ القُـرْبِ وَالوَصْـلِ
نُفَدِّيهِـمْ بِمُهْجَتِنَـا ... بِتَرْحَـالٍ وَفِي حَـلِّ
فَحَـيَّ اللهُ مَـوْلاَنَـا ... فَتَى الإحْسَانِ والعَـدْلِ

الفصل الثامن

العمل

- أحب الأعمال إلى الله عز وجل
- عبودية الجوارح
- أفعال العباد
- التكسب
- تطبيق الشريعة
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- الدعوة والدولة
- الشورى
- كلمة تدين لكم بها العرب
- العلماء العاملون
- شعب الإيمان

أحب الأعمال إلى الله عز وجل

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.
اللهم إن ذنوبي لا تضرك، وإن رحمتك إياي لا تنقصُك.

قال الله عز وجل: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ**﴾(1).

الغاشية هي القيامة التي تأتي الناسَ وتنزل عليهم. والعاملة الناصبة هم الكفار المشركون، تعبوا في الدنيا وأنجزوا أعمالا كثيرة، فكانت لهم من أعمالهم النتائج الطبيعية في الدنيا، لكن الله عز وجل أبطلها وأحبطها في الآخرة فلا يكون لها ثَمَّ من نتائج إلا الخسران المبين، فهي لقصور نتائجها على الدنيا الفانية كالهباء المنثور.

أما أعمال المؤمنين، فإن كانت شبيهة في إعطاء النتائج السببية في الدنيا مع أعمال الكفار، فإن لها بقاء أبديا على صورة ثواب وجزاء ونعيم. أعمال المؤمنين سعي مَرْضِيٌّ في الدنيا إن حسَّنَه الإتقان، مرضِيٌّ في الآخرة إن زكّاه الإيمان وزكتهُ النية.

لأعمال المؤمنين معنىً، ولأعمال الخلق أجمعين، لأن الله عز وجل ﴿**خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾(2). إنَّ على أفعال العباد في الدنيا يترتبُ ظهورهم على قوى الكون وأرزاقه التي سخرها الله جل جلاله للعالمين، ويترتب جزاء الآخرة السرمديّ.

(1) الغاشية، الآيات الأولى.

(2) الملك، 2.

بأعمال الخلق يُجازى الخلق هنا وهناك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]. «يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا (...). يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها. فمن وجد خيرا فليحمد الله. ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه». الحديث القدسي رواه مسلم والترمذي رحمهما الله عن أبي ذر رضي الله عنه.

جزاء الله جلت عظمته على الأعمال يُحْصَى فيه روح الأعمال وهي النية، وكتلة الأعمال ومقدارها وزمانها ومكانها واستمرارها، ثم نجاعَتها وفائدتها وصوابُها. فليس سواء من أخطأ وبدد جهوده كمن بلغ الغاية الحسنة من عمله. قال رسول الله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر». رواه البخاري رحمه الله عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

شفعَ للعمل الخطإِ في الآخرة إخلاصُ العامل واجتهاده فأصاب هنالك أجرا واحدا، وفاته أجر الدنيا وحسنتُها كما فاته أجر الضِّعف في الآخرة لِما فرَّط ثم لم يبلغ الغاية المرجوة من فاعلية وإتقان وصيانة لحقوق العباد. لا يَتَهِمَنَّ أحد القَدَر بسوء نتائج أعماله هنا وهناك. وإن المسلمين الذين خانهم عملُهم، أو تكاسلوا وقعدوا عن جلائل الأعمال، اكتفاءً بفرائض العين من صلاة وصيام، لَمِنَ الصنف الخاسر في الدنيا إن كان الكفار خاسرين في الآخرة.

إن الذي يقابل خسران الآخرة كما يقابل النقيضُ النقيضَ، ومن ثَمَّ يكون هو الفلاحَ المطلوبَ من الأمة المحسنة، هو الإحراز على حسنة الدنيا والآخرة معا، بالعمل الصالح للدنيا بجدواه وصوابه، الصالح في الآخرة بإخلاصه وجدواهُ وصوابه. قال الله جل جلاله يعرض علينا الحالتين المتقابلتين: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَـئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[2].

(1) يونس، 44.

(2) البقرة، 199.

حسنة الدنيا تنال بالعمل وحسنة الآخرة تنال بنفس العمل لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا. وإن سجلات الامتحان في دار البلاء تكتب، وهناك في دار البقاء تنشر ليعلم الله أينا أحسن عملا. وأحسن العمل ما يحبه الله.

وإن الله تعالى أخبرنا في كتابه المبين أنه يحب أصنافا من الناس، وأنه لا يحب أصنافا آخرين. عيَّن هؤلاء لولايته وأولئك الـمُبعدين لنقمته، جزاءً بعد المسابقة لما كسبته أيديهم من أعمال. فهو سبحانه يحب المحسنين، والتوابين، والمتطهرين، والمتقين، والصابرين، والمتوكلين، والمقسطين. ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص، ويحب القوم الأذلة على المؤمنين الأعزة على الكافرين.

وهو تبارك اسمه وعز سلطانه لا يحب المعتدين، ولا يحب الفساد، ولا يحب كل كفار أثيم، ولا يحب الظالمين، ولا المختال الفخور، ولا الخوان الأثيم، ولا المفسدين، ولا المسرفين، ولا الخائنين، ولا المستكبرين، ولا الفرحين بالدنيا اللاهين عن الآخرة الكافرين بها.

صفات لعاملين مختلفي النية والوجهة تستغرق كل مجالات الحياة إيجابا وسلبا. تستغرق المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي والخلقي والسلوكي. تستغرق تحرك الناس في الآفاق كما تستغرق خلجات القلوب التي في الصدور.

ألا و«إن الله عز وجل كتب الإحسان على كل شيء». الحديث رواه مسلم رحمه الله وأصحاب السنن إلا ابن ماجة عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ.

كل معاني الإحسان مكتوبة مطلوبة من عمل المؤمنين ليكون سعيهم مرضيا في الآخرة، وليأتي بحسنة الدنيا والآخرة، وليُدْرِجَ العاملين في صف من يحبهم الله عز وجل، ومن أحبَّه أناله مقامات الإحسان. ﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[1].

إحسان العبادة من خلال العمل، كل العمل المشروع لاسيما ما كان أحبَّ إلى الله عز وجل.

(1) الرحمن، 59.

وإحسان الإتقان، في الفروض العينية وفي الفروض الكفائية.

والإحسان إلى الناس، وهو البر، وهو قِوام المجتمع الأخوي. في رأس قائمة الأعمال الإحسانية المحبوبة عند الله المفضلة، لا أفضل منها، الدعوةُ إلى الله وراثَةً للنبوة وتأدية لوظيفتها. قال الله عز وجل: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[1].

ثم تتراصُّ الأعمال الأحب إلى الله في صرح السلوك الإحساني.

أولها الحب في الله والبغض في الله. «أحب الأعمال إلى الله الحب في الله والبغض في الله». حديث نبوي رواه الإمام أحمد وحسنه السيوطي رحمهما الله. وهذه خصلة الصحبة والجماعة، جماعة الأشداء على الكفار الرحماء بينهم، أحبة الله الأذلة على المؤمنين الأعزة على الكافرين.

ثم الذكر. قال رسول الله ﷺ: «أحب الكلام إلى الله تعالى أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر». رواه مسلم وأحمد رحمهما الله عن سمرة بن جندب رضي الله عنه. وقال: «أحب الأعمال إلى الله أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله». رواه ابن حبان رحمه الله في صحيحه وغيره عن معاذ رضي الله عنه ووافقه السيوطي رحمه الله في تصحيح الحديث.

ثم الصدق. قال رسول الله ﷺ: «أحب الحديث إليَّ أصدقه». رواه البخاري وأحمد رحمهما الله عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

ثم البذل. قال رسول الله ﷺ: «أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي». رواه أبو يعلى وابن حبان وصححه السيوطي رحمهم الله. وقال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله الصلاة لوقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله». رواه الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. حصر عمل البر بين الصلاة وهي عماد الدين وبين الجهاد وهو ذِرْوَة سنامه. ومن البذل السماحة وبذل المعروف وحسن الخلق.

---

(1) فصلت، 33.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب سَمْحَ البيع سمح الشراء سمح القضاء». رواه الترمذي رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم العلم والعمل وفي كل هذه الأحاديث علم بالأحب إلى الله ثم عمل به.

ثم السّمت الحسن. قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي». الحديث رواه مسلم رحمه الله عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. سَمْتُ المؤمن على نقيض مظهر المختال الفخور المستكبر. وقال ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». رواه الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رحمهم الله بإسناد حسن.

ثم التؤدة والصبر. قال حبيب الله ﷺ: «أحب الدين ما داوم عليه صاحبُه». أخرجه الشيخان والنسائي رحمهم الله عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. ومن التؤدة امتلاك اللسان وهو أخف الجوارح حركة. وكفه برهان على قدرة المؤمن على امتلاك زِمامِ نفسه فلا يصدر منها عملٌ أهوج. إن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، و«لا يحب الفحش ولا التفحش» من حديث نبوي رواه أبو داود وأحمد رحمهما الله عن ابن الحنظلية رضي الله عنه بإسناد حسن. ومن التؤدة الصبر والرِّفْقُ. قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب الرفق في الأمر كلّه». وفي رواية: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله». الحديث رواه الشيخان والترمذي رحمهم الله عن عائشة رضي الله عنها.

ثم الجهاد. قال رسول الله ﷺ: «أحب الجهاد إلى الله كلمة حق تقال عند سلطان جائر». رواه الإمام أحمد والطبراني رحمهما الله عن أبي أمامة رضي الله عنه وحسنه السيوطي رحمه الله.

وبعد، ففي قراءتنا الإحسانية هذه لشعب الإيمان نجد أن أخص الأعمال وأكثرَها بُطونا في قلب العاملين، وهي أعمال القلب في حب الله ورسوله والتحاب في الله، تسيرُ خطا واحدا في طريق محابّ الله، في طريق الأعمال الأحب إليه سبحانه، في طريق

الإحسان بكل معاني الإحسان، إلى أن تنتهي إلى أكثر الأعمال ظهورا، وأوسعها شمولا، وأبلغها أثرا في حياة الأمة، ألا وهي أعمال الجهاد وأعمال إقامة العدل، وهو الأمر الإلهي المكرَّرُ في القرآن، المقرَّرُ بمداد الكرامة وإمداد الولاية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[1] وهم الذين إذا حكموا حكموا بالعدل، وحكموا باجتهاد، وحكموا بصواب، وحكموا حكما يكفل لهم ولعامة الناس وخاصتهم، لدنياهم وآخرتهم، حسنة الدنيا وهي الاستخلاف والتمكين، وحسنة الآخرة وهي سكنى دار النعيم والنظر إلى وجه الله الكريم.

قال رسول الله ﷺ: «أحب الناس إلى الله يوم القيامة، وأدناهم منه مجلسا إمام عادل. وأبغض الناس إلى الله تعالى، وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر». رواه الترمذي رحمه الله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وقال حديث حسن غريب. وللحديث شواهد تقويه.

وقال الإمام عبد القادر قدس الله سره: «التَّعَبَ، التَّعَبَ! ما دمت مريدا قاصداً سائرا. إذا وصلت وانقطعت مسافة سفرك، فصرت في بيت قرب ربك عز وجل زال التكلُّف. فيثبت الأنس به في قلبك، ويزداد حتى يأخذ بجوانبه. تكون أولا صغيرا، ثم تكبر. فإذا كبرت امتلأ القلب بالله عز وجل، فلا يبقى لغيره طريق إليه، ولا زاويةٌ فيه.

«إن أردت الوصول إلى هذا فكن مع امتثال أمره، والانتهاء عن نهيه، والتسليم إليه في الخير والشر، والغنى والفقر، والعز والذل، عند بلوغ الأغراض وعدمه، في أمور الدنيا والآخرة.

«تعمل له، ولا تطالب بذرة من الأجر (قلت: تستحي إن كنت تعبد الله كأنك تراه أن تطلب أجرا وأنت لا ترى إلا فضله وتقصيرك) تعمل ويكون قصدك رضى المستعمل وقربه. فالأجرة تكون رضاه عنك وقربك منه دنيا وآخرة. في الدنيا لقلبك، وفي الآخرة لقالبك.

(1) المائدة، 44.

«اعمل ولا تنافس على ذرة ولا على بَدْرة (صرة مال). لا تنظر إلى عملك، بل تكون جوارحك تتحرك بالعمل وقلبك مع المستعمل. فإذا تم لك هذا صار لقلبك عيونٌ تنظر بها. صار المعنى صورةً، والغائب حاضرا، والخبر معاينة.

«العبد إذا صلح لله عز وجل كان معه في جميع الأحوال. يغيِّره ويبدِّله، وينقله من حال إلى حال. يصير كله معنى، يصير كله إيمانا وإيقانا ومعرفة وقربا ومشاهدة. يصير نهارا بلا ليل، ضياء بلا ظلام، صفاء بلا كدر، قلبا بلا نفْس، سرّا بلا قلب، فناء بلا وجود، غيبة بلا حضور. يصير غائبا عنهم وعنه.

«كل هذا أساسه الأنس بالله عز وجل. لا كلام حتى يتم هذا الأنس بينك وبينه! اخطُ عن الخلق خطوة. لا لهم ضر ولا نفع، فقد جربتُهم. واخط عن النفس خطوة ولا توافقها. وعادها في رضى ربك عز وجل، وقد جربتُها. فالخلق والنفس بحران، ناران، واديان، مُهلكان.

«اعزم وجُزْ هذا الهُلْك وقد وقعت في الـمُلْكِ. الأول داء، والثاني دواء. اترك الداء والدواء. الأمراض كلها أدوية عنده وبيده. لا يملكها أحد سواه. إذا صبرت على الوحدة جاءك الأنس بالواحد. إذا صبرت على الفقر جاءك الغنى. اترك الدنيا ثم اطلب الآخرة. ثم اطلب القرب من المولى. اترك الخلق ثم ارجع إلى الخالق».[1]

قال طالب للقرب من مولاه، راج للوصول إليه:

وكـان فـؤادي خـاليا من هـواكـمُ ... وكان بذكـر الحق يلهـو ويمـزَحُ
فلمـا دعــا قلبـي هــواك أجـابـه ... فلسـتُ أراهُ عن فِنـائِك يَـبْـرَح
رميتُ ببعدٍ منك إن كنتُ كـاذبا ... وإن كنتُ في الدنيـا بغيرك أفـرح!
وإن كـان شيء في البلاد بأسـرهـا ... إذا غبتَ عـن عيني لعينيَ يَملُـحُ!
فإن شئت واصلني وإن شئتَ لا تَصِـل ... فلست أرى قلـبي لغيـرك يصلُـحُ

وقال راجع عن الخلق كلهم إلى الحبيب الخالق عز وجل:

(1) الفتح الرباني، ص:148-149.

يا راحتي عنـدما تشـتد بي عللي   أنـت اقتراحـي على الأيام والـدُّول
لـو كنتَ لـي وفقـدت النـاس كلهـم   والمـال مـن بعـدِ فقـد الأهـل لـم أَسَـل

وقلت:

اللهُ أَكْبَرُ هَذا الصُّبْحُ مَوْعـدُهُم   مِنْ بَعْدِهِ لِضِيَاءِ الحَقِّ إِشْـراقُ
اللهُ أَكْبَـرُ وَفُّـوا اللهَ مَـوْثِـقَكُـم   فَحَبْلُنَـا لِجَنَـابِ اللهِ مِيثَـاقُ
اللهُ أَكْبَرُ قُومُـوا وَاعْمَلُـوا وَثِقُـوا   تُفْتَحْ لَكُمْ لِمَـرَاقِي العِـزِّ آفَـاقُ

عبودية الجوارح

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾. اللهم إني أسألك خير هذا الشهر (وكل شهر) وفَتحه ونصره وبركته ورزقه ونُوره وظُهوره. وأعوذ بك من شره وشر ما فيه وشر ما بعده.

قرأنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب كيف يبدأ الوليد في أسرة مسلمة رحلتَه في هذه الحياة بسماع الشهادتين تؤذن في أذنه لتسمع فطرتُه الوليدةُ أول ما تسمع توحيد الخالق عز وجل والبشارة بالرحمة للعالمين رسوله محمد ﷺ. هنا نقرأ عن العناية المحيطة والتكليف الشريف اللذين يحظى بهما جسم المسلم من لدن ميلاده إلى يوم وفاته، جسمه الذي هو عاصمة وجوده، ومستقر شهوده، وآلة سعوده.

يعنى الدين بقوام الجسم وهو غذاؤه المادي أولا، فيأمر بلقمة الحلال، ويوصي بالقناعة وإطعام الطعام، إذ أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي. وينهَى عن السرَفِ لأن الله لا يحب المسرفين. ويبيح المتاع الحلال والطيبات من الرزق. ويُعْنَى الدين بمظاهرالجسم فيوصي بختان الوليد الذكر، ويوصي بالطهارة والنظافة وخصال الفطرة وهي العناية الشرعية بالأظفار والشعر. كما يُعنى باللباس والزينة والتطيّب وحركات العِشرة الاجتماعية وأقوالها. كما يُعنى بأبسط أحوال الجسم، مثل العطاس، فيُنيطُ بكل ذلك آدابا مستحبات.

حتى إذا بلغ الجسم سن التكليف ونضج واكتمل العقل أصبح نظام السلوك الجسمي فرائض ومحرمات وسننا ومندوبات ومكروهات ومباحات مضروبة على الجوارح بالتفصيل والتدقيق الذي أسسه القرآن الكريم، وبسطته السنة، وتخصص الفقهاء رضي الله عنهم في تمحيصه.

من قرأ الإسلام وفِقْهَهُ الدقيق في شؤون الطهارة وحركات الصلاة وأوقات العبادات وطواف الحج وضَبط الصيام وآداب الفطرة ومعه ثقافة وثنية راسبة سائبة عائبة لا يفهم هذا التهمم البالغ بالجسم البشري إلا كما يتصور قيودا بالية على جسم الإنسان.

إن الله الخالق جلت عظمته عرض على قلوب العباد وعقولهم، كما عرض على جسومهم، العبودية له جل جلاله. وفرض على القلوب والعقول وجوارح الجسم، لكلٍّ عبودية خاصة، تتكامل هذه بتلك، ولكل عبودية مراسيمها وشروطها وأركانها.

نقرأ قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ**﴾[1]. إلى آخر السياق فنجد أن الفلاح مكافأة لعمل متكامل للقلب فيه مكان الروح من الجسد، لكنه لن يكون أبدا عملا بدون مساهمة الجوارح تلك المساهمة الأساسية.

في هذا الكتاب نتحدث في كل صفحة عن القلب وإرادته،وصدقه، وصفائه، ومرضه، وشفائه، وعَماه، وبصيرته، وحبه، وبغضه، ونقصه، وكماله، وقصوره، ومشاهدته. نعطي للقلب المكانة الأولى لأن بصلاحه يصلح الكل وبفساده يفسد الكل، كما مثل النبي ﷺ في قوله: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلُحت صلُح الجسد كله. وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». الحديث رواه الشيخان رحمهما الله وغيرهما عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

مثل ﷺ للقلب المعنوي بالقلب الحسي. القلب المعنوي ملِكُ هذه المملكة الإنسانية في وجود المؤمن والمؤمنة من حيث يكون الهوى والشيطان مَلِكَ الوجود الكافر والـمُشْرَبِ بكفر. والعقل وزير، والجوارح منفذة. لا حول للقلب ولا طول، بل ولا وجود ممكنا أصلا، إلا بوجود القاعدة الجسمية. ولا عمل للقلب يرفعه ويرقيه لو لم تكن طوعا لتوجيهه هذه الأجهزة التنفيذية التي هي الجوارح.

(1) المؤمنون، الآيات الأولى.

فرض الله على الجوارح عبودية الطاعة، وأجرى على كل جارحة ما يناسبها من تكاليف. على كل جارحة أن تلزم نطاق التكليف المتكون من فروض وسنن ومستحبات ومحظورات ومباحات. على اللسان عبودية الشهادة بالحق وعبودية تلاوة القرآن، وعبودية الكف عن أذى الناس بالغِيبَة والنميمة، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الدعوة إلى الله، وعبودية ذكر الله، إلى آخر التكاليف. وعلى البصر، والسمع، والذوق، والشم، واليد اللامسة الباطشة الكاسبة، والرجل الماشية الساعية تكاليف فصلها الدين. وعلى جارحتي البطن والفرج تكاليف أشد.

ما يصدر عن أوامر القلب وتدبير العقل وتنفيذ الجوارح من أعمال صالحة يتحول بقدرة الله تعالى القادرة الذي خلقنا وخلق ما نعمل إلى هيآت متخلِّقَةٍ وصور ثابتة روحها إخلاص القلب وجمالُها صواب العقل ومادتها الحركات والكيفيات الجوارحية.

يُعطِي البارئ المصوِّر سبحانه للجوارح والجلود في الدار الآخرة، دار النشأة الثانية العجيبة، القدرةَ والآلة لتنطق وتشهد كما قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[1]. وكذلك يبعث الأعمال الصادرَةَ عن الجوارح صوراً ناطقة حية فاعلة. وقد جاء في هذا الموضوع خبر حق عن النبي ﷺ، نورده على طوله ليؤمن المؤمنون ويتأكد المحسنون من أن العبد مراقب ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾[2]، ومن أن أعماله صور مخزونة ليوم الحساب. وقد ضرب الله عز وجل الحكيم العليم لنا مثلا بما نخزن نحن بصور الأفلام من واقع حركات وأعمال ناطقة ملونة.

أنقل عن كتاب «الوابل الصيب»[3] لابن القيم رحمه الله حديثا وثقه أخرجه الحافظ أبو موسى المديني رحمه الله بإسناد حسن جدا. وكان شيخه ابن تيمية رحمه الله يعظم شأن هذا الحديث ويقول: شواهد الصحة عليه.

---

(1) النور، 24.

(2) ق، 18.

(3) ص:77.

فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوما وكنا في صُفة بالمدينة. فقام علينا فقال: «إني رأيت البارحة عجبا! رأيت رجلا من أمتي أتاه مَلَك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد ملك الموت عنه. ورأيت رجلا من أمتي قد بُسِط عليه عذاب القبر فجاء وضوءه فاستنقذه من ذلك. ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله عز وجل فطرد الشياطين عنه. ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم. ورأيت رجلا من أمتي يلتهب -وفي رواية يَلْهَثُ- عطشا، كلما دنا من حوض مُنِع وطُرِد، فجاءه صيام شهر رمضان فأسقاه وأرواه.

«ورأيت رجلا من أمتي ورأيت النبيئين جُلوسا حِلَقًا حِلَقًا، كلما دنا إلى حلقة طُرِدَ، فجاءه غُسْلُه من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي. ورأيت رجلا من أمتي بين يديه ظُلْمة ومن تحته ظُلمة وعن يمينه ظُلمة وعن يساره ظُلمة ومن فوقه ظُلمة ومن تحته ظلمة وهو متحير فيها، فجاءه حجه وعمرتُه فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه في النور. ورأيت رجلا من أمتي يتقي بيده وهَجَ النار وشررها، فجاءته صدقته فصارت سُتْرة بينه وبين النار وظلَّلت على رأسه.

«ورأيت رجلا من أمتي يكلم المؤمنين ولا يكلمونه، فجاءته صلته لِرَحِمِه فقالت: يا معشر المسلمين! إنه كان وَصولا لِرَحِمِه فكلِّموه! فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم. ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته الزبانية، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخله في ملائكة الرحمة. ورأيت رجلا من أمتي جاثيا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب، فجاءه حُسن خُلقه فأخذ بيده وأدْخَلَه على الله عز وجل. ورأيت رجلا من أمتي قد ذهبت صحيفته من قِبَل شِمالِه، فجاءه خوفه من الله عز وجل فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه. ورأيت رجلا من أمتي خَفَّ ميزانه، فجاءه أفراطُه (من مات من أطفاله) فثقلوا ميزانه.

«ورأيت رجلا من أمتي قائما على شفير جهنم، فجاءه رجاؤه في الله عز وجل فاستنقذه من ذلك ومضى. ورأيت رجلا من أمتي قد أهْوى في النار فجاءته دمعته التي بكى من خشية الله عز وجل فاستنقذته من ذلك. ورأيت رجلا من أمتي قائما

على الصراط يُرْعَدُ كما تُرْعَدُ السَّعَفَةُ (جريدة النخل) في ريح عاصف، فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكَّن رعدته ومضى.

«ورأيت رجلا من أمتي يزحف على الصراط، ويحبو أحيانا، ويتعلق أحيانا، فجاءته صلاته عليَّ فأقامته على قدميه وأنقذته. ورأيت رجلا من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة».

قال شيخ الإسلام ابن القيم: هذا الحديث العظيم الشريف القدر ينبغي لكل مسلم أن يحفظه. قلت وهو كذلك ليعلم الناس أن الله عز وجل القائل: ﴿**وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾[1] يأتي بأعمال العبادة، وهي أعظم بما لا يتناهى، في ميزان أهداف الامتحان الذي من أجله خلق الموت والحياة، من خردلة. يأتي بها جل جلاله ولطُف نَوالُه لتشفع للعباد يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. وهذه قُلوبٌ سليمة برهنت على سلامتها بصلاح الأعمال. سبحان الله! حتى الدمعة جاءت!

وأحوج الناس لتأمُّل هذا الحديث لمراجعة مواقفهم مَنْ يدخلهم الغرور بأعمالهم، فيعتمدون عليها، ويتسرب إليهم الرياء، فتنجُس قلوبهم ويحبط عملهم. أحوج منهم للذكرى والتوبة والمراجعة من يغترّ بنفسه فينسلخ عن الدين بزعمه أنه وصل، وأن لا تكليف على الواصلين. هؤلاء الواصلون إلى سَقَر أبعد الناس عن رحمة الله، وعن سنة رسول الله ﷺ الذي قال لعائشة لما رأت قدميه الشريفتين متورمتين من القيام للصلاة: «أفلا أحبُّ أن أكون عبدا شكورا!» الحديث رواه الشيخان رحمهما الله عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

إنه يستحيل أن يكون من المحسنين من لم يكن أولا وآخرا من العابدين.

قال الإمام عبد القادر قدس الله سره: «يا غلام! نم تحت ميزاب القدر، متوسِّدا بالصبر، متقلدا بالموافقة، عابدا بانتظار الفرج. فإذا كنت هكذا صبّ عليك المقدِّر

---

(1) الأنبياء، 47.

من فضله ومننه ما لا تحسن تطلبُه وتتمناه (...). يا غلام! عليك بالتقوى! عليك بحدود الشرع والمخالفة للنفس والهوى والشيطان وأقران السوء. المؤمن في جهاد هؤلاء لا ينكشف رأسه عن الخَوْذة (غطاء الرأس من الحديد)، لا يَنْغَمد سيفه، لا يَعْرَى ظهرُ فرسه عن قَرَبُوس سرجه. لا ينام. نومُ القوم غلبة، أكلهم فاقة، كلامهم ضرورة، الخرس دأبُهم.

«وإنما قدر ربِّهم ينطِقهم، فِعلُ ربِّهم ينطقهم ويحرك منطقهم في الدنيا كما يُنطق الجوارح غدا يوم القيامة. يُنطقهم الله عز وجل الذي يُنطق كل ناطق. يُنطقهم كما ينطق الجماد. يهيِّئُ لهم أسباب النطق فينطقون (...).

«يا غلام! تحتاج في خلوتك إلى ورع يخرجك من المعاصي والزلات. تحتاج إلى مراقبة تذكرك نظر الحق عز وجل إليك. أنت محتاج مضطر إلى أن يكون هذا معك في خلوتك (...). (الصدّيقون) يدعون الخلق إلى معرفة الله عز وجل. يقولون: يا أيتها القلوب! يا أيتها الأرواح! يا إنسُ !يا جنُّ! يا مريدي الملِكِ! هلمّوا إلى باب الملك! اسعوا إليه بأقدام قلوبكم، بأقدام تقواكم وتوحيدكم ومعرفتِكم وورعكم السامي وزهدكم (...).

«يا غلام! دع عنك النفس والهوى! كن أرضا تحت أقدام هؤلاء القَوْم، ترابا بين أيديهم. الحق عز وجل يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي (...). ويحك! نفسك منافقة! كاذبة! فاجرة! مشركة! كيف تقعد معها! خالِفْها ولا توافقها. قيِّدها ولا تطلقها. اسجنها وأَجْرِ عليها حقها الذي لابد لها منه. اقمعها بالمجاهدات. وأما الهوى فاركَبْه ولا تخله يَرْكَبُكَ. والطبعُ فلا تصحبه فإنه طفل صغير لا عقل له. كيف تتعلم من طفل صغير وتقبل منه! والشيطان فهو عدوك وعدو أبيك آدم عليه السلام».[1]

قال الإمام الشافعي رحمه الله يلتمس مغفرة الزلات من عالم الخفيات سبحانه:

خـف اللـه وارجُـهُ لكـل عظيمـة ولا تطـع النفـس اللَّجُـوجَ فتنـدمـا

(1) الفتح الرباني، ص:12.

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت الرّجا منّي لعفوك سُلّما
إليك، إله الخلق، أرفع رغبتي وإن كنتُ، يا ذا الجود والمن، مُجرما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك، ربي، كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزَل تجود وتعفو منة وتكرّما
فلولاك لم يصمد لإبليسَ عابد فكيف وقد أغوى صفيَّك آدما
فيا ليت شعري هل أصير لجنة أُهَنَّا، وإمَّا للسّعير فأندما
فلله دَرُّ العارف النَّدْبِ إنه تفيض لفرط الوَجْد أجفانُه دما
يقيم إذا ما الليل مدَّ ظَلامَه على نفسه من شدَّة الخوف مَأْتَمَا
فصيحا إذا ما كان في ذكر ربه وفيما سواه في الورى كان أعْجما
ويذكُرُ أياما مضت من شبابه وما كان فيها بالجهالة أجرما
فصار قرين الهم طول نهاره أخا السُّهد والنجوى إذا الليل أظلما
يقول: حبيبي أنت سؤلي وبغيتي! كفى بك للراجين سؤلا ومغنما!
ألست الذي غذَّيتني وهدَيتني ولا زلت منّانا عليَّ ومُنعِما
عسى من له الإحسانُ يغفر زلتي ويستر أوزاري وما قد تقدَّما

وقلت:

عَلَى قَدَمِ الصِّدْقِ قِفْ وَاثْبُتِ وَفِي ثُلُثِ اللَّيْلِ قُمْ واقْنُتِ
لِسانَكَ فَاحْفَظْ وَقُلْ طَيِّبًا مِنَ القَوْلِ أَوْ فَاحْتَشِمْ واسْكُتِ
وَكُنْ فِي السُّكُونِ وفِي الحَرَكَات مِثَالَ الفَتَى المُتَّقِي المُخْبِتِ

أفعال العباد

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾. اللهم قني شح نفسي.

في صحيح البخاري «كتاب القدر» نأخذ منه حديثين يخبران أن أفعال العباد سابقة في علم الله مسجلة بقضاء إجماليٍّ وقدر تفصيليّ. الحديث الأول عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حدث أصحابه قال: «إن أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون عَلَقَة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا فيؤمَر بأربع: برزقه، وأَجَلِه، وشقيٌّ أو سعيدٌ. ثم يُنفخُ فيه الروح». الحديث. وفيه أن مصير العبد الفرد مقرر في علم الله جل وعلا، يُعْلِم به المَلَك الموكل في الوقت المناسب، ويأمره بكتبِه.

الحديث الثاني يخبر أن مصيرَ الأمم ووقائع العالم سابقةٌ أيضا مقررةٌ قبل وقوعها، يُطْلِع الله عز وجل عليها من يشاء معجزة لنبي، أو كرامة لولي، أو استدراجا ومكرا بعدو. قال حذيفة رضي الله عنه: «لقد خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما ترك فيها شيئا إلى قيام الساعة إلا ذكره. عَلِمَه مَنْ عَلِمَه وجهِلَه من جهله. إن كنتُ لأرى الشيء نسيتُه فأعرفه كما يعرف الرجلُ الرجلَ إذا غاب عنه فلقيه فعرفه». رواه الشيخان وأبو داود رحمهم الله.

إن الإيمان بالقدَر خيرِه وشره ركنٌ من أركان الإيمان، لا إيمان لمن يشك في سابقة علم الله وسابقة قضائه، ولاحقة قدره حين يتنزل في أجلٍ مسمى يجري إليه بتدبير من حكيم حميد.

قـال الله عـز وجـل: ﴿إِنَّـا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـاهُ بِقَـدَرٍ﴾[1]. وقـال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُـمْ وَمَا تَعْمَلُـونَ﴾[2].

وقال عزت قدرته: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[3]. وقال عز من قائل: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[4].

إن كثيرا من العباد، بل كثيرا من المسلمين، حاشا أهل الذكر والاطمئنان، يأتيهم الشيطان وتأتيهم الشكوك النفسية من قِبَل جهلهم بالقضاء والقدر، أو غفلتهم عن الحكمة الإلهية في خلق الموت والحياة وما بينهما. كثير من العباد ينسوْن أن الله عز وجل حكيم في أفعاله، تدبيره دقيقٌ وتصريفه لطيفٌ. وصنعه متقن. فلعل أحداثا مما قدره سبحانه، أو سنَّة ممّا سنه، مما يخرج عن نطاق الفهم البشري، ولا يدخل في منطق العامة، يصدِم العقول الغافلة الناشئة فتتهم حكمة الله بالخروج عن مقتضى العدل والإخلال بمقتضى النظام. فيظن الظانون الغافلون أن العالم فوضى وصدف وفرص، وأن ما ثَمَّ إلا صَنْعة العباد وتكايُدُهم وحروبهم وقوتهم وتطاحنهم. ويأسف العقل المريض على الفياضانات والكوارث والطفل المريض والعاهات والمصائب وشقاء البشر في الحياة والمجاعات. ففريق يقضي بأن العالَم ملتقى الصدف، وأنه وما فيه عبث. وفريق من المسلمين يخطط ويدبر بإخلاص وصدق لينصر الله، وفي خياله المطموس بالعادة والغفلة أن قوة أعداء الله غَلَبَتْ، وأن ميزان القوى في العالم كِفَّةٌ منه راجحةٌ هي صنعُ الأعداء والكفة المرجوحة من صنع المسلمين، وكأن رب العزة غائب عن المعادلة.

هذا الوهم الناتجُ عن ظهور المخلوق على المسرح وغيبية الخالق عز وجل الذي لا تدركه الأبصار بلاءٌ بالغٌ وامتحان شديد لعقيدة المسلم وعلمه وعمله وسلوكه كله في الدنيا، ومصيرِه فيها وفي الآخرة.

---

(1) القمر، 49.

(2) الصافات، 96.

(3) الحجر، 21.

(4) النمل، 88.

كانت ولا تزال «مسألة أفعال العباد» موضع جدل طويل وعميق منذ تخلى المسلمون عن مذهب السلف الصالح في السكوت عن القدر والإمساك عنه إذا ذكر امتثالا للأمر النبوي القائل: «إذا ذكر القدر فأمسكوا». أخرجه الطبراني رحمه الله بسند حسن عن ابن مسعود رضي الله عنه رفعه. نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله عن أبي المظَفَّر السمعاني قال: «سبيل معرفة هذا الباب (باب القدر) التوقيف من الكتاب والسنة دون محْضِ القياس والعقل. فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاءَ العين، ولا ما يطمئن إليه القلب. لأن القدر سر من أسرار الله تعالى، اختص العليم الخبير به، وضرب دونه الأستار، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة».

تدخّل العقل الفضوليُّ وجاء بقياساته ومنطقه منذ ابتلي المسلمون بالوافد الدخيل من فلسفة الشعوب وأديانها المقتحمة المجادلة. كيف يُسايِر فعلُ العبد قدرَ الإله! كيف يكون العبد مسؤولا عن عمله مجزيّاً به في الدنيا والآخرة وكل شيء قُضِيَ فيه بدون حضوره ولا استشارته، ويقع بإرادته وبدون إرادته!

للخروج من إلزامات هذا التناقض الموهوم في نظر العقل الأعور قالت الطائفة الضالة الجبرية، وعلى رأسهم الجهم بن صفوان، إن الإنسان مجبور على عمله، لا اختيار له. وإنما تُنسب الأعمال إليه مجازا كما تنسب إلى الجماد.كما يقال: أثمر الشجر ونزل المطر وأضاءت الشمس. وزعموا أن نسبة شيء من العمل إلى العباد نسبة حقيقية يتصادم مع قول الله تعالى: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾[1]، وقوله: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾[2].

يترتب على هذا الفهم الجبري السقيم إبطال التكليف، وعشوائية الثواب والعقاب، وعبثية إرسال الرسل، وعبثية كل شيء. وكأن الإنسان ريشة في مهب الرياح. وقد ترسَّب في ضمير الأمة حثالَةٌ جبرية، ترقد وتثور، وفي كل أحوالها تبرر الكسل، وتخدِّر الحس، وتؤول إلى الهزيمة التاريخية. ولا يزال أعداء الإسلام

(1) الزمر، 62.

(2) الصافات، 96.

يسخرون من عقيدة «المكتوب» الجبرية عند المسلمين، يكتبون الكلمة بحروفهم ويدخلونها في لغتهم للدَّلالة على تبلد العقل وخمول الحركة والاستسلام للواقع تستُّراً وراء القضاء والقدر.

إذن فللخروج من هذا المستنقع يُثبِتُ المعتزلة الجدد، وهم دعاة العقلانية ومن بينهم من يُعد من الدعاة الإسلاميين، أن الإنسان يصنع مستقبله، وأن الدنيا غِلابٌ ويلٌ فيها لمن لا قدرة له ولا إرادة ولا تدبير ولا عقل يفعل في التاريخ ويؤثر.

قال المعتزلة القدامى: إن العبد خلق أفعاله بقدرته وإرادته الحرة. وأنه ليس مجبوراً على شيء. يفعل إن شاء الله، وإن لم يشأ الله لم يفعل. لكنه حر في التصرف على كل حال. لهذا يُثابُ على الطاعة ويعاقَبُ على المعصية. وبهذا سمَّوْا أنفسهم «أهل العدل» يقولون: إن الله تعالى منزه عن ظلم العباد، فلو كان الأمر غير ما يثبتونه للعبد من إرادة حرة وقدرة خالقة، واستقلال كامل لما كان الله عادلا، ولكان عقابُه للمسيء ظلما، وإثابته للمحسن محاباة.

وضل المعتزلة مع جملة المتكلمين الخائضين في لُجج القدَر. وكان من أهل السنة والجماعة الإمام الأشعري رحمه الله الذي ردَّ على الجبرية والقدرية بأن الله عز وجل خالق أفعال العباد وللعباد الكسب. فأفعال العباد مقدورة تقع تحت قدرتين، قدرةِ العبد الفاعلة الضعيفة وقدرة الله تعالى الخالقةِ القوية.

وبنى بعض الأشاعرة على أصل الإمام الأشعري فقالوا: إن قدرة العبد الكَاسِبَةَ الـمُحْدَثَةَ لا تأثير لها في إحداث الفعل. فثارت ثائرة أهل الحديث، وتضخَّم صدى المعركة في مكتوبات ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله، وألزموا الأشاعرة مع تبنيهم لفكرة «كسب غير فاعل» أنهم جبرية. وتأثّل في تراث الجدال أن الأشاعرة يقولون بعقيدة كسب هو فقط «الاقتران العادي بين القدرة المحدثة والفعل» الذي هو من صنع الله. وطال النقاش اللفظي العقيم في مسألة: هل يفعل الله عز وجل أفعاله عند قدرة العبد أو بها.

إن ما آل إليه رأي ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله في مسألة «أفعال العباد» هو أن الله جلت عظمته نسب المشيئة والفعل للعباد، فللعباد مشيئة حقيقية وقدرة حقيقية وإرادةٌ حقيقية وفعل حقيقي. ولله عز وجل الخلق، خَلَق العباد وأعمالهم، وخلق لهم الإرادة والقدرة وتركهم يتصرفون. قال ابن تيمية: «من المستقرِّ في فِطَرِ الناس أن من فَعَل العدل فهو عادل، ومن فعل الظلم فهو ظالم، ومن فعل الكذب فهو كاذب. فإذا لم يكن العبد فاعلا لكذبه وظلمه وعدله، بل الله فاعل ذلك، لزم أن يكون الله متصفا بالكذب والظلم».[1]

لا يضطرب عقل المحسن في فهم حكمة القضاء ومواقع القدر، ولا يفقدُ قلبه أمامها طمأنينَته، ولا حركتُه فاعليتَّها ونشاطها واتخاذها للأسباب، يتعبَّد بالمبادرة والعمل الصالح الدؤوب والأسباب تعبدا دون أن يحاول هتك سر القدر الذي استأثر الله عز وجل به وجعله بلاء ببالغ حكمته.

المحسن مع أمر الله الشرعي، يقبل ما جاء به الشرع من تكاليف ويبذل أقصى جهده لتنفيذها. فإذا جاء أمر الله الكونيُّ وقدرُه المحتوم بما لا طاقة للعبد به ولا حيلة في دفعه رضيَ بقضاء الله وقدره، وكان له الرضى قوة لا ضعفا، انتباها لا خمولا، مشاركة مأجورة إيجابية لا معاناة سلبية مهزومة.

وكثيرا ما يستشهد ابن تيمية وتلميذه النجيب بكلمة للشيخ عبد القادر حين يقول: «الناس إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا. وأنا انفتحت لي رَوْزَنة (نافذة)، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق. والعارف من يكون منازعا للقدر لا واقفا مع القدر».

قلت منازعة القدر بالقدر هو المسارعة باتخاذ الأسباب المشروعة المتاحة، لجلب المصالح ودَرْء المفاسد. فإنَّ ما قدره الله يقع بسبب ويرتفع بسبب، فمُسارعتك إلى الفعل واجتهادك فيه قدَر من القدَر، ولن يحصل مُرادك على كل حال إن لم يكن حصوله مقدّرا. احرص على إحراز أفضل النتائج بأفضل الوسائل وحرك سلسلة القَدر ثم لا عليك فيما يخلقه الله جل جلاله.

(1) مجموعة الرسائل والمسائل، ص: 143.

يحتج العصاة والمنهزمون والفاشلون بالقدَر. ويرد الله عز وجل على الجميع رده على المشركين حيث قال: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾[1]. فجعل سبحانه التستر بالقدر تكذيبا.

ومن الصدق المقابل لكذب المكذبين صَدْمُ القضاء النازل بالدعاء العارج ومنازعتُه به، والدعاء أقوى الأسباب. قال رسول الله ﷺ: «لا يرد القضاءَ إلا الدعاءُ، ولا يزيد في العمر إلا البر». أخرجه الترمذي والحاكم رحمهما الله عن سلمان رضي الله عنه وأشار السيوطي رحمه الله إلى صحته.

وقال الإمام عبد القادر رحمه الله: «يا قوم! يُكَوِّنُ تصاريفَهُ فيكم لينظر كيف تعملون. هل تثبتون أو هل تنهزمون. هل تصدُقون أو تكذِبون. من لا يوافقِ القدر لا يُرافقُ ولا يوافَقُ. من لم يرض بالأقضية لا يُرْضَى عنه. من لم يُعط لا يُعطى. من لمْ يزُرْ لا يُرْكَب. يا جاهل! تريد أن تبدِّل وتغير. ما تريد! (هذا يقال لمن يتأسف لماذا انحط المسلمون وسمحت الأقدار بطغيان الحضارة الغربية). أنت إله ثان! تريد أن الله عز وجل يوافقك! هذا بالعكس -اعكِس تُصِبْ. لولا الأقدار لما عُرِفَت الدعاوي الكاذبة. عند التجارب تتبين الجواهر. أنكِر على نفسك إنكارها على الحق عز وجل. إذا كنت منكرا على نفسك قدرت على الإنكار على غيرك. على قدر قوة إيمانك تُزِيلُ المنكرات. وعلى قدر ضعفه تقعد في بيتك وتتخارس عن إزالتها. أقدام الإيمان هي التي تثْبُت عند لقاء شياطين الإنس والجن. هي التي تثبت عند نزول البلايا والآفات. أقدام إيمانك لا ثبات لها ! فلا تدَّع الإيمان!»[2]

وقال رحمه الله: «يا قليل الدراية! إذا كان القدر لا يمكنك ردُّه ولا تغييره ومحوُه ومخالفتهُ، فلا ترِدْ غير ما يريد. إذا كان لا يأتيك إلاّ بما يريد فلا ترد. إذا كان لا يريد شيئا لا يتم فلا تتعب نفسك وقلبك فيه. سلِّم الكل إلى ربك عز وجل. تعلق بذيل رحمته، بيد توبتك إليه، فإذا متَّ على هذا تزول الدنيا من عين قلبك ورأسك، وتهون عليك مصائبُها وتركُ شهواتِها ولذاتِها، ولا تشكو من قَرصاتِها ولَسَعاتِها (...).

(1) الأنعام، 147.

(2) الفتح الرباني، ص: 43.

تُسلِّم أمرك إليه، توافِقُه فيك وفي الخلق، فلا تُدَبِّر مع تدبيره، ولا تحكمُ مع حكمه، ولا تختار مع اختياره. من عرف هذا الحال لا يطلب غيرَه».[1]

وقال محب له مسلِّم لقضائه، راض بقدره:

إن كـــان سكـــان الفضـــا رَضُـــوا بقتلـــي فَرِضَـــا
واللـــه مـــا كنـــتُ لمـــا يهـــوى الحبيـب مُبغضـــا
مـــن لمريـــض لا يـــرى إلا الحبيـــب مُمْـــرضـــا
فـسلِّـمـــوا لـــقـــادر فيمـــا أراد وقـضـــى

وقال راج لعفوه:

قالـت لي النفـس: أتـاك الرَّدى وأنـت في بحـر الخطـايـا مقيم
ومـا ذَخَـرْتَ الـزاد قلت:اقصري! هـل يُحْمَـل الـزاد لـدار الكـريم!
واخجلتـي منـه إذا جِئْتُـه والعبـد مطلـوب بدَيْـنٍ قديـم!
ومـا أرى يطلبنـي إذ دَرَى أنِّـيَ محتـاج إليـه عديـم
ولست محتـاجـا إلى شاهـد لأن مـولاي بحـالـي علـيم
وحُكمُـه المقسِط لا يقتضـي هَـلاكَ مِدْيانٍ بمـال الغـريم

وقلت:

كُنَّا شُمُوساً فِي سَمَاءِ العُلَى خيـرَ هُـداةٍ أُخْرِجـوا لِلأَنَـامْ
فَحِينَ أَرْخَيْنَا حِبَالَ التُّقَى قَالَ لَنَا الدَّهْر: ارْكُدُوا فِي الرُّكَامْ
فَتَى الإِسْلامِ قُمْ وَاعْتَزِمْ وَجَدِّدِ الوَصْلَ بِعَهْدِ الكِرَامْ

(1) الفتح الرباني، ص: 165.

التكسب

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد، ونعيما لا ينفد، ومرافقة نبيك ﷺ في أعلى درجة الجنة، جنة الخلد.

نظر في هذه الفقرة إن شاء الله إلى التكسب والاحتراف والمعاملات التجارية والمالية الاقتصادية نظرتين. ننظر أولا إليها من زاوية الاهتمام الصوفي الفقهي في عهود انحسار الدعوة عن المجال العام وانكتامها في خوالج الصدور ومُغْلَقات الخانقاهات والدور. ثم ننظر إليها كيف كان العهد الصحابي الخلافي الراشدي يتعهدها لتنفتحَ لنا رَوْزَنَةُ العالم إلى الخلافة الثانية حين يعود شَمْلُ الدولة والدعوة جميعا.

عاش السادة الصوفية رضي الله عنهم في وسط الفتنة، وسطٍ انتقضت فيه عروة الإسلام العليا وهي عروة الحكم، فاجتهدوا في الحفاظ على نظافة أرزاقهم في خاصة أنفسهم في حين اجتهد فيه الفقهاء الأعلام رضي الله عنهم لفرض شرائع الإسلام في البيوع والعقود والشركات والإجارات على مجتمع مسلم في جملته، عامته المحكومة أقرب إلى الصلاح والخير من خاصَّته من الحكام.

اجتهد الفقهاء رضي الله عنهم في حماية حقوق العباد ورفع المضارّ وفصل الخصومات ودرء المظالم في المعاملات العامة ما استطاعوا، وانصرف السادة الصوفية رضي الله عنهم لرعاية حقوق الله في أنفسهم ومريديهم وأهليهم، لمن كان له أهل وعيال، يبحثون عن اللقمة الحلال في ظل التوكل أو تحت سقف الخانقاهات أو في الاحتراف الشديد الزهد الورِع. وفي كتب القوم من قَصَصِ التحري ووصايا الورع في المكاسب آيات تدل على مقدار ما كان معهم من إحسان. لا أتحدث

في هذا الكتاب، إذا أطلقت اسم صوفية، عن المتصوفة المرتزقة المتطفلين على موائد الإحسان.

حافظ الصوفية المحسنون على لب الدين وجوهره، في نطاقهم المحدود، فيما يخص الكسب والسعي في الرزق. حافظوا على طيب اللقمة لأن الله جل شأنه لا يقبل إلا طيِّبا ولا يسمع إلا من طيب. قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[1]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[2]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعثَ أغبر، يمد يديه إلى السماء. يا ربِّ! يا رب! ومطعمُه حرام، ومشربُه حرام، وملبسُه حرام، وغذِيَ بالحرام، فأنَّى يُستجاب له!». أخرجه الترمذي، وأخرجه مسلم ولم يذكر الملبس، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وحافظ الصوفية والفقهاء،كل في دائرته، على حِمى الله يدافعون عن حرم الله ويدرؤون عنها الشبهات. الصوفية همُّهم في رعاية حق الله في صلاح قلوبهم، وهمُّ الفقهاء مقاومة الفساد، كانوا صرحا للعلم وملجأ للفتوى، وراية للإسلام.

وإن رعاية حمى الله ومحارمه في المكاسب وفي كل المعاملات والعبادات لهي الشرط المشروط للصلاح القلبي والاجتماعي. قال الحبيب المصطفى ﷺ: «إن الحلال بيِّن وإن الحرام بين. وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمهن كثير من الناس. فمن اتقى الشبهاتِ استبرأ لدينه وعِرضه ومن وقع في الشبُهات وقع في الحرام.كالراعي يرعى حول الحِمى يوشك أن يرتع فيه. ألا وإن لكل مِلِكٍ حمىً! ألا وإن حمى الله محارمُه! ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله. ألا وهي القلب». أخرجه الشيخان رحمهما الله وغيرهما عن النعمان ابن بشير رضي الله عنهما.

---

(1) المؤمنون، 52.

(2) البقرة، 172.

إذا فتحنا الآن سجلَّ الاكتساب في العهد الراشدي الذي كان الدين فيه في إقبال، وكانت الدعوة والدعاة في مركز القوة، وكانت الدولة والسلطان في يد الأقوياء الأمناء، وجدنا أن الاحتراف والتكسب كان لهما ظهيران قويان يفرضان أن تكون الأرزاق ومصادرُها ومواردُها وفق الشرع. ظهير وازع القرآن المتمثل في ذمة المؤمنين وأخلاقيتهم وخوفهم من الله عز وجل، متضامنين على ذلك متواصين متآمرين بالمعروف متناهين عن المنكر. ثم ظهير وازع السلطان، وكان السلطان قرآنيا لما يَنِدُّ عن الدين ويرتَعْ في حمى الله ومحارمه، يَفرِضُ وازعُ السلطان على عامة المسلمين وأعرابِهم، فَرْضَ الإقناع والزجر والترغيب والترهيب، طيب المعاش وصفاء المعاملات وإنصاف الحقوق.

في كتاب البيوع من صحيح البخاري «باب كسب الرجل وعمله بيده» نقرأ أول حديث في الباب فنجده يرفعنا من الأخلاقيات الفردية التي انكمش عليها الصوفية انكماشَ الحريص على كنْزٍ مهدد، ويرفعنا من اجتهادات الفقهاء الفرعية، إلى سلطان الدين، وهيبة الدين، وظهور الدين، وإفصاح الدين عن إسلامه وإيمانه وإحسانه، مجتمعٌ كل أولئك على كلمة الله في نطق خليفة رسول الله وفعله ونيته.

أول حديث في الباب يرويه الإمام البخاري رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما استُخْلِف أبو بكر الصديق قال: لقد علم قومي أن حرفتي لم تكن تعجزُ عن مَؤُونَة أهلي. وشُغِلْتُ بأمر المسلمين، فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال، وأحترفُ للمسلمين فيه».

كان خليفة رسول الله ﷺ يحترف البِزَازَة، وهي بيع الثياب، وكان بزّازاً ناجحاً. لما استخلفه المسلمون عن شورى ورضىً انبرى ليأخذ بزمام المال العام ويسهر على معايش المسلمين، يعتبر رعيته التي استرعاه الله إياها، وأمانته التي طوقه مسؤوليتها المسلمون، بمثابة أسرته، عليه أن «يحترف» لها ويجتهد، ويَتكَايَس كما كان يفعل لعياله. ويعلم الله ما أكل أبو بكر والخلفاء الراشدون الثلاثة من بعده من مال المسلمين إلا كما يأكل أوساط الناس، ثم تجدهم رضي الله عنهم على فراش الموت يوصون برد ما أكلوه من مالهم الخاص على بيت مال المسلمين.

في الحديث الثاني من باب البخاري أن الصحابة كانوا عُمَّال أنفسهم، لم يكن لهم أُجَراءُ ولا فرصةٌ ليستغل رأس المال القوة العاملة. وفي الحديث الثالث أن خير الطعام ما أكل المرء من عمل يده. وفي الحديث الخامس الحث على الاكتساب ولو أن يحتطب المرء ويبيع ليقي نفسه وعياله ذلَّ المسألة.

هذه الأحاديث مجتمعة تعطينا معيارا إحسانيا لنقد الاقتصاد الجاهلي المسيطر في عصرنا، ولنقدِ اقتصاديات المسلمين المتخلِّفة. من المفكرين المسلمين والدعاة من يعرض اجتهادا يطرح فيه «البديل الإسلامي» في الاقتصاد دون نقدٍ شامل لأساس المعايش الجاهلية ونظامها من حيث الحلِّيَّةُ والحرمةُ. ومن حيثُ كونُ الاقتصاد الجاهلي، كما صنعته التكنولوجيا الحديثة وكما صنعه العقل الكافر في خدمة النفس الكافرة، مبنيٌّ على ظلم طبقة لطبقة وشمال لجنوب وبلاد مصنعة لبلاد متخلفة، مبنيٌّ على التبذير وإفساد البيئة، مبنيٌّ على الدعاية الكاذبة والغاوية وعلى الغش الفني المزوق، مبنيٌّ على الربا والاحتكار وهيمنة رأس المال.

كتاب الله عز وجل ينطق علينا بالأمر الشرعي: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾[1]. وسوط قَدَرِهِ الحكيم يجلدنا جزاء بما كسبت أيدينا ببلاء التخلف الاقتصادي والضَّعف والذلة والقِلَّة. حتى التماس اللقمة الحلال والورع الفردي والجود والسخاء والإيثار والبر وإغاثة الملهوف على هوامش المجتمع أصبحت محاولة يائسة لعموم الفتنة واتقادها وانصبابها من كل ميازيب الاقتصاد والثقافة والمال والإعلام والفن. يصُب علينا طوفان الفتنة من قنوات محكمة التصويب إلى عقولنا وبُطوننا وجوارحنا وملابسنا ومساكننا وليلنا ونهارنا وأرزاقنا. العالـمُ اليوم سوق واحدة، سوق تحتكرها القوى الجاهلية لتروِّج فيها البضاعة الجاهلية وتبيع وتشتري وتتعاقد بمقاييس جاهلية وقوانين جاهلية.

فإن كان اقتراح البديل الإسلامي في الاقتصاد أسلوبـًا من أساليب الدعوة والتبشير بالإسلام فَنِعِمَّا هُو. وإلا فمجرد العرض لضوابط «الاحتراف» في أموال المسلمين

(1) البقرة، 172.

ولتاريخ «احتراف» الراشدين كلام في كلام دون البحث عَن أصل البلاء وهو غياب «المحترف» الراشد وغياب الجماعة الإسلامية القائمة بالحق التي خطبها أبو بكر أول ما خطب قائلا: «إن استقمت فأعينوني وإن انحرفت فقوموني».

قال رجل الاستقامة الإمام الرفاعي رحمه الله: «لا أقول لكم انقطعوا عن الأسباب، عن التجارة، عن الصنعة. ولكن أقول: انقطعوا عن الغفلة والحرام في كل ذلك. لا أقول لكم: أهملوا الأهل ولا تلبسوا الثوب الحسن، ولكن أقول: إياكم والاشتغال بالأهل عن الله، وإياكم والزَّهْوَ بالثوب على الفقراء من خلق الله. وأقول: لا تظهروا الزينة فوق ما يلزم بثيابكم تنكسرْ قلوب الفقراء. وأخاف أن يخالطكم العُجْبُ والغفلة. وأقول نَقُّوا ثيابكم. ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[1] وأقول: نقوا قلوبكم وطهروها. فذلك أَوْلَى من تنقية الثياب. إن الله لا ينظر إلى ثيابكم ولكن ينظر إلى قلوبكم».[2]

وقال إمام من أهل الاستقامة الشيخ عبد القادر رحمه الله: «يا طالبا الدنيا بنفاقه! افتح يدك فما ترى فيها شيئا. ويلك! زهدت في الكسب وقعدت تأكل أموال الناس بدينك!

«الكسب صنعة الأنبياء جميعهم، ما منهم إلا من كان له صَنعة. وفي الآخرة يدورون مع إرادته فيهم وفعله بهم. ليس لديهم منازعةٌ له فيهم ولا في غيرهم. لا يعترضون عليه في القليل ولا في الكثير، لا في العالي ولا في الداني.

«لا تشتغل عن خدمة الحق عز وجل بخدمة نفسك والحرص على بلوغ أغراضها (...) لو كان لك عقل لانصرفت من خدمتها واشتغلت بخدمة ربها عز وجل. نفسك عدوة لك. الصواب لك السكوتُ عن جوابها. وأن تضربَ بكلامها الحائطَ. اسمع منها كما تسمع من مجنون قد زال عقله. لا تلتفت إلى قولها وطلبها للشهوات واللَّذات والترَّهَات. هلاكك وهلاكها في سماعك منها. وصلاحك وصلاحُها في مخالفتها.

(1) الأعراف، 32.

(2) البرهان المؤيد، ص:75.

«النفس إذا كانت طائعة لله عز وجل أتاها رزقها رَغَدا من كل مكان. فإذا عصت وتجبرت قَطَعَ عنها الأسباب، وسلَّط عليها الأذايا، فهلَكَت وهي خاسرة للدنيا والآخرة.

«الطائعة القانعة صاحبُها مخدوم، أينما توجه لقَطَ. قَسْمُه من الرضى. به يؤَدّي الفرض الذي عليه مع طيبة القلب، بلا كُلْفة، فارغُ القلب مما سوى الله عز وجل، ساكن الجوارح عن التَّعب في تحصيل الدنيا وفُضولها.

«لا يا مُنْعَماً عليه! اشكر النعم وإلا سُلِبَتْ من يدك. قُصَّ جناح النعم بالشكر وإلا طارت من عندك. الميت من مات عن ربه عز وجل وإن كان حيا في الدنيا. إيش تنفعه حياتُه وهو يصرفها في تحصيل شهواته ولذّاته وتُرَّهاته. فهو ميت معنى لا صورةً. اللهم أحينا بك وأمتنا عن غيرك. يا شيخا في السن صبيّاً في الطبع إلى أين تعدو!».[1]

قال شاكر لأنعُم المولى:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... عليَّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام وانفسح العمر
إذا سرَّ بالنعماء عم سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه مِنَّة ... تضيق بها الأوهام والبَرُّ والبحر

وقال راض بِقِسْمة ربه عز وجل وقضائه:

قل للروَيجل من ذوي الأقدار ... الفقر أفضل شِيمةِ الأحرار
يا من شكا للناس فَعْلَةَ ربه ... هلا شكوت تحمُّلَ الأوزار!
إن الذي أُلْبِسْتَ من حلل التقى ... لو شاء ربك كنت منها عاري

(1) الفتح الرباني، ص:187.

وقال صابر على بلاء ربه سبحانه الحكيم العليم:

يـا سائلـي عـن توبـة كشَفَـتْ لنـا   عمـا طـوته صحـائفُ التصديـق
لا ينقـص الذهـب الكريـم بـلاؤُه   بالنـار تحـت وسـائط التحقيـق
إن كُنْتُ مُمْتَحـنا فمـا أنـا بالـذي   كسَـدَت بضاعـته بهـذا السـوق
لكـن خطبـت مكـانة صدِّيقـةً   فـوَرَدْت مـورد يوسـفَ الصديـق
والحمـد لله الـذي صَمَـدَت لـه   نفـسي فأوقفـها علـى التحقيـق

وقلت:

عَـرَضـاً قَـرِيـبـاً يَبْتَغـي   ذَاكَ الرُّوَيْجِـلُ فِـي الحَيَـاهْ
هِمَـمٌ تَسَـاقَطُ كَالفَـرَاش   أَمَـامَ تَخْـوِيـف العُتَـاهْ
وَالحُـرُّ شِـيمَتُهُ الشَّجَـاعَة   عِنْـدَما تُحْنـى الجِبَـاهْ

تطبيق الشريعة

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. اللهم إني أسألك إيمانا لا يَبيد، وقرَّة عين لا تنقَطِع.

من خلال قراءة الكتب، وربما من خلال مشاهدة أفلام الفروسية الإسلامية والفتوحات، وفي صفوف المعارضة للحكم القائم يتغذى الشباب الإسلامي بكراهية شديدة للواقع وشوق عارم لمثاليَّة الإسلام. وقد يتطرف منهم طوائف يكَفِّرون المجتمع فينزوون ليعيشوا أحلامهم تحت قيادات مراهِقة لا يَألون أنفسهم والناسَ جميعا عطباً ونَصَباً.

وتتأجج الكراهية وعشق المثالية بتغلغل الخيال في تصور البديل الإسلامي للواقع الملعون في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[1]. الظالمون الفاسقون.

ويسمع المتعاطفون مع الإسلام من عامة الناس هذه الآية المقدسة تُحْمَل شعار قِتالٍ فيعطون ولاءَهم الجزئيَّ لمثاليَّة يتحمس لها الشباب الإسلامي حماسا جامحا لا تخمُدُ نارُه ولا يسكن أُوَارُهُ.

أيُّ مستقبل يهيئه هذا الولاء الصادق لحُلْم سماوي يمثل للناس أن «تطبيق الشريعة» دواء عاجل حاسم، يقع على المكروه الملعون وينقَضُّ عليه ويُبيدُه ضربةَ لازِبٍ بعصاً سحرية! أيُّ خيبات أمل متلاحقة متسلسلة متساوقة تنتظر هذا الحماس المثالي يوم تُلقي الأقدار الإلهية السلطان في الأيدي المتوضئة على نيّة الصلاة في بيت المقدس العشية الثانية أو الثالثة من إعلان الحكم الإسلامي بإمامة فارس هو صورة سيف الإسلام!

(1) المائدة، 44.

إن قراءتنا الانتقائية للسيرة النبوية والحياة الجهادية في كتب السيرة وفي القرآن الكريم تُغَطّي عن عقولنا المتعطشة للسيادة والعدل والقوة جوانب الضعف البشري في النموذج النبوي الصحابي لتُبْرِزَ جوانب الإيجابية والفاعلية، فيترسخ في أذهاننا صورٌ لامعة يكتسي فيها الجهاد الأول كسوة العصمة أو ما يشبهها. هذه القراءة المكبوتة المحروسة في الخيال كما تحرس في الخيالات السعيدة للنموذج الماضي تُخفي تهديدا مباشرا وخطيرا لمستقبل الدعوة والدولة.

إذا فهمنا العبرة من كتاب الله تعالى عندما يعرض علينا سنة الله في الذين خَلَوا من قبلُ، وفهمنا العبرة من سيرة سيد المرسلين والجيل الصالحين فلن يكونَ الدرس المفيد إلا أنَّ السيرةَ العطِرَة، التي عرضها الله عز وجل في كتابه العزيز بعُجرها وبُجرها وروى أصحاب السير منها جوانبها الإيجابية المربِّيَة فقط، نموذجيةٌ في وِرْدها وصَدَرِها، نموذجية في نجاحاتها وإخفاقها، في إصابتها وأخطائها، في تنزُّل توفيق الله عليها وبلائه، في بشريتها وفي جهادها للنفس والشيطان والغير، في انتقاليتها، في تدرُّجها، في تطورها من مرحلة إلى مرحلة، في بناء الجماعة الحاملة للدعوة الركيزة للسلطان، وتربيتها، وتأليفها، ووفاقها، وخلافها، وتمايُز مؤمنيها المهاجرين والأنصار من مسلميها وهم العامة فيهم الصالح والمنافق والأعرابي الذي لما يدخل الإيمان في قلبه.

إن الولاء والتطلع لدولة الإسلام المثالية الناجزة سباحة في عالم الخيال إن تخطينا الواقع الفتنويَّ المتكدسةَ بلواه على مر القرون، وإن توهمنا أنه مادة طيِّعة يَخْسَأ شرها كما يخسأ الشيطان بتعويذة من سلاح الشعارات.

لابد لبناء الدولة الإسلامية من الاعتماد على جِسم منظم عميق الجذور في المجتمع يكون الركيزة الوسطى للبناء، ثابتةٍ قواعدُه وسطَ اللُّجة الفتنوية. ومن ثبات هذا الجسم، وهو حزب الله وجنده، أن يكون على بصيرة مما هي الفتنة، وما هو الواقع، وما هم الناس، وما هي طبائعُهم الفردية والمتفاعلة، وما هو العالَم، وما هو الاقتصاد، وما هي السياسة، وما هي النفوس البشرية المتَقلِّبة، وما هي الضغوط الهائلة على دعوة مخطِّطة تهدد السلطان القائم، وعلى دولة تدْرُج أول خطاها في

عالم متربص متوجِّسٍ. والثبات كلُّ الثبات أن تصمد الجماعة الحاملة، واحدة أو متعاونَةً مع الجماعاتٍ العاملة للإسلام، للتيار، وأن تصبر على الغرس حتى يطلع، وأن تستصلح من القوى الاجتماعية كل ما يمكن استصلاحه من أهل الخير، من المسلم الذي سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن الذي يؤمن بالله ورسوله ويستطيع المساهمة ببعض ماله ونفسه.

لابد من إرساء قواعد الدولة الإسلامية، وهي مشروع التطبيق الكامل للشريعة، في الذمم المتعاهدة لجند الله، ثم بالتفرع والتعاطف والتآلف في ذمم المؤمنين والمسلمين، فيكون في كل بيت، وفي كل مرفِق من المرافق، وكل مؤسسة، بالتدرجِ والبناء الصابر، راعٍ يرعى، ومسؤول عن رعيته يجنده لخدمة دين الله عز وجل باعثُ القرآن قبل أن يردعَه وازع السلطان.

هكذا حتى يتكامل البناء يشدُّ بعضه بعضا، من الإمارة العليا إلى المرأة الراعية لحقوق أسرتها الحافظة لحدود الله في بيتها. روى البخاري عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته. الأمير الذي على الناس، والرجل على أهل بيته، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده، وهي مسؤولة عنهم». الحديث.

إذا اختلت سلسلة الرعاية ومات ضمير المسؤولية، وهما مختلان ومائتان أشدَّ الاختلال وأفجع الموت في مجتمعات الفتنة، فما يكون إعلان تطبيق الشريعة بين عشية وضحاها إلا مناورة سياسية ولافتة دعائية يرفعها غريق من الزعماء كما قال فرعون لما أدركه الغرق: ﴿**آمَنتُ أَنَّهُ لاإِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[1].

وإن من التصورات الشائهة المشوَّهة للشريعة، قرحٌ من أشد القروح إيلاما في سُمعة الإسلام، أن تقدَّم الشريعة على أنها قطع الأيدي وجلد الظهور ورجم الزاني، ولا حديث عن الحظيرة المحدودة، والجنة المصونة، والغَرس المحمي، وهو مضمون الإسلام من إيمان بالله واليوم الآخر، ومن عدل وإحسان، وعمل صالح

(1) يونس، 90.

وبِر، وأخوة باذلة، وأمن وصون، واستقرار في الدنيا التي منها زاد المؤمن للآخرة. لا يتحدث المشوهون إلا عن السياج والأشواك المحيطة والاحتياطات القامعة، وكَأَنَّ الإسلام نقمة على العباد، وكأنه نُطع وسيف وسكين قاطع وسجل عقاب.

لا يخطر ببالي لحظة أن نتنازل قيد أُنْمُلَة لدعوة «حقوق الإنسان» الرائجة في العالم رواجَ آخر نَسْمةٍ حَيَّة في العالم المخنوق، عن حق الله وحدوده. ويلٌ لمن ينظر إلى الخلق وينسى الله! الجلد حق والقطع والرجم وسائر حدود الله عز وجل. لكن التطبيق لابد فيه من التدَرّج. وما فعله رسول الله ﷺ من التدرج سنّة عملية. يقول القائل: إن رسول الله ﷺ نفذ الحدود فَوْرَ نزول الوحي بها، فتطبيقُها يبدأ من أول يوم أمسك فيه الزمام. وهكذا يمكن للقائل أن يغلق أبناك الربا ويرجم ثلث الناس ويقطع واحدا من عشرة. وهو الذكي إن سأل نفسه: من يقطع من؟ وأين الجهاز القضائي، وعدل الشهود، وصدق حالف اليمين! من ينصب القضاة، ومن يراقب، ومن يحاسب!

إن الله عز وجل قال: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾[1]. وإنه عز وجل يقول: ﴿**التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ**﴾[2]. انظر الشروط السابقة المشروطة والـمَبْنِيَّ عليها أهلية الحفظ لحدود الله. فتطبيقنا للشريعة وحدودها وحلالها وحرامها وفرضها وسنتها يخضع بحكم سنة الله، وبحكم شرع الله، وفي حدود استطاعتنا لتقوى الله، لوجودِ، بل إيجاد، «الحافظين لحدود الله» الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الساهرين من منابر الدعوة ودواوين الدولة على أن يرعى كل راع رعيته.

وإن رسول الله ﷺ يقول: «ادْرَؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله. فإن الإمام أن يُخْطِئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة». رواه الترمذي رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا وموقوفا ورواه ابن حزم رحمه الله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بإسناد صحيح.

---

(1) التغابن، 16.

(2) التوبة، 112.

دَرْءُ الحدود ودفعُها والتماس المخرج من الإلزام بها بكل وسيلة: «ما استطعتم». وأيُّ شبهة أغمضُ غموضـاً وأدعى للتؤدة ودرء الحدود من غربة الإسلام في بدايته الثانية، وقلة النصير، وتناكر الناس لا يعرف بعضهم بعضا تلك المعرفة الضرورية لتقييد الشهادات بعدل الشاهد، وتقييد القضاء بدين القاضي وعلمه بالله وشرعه لا بشهادة «الحقوق» و«القرار الإداري»؟ أي شبهة أنكد من شبهة الظلم الحكمي والظلم الاجتماعي ونتائجهما الـمَرَضِيَّة الـمَوْخومة إذا اعتبرنا سُنَّة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الذي أوقف قطعَ السارق عام الرمادة لشبهة طارئة عابرة، في زمن أوج الخلافة، وهي شبهة قحط وسنَةٍ عجفاء! ما سنةٌ طارئة ببلاءٍ محدود في الأرزاق بجنب تراكم القرون بالبلاء والفتون!

روى الإمام مالك رحمه الله في الموطأ وروى النسائي رحمه الله في السنن بإسناد حسن أن صفوان بن أمية رضي الله عنه تشفع إلى رسول الله ﷺ في سارق فقال الحبيب الرؤوف الرحيم: «فهل قبل أن تأتيَني به!» وقال ﷺ فيما رواه أبو داود والنسائي رحمهما الله عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب». عقَدَ أبو داود رحمه الله عليه بابا: «باب العفو عن الحدود قبل أن تبلغ السلطان».

وقال رسول الله ﷺ لهزّال رضي الله عنه وقد جاء يشكو رجلا بالزنا: «لو سترته بثوبك كان خيرا لك!». رواه مالك وأبو داود وله طرق عديدة.

نعم! يوم تقوم قائمة الإسلام، وبالتدريج، واجبنا إن كنا نؤمن بالله واليوم الآخر أن نطبق حدود الله لا تأخذنا رأفة في دين الله، ولا نخاف في الله لومة لائم. ذلك فضل الله، والستر والتعافي والتغاضي رخصة الله لنا إن قَصُرَتْ وسائلنا عن أن نتقيه حق تقاته، وما دامت فريضةُ مراحِلِنا أن نتقيه ما استطعنا.

قال الإمام عبد القادر رحمه الله ورحمنا: «يا قوم! اعرفوا الله ولا تجهلوه! وأطيعوا الله ولا تعصوه! ووافقوه ولا تخالفوه! وارضوا بقضائه ولا تنازعوه! واعرفوا الحق عز وجل بصَنعته. هو الخالق الرزاق، الأول والآخر، والظاهر والباطن. هو القديم

الأول، الدائم الأبدي، الفعال لما يريد. ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[1] هو الـمُغنِي، هو المفقر، هو النافع، المحيي، المميت، المعاقب، المخوفُ، المرجوّ. خافوه ولا تخافوا غيره. وارجوه ولا ترجوا غيره. دوروا مع قدرته وحكمته إلى أن تغلب القدرة الحكمة.

«تأدبوا مع السواد على البياض (الشريعة المكتوبة)، إلى أن يأتي ما يحول بينكم وبينه، تكونوا محفوظين من خَرق حدود الشرع.

«الذي أشيرُ إليه معنىً لا صورة. لا يصل إلى هذا الأمر إلا آحاد الصالحين. ما لنا حجة خارج دائرة الشرع. ما يعرف هذا الأمر إلا من دخل فيه. فأما بمجرد الصفة فلا تعرفه.

«كونوا في جميع أموركم بين يدي رسول الله ﷺ، مشدودي الأوساط، تحت أمره ونهيه واتباعه، إلى أن يدعوَكم الملِكُ إليه. فحينئذ استأذنوا رسول الله ﷺ، وادخلوا عليه.

«إنما سُمي الأبدال أبدالا لأنهم لا يريدون مع إرادة الله عز وجل إرادة، ولا يختارون مع اختياره اختيارا. يحكمون الحكم الظاهر، ويعملون الأعمال الظاهرة، ثم يتفردون إلى أعمال تخصهم. كلما ترقت درجاتهم يزدادون أمرا ونهيا (...) لا يخرِّبون حدود الشرع، لأن ترك العبادات زندقة».[2]

قال الإمام الشافعي:

صبرا قريبا ما أقرب الفرجَا   من راقب الله في الأمور نجا
من صدق الله لم ينله أذىً   ومن رجاه يكون حيث رجا

وقال رضي الله عنه:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى   ذرعا وعند الله منها المخرج

---

(1) الأنبياء، 23.

(2) الفتح الرباني، ص:53-54.

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فُرِجَتْ، وكنت أظنها لا تُفْرَج

وقال تائب واقف بباب ربه عز وجل متضرعا راجيا:

أسيرُ الخطايا عند بابك واقف على وَجَلٍ مما به أنت عارف
يخاف ذنوبًا لم يغب عنك غَيْبُها ويرجوك فيها فهو راج وخائف
ومن ذا الذي يُرجى سواك ويُتقَى وما لك في فصل القضاء مخالف
فيا سيدي لا تخزني في صحيفتي إذا نُشرتْ يوم الحساب الصحائف
وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما يَصُد ذوو ودٍّ ويجفو المؤالفُ
لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي أُرَجِّي لإسرافي فإنّيَ تالف

وقلت:

تَمَاوَتْ فَبَيْنَ يَدَيكَ الكَفَنْ وَأَنْتَ غُثَاءٌ رَمَادُ الزَّمَنْ
خَفِ المَوْتَ لا تَنْتَهِضْ لِلجِهَا دِ تَمَكَّنَ مِنْكَ عُضَالُ الوَهَنْ
دَعِ الشَّهْمَ مِنَّا يُقيمُ العِمَا دَ وَيَكْنُسُ مِثْلَكَ وَاهِي الدِّمَنْ

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء﴾. لا إله إلا أنت، وعدُك حق، ولقاؤُك حق، ورسلك حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق.

لكل نظام سياسي قاعدة هي الأحزاب المتعددة أو الحزب الواحد المعتمدة على إديولوجيات توحد وجهة كل منها وعلى رأي عام يحتكر مخاطبتَه الحزبُ الواحد أو تتنافس على التأثير فيه واقتناص أصواته الأحزاب الديموقراطية. وتسمى خلاصة الرأي وتصويت الأغلبية كما يسمى قرار الحزب الوحيد «إرادة الشعب».

في النظام الإسلامي، كما نتصوره في عصرنا وما بعده، تكون قاعدة الشورى والحكم والمراقبة هي المشاركة العامة بمقتضى واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. حيث تكون عضوية الحزب في النظامين الديموقراطي والشيوعي اختيارا ومزيَّة، وحيث يكون التصويت اختياريا، يكون واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في دولة القرآن تجنيدا شرعيا للكافة من المؤمنين والمسلمين.

المعروف، كما قال الراغب الأصفهاني، «اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنُه، والمنكر ما ينكر بهما». فواجب كل محسن ومؤمن ومسلم ذكرٍ أو أنثى أن يجتهد لمعرفَة الحسن العقلي والشرعي، ويأمر به، وينهى عن خلافه، ويجاهد بالفكر والقلب واللسان واليد ليُعرَفَ المعروف من الدين ويُفعل ويحترم، ولينكر المنكر في الدين ويُدْحَض ويُبْطَلَ.

وكما يعرف إسلام المسلم والمسلمة وإيمان المؤمن والمؤمنة في خاصة فرديَّةِ كل واحد بصلاح الأعمال والأقوال،كذلك تعرفُ إسلامية المجتمع من عدمها،

ودرجة إسلاميَّته، بمقدار يقظته الدينية المتجلية في معرفته للمعروف وأمره به وفرضه في السلوك العام، وفي معرفة ما هو المنكر ونهيه عنه ومحاصرته وملاحقته أنَّى وُجِد.

واجب المسلمين والمؤمنين فردا فردا في حق الغير أن يرعى كلٌّ رعيته بمسؤولية وأمانة. وواجبهم جماعة، واجبا عينيا يتساءلون عنه ويتراقبون، أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر.

نقرأ في القرآن أن خِيَارَ العباد هم «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» ونقرأ أن خير الأمم «أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر». قال رب العزة جل شأنه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1]. وقال عز من قائل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[2]. الحافظون لحدود الله الذين عليهم مدار تطبيق الشريعة هم الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر، وهم كافة الأمة. قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3]. ونقرأ أن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حكمة عُليا يجب أن يربَّى عليها الوليد منذ نشأته. قال الله عز وجل حكاية لنصيحة لقمان لابنه وإقرارا لها: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[4]. فكما يؤمر الصبي بالصلاة ويربّى عليها لأنها عماد دينه في نفسه، كذلك يؤمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن ذلك عماد دين الأمة، لا يستقيم للأمة دين ولا دنيا ولا آخرة إلا به. ويكفي دلالة على فظاعة ترك هذا الواجب المقدس أن الله تعالى لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ﴿بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[5]. فعدَّ سبحانه الإخلال بهذا الواجب العظيم عصيانا له وعُدوانا على خلقه.

(1) آل عمران، 110.

(2) آل عمران، 104.

(3) التوبة، 112.

(4) لقمان، 17.

(5) المائدة، 79.

وإنما ماتت الأمة موت الخنُوع، وفسد نظامُها، وسقطت من مقام «خير أمة أخرجت للناس» بتركها الواجب العظيم الذي حث عليه الله عز وجل في كتابه، وأكده ﷺ في مثل قوله: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره. ثم إنها تخلُف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن. ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خَردل». رواه مسلم رحمه الله عن ابن مسعود رضي الله عنه.

معرفة ما هو المعروف وما هو المنكر شرط وجوب وشرط صحة سابقٌ على المشاركة في الأمر والنهي. المنكر الأكبر كما عينه هذا الحديث الشريف هو حكم المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون. فمَن حَمَل حملاتِ التشهير والتكفير على البدع الجزئية، بدَع العجوز الجاهلةِ والعادات السافلة، مسالما للمنكر الأكبر، مُنْكَرِ الحكم الفاسد قبل قيام الدولة الإسلامية وبعدها، فهو راتِع في دين الأمة، محرِّفٌ لسُلَّم أولوياتها بسبب اختلال علمه وعمله، إذ تصدى لمسؤولية جسيمة بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

واجب كل مسلم ومؤمن أن يتعلم ما هو المعروف وما هو المنكر قبل المشاركة في الفِعْل، كما يتعلم صفة الصلاة وأركانها وشروطها قبل القيام إليها وإقامتها. مصدر التعلم والتلقي، قبل قيام دولة القرآن وبعدَه، هم العلماء العاملون المتجندون في جماعة المسلمين المتصدية للحكم. وقد يختلف تصور العلماء للمعروف والمنكر حسب الاجتهاد أو حسب الانتماء التنظيمي إن كانت «جماعة المسلمين» في قطر ما ومرحلة ما تتكون من جماعات مستقلة الرأي والاجتهاد والكلمة. وعلى كل جماعة في هذه الحالة أن تصرح برأيها واجتهادها وأدلتها لتقنع الناس ولتتحد الكلمة وجوبا قبل الشروع في العمل ببَنْدٍ من بنود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإلا تَتَّحِد الكلمة تكن فوضى وفتنة ومنكراً أعظم كمن يطفئ النار بالزيت.

إن الهدف الرئيسي من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو اجتثاث الحكم الفاسد وتقويض دعائمه شرطـًا لكل الشروط، وإلا استحال هذا الواجب المقدس

لعبة في يد السلطان الجائر وسهما مصوبا إلى من ينافسه ويضايقه. ثم الأهداف بعد ذلك هي المحافظة على سلامة نظام الحكم، وحماية حوزته، وتزويد جَذْوته بِالجُهد الصادق لكيلا يفتر نشاطهُ وتنطفِئ شُعلته. ثم محاصرة بؤر الفساد ومنابع الشر، مؤسسات وأفراداً، لدحض الفساد وإخماد المنكر وتخميله وتنويمه والحدِّ من شره. ثم في حركة موازية مزامنة لإبطال الباطل وهدِّ المنكر، الجهاد الإيجابي لإحقاق الحق، وهو المعروفُ حسنُه بالعقل والشرع، بل بالشرع والعقل. والمعروف هو العدل والبر والمجتمع الأخوي وإنصاف المحرومين وإغاثة الملهوفين ورفع المستضعفين إلى المرتبة الإيمانية المكرَّمة التي يستحقون بها منة الله بالاستخلاف في الأرض والسيادة فيها.

إن المشاركة العامة بالباعث الديني تُعطي الأمة في ظل دولة القرآن طاقةً كبيرة، على جند الله، جماعة واحدة أو جماعات متعاونة على البر والتقوى، أن تستغلها وتُوَجهها التوجيه الحسن كما تستغل أثمن كنز. عليها أن تنسج من المجهودات العفوية الشعبية، الصاعدة قُربانا لله رب العالمين وطاعةً، صعيداً وقاعدةً بجهد الدولة المنظم، ليتلاقى الجهدان، ويتكامل العملان، أمرا ونهيا، أخذا وعطاء، دفاعا وتأسيسا، حفاظا وتنمية.

لا شك أن جهاز الدولة، عندما تتسلمه الأيدي القوية الأمينة، هو الآلة الأقدر على التنفيذ. والدعوة الماسكة بالآلة هي الجهة الأَجْدرُ بقيادة المجتمع وتنسيق الجهود. فليكن هدف الدعوة وتنفيذ الدولة قاصداً إلى تحقيق حالةٍ يتقلص فيها ظل الدولة ليتولى الناس عامة شؤونهم، وليتولى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليتولى البر والإحسان، وليتولى رعاية كل راع لمناط مسؤوليته، ما هو حالٌّ حاضر سهلةٌ مراقبتُه من الأعمال.

وليكن الرفق، لا سيما في مراحل التأسيس، رائد جند الله. هناك أشلاء النظام المقضيِّ عليه، من أحزاب ومؤسسات. هنالك الذهنيات الموروثة، والعادات، والأنانيات، والغنائم الحرام، وتربص الأعداء من داخل وخارج. وليس واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالشيء الذي تناديه فيلبي النداء فورا ويحضر

لتلَقِّي الأوامر. الإيمان بناءٌ وتربية وتوجيه وتسديد. ومن جملة شعب الإيمان الأمر والنهي، والفعل والترك.

يُترك للأحزاب حريَّةُ رفع اللافتة الإسلامية لمن شاء منها أن يستقيم. ويعامل كل منكر من منكرات الأمس على ضوء نية مجدَّدَة معلنة بعد ردِّ المظالم. ثم إن هنالك سَعَةً في سياسة المقاطعة والتبكيت، والحزم اللازم والرفق الملائم، حتى يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

ارتد رجل زمان حكم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقتلوه. فأنكر ذلك عمر وقال: «فهلا حبستموه -قالها ثلاثا- وأطعمتموه كل يوم رغيفا، واستتَبتموه لعله يتوب ويراجع أمر الله! اللهم إني لم أحضر، ولم آمر ولم أرض إذ بلغني!» رواه مالك رحمه الله في الموطإ.

كانت شدة رسول الله ﷺ على أعداء الله بعد أن ثبتتْ أركان دولته في المدينة شدةً بالغةً. فقد غَدَرَ ناسٌ من عُكْل بعهد رسول الله ﷺ، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، وعطشهم حتى ماتوا عطشا. ذلك جزاء وفاقٌ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ﴾[1].

وإن لنا في قوله وهو أرحم الراحمين: «أو ينفَوا من الارض» خيار ومندوحة عن البأس الشديد قبل أن نتمكن كما كان لعمر مندوحة في حبس المرتد عن حد الله وأمر رسوله بقتل من غير دينه من زنديق وملحد، لمصلحة رآها الفقيه الراشد عمر أمير المؤمنين.

قال أمير من أمراء الأولياء وسلاطينهم الشيخ عبد القادر: «قد أخبرك الله عز وجل بجهادين: ظاهر وباطن. فالباطن جهاد النفس والهوى والطبع والشيطان، والتوبة عن المعاصي والزلات، والثبات عليها، وترك الشهوات المحرمات. والظاهر جهاد الكفار المعاندين لله ورسوله ﷺ، ومقاساةُ سيوفهم ورماحهم وسهامهم. «يَقْتُلون

(1) المائدة، 33.

ويُقْتلون». فالجهاد الباطن أصعبُ من الجهاد الظاهر، لأنه شيء ملازم متكرر. وكيف لا يكون أصعب من الجهاد الظاهر وهو قطع مألوفات النفس من المحرمات، وهجرانُها وامتثالُ أوامر الشرع، والانتهاء عن نهيه!

«فمن امتثل أمر الله عز وجل في الجهادين حصلت له المجازاة دنيا وآخرة. الجراحات في جسد الشهيد كالفصد في يد أحدكم: لا ألم لها عنده. والموت (المعنوي وهو المعبر عنه بالفناء) في حق المجاهد لنفسه، التائب من ذنوبه، كشرب العطشان للماء البارد.

«يا قوم! ما نكلفكم بشيء إلا ونعطيكم خيرا منه. المراد (من العباد) كلَّ لحظة له أمر ونهيٌ يخصه من حيث قلبُه. بخلاف بقية الخلق، بخلاف المنافقين أعداء الله عز وجل ورسوله. بجهلهم بالحق عز وجل وعداوتهم له يدخلون النار. وكيف لا يدخلون وقد كانوا في الدنيا يخالفون الحق عز وجل ويوافقون نفوسهم وأهويتهم وطباعهم وعاداتهم وشياطينهم، ويؤثرون دنياهم على أخراهم! كيف لا يدخلون النار وقد سمعوا هذا القرآن ولم يؤمنوا به، ولم يعملوا بأوامره وينتهوا عن نواهيه!

«يا قوم! آمنوا بهذا القرآن واعملوا به، وأخلصوا في أعمالكم. لا تُراءُوا ولا تنافقوا في أعمالكم. ولا تطلبوا الحمد من الخلق والأعواضَ عليها منهم. آحاد أفرادٍ من الخلق يؤمنون بهذا القرآن ويعملون به لوجه الله عز وجل. ولهذا قلَّ المخلصون وكثر المنافقون.

«ما أكسلكم في طاعة الله عز وجل وأقواكم في طاعة عدوه وعدوكم الشيطان الرجيم! القوم يتمنون أن لا يخلوا من تكاليف الحق عز وجل»[1].

قال ناصح للمنافقين وأصحاب البدع متمسك بآثار السلف الصالح:

قد أحدث الناس أمورا فلا تعمل بها إني امرؤ ناصح
فما جماع الخير إلا الذي كان عليه السلف الصالح

(1) الفتح الرباني، ص:83.

وقال تائب منيب متعرض لعفو الله ومنه طامعٌ صابرٌ:

رُدِدْنا فلم نيأس وعُـدْنا فعُـد لنا ... بعفوك يا من عنده كرم العفـو
فقمنا قيام المفلسين تذَلُّلا ... ببحر العطايا دون حبل ولا دَلـو
خواطرنا مغْبَرَّة بذنوبِنا ... بأضعاف ما تشكو الحواضِرُ بِالبَدْو
وقد منعت دُهمُ الغمائم ودْقَها ... وقد بَخِلَتْ وُرْقُ الحمائم بالشَّدو
فلا نَغْمَةٌ تبدو عشِيّاً بروضة ... ولا بِلَّةٌ تبدو صباحا على المَرْوِ
وتلك جنايات الذنوب، فإنها ... تعود بتكدير على رَوْنَقِ الصَّفْو
أينفع إقرار اللسان وفي الحشا ... فؤاد على عمَدٍ يُقيم على السَّهو!

وقلت:

مَا كُنْتَ تَتْلُو مِنَ كِتَابِ الهُدَى ... يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ خَيْرَ الأُمَمْ
والمُنْكَرَ الكَرِيهَ يَلْعَنُهُ ... فاليَوْمَ دَاسَ النَّاسُ تِلْكَ الحُرَمْ
فَيَا حُمَاةَ الشَرْعِ قُومُوا اصْفَعُوا ... أُبَّهَةَ الظُّلْمِ وَدُوسُوا الصَّنَمْ

الدعوة والدولة

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾. ربنا أصلح بيننا، واهدنا سبيل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، واصرف عنا الفواحش ما ظهر منها وما بَطَنَ، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها، قائلين بها، وأتممها علينا.

العلماء العاملون الراسخون في العلم، خاصة الربانيون، هم أمناء الرسل المبلغون عن رب العالمين القادةُ الشرعيون للأمة. أمرت الأمة أن تطيعهم وتتبعهم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1]. ما لبث حكم الصبيان الذي كان يستعيذ منه أبو هريرة أن دشنه يزيد، فانتقضت عروة الحكم، وابتزَّ الملوك العاضون المشروعية، وزعموا وزعم لهم خدَمُهم من علماء السوء أنهم أولو الأمر الواجب طاعتُهم.

وما لبث العلماء أن انقسموا بعد فتن الحروب الداخلية وفتن الفرقة والخلاف إلى صوفية خرجوا من الميدان، وعلماءَ زهدوا في السلطان وفيما عند السلطان لـمّا خاصم السلطان القرآن، وضعفاءُ من المنتسبين للعلم انضوَوْا بدون قيد ولا شرط تحت لواء الحكم المغتصب. وهكذا ازدوج الأمر وتوزع وتبعثر بين دولة جائرة، جائرة لأنها غير شورية، ودعوة غريبة سليبة. وسقط العلماء، بصفة عامة، طوْعا وكرْها، في قبضة السلطان.

في حيِّز المجتمع الإسلامي الشيعي سقط العلماء، بصفة عامة، طوعا وكرها، في قبضة العامة وتحكم «الشارع». يصِفُ الشوكاني حالة العلماء الزيدية في يمن القرن

(1) النساء، 59.

الثاني عشر وسيرهم مع الرعاع في معارضة فتوى له أصدرها في وجوب احترام الصحابة عنوانها: «إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي». قال: «ولكن كان أهل العلم يخافون على أنفسهم، ويحمون أعراضَهم، فيسكتون عن العامة. وكثير منهم كان يصَوِّبهم مداراةً لهم. وهذه الدسيسة هي الموجبة لاضطهاد علماء اليمن، وتسلُّط العامة عليهم، وخمول ذكرهم وسقوط مراتبهم (...). ولو تكلموا بالصواب أو نصروا من يتكلم به أو عرَّفوا العامة إذا سألوهم الحقَّ وزجروهم عن الاشتغالِ بما ليس من شأنهم لكانوا يدا واحدة على الحق».[1]

كان داء الرفض وبِدْعته المميتة، ولا يزال، ساريا في رعاع الشيعة فقاموا بفتنة ضد فتوى الشوكاني، وخضع العلماء.

إن مسايرة علماء أهل السنة والجماعة للسلطان، ومسايرة علماء الشيعة للعامة الذين منهم أرزاقُهم وعليهم اعتمادُهم، يُفسر سقوط الأمة في «دسيسة» تاريخية خافية وبادية. العالم الشيعي المرجع له أتباع، وعالم القصر له أطماع، ذاك تسلط عليه أتباعه، وهذا أرْدَتْهُ أطماعه.

والحاكم الغاصب والرعاع السائب مناخ ملائم للاستخفاف والتحريف والانحراف. قال الله عز وجل يقص علينا النموذج الأطغَى نموذَج فرعون وملإه ورعاعه: ﴿**وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ**﴾[2].

الدعاية الرسمية، والقمع، وإبادة الصالحين، وثَـلْبُ أعراض الدعاة العاملين، والاستجابة الخرساء للعامة المطيعين الخانعين، وقبضةُ العامة الهائجين فيما قبل ثورة إيران وما بعدها. هذا هو الموروث الفتنوي الواجب تغييره بطرد الغاصبين

---

(1) البدر الطالع، ج 1، ص:234.

(2) الزخرف، 51-54.

العاضّين بقومة لا تُسفك الدماء أثناءها كما فعلت إيران الثائرة، ولا تُسفَك بعدها كما تفعل.

ثم الواجب بعدئذ إعادة الأمر الواجب طاعة أهله إلى نصابِ الشورى، ونصاب قيادة الدعوة للدولة لا العكس، ونصاب الوَلاية العامة بين المؤمنين، والخاصة بين جماعات جند الله، إن كان في قطر ما ومرحلة ما تعدُّدٌ، وقد يكون تعدد الجماعات وتعايُشها وتعاونُها على البر والتقوى، وتنافُسها في الخيرات هو الصيغة المثلى النهائية.

إن واجب الوَلاية بين المؤمنين، ولم يُذكر المسلمون في الآيات الموجِبة، تتويجٌ لِواجب رعاية كل ذي رعية رعيته، وواجبِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. الوَلاية قرب وتقارب، نصر وتناصر، حب وتحاب. تحت مظلة هذه الأخوة الناصرة تتألف الدعوة، ويتعاطف الكبير والصغير، ويتبادل خِدمات البر الأبناءُ والآباءُ والأجدادُ، وينعطف الحاضر إلى الماضي مستوحيا أمثلة الرشد، ويشرئب إلى مستقبل الوحدة والخلافة الثانية ليسير نحوه بخطىً وثَّقها عهد الله، وأوجبها أمر الله، وأخبر بها رسول الله.

يمتد ظل الفتنة الماضية على الواقع الحالي للمسلمين، على عقلهم ونفسيتهم وعادتِهم، كما يظلِّم جَنَباتِ هذا الواقع التخلف الماديُّ والاقتصادي والعلومي بالمقارنة مع الحضارة الغربية الغازية. تخلُّفٌ في العلوم التجريبية التي حَذَقَها غيرنا، نلتهم كل ما جاء من هناك بتسليم وتهافت، نحسب أن آية التفوق الصناعي، بل آياته الطائرة في الفضاء الغائصَة في البحار، القاذفة للنار، حجج لا ترد على أن ثقافة الصانعين وتصورَهم للعالم والإنسان هو التصور الصحيح. ونحسب أن ما قاله وكتبه ونص عليه وعلق عليه وشرحه من سبقونا حق لا يتجزأ، ومن جملة هذا الحق أن قمة القوة الإسلامية وقمة الحضارة وبقية المجد تتمثل في «الخلافة» الأموية، و«الخلافة» العباسية، و«الخلافة» العثمانية.

لا كلام، كما يقول الشيخ عبد القادر، حتى نعودَ إلى حديث رسول الله ﷺ وحُكمِه على السلطان الأموي وما بعده بأنه ملك عاض وجبري. ويحك! كيف تسمي خلافةً

ما سماه رسول الله ﷺ مُلكا؟ العلماء الكاتبون الـمُفتون كانوا تحت تسلط الجائرين الظَلَمة. وما بالأشخاص من عبرة، فقد كان من الملوك رجالٌ صالحون مصلحون، لكن النظام الوراثي السيفي قَدَرٌ إلهي وقع، ويجب أن نقاومه بقدر إلهي، من توفيق الله عز وجل وسعينا، ينادي بالخلافة الثانية التي وعد الله عز وجل بها على لسان رسول الله ﷺ، وتتناولها الدعوة القائمة من يد الدولة الهائمة السائِمة لتعيد الأمر إلى نصابه الراشدي.

لا معنى لأن نقول: إن في الفقه الإسلامي ثغْرَةً فيما يرجع للنظام السياسي. الصواب أن نقول: إن هناك صخرة سدت مجارِي المشروعية، وعطلت الشورى، وطحنت العلماء كما طحنت الأمة.

لابد لنا من فقه مجدَّد نابع من الأصول القرآنية النبوية الراشدية لنعرف موْقع أقدامنا في بناء دولة القرآن على نمط يستفيد من تجارب الأمم في تنظيم الدولة الحديثة المتعددة الوظائِف، وينطلق من الدين لا من الموروث المخبوث ولا من فلسفة الغير، وتحتكم تعددية الدعوة إلى أمر الله بالولاية والأخوة بين المؤمنين كما تحتكم تعددية غيرنا إلى الديموقراطية، ويقيمُ العدل في المجتمع المسلم ثم في الأرض كافة كما لم تستطع الاشتراكية المخذولة في أفغانستان المتراجعة في كل مكان أن تفعل، ويصلُ في طريق الوحدة والخلافة الثانية إلى تحقيق شرط الله عز وجل و«أمره اليومي» وعهده لجنده الوارد في قوله عز من قائل: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾[1].

إن وضعية الدعوة بالنسبة للدولة في الحكم الإسلامي المستقيم هو وضعُ السيادة غيرَ منازعة فيها. إمام المسلمين، المختارُ بالشورى، هو قائد الدعوة ورأس الدولة. إماما قطريا، كلما تحرر قطر نصب إماما إلى أن تتوحد الأمة في الحرية لتتوحد في الإمامة بشكل تسمح به المرحلة والوسائل ونضج الأمة.

---

(1) الحج، 41.

لكن وضع السيادة لا يعني بوجه أن يشتغل الدعاةُ مباشرة بدواليب الدولة، فتغلبَهم على نفوسهم ووقتهم، فيذوبوا فيها وتصبحَ الدولة والدعوة خليطا واحدا له هدف نفْعي إجرائي يومي. رجال الدعوة في الحكم المستقيم لهم السيادة الشورية، وعليهم مراقبة مجالِس القرار، ومؤسسات القضاء والشرطة والجيش والحسبة والمظالم والاقتصاد والتصنيع والتعليم والإعلام وكلِّ ما هناك. فإن ذابوا في الدولة أفرادا، وذابت الدعوة في هيكل الدولة الحديثة الأخطبوطية ماتت الدعوة وآل الأمر إلى تسلط الدولة على الدعوة. ونعوذ بالله من الحور بعد الكور.

لم تقتل الدولةُ الدعوة على عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم. لأنهم أولا كانوا رجالا معهم رجال أيُّ رجال، ولأن مهمات الحكم زمانئذ لم يكن له عشر معشار مهمات الدولة الحديثة.

ومع أنه عمر، فقد كان يحبس في المدينة أفاضل الصحابة وخيارَهم مخافةَ أن «يدنّسهم العمل». هذه عبارته نترجمها فنقول: مخافةَ أن تغتال الدولةُ الدعوةَ. وكان الأخيارُ في مجلسه، وهم رجال الدعوة، يشيرون عليه في الشؤون العملية، ويرفعون أكفَّهم للدعاء والتضرع إذا حزب الأمر، ويبكون معه إذا ذكروا الله وتذكروا.

وكان عمال الدولة أعوانا للدعوة قبل كل شيء، فيقول عمر للناس فيما رواه الإمام أحمد عن أبي فراس: «والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم. ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم».

كانت الدولة في خدمة الدعوة لا العكس. لهذا كان عمر رضي الله عنه يستعمل الفاجرَ القويَّ يفضِّله لعمل الإدارة على التقي الضعيف، ويضَعُه تحت المراقبة الشديدة، ويحمل الجميع محامِلَ الخير حتى إنه عزل عاملا له لا يزور المرضى وأرسل رسولا ليُحرق باب «قصر» سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وهو من الصالحين المبشرين بالجنة، مخافَةَ أن يحتجب لحظَةً عن رعيته.

ويقول لعماله: استعملتكم لتقيموا الصلاة، لم أبعثكم جبابرةً، لكن بعثتكم أئمة.

فتوى الفقهاء المستضعفين بعد العصر الراشدي تقول بجواز إمارة الفاجر القوي ووجوب الغزو معه. وهي فتوى الحاصل في القبضة، ذهب «الحصول» بتلك المدارس إلى الإفتاء بشرعية «إمارة الاستيلاء» وهي حكم السيف لا غير، وهي حكم السلطان المطلق الصائل لا الأمير الحاصل في قبضة عمر. رضي الله عن عمر.

قال الإمام عبد القادر الجيلاني رحمه الله: «ويحك! الدنيا في اليد: يجوز! في الجيب. يجوز! ادخارها بسبب لنية صالحة: يجوز! أما في القلب فلا يجوز! وقوفها على الباب: يجوز! (يعني بـ «الدنيا» في هذا النص وفي كثير من كلامه الدولة والحكام الظلمة كما سنقرأ إن شاء الله) أما دخولها إلى ما وراء الباب فلا ولا كرامة!

«إذا فني هذا العبد عنه وعن الخلق صار كأنه مفقود مَمْحولٌ. يتغير باطنُه عند مجيء الآفات. يوجَدُ عند أمر الله عز وجل فيمتثله، وعند مجيء نهيه فينتهي منه. لا يتمنى شيئا (من «الدنيا») ولا يحرص على شيء (...).

«أين أنتم منهم يا خونةً في العلم والعمل! يا أعداء الله ورسوله! يا قاطعي عباد الله عز وجل! (يخاطب الظلمة وعلماء السوء المنافقين) أنتم في ظلم ظاهر ونفاق ظاهر! هذا النفاق متى يا علماءُ ويا زهاد! كم تنافقون الملوك والسلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذاتها! أنتم وأكثر الملوك في هذا الزمان ظلمة خَونة في مال الله عز وجل وعباده. اللهم اكسر شهوة المنافقين واخذُلهم، أو تب عليهم! واقمع الظلمة وطهر الأرض منهم، أو أصلحهم! آمين!»[1]

وقال: «اللهم ارزق من طلب الدنيا لمعونته على الدين. ومن طلب الآخرة لوجهك فارزقه. ومن طلب الآخرة رياء فلا ترزقه! ومن طلب الدنيا للدنيا فلا ترزقه لأنها حجاب عليه.

«ليته أفلح واحد منكم! (...)

(1) الفتح الرباني، ص:216.

«يا قوم! الإسلام يبكي ويستغيث! يدُه في رأسه من هؤلاء الفجار! من هؤلاء الفُسّاق! من هؤلاء أهل البدع والضلال! من الظلمة! من اللابسين ثياب الزور! من المدّعين ما ليس فيهم!

«انظر إلى من تقدمك وإلى من كان معك آمرا ناهيا آكلا شاربا. كأن لم يكونوا! ما أقسى قلبك! الكلب ينصح صاحبه في صيده وزرعه وماشيته وحراسته، ويُبَصْبِصُ عند رؤيته، وإنما يطعمه عند عشائه لقمة أو لقيمات. وأنت تأكل نعم الله وتشبع منها ولا تعطيه منك مطلوبَه. لا توفيه حقه! تردّ أمره! لا تحافظ على حدوده!».[1]

ويقول الواقف على بابه عز وجل:

تعـدَّت خطايانـا إلـى الوحـش بالفـلا ... وعـاد تعـدّيهـا علـى المـرِّ والحُلْـوِ
إذا كتبـت كـفُّ الحيـا صَفْـحَ زهـدنا ... تصـدّتْ لهـا كـف الهجيـرَة بالمحْـو
فـلا مسـرح إلاّ هشيـمٌ علـى الصفـا ... ولا سـارح إلا هـزيـل علـى نِضْـوِ
سألـنـا وألحفـنـا سـؤالَ ضـرورة ... تُصـرَّفُ مـا بيـن التضـرع والشكْـو
وإنـا مـع التـأميـل نعلـم أنّنـا ... لأَدْنـى، إذا لـم تعـفُ عنـا، مـن السطو
عبيـدك بالبـاب الكـريـم أذِلَّـةٌ ... قيـام علـى الأقـدام في كُـرَب الشجْـو
وقـد أخلقـت أعـراضَهُم ووجـوهَهم ... خطـاياهم فالكـل مقتـربُ الخطـو
فـلا تجـزنـا عـدلا بمـا نحـن أهلُـه ... فتُهلِكَنـا في حاجـة الـمُزْن بالصحـو
ظمئنـا وأشرفنـا علـى هُـوَّة الـردَّى ... وأنت الـذي تكفي وأنـت الـذي تُـرْوي
نـرى العالـم السُّفْـلِيَّ أقْـوتْ نجـومُه ... فهـا نحـن نستسقيك بالعالـم العُلْـوي

وقلت:

لاَ تُخْدَعُـوا بِتَمَـائِمِ الشَّيْطَـان ... وَمُزَخْرَفَـاتِ الزُّورِ والبُهْتَـانِ
قَـامَتْ لِنَصْرِ الله أُسْدُ مُحَمَّـد ... فَتَحَشَّـدَتْ زُمَـرٌ مِنَ الأعْـوَانِ
عَلَـوا الـمَنَابِرَ وانْبَرَوْا بِفَصَاحَـةِ ... يَتَمَلَّقُـونَ مَـوَائِدَ السُّلْطَـانِ

(1) الفتح الرباني، ص:371.

الشـورى

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿سُبۡحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾. اللهم إني أسألك بنعمتك السابغة التي أنعمتَ بها، وببلائك الذي ابتليتَني، وبفضلك الذي أفضلت عليَّ، أن تدخلني الجنة. اللهم أدخلني الجنة بفضلك ومنتك ورحمتك.

لا يترك العمل الصالح للمبادرات الفردية دون نظام وترتيب، وإلا كانت فوضى، وهي ما يعبَّر عنه بالفتنة. الوَلايةُ التي أوجبها الله جلت عظمته بين المؤمنين، ويَنْعَم برحمتها وفي كنفها كل المسلمين وكلُّ الناس أجمعين، تقتضي نظاما لتكون نعمة حقا. الولاية أن تتآلف القلوب على حب الله ورسوله وعلى الإخاء بين المؤمنين. ثم أن يتآلف الرأي بالشورى، ثم يتآلف العمل بالطاعة لله ورسوله ولأولي الأمر. ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾[1]، ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾[2]، ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[3]، نصوص قطعية في الموضوع.

الشورى تَهدِف إلى إجماع الرأي كما تهدِفُ المحبة والأخوة لجمع القلوب، لتأتي طاعةُ من أجمَعَتْ عليه الآراء وتجمعت حوله القلوب تجمع الشمل كله.

ليست الشورى لباسا نلبسه وحِلْيَةً نتزين بها من خارج، وفي باطن قلوب الأفراد وعقولهم، وفي أخلاق المجتمع وعلاقاته، ومن مخلفات الماضي وأدرانِ الحاضر نتانةٌ وقذارةٌ. الشورى طهارة وتطهر بين يدي العمل الصالح كما أن الفوضى والفتنة والحكم الجائر نجاسة.

(1) الحجرات، 10.

(2) الشورى، 38.

(3) النساء، 59.

ليست الشورى جهازا نُركبه جاهزا إن لم يسبق العملية، ويصحبها، ويتبعها، تطهير القلوب، وتنوير العقول، وتقويم الذهنيات، وكسر البدع والعادات، وتذويب الأنانيات. وكل ذلك لا يتم إلا في سياق قومة مستمرة (لا أستعمل كلمة ثورة لأن مؤداها في تاريخنا، وكانوا يستعملونها استعمالا سلبيا، وفي حاضر العالم لا يتطابق مع المطالب الإسلامية).

وإن لِدَولة الإسلام وشُوراه أعداءً وخصوماً من بني جلدتنا. تطهير هؤلاء وعلاجهم يكون بالشورى نفسِها. نترك كل تجمع سياسي ورثناه، وندخل نحن كلما أمكن في التعدديات الديموقراطية، ليتبارى الإسلام والجاهلية على عين الأمة حتى يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة. وإنه لا شيء يعدل أن تهزم الخصوم السياسيين الهزيمة المعنوية المشهودة في مجالهم. فإن صَحِبَتْ هزيمتَهم السياسية هزائمُ أخلاقيةٌ وفكريةٌ وتدبيريةٌ فقد كسبنا أشواطا لا تعوَّض في طريق تربية الأمة وانتزاع إمامتها من الأيدي العابثةِ لتعطينا ولاءها عن اقتناع رسَّخته المقارنة بين الأمناء الأقوياء وغيرهم. وهذا لا تعطيه إلا التعددية.

دعه يركضْ في تناقضاته أمام الأمة!

كما يتيح تعدد الجماعات الإسلامية، في إطار الولاية بين المؤمنين لا خرقا لها، أن تتنوع الآراء والاجتهادات، وأن ينقِّح بعضها بعضا، وأن تُخرج كل جماعة ما عندها تحت ضوء الشمس، فإن كثيرا من الانحرافات والتفاهات ماله سندٌ ولا رصيد إلا غموضه وسرِّيَّته، تزعم أن لديها كنزاً لا تدركه الأبصار.

الشورى إجماع، ومقاربة للإجماع، ومحاولة للإجماع. فرض الله عز وجل الشورى كما فرض الصلاة وسائر التكاليف. وعين للشورى مرتبة في سلسلة شعب الإيمان ودرجات الإحسان في قوله عز وجل: ﴿**وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ**﴾[1].

---

(1) الشورى، 37-39.

جاءت الشورى في المرتبة السابعة من أعمال المؤمنين القلبية الخلقية العقلية العملية. فإن أفردنا الشورى وحاولنا أن نحقق إجماعا بين قوم إيمانهم ليس موضوع نقاش، ولا توكلهم على ربهم، ولا يجتنبون كبيرة ولا صغيرة من الإثم، ولا صبرَ لهم على الشدائد يغضبون ويعنُفُون، ولم يستجيبوا لربهم ولا أقاموا الصلاة فإنما نعبث بالدين. نعبث بالدين إن لم يكن البرنامج التربوي الدعوي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي المقترح هادفا إلى سَلْكِ الشورى في خيط الإيمان والإحسان لتكون واسطة عقد الدولة كما هي الصحبة في الله واسطة عقد السلوك الإحساني.

جاء بعد ذكر الشورى في هذه الآيات الكريمة ذكر الإنفاق وذكر ردِّ البغي وذكر الانتصار عليه. ذلك أن الشورى وحدها، بتنظيمها العملَ الصالحَ من بر وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، تعطي الأمة القيادة القوية والوحدة العملية الضروريتين لإقامة العدل ولحماية الحوزة.

الشورى واجبة في الشأن العام وهو نصب الإمام. هذا إجماع فقهاء السنة والجماعة إلا الشواذُّ. هذا ضرورة كل عصر وسنة الخلفاء الراشدين عليهم السلام. والشورى ملزِمة وإلا كانت عبثا، خلافا لما زعمه بعض علماء أمس وبعض الجارين مجراهم المنحصرين في تقسيماتهم العتيقة. لكن اتباع الديموقراطية في ترجيحها الرأي على الرأي ببلوغ الواحد والخمسين في المائة من الأصوات دخول في جُحر ضبٍّ خرب. والمطلوب في الدستور الإسلامي أن يحدد عتبةً أرفع من مرجح الصوت الواحد الزائد على الخمسين، نتعارف على أنها شبه إجماع لا يجوز للمستشير أن يخرقه كما لا يجوز له أن يخرق الإجماع.

والشورى نازلة من مقام الإمامة، من وجوبٍ إلى تأكيد إلى ندبٍ، في كل مستوى من مستويات الدولة والدعوة، كلُّ أصحاب رعية ومؤسسة تنتظمهم الشورى إلى أصغر وحدة في القرية النائية والأمر الجزئي.

في الدولة الحديثة شِقَّانِ: تشريعيٌّ وتنفيذيٌّ. الشق الثالث: القضاء هو من قبيل التنفيذ. فيما عدا كون المشرِّعِ الديموقراطي سيد نفسه، أي عبداً لهواه وللرأي العام الذي يعبُدُه وينافقُه، وكونِ المجتهد والمستشار المؤمن يعبد ربه، فإن

تحري المصلحة العامة هدف مشترَك بين دُرَّةِ تاج الحكمة البرْجوازية الغربية (الديموقراطية) وبين حقنا المسلوب المطلوب: الشورى. ومن أمهات المصالح تخصُّص مجلس، أو مجالس، للنظر والاجتهاد والاقتراح والمراقبة، وتخصُّص حكومة للتنفيذ والتدبير.

أهل الشورى، الراجع إليهم أمرُها، المبتدئة منهم مبادراتها، الذين يعْرِضُون على العامة، ويفوِّضُ إليهم العامة، ثلاثة أصناف من الناس: العلماء بالدين، خاصة الربانيون الجامعون بين تقوى القلب وتنور العقل، ثم «أهل الحل والعقد» أي أصحاب التأثير والكلمة والمكانة في المجتمع الذين يَقْتَدي بهم الناس، ثم أهل الخبرة والفن والدراية والإدارة والتنظيم.

فرجال الدعوة وعلماؤها هم مفتاح الموقف مع من فاء إليهم من أهل العلم والتقوى. ثم تدخل طوائف التائبين من أهل الكفاءة في المضمار يخاطبهم لسانُ الرفق والأخوة: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1]. ويشارك عامة الشعب في انتخاب الإمام، وعلى كل مستوى، بدَلالَتهم العددية الرقمية ريثما يلمسهم جناحُ التربية وتُنْعِشُهم نسائم الإيمان فيشاركوا في الشورى كما يشاركون في الصلاة، تعبُّداً لله عز وجل وإخلاصا وخدمةً.

وهنا مسألة في غاية الدقة والأهمية، وهي أن الدعوة، سواء استقرت على وحدة أو جبهة أو تعددية متعاونة أو متعاقبة في الحكم، يجب أن لا تكون موضعَ رفعٍ وخفضٍ على إيقاع نجاحات الدولة وفشلاتها: يجب أن لا نربط مصير الدعوة بوعود تُسْقِط الدعوة إن لم تحقق المطالب والوعود كما تسقط الحزب في الانتخابات الديموقراطية.

في الصفحات الماضية من هذا الكتاب أكثرنا من الالتفات إلى النموذج النبوي والسنة التربوية. ذلك لنستقيَ إيمان القلب ونُضيئَهُ بنور الربانية لتنطلِقَ عقولُنا، ونحن البصراء بواقعنا الحاضرِ وتوقعات مستقبلنا ومستقبل العالم، في تعامل موثوق به مع

(1) يوسف، 92.

أسئلة العصر والمِصْر. بقلوب كقلوب السلف الصالح صفاءً وبعقول مسلَّحةٍ بفقه من قبلنا من علماء الأمة، مسلَّحَةٍ بحكمة الأمم ودروس التجربة، نجيبُ عن الأسئلة التي تطرحها علينا تحدياتُ العصر ونماذج الديموقراطية والاشتراكية.

مذاهبهم عقلانيةٌ مطبّقةٌ في السياسة، ومذهبنا تحقيق مقاصد الشريعة وقد جعلناها مطلبًا، واتخذناها هدفا، وننفذها قربة إلى الله عز وجل. تضاريسُ الواقع، والتوتر ما بين المطلوب والممكن، وتخلف الأمة في كل مضمار عملي، يجعل التحويل الإسلامي عملية لولا التوكل على الله عز وجل القادر الناصرُ لقلنا إنها بعيدة.

بالتوكل على الله القادر المقدِّر المقتدر نباشر بناء الدولة القرآنية، دولة الشورى، لنحرر الأمة من نير الخنوع، وذهنية الرعويّة السلبية، وربقة التبعية للأقوياء في العالم والجبارين. بالتوكل عليه عز وجل ننتقل بالصراع السياسي الموروث عن الفتنة إلى نظام لا تنفخ فيه العصبية الجاهلية، لكن يحدوه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يؤديه كل في مكانه ومكانته في شورى عامة شاملة.

قال الإمام عبد القادر رحمه الله: «لا تنعزل في صومعتك. إن الاعتزال من الخلق مع الجهل فساد كبير كليٌّ (...). لا ينبغي لك أن تقعد في الصومعة وعلى وجه الأرض أحد تخافه وترجوه. لا يبق لك إلا مخوف واحد ومرجو واحد وهو الله عز وجل.

«ما أعرفُ إلا الله عز وجل والقيام بدينه تقربا إليه. أقم دينه وانصره لوجهه لا لوجه غيره. الصدّيق يسمع صراخ الدين ينادي قلبَه وسرَّه. إذا خرق العوامُّ حدوده، إذا أتوا مناهيَه وتركوا أوامرَه ورفضوه وراء ظهورهم يسمعه كيف يصرخ ويستغيث بالله عز وجل. فيشمِّر ويقف في وجه من يخرِق الحدود. يعينُه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ينصحه ويذبُّ عنه. يفعل ذلك بقوة ربه عز وجل لا بقوة نفسه وهواه وطبعه ورعونته وجهالته ونفاقه.

«العبادة ترك العادة. لا كانت العادة حتى تصيرَ موضع العبادة! أبطلوا التعلق بالدنيا والآخرة والخلق وتعلقوا بالحق عز وجل.

«لا تُبَهْرِجُوا (لا تدفعوا دراهم مزيفة) فإن الناقد بصير! لا يأخذ منك! لا يقبل البهرج الذي معكم! ارموا به! لا تعدّوه شيئا! ما يؤخذ منك! (...)

«الأكثرون منكم يدّعون الإخلاص وهم منافقون! لولا الامتحان لكثُرَتْ الدعاوى. من ادعى الحلمَ تمتحنه بالإغضاب. ومن ادعى الكرم تمتحنه بالطلب منه. وكل من ادعى شيئا تمتحنه بضده.

«دعوا عنكم الهوس، والزموا التقوى في جميع أحوالكم، المتقون لهم الرب. اتقوا الشرك في الأصل، والمعاصيَ في الفرع، ثم تعلقوا بِحبلَيْ الكتاب والسنة ولا تُخَلّوهما من أيديكم.

«الحق عز وجل كريم، لا يجمع على عبد خوفين. قد تقدم خوف القوم في الدنيا عند أكلهم وشربهم ولبسهم ونكاحهم وجميع تصرفهم. تركوا الحرام والشبهة وكثيرا من الحلال خوفا من حساب ربهم عز وجل وسوء عذابه. تورَّعوا في مأكولهم ومشروبهم وجميع أحوالهم. تركوا الأشياء زهداً فيها. فلما تمكن الزهد صار معرفة. فلما تمكنت المعرفة جاء العلم بالله عز وجل فصار تاجا على رؤوسهم. فلا جرم انزوى عنهم الحرام والشُّبَهُ والمباح. وبقي عندهم الحلال المطلق الذي هو حلال الصديقين الذي لا يُتَّهمون به ولا يخطر على بالهم غيرُه».[1]

وقال ظامئ إلى رحمة ربه مكتف بـ«الحلال المطلق»:

ظمئنا ولا جاه لدينا فنستقي ... وأنّى لمن يعصيك يا رب بالنطق!
وقمنا بباب الجود نلتمس الرضى ... على هَنَةٍ منا وبُعْد عن الصدق
مددنا أكفّا دنَّستها ذنوبُنا ... ولا عمل يبقى ولا توبة تُنْقي
وقد فاز أهل الجد بالسّبق دونَنا ... لديك ولم نملك سوى حَسرة السَبق
فلا زهرة في الأرض تبدي تبسما ... ولا رَنَّةٌ في نفحة الفجر للوُرْقِ
جنينا بما نجني على الوحش في الفلا ... فأضحت ظِماءً تشتكي أوعر الطرق

(1) الفتح الرباني، ص:291.

وقلت:

لاَ ضَيْـرَ إِنْ عَـاثَ الـمَلاَ يَـوْماً مِـنَ الزَّمَـنِ الخَـلِـيّ
فَغَـداً يَمُـوتُ الظُّلْـمُ، يَكْـ شِـفُ وَجْهَـهُ النُّـورُ الجَلِـيّ
وَتَـكُـونُ شُـورَى بَيْنَنَـا فَالحُـكْـمُ لِلَّـهِ العَـلِـيّ

كلمة تدين لكم بها العرب

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾. اللهم زدنا إيمانا ويقينا وفهما.

قال نوح عليه السلام لقومه وهو يدعوهم للإسلام ويرغبهم فيه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾[1]. فوعد بجزاء أرضي دنيوي على الاستجابة والاستغفار. وقال الله عز وجل مخاطبا هذه الأمة المحمدية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. وجعل سبحانه من الأصناف الثمانية الذين يجوز أن تُعطاهم الزكاة المؤلفة قلوبُهم الحديثي عهد بالإسلام، يُعطاهم من متاع الدنيا ليثبتوا على الدين.

هذه أدلة على أن الدعوة إلى الإسلام من أصولها تبشيرُ المؤمنين «بالأخرى» التي يحبونها، وإعطاء المسلمين الجدُد ليثبتوا، ومخاطبةُ الخارجين عن الدائرة من الجهة الحسَّاسة في حياتهم، جهة الأرزاق.

فهل معنى هذا أن للدعاة أن يُطلقوا الوعود بالرخاء والوفرة وحلِّ المشاكل الاجتماعية كما تطلَقُ الوعود الانتخابية ؟ هذا ما سنرجع إليه قريبا إن شاء الله لنتبين فيه وجه الصواب، لأنه من الدين ولأن الخطأ في فهمه قد يجرُّ علينا زلة الأقدام. نعوذ بالله.

---

(1) نوح، 10-12.

(2) الصف، 10-13.

كان أبو طالب عم النبي ﷺ على فراش الموت فجاء رهط من قريش يَعودونه ويشكون إليه ابن أخيه محمداً رسول الله ﷺ، يردِّدُ أبو جهل مع قومه: «يا أبا طالب! ابن أخيك يَشتُم آلهتنا، يقول ويقول ويفعل ويفعل!» فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ، وكان بجوار فراش أبي طالب مكان فارغ، فوثب أبو جهل فقعد فيه مخافة أن يجلس فيه رسول الله ﷺ فيرِقَّ له أبو طالب. فلم يجد رسول الله صلى الله عليه مجلسا إلا عند الباب، ففرَّقوا بينه وبين عمه مناورة سياسية وحربا نفسية. فلما كلَّمه أبو طالب أجاب ﷺ: «يا عم! إنما أريدُهم على كلمة واحدة تَدينُ لهم بها العرب، وتُؤَدي إليهم بها العجم الجزية». الحديث رواه أحمد رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما.

هذا ملأ قريش في حَشدهم، خاطبهم رسول الله ﷺ خطابا عاما «جماهيريا سياسيا»، لم يذكر فيه جزاء الآخرة ولا تكاليف الدين. عصبيَّة مجسَّدة وموقِفُ مواجهةٍ مباشرةٍ. لم يستجيبوا كما لم يستجب الملأ من قوم نوح عليه السلام لأنهم سمعوا الشرط الذي بالوفاء به «تدين لهم العرب وتؤدي لهم العجم الجزية»، وهو توحيد الله عز وجل بالعبودية، ومعنى ذلك تجريدهم هُمْ من كل ما يُكَوِّنُ سيادتهم وشرفهم على العرب. يعني ذلك تحطيم أنانيتهِم، وكسرَ أصنامهم التي كانت شبكة صيدهم ومناط حج القبائل إليهم.

وبعدُ فإن ربط الدعوة بالبشارة والإشارة إلى الجانب الاقتصادي، وهموم المستضعفين، وقوام الحياة اليومية من خبز للجائع، وسكن للضاحي، وصحة للسقيم، وعمل للعاطل، ومدرسة للطفل، وعدل للجميع، ورخاء، وخصب، وراحة من المشاكل قناةٌ مشروعة لتبليغ الدعوة وتحبيبها للعامة. وإن الطرح الفكري للتصور الإسلامي في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية والتعليم والتنمية والتصنيع والعلاقات الخارجية ومشروع المجتمع المنشود لَمِنَ المؤيدات القوية للدعوة.

كثير من المسلمين البائسين المرزوئين تحت وطأة الحكم العاض والجبري ينتظرون كلمة الإسلام في المواضيع الحيوية ليطمئنوا على أن ما عندهم من رصيد ديني، محروز في الصدور محترمٍ في الصميم مهما كان السلوك الفعلي، لا يصطدم

مع الواقع المعاشي ولا يُنكره ولا يُبعده، بل يتجاوب الدين مع الهم اليومي ويؤيد مطالب المحرومين. كثير من المبؤوسين تلعب بهم نقابات المساومة وأحزاب التضليل، فإن سمعوا كلمة الإسلام في شؤون الدنيا صادقة موصولة بما عندهم من اعتزاز بدينهم ومن بقايا تمسكهم الفعلي أو العاطفي المشتاق كادوا يكونون أشدَّ الناس حرصا على الإسلام الغالي الذي لا يقتصر على الوعظ الزاجر كما يقتصر إسلام «الدعاة» الذين قفزوا من الكتب العتيقة إلى المنبر، لم يحوموا حومة حول الواقع، ولم ينظروا إليه نظرة.

يكاد المبؤوسون، عند سماع النداء المبارك من جانب هموم البطن والسقف والجيب، يكونون القاعدة الصلبة للدعوة يعقدون عليها الأنامل ويحملونها بالأذرع ويحمونها بالنفس والنفيس بعد أن يكتشفوا زَيْفَ الإسلام الرسمي وَزَيْفَ إسلام الأحزاب الدنيوية السياسية، إسلام الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون.

وكثير من المثقفين والمتعلمين لا اطلاع لهم على الدين، ما تعلموا عن الدين إلا ما بثَّتْه فيهم المدارس اللايكية، وما كرهوا التدين إلا لما يرون من نفاق المنافقين. هؤلاء يكادون يدخلون إلى الدين من نوافذ الدنيا، ويكاد التعليم البصيرُ المعروضُ في أسلوب يألفونه ويفهمونه يجلبهم إلينا حين يقرأون تحليلنا للواقع، ونظرتنا إلى العالم، وعرضَنا للرأسماليةِ والطبقيةِ على كتاب الله وسنة رسوله نُفَنِّدُها ونستقبحُ الاستكبار والظلم، واقتراحنا للعدل الإسلامي وبره وإحسانه وأخوته نسوِّدُ باقتراحنا ومشروعِنا المعروضِ وجهَ الصراعية الماركسية اللينينية، ووسائلَنا، وهم الآن يقدرونها كل التقدير خاصة منذ ثورة إيران وانتصار جند الله في أفغانستان، لتعبئة الأمة وحيازة ثقتها وقيادة جماهيرها إلى التحرر والعزة والنصر.

أصبح جمهور الأمة ساخطا على خطاب الطبقات المتوسطة المتعلمة التي تجيد صياغة الشعارات الرنانة الثورية لا تجيد شيئا غيرها إن لم يكن إجادتها لصنع الهزائم كما صنع عبد الناصر. وقَرِفَ المتعلمون من الإديولوجيات اليمينية واليسارية، أو يكادون، منذ أصبحت الدولة العظمى روسيا ترجع القهقرى، جهارا نهارا، من

مثاليتها الثورية إلى واقعية تلهَث وراء الاقتباس السريع المباشر المنزوع الحياء من ليبرالية كانت بالأمس فقط هي عين الشيطان. قرفوا وملّوا منذ أصبحت الليبرالية تبصبص بذنبها فرحا لعودة غرباتشيف بالركب الضائع من قطار الغرب إلى محطته.

هؤلائك المبؤوسون وهؤلاء المتعلمون يكاد ينفعهم وينفعنا أن نكلمهم، كلمة صدق، كلمةً نؤمن بها، عن الشرط الإلهي لنهضة من الكبوة، وكفاية من العوز، وعزة من الذل، وحياة من الموت.

لكن فرق ما بين أن تبشر بصلاح دنيا المستغفرين وبين أن نقدم الإسلام على أنه «دليل للعمل الثوري» و«إديولوجية للتغيير الاجتماعي» و«تعبئة من أجل النماء والتنمية». كالفرق بين العلم الراسخ والتزوير الماسخ.

أما بعد فلا بد، بالإسلام وحدَه، بالإسلام كلِّه، من نهضة شاملة تتوزع فيها كل فئات الأمة التضحياتِ والفوائدَ والمسؤولياتِ، بعدل شامل ونيات أخوية صادقة. لنقُلْها صريحة صارخة إن الإسلام لا يضمن المصلحة العامة بإبقاء الغنيِّ على غناه والفقير على فقره. ولا يضمن مصالح الدنيا ولا مصالح الآخرة إن لم يحرر المستضعفين من تسلط المحتكرين المحليين ومن استطالة المستكبرين العالميين. لا يعني تسويدُ الإسلام وجهَ الصراعية العنيفة أن تقبل الدعوة الفوارق الصارخة بينَ ملاّك يحتوش الأرض، ورأسمالي يسخر القوة العاملة، وبين الفقراء المبؤوسين. ولا مناصَ للدولة الإسلامية، وهي في طريقها إلى المجتمع الأخوي، من كسر الحواجز وإعادَة القسمة وفرض الإنصاف. ما الرفق في ذلك حتى لا نكسر الآلة الاقتصادية فيستفْحِلَ البلاء؟

لابد من أن تقود الدولة الإسلامية، بمراقبة الدعوة وشورى الكافة، عملية التنمية. التنمية في إطار نهضة شاملة هي بيت القصيد في أرجوزة السياسة. هي المثل السائر في نثر الاقتصاد. هي الكلمة المفتاح في حياة المجتمع.

لابد في البداية من تربية الإنسان، إعادة تربيته، بعد انتشاله من وَهْدة التحقير والإهمال والاستغلال والتجهيل والتضليل الإعلامي والتسيُّب الأخلاقي. برنامجُنا

للتنمية والتصنيع ينبغي أن يستهدف خدمة الإنسان، خدمة المؤمن السالك إلى ربه يحتاج في رحلته لزاد وراحلة. ثم إن لكافة الخلق من مائدة الرخاء الإسلامي نصيباً.

مثل هذا الاقتصاد الهادف لا يمكن استيراد فلسفته، إن أمكن استيراد وسائله وآلته، ولا استلهام بِنيته وَجِرايَتِه من عندهم. بل يخرج من أحشاء الأمة، من عقول مفتوحة لها أبواب التعلم من تجارب الأمم، مفتوحة لها أبواب السماء وبركاتها.

عند غيرنا تراكُمٌ مُذهل للخبرة، عندهم تفوق هائل في التكنولوجيا، عندهم رأس المال يحجبون عنا كل ذلك إلا بمقدار: فهُمْ قبل التحرير الإسلامي يمِدّون صنائعهم وأذنابهم من الحكام علينا الإمداد المشروط. وفي غد الإسلام هم حاجبو ذلك عنا عداءً أصيلا إلا أن نعرف كيف نتعامل بحكمةٍ وطمأنينة مع السوق العالمية ومع مصالحهم القومية التي نجد في تعارضها الطارئ أو القارِّ فجوةً لنستخلص بغيتنا من بين فرث ودم، توكلا على الله عز وجل.

قال الشيخ الإمام عبد القادر رحمه الله: «يا غلام! قد تقيدت بالعادة (...) إياك والوقوف مع السبب ونسيان المسبب والتوكل عليه. عليك باستئناف العمل والإخلاص فيه. قال الله عز وجل: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[1]. ما خلقهم للهَوس، ما خلقهم للعب، ما خلقهم للأكل والشرب والنكاح. تنبَّهوا يا غُفَّل من غفلاتكم!

«يخطو قلبك إليه، ويخطو حُبُّه إليك خطوات. هو إلى لقاء المحبين أشوقُ منهم إلى لقائه. «يرزق من يشاء بغير حساب».

«إذا أراد عبداً (قلت: أو أُمَّة وجيلا) لأمر هيأه له. هذا شيء يتعلق بالمعاني لا بالصور. إذا تم لعبد ما ذكرتُ صح زهده في الدنيا والآخرة وما سوى المولى. تجيئه الصحة، يجيئه الـمُلك والسلطنة. والإمارة تجيئه! تصير ذرته جبلا، قطرته بحراً، كوكبه قمرا، قمره شمسا، قليلهُ كثيرا، محوه وجودا، فناؤه بقاء، تحركه ثباتا. تعلو شجرته وتشمخ إلى العرش وأصلها إلى الثرى، وتظلِّلُه أغصانها في الدنيا والآخرة.

(1) الذاريات، 56.

«ما هذه الأغصان؟: الحكم والعلم. تصير الدنيا عنده كحلقه خاتم. لا دنيا تملكه، ولا أخرى تقيده. لا يملكه ملِك ولا مملوك. لا يحجبهُ حاجب، لا يأخذه أحد. لا يكدِّرُه كَدَر.

«فإذا تم هذا صلُح هذا العبد للوقوف مع الخلق، والأخذ بأيديهم، وتخليصهم من بحر الدنيا. فإذا أراد الحق بالعبد خيرا (قلت وبالخلق أيضا) جعله دليلهم وطبيبَهم ومؤدِّبهم ومدرِّبهم وترجمانهم وسانِحهم ومِنْحَتَهم وسراجهم وشمسهم.

«فإن أراد منه ذلك كان، وإلا حجبه عنده وغيبه عن غيره. آحاد أفراد من هذا الجنس يردهم إلى الخَلْق مع الحفظ الكلي والسلامة الكلية. يوفقهم لمصالح الخلق وهدايتهم.

«الزاهد في الدنيا يُبتلى بالآخرة، والزاهد في الدنيا والآخرة يبتلى برب الدنيا والآخرة.

«قد غفلتم! كأنكم لا تموتون! وكأنكم يوم القيامة لا تحشرون! وبين يدي الحق لا تحاسبون! وعلى الصراط لا تجوزون! هذه صفاتكم وأنتم تدعون الإسلام والإيمان! هذا القرآن والسنة حجة عليكم إن لم تعملوا بهما»[1].

قال ذاكر لله، راج رحمة الله، ضعيف أمام قوة الله:

وإنا لنرجو منك يا رب رحمة ... على عادة الإحسان عندك والرفق
أسأنا على علم بأنّك محسن ... وهل خاب عبدٌ لاذَ بالـمُحْسن الحق!
ضعافٌ أطافوا بالقويِّ تذلُّلا ... وقد بخلت دُهم الغمائم بالوَدْق
فلا منطق للرعد يشفِي سماعُه ... ولا لمحةٌ تكفي الجفونَ من البرق
عبيد أُصيبوا فاستغاثوا بسيِّد ... وقد يعطف المولى على العبد في الرِّقِّ
إذا الخالق الرزاق أغلق بابه ... فمن ذا الذي تدعوه ألسنة الخلقِ!

(1) الفتح الرباني، ص:35.

وقلت:

كمـينٌ هَـمَّ بالسَّطْـو ... يُخَوِّفُنَـا مِـن المَحْـوِ

يُهَـدِّدُ تـارةً أو يسـ ... ـتفـز الـمُرَّ بالحُـلْـوِ

فشُـدَّ قلـوبَنـا ربّ ... لنمضِـيَ ثابتِـي الخَطْـو

العلماء العاملون

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾. اللهم ربّ السماوات وما أظلت، ورب الشياطين وما أضلت، ورب الرياح وما أذَرَّتْ، أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها.

من سمات الربانية الجمع بين العلم والعمل. أما العمل الضروري فهو الذكر والعبادة يستوي فيهما الصوفية والعلماء العاملون. وتفردت كل طائفة بعمل خاص، يربي الصوفية القلوب ويهذبونها بينما يوجه العلماء العاملون العقولَ وينفون عنها الجهل. وكلا العملين جليلٌ، ولكل طائفة مشاركة: لا يخلو الصوفية من مجالس علمية، وللعلماء العاملين تأثير ضمني على النفوس والقلوب والأخلاق.

وأما العلم فأعلاه معرفة الله تعالى، للصوفية الكاملين منها الحظ الوافر، وللعلماء العاملين النفحات والنسمات. قد يكون العارف الصوفي أمِّيا فيعلمه الله ويجعل له لتقواه فرقانا، ﴿إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾[1]، وقد يسلك طالب الحق الطريقَ بعد تحصيل العلوم العقلية والنقلية ثم يفتح الله قلبه فيجمع له بين العلم المكسوب والعلم اللدني الموهوب. وسعيا لهذا الجمع، وهو كمال الكمال، رأينا في الفصل الأول من هذا الكتاب علماء الدين وفقهاء الشريعة يتطارحون على أبواب أئمة التربية ويتتلمذون لهم ويرغبون في سلوك طريق الوصول والعرفان على أيديهم كما فعل الغزالي وعز الدين بن عبد السلام والسبكي والسيوطي وما لا يحصى عدا ولا تتطاول إليه الأعين شموخا من الرجال.

---

(1) الأنفال، 29.

إن حاجة الأمة الدائمة، وحاجة جند الله الناهضين لإعلاء كلمة الله في الأرض أشد ما تكون إلحاحا إلى مربين ومعلمين ربانيين. وقد آن الأوان أن تنتهي الخصومة الناتجة عن الجهل والتعصب التي يؤججها بعض الوراقين في عقول الناشئة وأنفسهم إذ يفرقون بين أهل العلم العاملين والصوفية الصادقين.

الوراقون لَقِفوا أوراقا جدلية هي من آثار معاركَ مضت لم يحضروها ولا هُم من العلم والاستقامة بحيث يدركون مداخلها ومخارجها ومنشأها وأسبابها. ولقفوا، والتهموا كما يلتهم الحوتُ الأعمى في دياجِيرِ البحر وقاعِه، كلَّ ما هب ودبّ من آراءٍ استشراقية وأحكام جائرة وتعميمات تلتفُّ في وشاح الأمانة العلمية والغيرة على الكتاب والسنة وعقيدة السلف.

التقطوا المُرَّ من مخلّفات الجدل ومظلمات العِلل ومُرديات الجهل والخطل. والمطلوب من الصادقين العقلاء أن يراجعوا الموقف المخبول وأن يجتنوا العسل الحلو بدل الجدل المر. أن يجتنوه من شهادات الرجال الصادقين، يلتمسون عندهم عصارة التجربة وخُلاصة الحكمة بدلَ أن يرفعوا شعارَ حرب مستمرة، فتوى كتبَها عالم مضى في فترة من عمره وسلوكه وفهمِه ثم تجاوزها. وبقوا هم يجترون الخطأ ويُجَرِّعونه الأجيال مرارة بعد مرارة.

قرأنا في الفصل الأول من هذا الكتاب توبة الإمام الشوكاني رحمه الله مروِيَّة مكتوبة بقلمه عن تكفير من كفرهم من الصوفية في عنفوان شبابه. جاءته السن والتجربة واتساع الأفق العلمي والرقي في معارج التقوى بالتؤدة والرفق والاعتراف، ولو متأخرا، بالخطأ.

وخصص كتابه «قطر الولي على حديث الولي» للحديث عن حب الله، وعن التقرب من الله، وعن معرفة الله. كَتَبَه لا شك بعد أن تعَسَّل.

يقول في كتابه هذا: «ومن جملة أولياء الله سبحانه الداخلين تحت قوله: «من عادى لي وليا» العلماء العاملون. فهم، كما قال بعض السلف، إن لم يكونوا أولياءَ الله سبحانه فما لله من ولي. فإذا فتح عليهم بالمعارف العلمية، ثم منَحهم العمل بها

ونَشْرها في الناس، وإرشادَ العباد إلى ما شرعه الله لأمته، والقيامَ بالمعروف، والنهيَ عن المنكر، فهذه رتبة عظيمة ومنزلة شريفة. ولهذا ورد أنهم ورثة الأنبياء».[1]

كان الرجل مرّا في فترة شبابه فتداركه الله بِمِنْحَةِ الحكمة والفهم عن الله كما نرجوه تعالى أن يتدارك بها المراهقين الخائضين فيما لا يعلمون. ذلك إن أراد بهم سبحانه خيرا.

قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيرا عسَّله. قيل: وما عسَّلَه؟ قال: يفْتح له عملا صالحا بين يديْ موته، ثم يقبضه عليه». رواه الإمام أحمد والطبراني رحمهما الله عن أبي عنبة رضي الله عنه رجل من الصحابة، وأشار السيوطي رحمه الله في جامعه الصغير إلى حسنه.

نرجو للمراهِقين من العمل الصالح أن يكفّوا عن خوض غمار الحرب على من خالفهم، بل على من خالفوه، فهم الطارئون. فإن تداركهم الله سبحانه بتوبة كاملة فتح لهم أبواب الصدق والرفق. ولعلهم حينئذ يستفيدون من درس «التعسيلة» التيمية، يجتنون من شهد روحانيته العالية وربانيته الأصيلة.

هذا الرجل المظلوم حيا وميتا منحه الله عز وجل في آخر عمره، بين يدي موته، فقد مات في السجن، فتحا مبينا ومعارف كملت له مطلبَه من ربه عز وجل، مطلباً فوق كرامة القراءة في اللوح المحفوظ التي كان يُنكرها قبل أن يُدرك مرتبتها كما قرأنا في الفصل قبل هذا.

من السجن كتب ابن تيمية رحمه الله رسائل تفيض رقة وفرحا بالله عز وجل وحلاوة وعَسَلِيَّةً. كتبها نفس القلم الذي كان أَرْقَماً على الخصوم، وأملاها نفس الفكر الذي كان عليهم عَلْقَما. تعسل هذا وذاك في رحمة الله الكريم الوهاب. داخل السجن، وسط الفتنة والمحنة.

(1) ولاية الله، ص:290-291.

قال رحمه الله في رسالة لأصحابه من السجن: «وأما بنعمة ربك فحدث. والذي أعرِّفُ به الجماعة أحسن الله إليهم في الدنيا والآخرة وأتم عليهم نعمته الظاهرة والباطنة: فإني، والله العظيم الذي لا إله إلا هو، في نعم من الله ما رأيت مثلها في عُمْري كله. وقد فتح الله سبحانه وتعالى من أبواب فضله ونعمته وخزائن جوده ورحمته ما لم يكن بالبال، ولا يدور في الخيال، وما يصل الطَّرْف إليها. ييسرها الله تعالى حتى صارت مقاعدَ (قلت الصوفية يقولون: مقامات). وهذا يعرف بعضها بالذوق من له نصيب من معرفة الله وتوحيده وحقائق الإيمان وما هو مطلوب الأولين والآخرين مع العلم والإيمان.

«فإن اللذة والفرحة والسرور وطيب الوقت والنعيم الذي لا يمكن التعبيرُ عنه إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيدِه والإيمان به، وانفتاح المعارف الإيمانية والحقائق القرآنية. كما قال بعض الشيوخ (الصوفية): لقد كنت في حال أقول فيها: إن كان أهل الجنة في هذه الحال إنهم لفي عيش طيب! وقال آخر: تمر على القلب أوقات يرقُص فيها طرباً، وليس في الدنيا نعيم يُشبه نعيم الآخرة إلا نعيم الإيمان والمعرفة. ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «أرِحنا بالصلاة يا بلال». ولا يقول أرحنا منها»[1].

قلت ويحك! الرجل تغمَّده الله برضوانه، وفتح له في رحمته في آخر أيام حياته حتى أدرك بفضله سبحانه ما تدركه الشيوخ، وحتى ذاق ما لا تفهمه ولا تطلبه كما يطلبه الأولون والآخرون، وأنت قاعد مع فتوى جدلية تتهجاها! ما اسمك يا صاحِ في الملكوت!

وكتب من السجن أيضا يوصي جماعته بطلب معرفة الله عز وجل، معناه بلغة تفهمها يا صاحِ! أنه يوصيهم بأن يتصوَّفوا أي أن يتحابّوا في الله وأن يذكروا الله، وأن يقفوا بالإرادة والهمة والخضوع بباب الله. قال: «وفي الجملة، ما يُبين نعم الله التي أنعم بها عليَّ وأنا في هذا المكان أعظمُ قدرا وأكثر عددا، ما لا يمكن حصرُه وأكثر ما ينقُص الجماعة. فأنا أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ما تقِرُّ به

(1) الفتاوي، ج 28، ص:30.

أعينُهم، وأن يُفتَح لهم من معرفة الله وطاعته والجهاد في سبيله ما يصلون به إلى أعلى الدرجات. وأعرِّف أكثر الناس قدر ذلك: فإنه لا يعرف إلا بالذوق والوجد. لكن ما من مؤمن إلا له نصيب من ذلك، ويستدل منه بالقليل على الكثير وإن كان لا يقدُرُ قدْرَه الكبيرَ. وأنا أعرف أحوال الناس والأجناس واللذات، وأين الدُّرُّ من البَعْر! وأين الفالوذَجْ من الدِّبْس! وأين الملائكة من البهيمة أو البهائم!».[1]

الله أكبر! الذوق والوجد والمعرفة ولغة التبكيت والاستنهاض التي نقرأها عند الشيخ عبد القادر. لَطالما وَسَمَكَ عبد القادر بأنك «قفص بلا طائر»، وهذا ابن تيمية يشبه إيمانك بجنب أهل المعرفة والكمال ببَعْرَةٍ إزاء دُرَّة، وبهائمَ إزاء ملائكة. وأنت لا تتحرك! ولا تغضب! ولا تنبعث! وتُمضي العمر في مضغ الكلام وطلب النصوص الخطإ لتزداد تردِّيا في حَمْأَتِكَ! ويلك!

قال رحمه الله في رسالة أخرى: «المقصود إخبار الجماعة بأن نعم الله علينا فوق ما كانت بكثير. ونحن بحمد الله في زيادة».[2]

ما أدخلتَ يا صاح في حسابك أن الصادقين من العلماء العاملين، وابن تيمية رحمه الله منهم، يترقون «بكثير كثير» وترفعهم العناية الإلهية في آخر عمرهم إلى «تعسيلة» يزدادون فيها علما «بكثير كثير». وأنت قاعد مع مَرْحَلَة من اجتهادهم وخطإهم تحرِّفُه لا تشرِّفه!

وكتب من السجن إلى أمه يقول: «فقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة والهداية والبركة ما لم يكن يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال».[3]

في رسائله الأخيرة، وهي آخر كتاباته، نَفَسٌ جديد، ورحمة جديدة. كانت كلمة الساعة عنده الحديث إلى الخاصِّ والعام عن فرحته بالله سبحانه، وفرحته بالفَتْح، وفرحته بالبركة والزيادة والهداية. انطوت صفحات الجدل والشدة على الخصوم،

(1) الفتاوى، ج28، ص:41.

(2) نفس المصدر، ج28، ص:44.

(3) نفس المصدر، ص:49.

ونُسخ في عقله وقلبه ذلك الماضي الذي اتخذه من بعده بعضهم صنما ثابتا ومرجعا مطلقا. يا لَلَّهِ من فرحة الصادق حين يفتح الله له الأبواب! وكأنه في سذاجة سروره طفلٌ يدلِّلُونه «بما لا يخطر على البال ولا يدور في الخيال». ويا خيبة من أعرض عن ذكر ربه وصدَّ عن سبيله!

قال الإمام الرفاعي رحمه الله عن مراتب العلماء: «الدرجة الأولى درجة رجل طلب العلم للـمُمَارَاة والجدل والتفاخر وجمع المال وكثرة القيل والقال. والدرجة الثانية درجة رجل طلب العلم للمناظرة، لا للرياسة لكن ليُحسبَ في عداد العلماء فيُمدح بين أهله وعشيرته (...). والدرجة الثالثة درجة رجل حل عويص المشكلات، وكشف دقائق المنقولات والمعقولات، وغاص في بحور الجدل مُضْمراً نُصرةَ الشرع في أحواله، إلا أنه أخذته عزة العلم (...) واختطفته نُصرة نفسه فأفرط وأقام الحجة على خصمه، وشنَّع عليه، وربما كفّره، وطعن فيه (...). والدرجة الرابعة درجة رجل علمه الله، فنصب نفسه لتنبيه الغافل، وإرشاد الجاهل، وردِّ الشارد، ونشر الفوائد».[1]

يا من يكفرون الناس تحت لواء التيمية! ابن تيمية رقاه الله من درجة لدرجة، وصفاه وعلمه لصدقه. وأنتم، في أحسن الحالات، لأن منكم أميين، في «درجة المماراة وجمع المال وكثرة القيل والقال». تحرفون كلام ابن تيمية الصاعد المتحرك المخطئ المصيب السالك المستزيد المتعلِّم. فأَنَّى تؤفكون! وأنّى لكم أن تقرأوا بحُزن على أنفسكم سرور ابن تيمية في آخر عمره!

قال الإمام الرفاعي، وهو العالم العامل الصوفي الكامل، يعترف بفضل العلماء العاملين: «أي سادة! إن نهاية طريق الصوفية نهايةُ طريق الفقهاء. ونهاية طريق الفقهاء نهاية طريق الصوفية. وعقبات القطع التي ابتُلي بها الفقهاء في الطلب هي العقبات التي ابتلي بها الصوفية في السلوك. والطريقة هي الشريعة، والشريعة هي الطريقة. والفرق بينهما لفظيٌّ. والمادة والمعنى والنتيجة واحدة.

(1) البرهان المؤيد، ص:164-165.

«وما أرى الصوفي إذا أنكر حال الفقيه إلا ممكورا. ولا الفقيه إذا أنكر حال الصوفي إلا مبعودا. إلا إذا كان الفقيه آمرا بلسانه لا بلسان الشرع، والصوفي سالكًا بنفسه لا بسلوك الشرع، فلا جناح عليهما (قلت: لأنه لا يُعبأُ بمثلهما من المنافقين).

«والشرط هنا الصوفيُّ الكامل والفقيه العارف كما ذكرنا. كيف يعمل الصوفي الكامل إذا قال له الفقيه العارف: أأنت تقول لتلامذتك: لا تصلوا! لا تصوموا! لا تقفوا عند حدود الله! باللهِ عليكم هل يقدر أن ينطق إلا بحاش لله! كيف يعمل الفقيه العارف إذا قال له الصوفي الكامل: أأنت تقول لتلامذتك: لا تكثروا من ذكر الله! لا تحاربوا النفس بالمجاهدات! لا تعملوا بصحة الإخلاص لله! بالله عليكم هل يقدر ينطق إلا بحاش لله! فحينئذ اتحدت المادة والمعنى والنتيجة واختلفت اللفظة لا غير. ومن حجبه من الفقهاء حجاب اللفظة عن أخذ ثمرة المادة والمعنى والنتيجة فهو جاهل. ومن حجبه من الصوفية حجاب اللفظة عن أخذ ثمرة ما ذكرنا فهو محروم».[1]

قال موفق شمر عن ساق الجد للرحلة الميمونة إلى الله عز وجل:

دعْ عنـك تِذكـارِ الخليـط الـمُنْجِـدِ ... والسـعيَ نحْـوَ الغانيـات الخُـرَّدِ

واستَغْنِ عـن سُعْـدى وسَـلْمَى إنَّمـا ... سـعدى وسلمى شغل مـن لـم يَسْعَد

وإذا سَكِـرْتَ فنـادهم متقَـهْقِـرا ... يـا غافليـن عـن النعيـم السَّـرْمَدي!

أخطـأتم وجـهَ الطريـق فكلُّكـم ... حيـران عـن مقصـوده لا يهتـدي

وسهـوتـمُ عـن منَّـةٍ مَخبـوءة ... يَلْقـى مكارمَهـا الموفـقُ بالغـد

كـم بيـن لـذة ساعـة مخصوصـة ... ونعيـم دارٍ لا يبيـدُ مـؤبَّـدِ!

فاشـدُدْ لـدار الخلـد حُلَّـةَ حـازم ... تظفـر بهـا، والويـل إن لـم تَشْـدُدِ!

بالرُّشـد والتوفيـق ينتَهِـضُ الفتـى ... لا ينقـذ الأعمـى كأخـذ باليـد

(1) البرهان المؤيد، ص:105-106.

وقلت:

لا ينقذ الأعمى كأخذ باليد فارحل أقَاصِيَها لصحبة سيِّد

****

يقول اللئيم: عليك الهُوَينى وما لك بالسفر القاصد

تمهل فذلك حزم وعُدَّ خُطاك وَأَتْهِمْ وَلاَ تُنْجِدِ

فقلت: اقتحامُ الصعاب طريق الرجالِ ودربُ الفتى الأيِّدِ

شعب الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى﴾. اللهم قد نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت حي قيوم. اللهم طلبي للجنة بطيء، وهربي من النار ضعيف. اللهم اجعل لي عندك عهدا لا ترده يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد.

جمعت بحول الله في خصلة «العمل» سبع شعب من شعب الإيمان هي: التكسب، وطلب الحلال، والعدل، وإماطة الأذى عن الطريق، والتواصي بالحق والصبر، وتأييد الله عز وجل عبادَه المجاهدين بالغيب، وجعلُه سبحانه البركة في أرزاقهم.

فمن جُهد العبد وكسبه وتكسبه إلى تأييد الرب جل وعلا ومباركته تمتدُّ أكف الأسباب مستمطرة صالح النتائج لصالح الأعمال. من آكد الأسباب المنيلة لتأييد الله جل جلاله جُهْدُ العباد وجهادهم، وصَوابُ العمل وإخلاصُه وإتقان أركانه الشرعية والتِّقنيَّة، واستمرار العباد في الدعاء الخاشع والتضرع، واستهداف الخير لعامة الخلق -خاصة المسلمين- بإقامة العدل وبالبر وبإماطة الأذى عن طريقهم. وهذه هي المعاني الثلاثة للإحسان.

فإن كان في علم العاملين من المؤمنين، وفي العلماء المرشدين الموجِّهين للعمل، نقيصة في معنىً من هذه المعاني الثلاثة كان نقصهم الذاتيُّ القلبيُّ والعقلي والخلقي آفةً عليهم في خاصة أنفسهم في الآخرة، وكان ما يترتب على ذلك النقص الذاتي من قصور في الأعمال وفساد لنتائجها آفة تهدد دنيا الأمة وتُؤْذِنُ بخرابها.

لذا تكون ربانية العلماء أهل الشورى والدعوة، وتقنيةُ أهل الخبرة وإخلاصُهم، وهدف البِر وخدمةِ المسلمين شروطا أساسية لصلاح العمل الإسلامي. وضمان هذا الصلاح ومفتاحُه ربانيةُ المشرفين على العمل من مربين وعلماء عاملين.

وقد رأينا في الفقرة الأخيرة كيف أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى الثغرة التي استبانها من سجنه، بعد فتحه وتعسُّله، في تربية أصحابه لما كتب لهم بأن «أكثر ما ينقُص الجماعة (...) أن يُفتح لهم من معرفة الله وطاعته والجهاد في سبيله ما يصلون به إلى أعلى الدرجات». كانوا، كما يراهم شيخهم الجليل، في درجة لا يرضاها لهم حتى يترقَّوْا بمعرفة الله تعالى وتقدَّس إلى أعلى الدرجات. ونحتفظ بذكره الجهاد إلى فصل مقبل إن شاء الله.

كان ابن تيمية رحمه الله، حتى قبل فتحه الأكبر في السجن آخر حياته، مثالا حيّا شامخا في سماء الفضائل، مثالا للعالم الربّاني العامل الموصولِ بالأمة في قواعدها. كان آية في العلم، آية في التقوى، آية في التعبد، آية في التواضع، آية في الزهد والعزوف عن الدنيا، قويا شجاعا في الحق.

فإن أضفنا إلى مزاياه الزكيَّة هذه المزية التي حباه بها رب النعم ذو الطول سبحانه في «تعسيلته» آخر عمره كان حقا النموذج المطلوبَ أمثالُه لقيادة الجهاد في عصور الفتنة. نتأمله مليّاً ثم نتخطاه باحترام لنلتصق قلبا وعقلا وعلما وعملا واستِلْهاما بالنموذج النبوي الراشدي نتأمله لننصف الحقَّ في رجل يمتد ظله في هذه السنوات، لوفرة كتبه وعنادِ أنصارِه المخدوعين بلعبة السلطان الجائر العاض الذي جنَّد المال والرجال ليشغل المسلمين، بواسطة الجدل التيمي، بالحرب المذهبية المفتعلة عن مواجهة الباطل وأهله، وهم السلاطين المتسلطون أزلام الجاهلية بين ظهرانَيْنَا. والرجل الكبير رضي الله عنه مظلومٌ مرتين: مات في سجن السلطان، وها هو السلطان في عصرنا يقتل علمَه وعمَله بالتشويه إذ يُقدِّمه، بواسطة علماء المِراءِ وجمع المال والقيل والقال، على أنه عدوٌّ للتصوف، ناصرٌ للسنة، قامع للبدعة، ما قاله هو الحق، كلمته الفصل في تكفير الشيعة، في عصر الثورة الشيعية التي جاءت أول بشير بقرب تهاوي العروش الكسروية القيصرية الأمريكية بين ظهرانَيْنا.

الحق أبلج، الحق أن شيخ الإسلام كان قمَّةً في الخير، له حدودُه وحجمُه، وله أخطاؤه، وله نقص في نفسه وأصحابه، يشرِّفه أن يكون كتبَ إلى أصحابه آخرَ عمره يوصي بتلافي النقص. ويشرِّفه أن يكون ترك وراءه رجلا جَبَلا هو ابن القيم رحمه الله

الذي تقرأ في كتبه التربوية، مثل «طريق الهجرتين» و«مدارج السالكين»، ما يقرُّ العين ويُثلجُ الصدرَ ويرأبُ الصدعَ من الكلام المعسول المتلطف المعترف بفضل الصوفية، وعُلُوِّ شأن العارفين بالله، وشموخ مقامهم رضي الله عنهم.

من يقرأ ما كتبه عن الصوفية الشيخ عبد الرحمن بن الجوزي رحمه الله، يتخذُه مرجعا للحكم، يضع يده على رأسه حسرةً على أن يكون من أمة محمد ﷺ ناس يُسَمَّوْنَ صوفية. ومن يقرأ ما كتبه ابن القيم يحمد الله على أن عاش ليقرأ عن أخبار وأخلاق قوم يسَمَّوْن صوفية. ابن تيمية وسط هذا المسلسل الحنبلي بلغ الجَهْد، في مراحل سلوكه قبل الفتح الأخير، فمدح وقدح، وما قدح إلا في مطاعن حقيقية، إن استثنينا تكفيره غفر الله له لبعض الصالحين.

والرجلُ كان يغلبه الحال.كان يغيب عن الحاضرين وهو جالس للتدريس. فمن حاله الغالِب وقصوره في السلوك جاءت حُمَمُه. ومن استواء ابن القيم واستفادته من حادثة فَتْح شيخه الأخيرِ ووصيتِه جاءت التُؤَدةُ والرقَّةُ من الله سبحانه اللطيف بعباده.

قال الحافظ عمر البزَّار رحمه الله في كتابه «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» وهو من أصحاب ابن تيمية العلماء: «وهو (ابن تيمية في دروسه) يجري كما يجري السيلُ، ويفيض كما يفيض البحر، ويصير منذ يتكلم إلى أن يفرُغ كالغائب عن الحاضرين مغمضا عينيه».[1]

ما زال المشايخ الصوفية رضي الله عنهم يعتبرون التعلق القلبي بحضرة الرسول ﷺ والإكثار من الصلاة والسلام عليه، وتعظيم سنته والعمل بها عِوَضاً عن صحبة الشيخ الحي. وكان ابن تيمية رحمه الله يكاد، بشهادة المنصفين من معاصريه، يبلُغُ الكمال في تعظيم النبي ﷺ واتباع سنته إذا استثنينا هفوته التي ردها عليه جمهور العلماء في «مسألة شد الرحال».

كان أعداء ابن تيمية من أهل الدنيا، وهم الحكام ثم المرتزقة من العلماء. فيا لَلْعَجَب كيف انقلبت الآية في عصرنا فتسلط المتسلطون في الدنيا على رَمْزِيَّةِ عالم فذٍّ

(1) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ، ص: 29.

من علماء الآخرة. قال الحافظ البزار: «من رأينا مع العلماء قَنَع بمثل ما قنع هو منها أو رَضِيَ بمثل حالته التي كان عليها؟ (...) فأين حاله هذه من أحوال بعض المنتسبين إلى العلم وليسوا من أهله، مِمَّن أغراهم الشيطان بالوقيعة فيه، بقوله وفعله؟ أترى ما نظروا ببصائرهم إلى صفاتهم وصفاته، وسماتهم وسماته، وتحاسدهم في طلب الدنيا وفراغه منها، وتحاشُدهم في الاستكثار منها ومبالغته في الهرب منها، وخدمتهم الأمراء واختلافهم إلى أبوابهم؟».[1]

كان ابن تيمية رحمه الله مثلا لامعا للعالم الرباني الخافض الجناح لعامة المسلمين. وتلك سمة من سمات الصلاح اشتهر بها المشايخُ الصوفية الصادقون الذين كان همهم الأكبرُ وشرفهم الأزهر أن يخدموا الفقراء. قال البزار: «وكان لا يسأم ممن يستفتيه أو يسأله، يُقبل عليه ببشاشة وجه، ولين عريكة. ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه، كبيرا كان أو صغيرا، رجلا أو امرأة، حرّا أو عبدا، عالما أو عامِّيًّا، حاضرا أو باديا. ولا يجْبَهُه ولا يُحرجُه ولا ينفره بكلام يُوحِشُهُ. بل يجيبه ويفهِّمه ويعرفُّه الخطأ من الصواب بلُطف وانبساط».[2]

وقال: «وكان مجلِسه عاما للكبير والصغير، والجليل والحقير، والحر والعبد، والذكر والأنثى. وقد وسع على كلِّ من يردُ من الناس. يرى كل واحد منهم في نفسه أنه لم يُكْرِمْ أحدا بقدْره».

آه! ثم آه! من لنا بملء مسجد من أمثاله من العلماء الربانيين يطلِّقون الدنيا ليسلكوا سبيل الله وسط الشعب، في خدمته وتعليمه والوفاء لله بالوفاء له! انعزل علماء القصور عن الأمة بانحيازهم للظلمة، وانعزل المتمشْيخون المتصوفون في أبراجهم المذهَّبَة، استَحْلَوْا تقبيل الأيدي والتجارة في البركات... آه!

قال البزار: «حدثني من أثق به أن الشيخ (ابن تيمية) رضي الله عنه كان مارّاً يوما في بعض الأزقة، فدعا له بعضُ الفقراء. وعرف الشيخ حاجته، ولم يكن مع الشيخ ما

(1) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، ص:48.

(2) نفس المصدر، ص:52.

يعطيه. فنزع ثوبا على جلده ودفعه له. وقال: بعه بما تيسر. واعتذر إليه من كونه لم يحضُر عنده شيء من النفقة».[1]

الله أكبر! هذه أخلاق السلف الصالح! وسيما الصالحين!

وكان إلى هذه الذلة على المؤمنين عزيزا على أهل السلطان وعلى الكافرين. لا جرَمَ أحبه الله تبارك وتعالى وفتح له فتحه لأوليائه.

قال البزار رحمه الله: «كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد، يكون بينهم واقِيَتَهُم وقُطبَ ثباتِهم. إن رأى من بعضهم هَلَعـًا أو رِقَّةً أو جَبَانَةً شجَّعه وثبَّته وبشَّره بالنصر والظَّفَر والغنيمة».[2]

نَجْدَتُه رحمه الله في خِفَّتِه إلى مواساة الفقير بثَوْب يَنْزِعُه من على جلده كنجدته في ميدان القتال. لا كبعضهم نعاماتٌ أمام الحكام، طُفَيْلياتٌ على موائد الظلام، بأسهم شديدٌ على الأمة.

ولا يذهب الظنُّ إلى أن ابن تيمية بجليل مناقبه كان وحيدَ عصره فتَحْسِبَ أن أعداءَه وخصومه كانوا كلُّهم من الأرذال. كان في سِرْب الحنابلة غوغاءُ، وكان في حزب المعاصرين لابن تيمية رعاع هم أذناب السلطان. لكن كان من معارضيه المفنِّدين لآرائه واجتهاداته الشاذة علماء عاملون من أكابر الأمة، ناهيك بالإمام التقي السبكي رحمه الله. على فرق ما بين الرجلين: التقيُّ ابن تيمية كان رجلا شعْبيا بينما كان التقي السُّبْكيُّ رئيس قضاة الشام. أما الإمام ابن عطاء الله الشيخ المربي الحكيم فقد كان ينظر إلى ابن تيمية أيام مُشاغباته كما ينظر الأستاذ إلى تلميذ مُشاكِس يتباطأُ عن النُّضج. لم يتهذب ابن تيمية بشيخ تربية، بينما كان ابن عطاء الله هو شيخ الوقت، تربى على يد الإمام أبي عباس الـمُرسي تلميذ شيخ مشايخنا أبي الحسن الشاذلي عليه وعليهم جميعا رضوان الله.

---

(1) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، ص:67.

(2) نفس المصدر، ص:69.

قال قدوةُ عصره عبد القادر رحمه الله: «وا أسفا عليكم خلقَ الله! ما تعرفون خالقكم حقَّ معرفته. إن كان لي يوم القيامة شيء (من الشفاعة) عند الله عز وجل لأَحْمِلَنَّ أثقالكم من أولكم إلى آخركم. يا مقرِئ! اقرأ عليَّ وحدي من دون أهل السماوات والأرض!

«كل من يعمل بعِلْمه صار بينه وبين الله عز وجل بابٌ يدخل قلبه منه عليه. وأما أنت يا عالم فمشتغل بالقال والقيل وجمع المال عن العمل بعلمك. فلا جرَمَ يَقعُ بيدك من الصورة دونَ المعنى. إذا أراد الله تعالى بعبد من عبيده خيرا علمه ثم ألهمه العمل والإخلاص. ومنه أدناه! وإليه قربه! وعرَّفه! وعلّمه علم القلوب، والأسرارُ مختارة له دون غيره. يجتبيه كما اجتبى موسى عليه السلام وقال له: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[1].

«لا لغيري! لا للشهوات واللذات والتُّرَّهاتِ! لا للأرض ولا للسماء! لا للجنة ولا للنار! لا للـمُلْك ولا للهُلْك! لا يقيِّدْك شيء مني! ولا يشغلك شاغل عني! ولا تقيِّدْك عني صورة! ولا تحجبك خليقة! ولا تُغْنِكَ عني شهوة!

«يا غلام! لا تيأس من رحمة الله عز وجل بمعصيةٍ ارتكبتها. بل اغسل نجاسة ثوب دينك بماء التوبة، والثبات عليها، والإخلاصِ فيها، وطيِّبه وبخِّره بطيب المعرفة. احذر من هذا المنزل الذي أنت فيه، فإنك كيفما التفَتَّ فالسياجُ حولك والأذايا تقصدُك. تحوَّلْ عنه وارجع إلى الحق عز وجل بقلبك»[2].

قال تائب راغب لا يلهيه عن ربه عز وجل مُلك ولا هُلْكٌ:

هم القوم لا تلهيهم عن مليكهم تعاليل دنيا بالغرور تدُور
فهم في الليالي المظلمات بدور يضيء ظلامَ الليل حسنُ وجوههم

وقال مشغوف بحب مولاه والِهٌ مُوَلَّهٌ في الجمال والجلال:

أيُّ النسيم جرى بأرض خِيام مُتَوَشِّحا بِذوائب الأعلام!

(1) طه، 41.

(2) الفتح الرباني، ص:64.

وافى، وقـد عَبَقَـتْ بِنشْـر أحبتـي نفحـاتُـه لِعَـــرارِه وثُـمـــامِ
فطـربتُ، لا أدري بـأيِّ لطيفـة وثـمِلْـــتُ لا أدري بـأيِّ مُـــدَامِ
وَلِعـتْ بقـلبي صَبْـوةٌ شامِـيَّةٌ وَلَـعَ النسيـم بيانِـعٍ بَسَّـام
فغـدوت مشغـوفًا بـه وبأهلـه طَـرِبَ الشمـائلِ للوميـض الشـامي
لـولا هـوىً للـروح بيـن خِيامـه مـا بـتُّ حنّـانـا لِكُـلِّ خِيـامِ
ومُحجَّـبٍ مـا حظُّـنا مـن وصلـه إلا المنَـــى ومواهـبِ الأحـــلام
تهفـــو لـــه ألبـابُنـا فيصـدُّها سَطْـــوُ الجـلال وهـيبة الإِعْظـام

وقلت:

أَيُّ الرجـال تُـراكَ يـا خِـلَّ الصَّفـا أعليـك معتمَـدٌ ليـوم نِـزالِ؟
يـومَ الكـريهة إذْ يرفـرف فوقنـا نصـر الإلـه ومُحْكَـم الآجـال
نبغـي الشهـادة إذْ تـراق دمـاؤنا أو نَسْتعيـدَ كـرامـة الأجيـال

الفصل التاسع

السمت الحسن

- أولياء الله
- الشيخ عبد القادر
- أولياء الله وأولياء الطَّاغوت
- الدخيل
- قُبَّةُ البَشَرية
- أسرار الله في العبد
- استقامة السر
- الحال والمقام
- الفناء والبقاء
- وحدة الوجود والحلول والاتحاد
- شعب الإيمان

أولياء الله

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ﴾. اللهم أحمدك وأستعينك على هذا الأمر أن يقيم الناس دينك.

السمت كما قال ابن منظور هو «حسن النحو في مذهب الدين». وروى الضِّياء المقدسي عن أنس أن النبي ﷺ قال: «السمت الحسن جزء من خمسة (قال عياض: الصواب خمس) وسبعين جزءا من النبوة». وأشار السيوطي إلى الحديث بالصحة.

بأي شيء يتميز الأولياء عن كافة المؤمنين؟ في هذا الفصل ننوي إن شاء الله أن نلخص ونرتب ما سبق من معلومات ونكملها لتتجلى لنا صورة الولي العارف بالله أكثر.

قرأنا كيف قارن ابن تيمية العارف بالله بجنب عامة أهل الإيمان بالدُّرَّة في جنب البعْرة والملائكة في جنب البهيمة. كتب ذلك لأصحابه من السجن ليدلهم على أعلى الدرجات التي لا تنال إلا بمعرفة الله عز وجل و«الذوق والوجد». وقد أخذ نفس المقارنة الإمام الشوكاني، ونعيد كتابة نصه، قال: «والحاصل أن الخواطر الكائنة من أهل الولاية إذا لم تخالف الشرع فينبغي أن تكون مُسَلَّمَة لهم لكونهم أحباء الله وأولياءه وأهل طاعته وصفوة عباده. وليس لمن كان بالنسبة إليهم كالبهيمة بالنسبة للإنسان أو كالإنسان بالنسبة إلى الملائكة أن ينكر عليهم شيئا لا يخالف الشريعة»[1].

ونعيد نَصَّين لابن القيم تقرأ وراء كلماتهما الحدَبَ الشديد على تبليغ معنى لا تكفي العبارة لحمله، فيستدعى المجاز، ويستعان بالكناية، ويحسب الشاكُّ

(1) ولاية الله، ص:430.

والمشكِّك أنها مبالغات فادحة، وما هي والله إلا الحقيقة نطقوا بها تحقيقا وكتبوها تصديقا. قال في مدارج السالكين: «ومن لم يعلم معنى وجود الله والفوز به فَلْيَحْثُ على رأسه الرماد، وليبك على نفسه».[1] وقال رحمه الله: «وهذا أمر لا يصدق به إلا من ذاقه. فإنما يصدقك من أشرق فيه ما أشرق فيك. ولله در القائل:

أيا صاحبي! ما ترى نارهم؟ فقال: تريني ما لا أرى!

سقاك الغرام ولم يسقني فأبصرت ما لم أكن مبصرا»[2]

الحنبليان المتشددان، ابن تيمية وتلميذه رحمهما الله، هما أرفع الناس صوتا في الإخبار عن الولاية وذوقها ووجدها وعلومها القلبية وفتحها ونقص القاصرين في السلوك إليها. لم يجدا للإِدْلاَءِ بشهادتهما في الموضوع إلا أسلوب الشيخ عبد القادر رحمه الله، المنتسب إلى المذهب الحنبلي، عندما يستحثُّ الهمة الراقدة بقوله فيما يشبه التقريع: يا غلام! يا قفصا بلا طائر! وما بالقوم، ولا بالشوكاني من بعدهم، قصد إلى تبكيت أحد من خلق الله، إنما قصدهم أن يصيحوا بالبشارة والدلالة على باب خرجت منه إليهم عطايا «لا تخطر بالبال ولا تدور في الخيال». فأي لغة تسمو إلى العبارة عن الميزة العظمى التي لا يحلم بها أمل الحالمين غير المجاز والتقريع!

أما من أدخلوه الباب، بعد أن خرجت إليه التَّقْدِمات وهدايا الاستقبال، وأجلسوه على كرسي الكرامة فهو إما أخرسُ أَلْجَمَه الفضل، أو كاتِمٌ قَيَّد لسانه العقل، أو سكران يهذي بما لا تفهمه العقول. ومن هذه الذريعة يدخل الزنديق ليبهرج في سوق العبارات الـمُعمّاة ليُروِّج لكفره. حَفظنا الله وحفظ بنا آمين.

وللمشككين المتذرعين بالحيطة الـمُتَسَرْبِلين بالريبة المتسلِّحين بالتهمة من مأدبة القوم رضي الله عنهم نصيب الحرمان. قال الشوكاني رحمه الله، لم يجد إلا لغة الشعر ليذُبَّ عن عقلك مقالات الشاكين: «فما أبعد ما جاء به المشككون في هذا الأمر (أمر الولاية) الذي لا يقبل التشكيك لا شرعا ولا عقلا بَلْ ولا عادة (...). والمحروم من حرم ذلك.

(1) مدارج السالكين، ج 2، ص:452.

(2) نفس المصدر، ج 3، ص:163.

وكيـف تـرى ليلـى بعين تـرى بها سـواها ومـا طهّـرْتَها بالمدامـع!
وتلتـذ منهـا بالحديث وقد جـرى حديث سواها في خروت المسامع
أُجِلُّك يا ليلــى عــن العــين إنما أراك بقلب خاشع لـكِ خاضع»[1]

قلت: ليس ظهور الكرامة شرطا في الولاية، وليس الولي محترفا للولاية لا تُعْرَفُ ولايته حتى يتقدم إلينا أشعثَ أغبر أو في لباسٍ ناصع البياض. الولي المفتوح له يعرف خصوصيَّة نفسه، وقبل ذلك وبعده فهو في موقعه من المجتمع: عالما واعظا، أو نجارا، أو تاجرا، أو عاطلا، أو غير ذلك. يصطفي الله عز وجل من عباده لولايته من يشاء، فيخرجه من الظلمات إلى النور، ويقربه حتى يكون سمعه وبصره ويده ورجله كما جاء في الحديث القدسي، وما يعلم تأويل ذلك إلا الله. العبرة أن يستيقظ فيك عامل الرجاء، أو عامل المنافسة، أو يستثيرك نداءٌ. العبرة أن تحدِّث نفسك بأن تكون لله وليا مثلما كانوا.

سأل إبراهيم بن أدهم رَضي الله عنه رجلا: أتحب أن تكون لله وليا؟ قال: نعم! فقال: «لا ترغب في شيء من الدنيا والآخرة. وفَرِّغْ نفسك لله تعالى. وأقْبِلْ بوجهك عليه ليُقْبِل عليك ويواليك».

وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله: «أولياء الله عرائس الله تعالى. ولا يرى العرائسَ الـمُجْرِمُون. فهم مُخَدَّرُون (أي محجوبون في الخِدْر) عنده في حجاب الأنس، لا يراهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة».

قلت: لا يراهم على حقيقتهم النورانية الروحانية إلا من كان مثلهم، فلا يعرفهم على حقيقتهم العاميُّ المحجوب دنيا ولا آخرة.

سئل الواسطي رحمه الله: كيف يغذَّى الولي في ولايته؟ فقال: «في بدايته بعبادته، وفي كهولته بسترته، وفي شيخوخته بلطافته. ثم يجذبه إلى ما سبق له من نعوته وصفاته، ثم يذيقه طَعْم قيامه به في أوقاته».

(1) ولاية الله، ص:465.

وقال أبو سعيد الخراز رضي الله عنه: «إذا أراد الله تعالى أن يُواليَ عبدا من عبيده فتح له باب ذكره. فإذا استلذَّ الذكر فتح له باب القرب. ثم رفعه إلى مجالس الأنس به. ثم أجلسه على كرسي التوحيد. ثم رفع عنه الحجب، وأدخله دار الفَردانيَّة، وكشف له عن الجلال والعظمة. فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بلا هوىً. فحينئذ صار العبد زَمِناً فانياً، فوقع في حظه سبحانه، وبرِئَ من دعاوِي نفسه».

كلمات نقلتها من رسالة الأستاذ القشيري رحمه الله يتحدث فيها أوائل الصوفية الأولياءُ عن الولاية وشروطها وذوقهم لطريقها. نستأنس بهذه المقالات ثم نمر إلى مجلس المجد المنيف، مجلس سيد الأنبياء والأصفياء والأولياء سيدنا محمد رسول الله ﷺ لنسمعه يخبر خبر اليقين عن حقيقة وجود الأولياء. ثم لنا رجعة للشيخين الرفاعي والجيلاني رحمهما الله لنسمع التفصيل.

روى الإمام أحمد رحمه الله من ثلاثة طرق، عن علي بن أبي طالب وعن أم سلمة وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنهم، حديث الأبدال. والأبدالُ صنْف من الأولياء لهم بينهم مرتبة خاصَّة. وللناس جدل دائم في حقيقة وجود أولياءَ يسمون أبدالا وأقطابا وغير ذلك. ما لي ولك ولِلْجَدل! إنما يَرُدُّ علوم الأولياء إذا لم تكن صادِمة للشرع من وصفهم لك الشوكاني. وخبر الأبدال من نُطق النبوءة. قال رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «الأبدال يكونون بالشام، وهم أربعون رجلا. كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا. يُسْقَى بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء، ويُصْرَف عن أهل الشام بهم العذاب».

ويخبر أهل المكاشفة من كبار الأولياء عن مراتب الولاية فيصدقهم من يرى مثلما يرون، ويُحسن الظنَّ من لم يكن حظه الحرمان، ويقول: «هذا كلام فارغ»، كما قالها قبله بعض علماء الأوراق، مِمَّن لا ينفتح قلبه لغير القال والقيل.

كأني بشاكٍّ مشكك جاهل بأقدار الأكابر يقول: هل نُقِل هذا عن ثقة مثل ابن تيمية؟ لقد كفاك الثقة الصادق مؤونة اللف والدوران حين أجمل لك، من عتبَة الموت، ما يُفصِّله لك أمثالُ الإمام الرفاعي، وحين شبه الدون والأعلى بالبهيمة والملائكة.

وهذا إمام آخر، ستقرأ في الفقرة التالية إن شاء الله رأي ابن تيمية فيه، يؤكد حقائق مراتب الأولياء فيقول: «المؤمن لا يأكل لنفسه وبنفسه، ولا يلبس لها، ولا يتمتع، بل يتقوَّت لِيَتَقَوَّى على طاعة الله عز وجل. يأكل ما يثبت أقدام ظاهره بين يديه. يأكل بالشرع لا بالهوى. والولي يأكل بأمر الله عز وجل.

«والبدل الذي هو وزير القُطْب يأكل بفعل الله عز وجل، والقطب أكله وتصرُّفه كأكل النبي ﷺ وتصرفه. كيف لا يكون كذلك وهو غلامه ونائبه وخليفته في أمته ! هو خليفة الرسول، خليفة الله عز وجل. هذا خليفةٌ باطنٌ وإمام المسلمين المتقدم عليهم خليفةٌ ظاهرٌ»[1].

وقال رحمه الله وقدس سره العزيز: «ومن صحَّتْ تبعيته للرسول ﷺ ألبسه دِرْعا وخَوْذَة، وقلده بسيفه، ونحله من أدبه وشمائله وأخلاقه، وخلع عليه من خِلَعه، واشتد فرحُهُ به كيف هو من أمته، ويشكر ربه عز وجل على ذلك. ثم يجعله نائبا له في أمته، ودليلا وداعيا لهم إلى باب الحق عز وجل.

«كان هو الداعي والدليل، ولـمَّا قبضه الحق عز وجل أقام له من أمته من يَخْلُفُه فيهم. وهم آحاد أفراد: من كل ألف ألف إلى أن ينقطع النفس واحدٌ. يدلون الخلق، ويصبرون على أذاهم مع دوام النصح لهم. يتبسمون في وجوه المنافقين والفُسَّاق، ويحتالون عليهم بكل حيلة حتى يُخَلِّصوهم مما هم فيه، ويحملوهم إلى باب ربهم عز وجل. ولهذا قال بعضهم رحمة الله عليه: لا يضحك في وجه الفاسق إلا العارف. يضحك في وجهه ويريه أنه ما يعرفه. وهو يعلم بخراب بيت دينه، وسواد وجه قلبه، وكثرة غِلِّهِ وكَدَره (...).

«ويلكم! تظنون أنكم تَخْفَوْن على الصِّدِّيقين العارفين العالمين! إلى أيِّ وقت تضيعون عمركم في لا شيء! اطلبوا من يدلكم على طريق الآخرة! يا ضُلاَّلا عنها! الله أكبر عليكم! يا موتى القلوب! يا مشركين بالأسباب! يا عابدين أصنام حولهم وقُـوَاهُم ومعايشهم ورؤوس أموالهم وسلاطين بلادهم وجهاتهم التي ينتمون إليها!

(1) الشيخ عبد القادر في «الفتح الرباني»، ص:196.

«إنهم محجوبون عن الله عز وجل».[1]

وقال الإمام الرفاعي رحمه الله ينادي الغافل: «أيها البعيدُ عنَّا! الممقوت منا! ما هذا منك يا مسكين! لوكان لنا فيك مقصد يشهد بحسن استعدادك، وخالص حبِّك إلى الله وأهله اجتذبناك إلينا، وحسبناك علينا، شئت وإن لا. لكن الحق يقال: حظُّك منعك، وعدم استعدادك قطعك. لو حسبناك منا ما تباعدت عنا. خذ مني يا أخي علم القلب! خذ مني علم الذوق! خذ مني علم الشوق! أين أنت مني يا أخا الحجاب! كُشف لي عن قلبك!».[2]

قلت: لا إله إلا الله! الله أكبر عليكم يا من قطعهم الشك وأردتهم التُّهمة!

وقال مشمِّر بباب الجود والشاكّون نيامٌ:

وذي خِرَقٍ أخفى مضيض اكتئابه	فَنَمَّ عليه دمعه بانسكابه
بكت عينه لما بكت عين قلبه	ولولا بكاء العين لم يُدْرَ ما به
أذاب بخوف الله صحَّة جسمه	وأبلى بتقواه رداء شبابه
ولم يُبْقِ حبُّ الله من جسمه	سوى خيال تُقِلُّ الأرضُ تحت ثيابه
تَفَرَّد بالمولى وفَرَّ بنفسه	إلى جبل يأوي لبعض شعابه
تراه من الخوف المبرِّح والأسى	كمَيْتٍ دعاه ربُّه لحسابه
يمر فلا يدري من الخوف والرَّجا	بأي يديه أَخْذُهُ لكتابه
إذا انصرف المحبوب من عند ربه	تبادرت الأملاكُ أخذَ ركابه
إلى جنة فيها حرير لباسه	ودُرٌّ ومرجان سروج دوابِّه
وحور كأمثال البدور نواهِد	يلاعِبْنَه في الخلد جَوْفَ قبابه
إذا ما بدت حوراء منها بوجهها	حكت بَدْرَ تِمٍّ قد بدا من سحابه
فوجه حكى التفاح حمرة خدِّه	ونهدٌ حكى الرمان حسن انتصابه

(1) الفتح الرباني، ص:107.

(2) البرهان المؤيد، ص:42.

فرمـــان هـذا قطفــه في التـــذاذه وتفـــاح هـذا نَقْلُـه فـي شـرابـه
بنفســي ولـيٌّ للإلـه مـشـمِّـــر إذا رقـد النُّـــوَامُ قــام ببــابـه

وقلت:

الـرَّكْبُ فَـــاتْ! الرَّكْبُ فَـاتْ!
وطفِـقْـتُ أسْكُـبُ من دموعـــي السَّائحَاتْ
الـركب فـــاتْ! الركْب فــاتْ!
نَمْ هَـانِئـا مُـتـلَـذِّذاً طَـعْـمَ السُّـبـاتْ
الـركب فـــاتْ! الركْب فــاتْ!
يَا حَسْرتي سَبَقَ الرِّجالُ وتِهْتُ في هَذي الحَياةْ

الشيخ عبد القادر

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾. اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة.

سأل الشيخ العارف علي بن إدريس الإمام عبد القادر رحمهما الله: «يا سيدي، هل كان لله ولي على غير اعتقاد أحمد بن حنبل؟ فأجاب: ما كان ولا يكون!».[1]

مثل هذه الشهادة الصادقة جعلت من الشيخ عبد القادر حلقة وصل مهمة بين الصوفية والمحدثين الحنابلة، حلقة متواصلة من شيخ الإسلام الهِرَوي الحنبلي إلى الشيخ عبد القادر المنسوب للحنبلية إلى المحدثين الحنابلة في القرن السابع والثامن ابن تيمية وتلامذته.

عن يقين يكتب الشيخ عبد القادر ما يُثلج صدور الحنابلة في كل عصر، وهم الشديدو الحساسية في أمور العقيدة منذ وقوف الإمام أحمد رحمه الله الصامد في وجه القدرية والمعطلة الجهمية وفي بدعة القول بخلق القرآن.

كتب الشيخ عبد القادر رحمه الله في الغنية: «اعلم أنَّ لأهل البدع علامات يُعرفون بها. فعلامة أهل البدعة الوقيعة في أهل الأَثَرِ، وعلامة الزنادقة تسميَتُهم أهل الأثر بالحشوية، ويريدون إبطال الآثار. وعلامة القدرية تسميتهم أهل الأثر مُجْبِرةً. وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مُشَبِّهَةً. وعلامة الرافضة تسميتهم أهل السنة ناصبَةً. وكل ذلك عصبية وَغِياظٌ لأهل السنة، ولا اسم لهم إلا اسم واحد، وهو: أصحاب الحديث. ولا يلتصق بهم ما لقبهم به أهل البدع كما لم تلتصق بالنبي ﷺ تسمية كفار مكة ساحرا وشاعرا ومجنونا ومفتونا وكاهنا»[2].

(1) شذرات الذهب، ج 4، ص:201.

(2) الغنية، ج 1، ص:80 .

هذا الدفاع المبين عن حوزة السنة والجماعة وأهل الحديث جعل من الشيخ عبد القادر رضي الله عنه قُـرَّة عين الحنابلة جيلا بعد جيل من بين سائر الأولياء والصوفية. قال ابن العماد الحنبَلي رحمه الله في ترجمته للشيخ: «سارت بفضله الركبان، ولُقِّبَ بمجمع الفريقين (أي الصوفية والفقهاء المحدثين)، وموضِّح الطريقين، وكريم الحدَّين، ومعلم العراقين. وتَلْمَذ له أكثر الفقهاء في زمنه. ولبس منه الخرقة المشايخ الكبار. صار قطبَ الوجود (...). وكراماته تخرج عن الحد، وتفوت الحصر والعد (...). وتاب على يده معظم أهل بغداد. وأسلم مُعظمُ اليهود والنصارى على يديه».[1]

ثم ينْقل كلاما للفقيه الحنبلي الكبير، أحد أساطين المذهب، موفَّق الدين ابن قدامة فيقول: «قال الشيخ موفق الدين وقد سئل عن الشيخ عبد القادر: أدركناه في آخر عمره، فأسكَنَنَا مدرسته. إلى أن قال: ولم أسمع عن أحد يُحْكَى عنه من الكرامات أكثر مما يحكى عنه، ولا رأيت أحدا يعظمه الناس من أهل الدين أكثر منه».

وينقل بعد ذلك شهادة سلطان العلماء الشافعي العز بن عبد السلام رحمه الله، مما يدل على إجماع الأمة على فضل الإمام، فيقول: «وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ما نقلت إلينا كرامات أحد بالتَّواتُرِ إلا الشيخ عبد القادر».

ثم يُعْقِبُ بشهادة ابن رجب الحنبلي رحمه الله الذي قال: «ظهر الشيخ عبد القادر للناس، وجلس للوعظ بعد العشرين وخمسمائة. وحصل له القبول التام من الناس. واعتقدوا ديانته وصلاحه. وانتفعوا بكلامه. وانتصر أهل السنة بظهوره. واشتهرت أحوالُه وأَقوالُه وكراماتُه ومكاشفاتُه. وهابه الملوك فمن دونهم».

ننتقل الآن قرنا ونصفا بعد وفاة الإمام عبد القادر ناصر السنة لنجد المعارك بين المذاهب والطوائف أشد ما كانت، ولنجدَ ابن تيمية وتلامذته الحنابلة وسط المعركة. وفي مكتوبات الجدل التيمي نجد للشيخ عبد القادر مكانة خاصَّةً، وتقديرا متميزا لا يعطيه أحدا من أهل الطريق قبله ولا بعده. بل إنك لا تجد ابن تيمية يترضى بلفظ «رضي الله عنه» على أحد بعد الصحابة إلا على عبد القادر.

(1) الشذرات، ج 4، ص:199.

لا حول ولا قوة إلا بالله! كيف دار الزمان حتى أصبح يُدْلَى عند ذكر الإمام عبد القادر بشهادة ابن تيمية ومدرسته، وكأن الدليل على الشمس وتزكية قدرها يُسمَعُ فيهما لشهادة الكواكب والأقمار. سبحان الله كيف انحجب عن البصائر نور الولاية بتراكم المعقول على المنقول حتى يحتاج تثبيت الحق إلى مرافعات مشتبكات! الإمام عبد القادر هو الإمام عبد القادر، شمس في أعالي سماء الولاية. والعلماء المجتهدون لا يدورون في ذلك الفلك. فسبحان من جعل بعض المسلمين لبعضهم فتنة. «أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا»[1].

وبعد فلشيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله وَلوع بالشيخ عبد القادر، وتسليم له، وشغفٌ بكلامه وإفاداته. يستشهد بها ويشرحها في خضوع تامٍّ واستحسان. لا كما يفعل مع غيره من الصوفية وغيرهم. وكأن توفيق الله عز وجل وسابقة ابن تيمية وصدقه عصمه من الاعتراض على هذا المقام الجليل. وإن كان في كتب الإمام عبد القادر، خاصة الغنية، من الأحاديث ما لا يعترف بصحته المحدثون المحققون كابن تيمية. وفي الغُنية ما فيها.

ولعل الله تعالى يَذْخَر للشيخ عبد القادر رحمه الله في مستقبل الدعوة أن يكون حَلَقَةَ وصل، وحلَقَةَ صُلْح بين الحق وبين التحامُلِ على الصوفية، هذا التحامل الذي يحترفه أتباع حَرفيُّون ينتسبون لابن تيمية رحمه الله. ابن تيمية يرفع الشيخ عبد القادر على الرأس والشيخ عبد القادر واسطة من وسائط عقد الولاية والسلوك. وأهل السلوك والولاية كانوا هم الصوفية.

وما من همٍّ لنا في هذه المرافعات الطويلة إلا أن نُصَوِّبَ الحكم على ماضينا وحاضرنا لنتجاوز فتن الطائفية والمذهبية باطمئنان، مرتفعين إلى أفق السلوك الجهادي على المنهاج النبوي الكامل المكتمل. ذلك السلوك الذي حَافظ الصوفية على جوهره، وحافظ المحدثون على خبره وأثره، واشتق منه الفقهاء اشتقاقا، وعانده حُكَّام الجور شقاقا ونفاقا.

(1) الفرقان، 20.

ليس همنا ولا طلبنا من الله الملك الوهاب أن نقبل هروبَ الصوفية من قدر الله الجهادي إلى قدر الله في ظل البيوت وهاجرةِ الصحارِي، ولا أن نقتدي بأهل الجدل، ولا أن نُهادن السلطان المخاصمَ للقرآن بوجه.

من شروح ابن تيمية لكلام الشيخ عبد القادر قوله: «قال الشيخ أبو محمد عبد القادر في كتاب «فتوح الغيب». لابد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء: أمر يمتثله، ونهيٍ يجتنبه، وقَدَرٍ يرضى به (...). هذا كلام شريف جامع، يحتاج إليه كل واحد».[1]

قلت: إذا علمت أن كتاب «فتوح الغيب»، وهو كتاب نفيس، مليء بالغامضات من كلام القوم ومصطلحاتهم، قدَّرت «تنازل» ابن تيمية وسكوته واستحسانه لكلام الشيخ الشريف حقا حقا. ومن توفيق الله عز وجل لابن تيمية وأمثاله أن يتلقَّوا كلام الشيخ عبد القادر وأمثاله بالتَّسليم والتلمذة. عاصر ابن الجوزي رحمه الله في صدر شبابه، في بغداد، الشيخ عبد القادر رحمه الله، فلم يستفد منه ولم يسْعَ إليه. وطفق يكتب أن المكاشفة كلام فارغ.

من عناية ابن تيمية بمقام عبد القادر أنه اهتم برواية رؤيا كتبها كما تكتب الأحداث المهمة، ودوَّنها كما تُدَوَّنُ الوثائق الموثوقة. قال: «حدثني أبي عن محيي الدين بن النحاس، وأظننِي سمعتها منه، أنه رأى الشيخ عبد القادر في منامه وهو يقول إخبارا عن الحق تعالى: «من جاءنا تلقيناه من البعيد. ومن تصرَّف بحولنا أَلَنَّا له الحديد. ومن اتبع مرادَنا أردنا ما يريد. ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد».[2] قال ابن تيمية: قلت: «هذا من جهة الربِّ تبارك وتعالى»، وجعل يشرح معاني الرؤيا شرحا طويلا. وإنما مقصوده رحمه الله أن يَنْسُبَ الكلام الوارد على لسان الشيخ إلى الحضرة الإلهية، وهي وحدها الخليقة بذلك، لينبه، من طرفٍ خَفِيٍّ لطيف، إلى شرك العامة الذين يرون وليا ينطق بمثل هذا الكلام فيَؤول بهم الجهل والجهالة إلى عبادة القبور نعوذ بالله.

(1) الفتاوي، ج 10، ص:455-456.

(2) نفس المصدر، ج 10، ص:549.

ويأتي ابن تيمية بنص طويل للشيخ الإمام يتابعه بالشرح والموافقة والاستحسان. يبدأه بالترحم على الروح الطاهرة قائلا: «قال الشيخ عبد القادر قدس الله روحه: «افْنَ عن الخلق بحكم الله، وعن هواك بأمره، وعن إرادتك بفعله. فحينئذ تصلح أن تكون وعاء لعلم الله (...). قال الشيخ رضي الله عنه: وعلامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مُراداً قط، فلا يكون لك غرض، ولا تقف لك حاجة ولا مَرامٌ، لأنك لا تريد مع إرادة الله سواها».[1]

ويلخص شيخ الإسلام من كلام الإمام ليستفيض كعادته في تفصيل موضوع الإرادة واختلاف الصوفية، منذ عهد الجُنيد قدس الله روحه، في مدلولها. ويُبْرِزُ شيخ الإسلام ما عنده من اطلاع واسع، وقدرة على الاحتجاج والتوليد والتفريع.

نعود من سياق الشهادات الخارجية لنسمع كلام الإمام عبد القادر وهو يشهد على نفسه بنِعَمِ ربه جل وعلا. وشهادة العدول أمثاله على أنفسهم أوثق، كقول سيدنا عيسى عليه السلام: ﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ**﴾[2].

قال الشيخ عبد القادر رحمه الله: «ويحك! تخفي أمرك علي وهو لا يَخْفى! تظهر لي أنك طالب الآخرة وأنت طالب الدنيا! هذا الهوس الذي في قلبك مكتوب على جبينك. سرُّك في علانيتك. الدينار الذي في يدك بَهْرَجٌ فيه دانق من ذهب والباقي فضة. لا تُبَهْرِج علي فإني رأيت كثيرا مثله؟ سلِّمه إلي ومكنِّي منه حتى أسْبِكه وأخلِّص ما فيه من ذهب وأرمي الباقي. جيِّد قليل خير من رديءٍ كثير. مكِنِّي من دينارك فأنا ضرَّاب وعندي آلة ذلك!»[3] يقصد الشيخ بالدينار الزائف قلب المريد، وهو رضي الله عنه طبيب القلوب وسبّاكها، عنده آلة ذلك عطاء من المولى الكريم.

وقال: «يا من اعتزل بزُهده مع جهله! تقدم واسمع ما أقول. يا زُهاد الأرض! تقدموا خرِّبوا صوامعكم واقربوا مني! قد قعدتم في خلواتكم من غير أصل. ما

(1) الفتاوي، ج 10، ص:490 وما بعدها.

(2) مريم، 31.

(3) الفتح الرباني، ص:56.

وقعتم بشيء. تقدموا والقطوا ثمار الحكم رحمكم الله. ما أريد مجيئكم لي، بل أريده لكم».[1]

وقال: «يا قوم! (...). اطلبوا مني كِسْوةً لأديانكم! اتبعوني فإني على جادَّة الرسول ﷺ. أنا تابع له في أكله وشربه ونكاحه وأحواله وما كان يشير إليه. لا أزال كذلك حتى أقع بمراد الله عز وجل منى»[2].

وقال: «يا خلق الله! إني أطلب صلاحكم ومنفعتكم في الجملة. أتمنى غلق أبواب النار وعدمها بالكلِّية، وأن لا يدخلها أحد من خلق الله عز وجل، وفتح أبواب الجنة وأن لا يمنع من دخولها أحد من خلق الله عز وجل. وإنما تمنَّيت هذه الأمنية لاطلاعي على رحمة الله عز وجل وشفقته على خلقه. قعودي لمصالح قلوبكم وتهذيبها لا لتعبير الكلام وتهذيبه. لا تهربوا من خشونة كلامي، فما رباني إلا الخشن في دين الله عز وجل. كلامي خشن وطعامي خشن، فمن هرب مني ومن أمثالي لا يفلح».[3]

وقال: «اسمعوا مني واعقلوا ما أقول، فإني غلام من تقدم. أقف بين أيديهم، وأنشر أمتعتهم، وأنادي عليها، ولا أخونهم فيها، ولا أدَّعيها ملكا أبداً. كلامي بكلامهم، وإني من عندهم، والبركة من الله عز وجل.

«أهلني الله عز وجل ببركات متابعتي لرسول الله ﷺ وبِرِّي بوالدي ووالدتي رحمهما الله عز وجل. وافقته على ذلك ورضيت بفعله. كانا من أهل الصلاح والديانة والشفقة على الخلق. وما علي منهما (أي يرجع إليهما الفضل فيه).

«أتيت إلى الرسول والمرسل (سبحانه). بهما أنجح. كل خيري ونعمتي معهما وعندهما. ما أريد من الخلق سوى محمد ﷺ، ومن الأرباب غير ربي عز وجل.

(1) الفتح الرباني، ص:95.

(2) نفس المصدر، ص:161.

(3) نفس المصدر، ص:206.

«يا عالـمُ! كلامك من لسانك لا من قلبك! من صورتك لا من معناك! القلب الصحيح يهرب من الكلام الذي يخرج من اللسان دون القلب فيصير عند سماعه كالطير في القفص والمنافق في المسجد».[1]

وقال محب شفَّه الشوق فهو في حجابه كالطير في قفصه:

والـذي بالبُعـد والبَيْـنِ رمـاني	مـا تذكـرت الحمـى إلا شَجـاني
حبـذا أهـل الحِمـى مـن ساكـن	شفـني الشـوق إليهـم وبـراني
كلمـا رمـت سُلُـوّاً عنهـم	جـذب الشـوق إليهم بعنـاني
أحسـد الطيـر إذا طـارت إلـى	أرضهـم أو أقلعـت للطيـران
أتمنـى أنَّنـي أصحبهـا	نحوكم لـو أنـني أُعْـطى الأمـاني
لا تزيدونـي غـراما بعـدكـم	حـل بي من بُعدِكم ما قد كفـاني
ذهـب العمـر ولـم أحـظ بكـم	وتَقَضَّـى في تَمَنِّيـكم زمـاني
يـا خليلـيّ احفظـا العهـد الـذي	كنتـما قبـل النَّـوى عـاهدتمـاني
واذكـراني مثـل ذكـري لكمـا	فمـن الإنصـاف أن لا تَنْسَيـاني
واسـألا مـن أنـا أهـواه علـى	أيِّ جُـرْمٍ صـدَّ عـني وجفـاني؟

وقلت:

والـذي أعبُـدُه مـا لـذَّ لـي الْـ	عَيْـشُ بَعيـداً عَـنْ حِماكُـمْ
لاَ، وَلا قَـرَّ قَـراري لَـحْـ	ظَـةً حَتَّـى أوَافِـي فأراكُـمْ
انْفَحُـونـا نَفْحَـةً تُحيـي	رُفـاتي والحظونـا مـنْ ذُراكـمْ

(1) الفتح الرباني، ص:278.

أولياء الله وأولياء الطّاغوت

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾. اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومحمد نعوذ بك من النار.

قال الله عزوجل: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]. الطاغوت كما قال الراغب رحمه الله: «عبارة عن كل مُتَعَدٍّ وكل معبود من دون الله».

وقال عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ﴾[2]. قال ابن كثير رحمه الله: إن معنى التحاكم إلى الطاغوت هو التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وقيل إن الآية نزلت في جماعة من المنافقين أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية.

ما زال الخصام والقتال بين الإسلام والجاهلية قائما منذ بعث الله الأنبياء عليهم السلام. وقد حارب رسول الله ﷺ الطاغوت الجاهلي بشقيه: التعدي في الحكم وعبادة الأوثان. واستمر القتال بين بقايا الجاهلية ورواسبها وكرَّاتها على المسلمين وبين علماء الأمة العاملين أولياء الله منذئذ. بيد أن الاعتداء الأموي، ثم سائر الحكم بعده، على المشروعية الإسلامية في الحكم قلص تدريجيا مجال المواجهة بين العلماء والمصلحين وبين الطاغوتية، حتى آل الأمر إلى مهادنة بين أولياء الله وأولياء طاغوت الاعتداء، وانصرف أولياء الله لحرب طاغوتية البدع والشرك. تارة تكون

(1) البقرة، 257.

(2) النساء، 60.

مصلحةُ الحاكم أن يترك العلماء لـمُهمتهم في النهي عن المنكر، وتارة يكون المنكر هو سند الحاكم وقاعدته فيتحالف الطاغوتان. يتراوح الأمر بين حالة الحاكم الصالح يكون في طليعة أولياء الله كما كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وبين حالة دولة طاغوتية في مبادئها ومبانيها كالدولة العبيدية، وبين انحراف جاهلي محض كانحراف الطاغوت المغولي أكبر. وهذه أمثلة لا نقصد بها حصر الأنواع ولا حصر الأحداث.

في القرن الخامس صال السيف السلجوقي المغتصب صولته في ظلِّ الرمزية العباسية. وصالت الفتن الباطنية صولتها في خضم الطائفية والمذهبية والفلسفة والزندقة. فآثر ولي من أولياء الله، هو الإمام الغزالي رحمه الله، أن يحارب طاغوتية العقيدة وأن يحتفظ على سلامة الدين ووحدة الأمة بالوقوف إلى جنب المستظهر بالله العباسي يشيد بمقامه في كتابه «الرد على الباطنية»، وآثر الانضمام إلى نظام الملك وزير السلاجقة في صدر حياته. فلما سلك الطريق وأصبح من العارفين بالله احتفظ بخصوصيته واستقلاله في زاويته مع مريديه. لكنه لم يخاصم السلطان، بل انتظر من سيف السلطان أن يتدخل ليبيد طاغوت العقيدة.

قال في رسائله عن المتصوفة الضَّالِّين المضلين: «وفي الحقيقة أنهم أسوأ الخلق وأرْدأ الأمة. وعلاجهم البأسُ ولا تفيدهم المناظرة ولا النصيحة. فمن الواجب استئصالهم وقمعهم وإراقة دمائهم. ولا طريق سوى هذا في إصلاحهم».[1]

وجاء بعد الغزالي من استَعْدى سيف الطاغوتية السلطانية على الطاغوتية الشيطانية. من أولياء الله الذين فعلوا ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية. وإن موقفه لمحيرٌ متناقض، لا يفهم إلا بالدراسة العميقة لحالة مصر والشام في زمانه تحت السيف المملوكي الذي كان درعا للإسلام وشوكة له ضد الغزو المغولي، ومن ثم اكتسب هيبة ومشروعية واقعية رغم فساده الفظيع.

قال ابن تيمية في فتاويه يحكي واقعته في بلاط الناصر قلاوون ومرافعته ضد البطايحية، وهم طائفة من المتصوفة الضالين: «فقال (السلطان): فبأي شيء تبطل

(1) ص:148.

هذه الأحوال (الشيطانية) ؟ فقلت: بهذه السياط الشرعية! فأُعجب الأمير وضحك وقال: إي والله! بالسياط الشرعية نبطل هذه الأحوال الشيطانية! كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد. ومن لم يُجِبْ إلى الدين بالسياط الشرعية فبالسيوف المحمدية».[1]

قال شيخ الإسلام: «وأمسكت سيف الأمير وقلت: هذا نائب رسول الله ﷺ وغلامه، وهذا السيف سيف رسول الله ﷺ. فمن خرج عن كتاب الله وسنة رسوله ضربناه بسيف الله».

كيف ارتكب علماؤنا أخفَّ الضررين، حسب القاعدة الأصولية، وكيف سكتوا عن طاغوتية الاعتداء واستظهروا بها على طاغوتية الشرك والبدعة والضلالة؟ هذا ما بسطناه في كتاب غير هذا.[*] وفَهْمُه مفتاح ضروري لدخول المستقبل الجهادي، مستقبل الخلافة الثانية التي يكون فيها سيف الأمير سيف الشرع حقا، ويكون الأمير غُلامَ رسول الله ﷺ صدقا.

من شيخ الإسلام ننتقل إلى ولي لله من العلماء العاملين في ظروف أخرى تجاه طاغوتية مزدوجة، بل مثلثة مربعة. ذاك هو الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الذي بارز الشرك في زمن ومكان عادت فيهما الجاهلية الجهلاء كرتها بين أعراب نجد.

محمد بن عبد الوهاب حلقة وسطية ومرحلة لا محيد عن وعي أهميتها في تطور الفكر السلفي الذي تحول إلى شعار لرفض التصوف ورجاله. انحطَّ المتصوفة في عصر ابن عبد الوهاب انحطاطا أفظع مما عرفه عصر ابن تيمية. شاع الاحتراف والتدجيل، وأصبحت الآستانة، عاصمة السيف العثماني، معرضا للأزياء «الصوفية» والألوان والبَيَارِق والمواسم والشَّطَحَات. وفي صفوف الشعب وفي حواشي بلاد الإسلام استبدت الشعوذة بالناس، وفشت عبادة الأشجار والأحجار والقبور. كان لأهل «منفوحة» باليمامة نخلة يعتقدون

---

(1) الفتاوي، ج 11، ص:470.

(*) نظرات في الفقه والتاريخ.

أن من جاءها من العوانس تزوجت. وكان في بلدة ابن عبد الوهاب «الدرعية» غارٌ يحج إليه الناس، وكان، ولا يزال، في كل بقعة وثنيةٌ وفساد كبير. كان من أكثر الطوائف المنتسبة للتصوف زوراً وكُفُوراً طائفة البكتاشية الذين كانت تقصدهم نساء العامة فيحبُلْنَ في الساعة «ببركة» الفسقة الفجرة في حفلات للفجور تحميها الدولة كما تحمي سائر مظاهر الدروشة والشعوذة.

استعان محمد بن عبد الوهاب الحنبلي المتضلع من فقه ابن تيمية وعلومه بسيف القبليَّة وقيادة عشيرة آل سعود، وجنَّد «الاخوان» الموحدين، وخاض حملات على معاقل الشرك حتى أخاف الدولة العثمانية. فجهزت له جيوشا حتى كسرت شوكة دعوته بحَدِّ السيف. وشنَّت عليه حربا دعائية رمته فيها بأنه وأتباعه يفسرون القرآن برأيهم، وبأنهم خالفوا علماء المسلمين، وبأنهم يقللون من شأن النبوة.

وكان لِهَدْم «الإخوان» قباب الأضرحة، دمَّروا كل مشاهد الشيعة في كربلاء حيث امتد نفوذهم إلى العراق، ورفعهم بعض الحُلِيِّ والزينة من قبر الرسول ﷺ الأثرُ السيِّئ على الرأي العام الذي كانت تَغْزوه الخرافية الشكليَّة ويستغل الحاكم العثماني سذاجته.

أما العلماء فتعاطفوا، كثير منهم إلى عصر الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، مع الفكر الوهابي. يقول معاصر محمد بن عبد الوهاب الشيخ محمد بن اسماعيل رحمه الله الأمير الفقيه المحدث اليمني عن إمام «الإخوان»:

«وقد جاءت الأخبار عنه بأنه يعيد لنا الشرع الشريف بما يبدي
وينشر جهراً ما طوى كل جاهل ومبتدع منه، فوافق ما عندي
ويعمُرُ أركان الشريعة هادما مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد»

هذا الانعطاف إلى الصفاء السُّني رصيد سُمْعَةٍ لا تزال تتمتع به الحركة السلفية منذ عهد ابن عبد الوهاب، رغم أن سيف العشائرية طوى الدعوة منذ زمان، ورغم أن الحرب المعلنة على طاغوتية البدع والشرك والقبور لم تعد إلا مَلْهاةً تمولها وتخرج مسرحيتها اليد الماكرة، يد الطاغوت السلطاني، لتحظى الدولة العشائرية في عين

العامة بالذكر الطيب، يحمل مباخر السلطان زعماء السلفية السائرون في الركاب الشديد البطش والبأس على العباد.

كان في الهند، قبل محمد بن عبد الوهاب، وليٌّ من أكابر الأمة هو الشيخ الإمام أحمد السرهندي رحمه الله. قام في وجه الطاغوت السلطاني كما قام لحرب الطاغوت الشيطاني. أحيى الله به السنة وأمات به البدعة. قاوم الملك المغوليَّ أكبر الذي ادعى النبوة وفرض على المملكة دينا من عنده. ودخل سجنه، واستمرت دعوته حتى ربَّى رجالا كان لهم بعد موت الطاغية الفضل في بقاء الإسلام وبقاء السنة في تلك الربوع. يزعم بعض الباحثين أن الشيخ السِّرهندي تأثر بالفكر التيمي السلفي كما تأثر به من بعده ولي الله الدهلوي والمجاهد الشيخ أحمد بن عرفان. والحق أن مجدد الألف الثانية أحمد السرهندي كما يلقبه علماء الهند، مُرَبٍّ أصيلٌ، شيخ سلك على الطريقة النقشبندية، لا ينتظر مثله أن يسمع خبر السنة من أمثال ابن تيمية، ولا يصح بوجه أن يقارن اسمه في ذكر أكابر الأمة باسم ابن عبد الوهاب، وإن كان في كل خير. الشيخ السرهندي رحمه الله قمة شامخة في سماء الولاية.

وحمل لواء السنة على واجهتَي الطاغوت وليٌّ آخر في صحراء ليبيا وتخوم إفريقيا السوداء هو الإمام محمد السنوسي رحمه الله. زعموا غَمْطًا لحقه أنه تأثر بفكر ابن عبد الوهاب. وهو كان صوفيا عالما جامعا: أي أنه كا سُنِّيًّا كاملا، جمع إلى علمه الواسع وربانيته المربية النهوض بواجب جهاد الدعوة حتى غزته الجنود العثمانية فجاهدها بالسيف. ذلك السيف الخالص من كل طاغوتية، الذي حارب به فيما بعد عمر المختار رحمه الله الاستعمار الإيطاليَّ.

من بعد هؤلاء برز في الجزائر العالم المجاهد الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله الذي تغذَّى بفكر الشيخ رشيد رضا رحمه الله، فكان يلقبه «حجة الإسلام». اضطر هذا الجَهْبَذ من جهابذة العلماء إلى مصانعة الاستعمار الفرنسي الحاطِّ بكَلْكَلِه على البلاد. واضطُر، وهو في جهوده التأسيسية لتأليف جماعته، أن يدخل في صراع متواصل مع الطرقيَّة المتصوفة الذين كان طائفة منهم يحاربونه من أجل إنكاره عليهم، وطائفة ما هم إلا «خفراء الظلمة» كما يعبر ابن تيمية، مع الحاكم، مع

الواقع، بدون قيد ولا شرط، يحسبون أن القدر النازل لا يريد من العباد إلا الرضوخ، لم يترقَّوا إلى منزلة مقاومة القدر بالقدر، تلك المنزلة الشامخة التي منها نطق الشيخ عبد القادر بكلمته المدوية في كتب ابن تيمية.

قال الإمام عبد القادر رحمه الله: «غاية همة المؤمن العارف العالم باب قربه من الحق عز وجل، وأن يصل قلبه إليه في الدنيا قبل الآخرة. القرب من الحق عز وجل غاية خطوات القلب، ومسارة السر.

«إني أراك في قيام وقعود، وركوع وسجود، وسهر وتعب، وقلبك لا يبرح من مكانه، ولا يخرج من بيت وجوده، ولا يتحول عن عادته. اصدق في طلب مولاك عز وجل وقد أغناك صدقك عن كثير من التعب. انقر بيضة وجودك بمنقار صدقك، وانقض حيطان رؤيتك للخلق والتقيُّد بهم بمعاول الإخلاص وتوحيدك. اكسر قفص طلبك للأشياء بيد زُهْدِكَ فيها. وطر بقلبك حتى تقع على ساحل بحر قربك من ربك عز وجل.

«فحينئذ يأتيك ملاّحُ السابقة ومعه سفينة العناية، فيأخذُك ويُعَبِّرك إلى ربك عز وجل. هذه الدنيا بحر، وإيمانك سفينتك. ولهذا قال لقمان الحكيم رحمه الله: يا بني! الدنيا بحر، والإيمان السفينة، والملاح الطاعات، والساحل الآخرة.

«يا مصرين على المعاصي! عن قريب يأتيكم العَمَى والصمم والزِّمَنُ والفقر وقساوة قلوب الخلق عليكم. تذهب أموالكم بالخسارات والمصادرات والسرقات. كونوا عقلاء! توبوا إلى ربكم عز وجل. لا تشركوا بأموالكم وتتكلوا عليها. لا تقفوا معها. أخرجوها من قلوبكم، واجعلوها في بيوتكم وجيوبكم، ومع غلمانكم ووكلائكم. وارتقبوا الموت. قلِّلوا حِرْصَكم، وقصِّروا آمالكم. عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله قال: المؤمن العارف لا يطلب من الله عز وجل لا دنيا ولا آخرة. وإنما يطلب مولاه.

«يا غلام! ارجع بقلبك إلى الله عز وجل. التائب إلى الله هو الراجع إليه. وقوله عز وجل: «وأنيبوا إلى ربكم» أي ارجعوا إليه. يعني ارجعوا سلِّموا الكل إليه. سلموا نفوسكم إليه. اطرَحوها بين يدي قضائه وقدره، وأمره ونهيه، وتقليباته».

وقال ولي من أولياء الله يستتيب المصرين على المعاصي:

براهين الأفاضل ليس تخفى ... بما أدّى إلينا الأتقياء
رجال لا يُلِمُّ بهم قصور ... ولا يُعْزَى لجِدِّهمُ رياء
فهم أبدا بدينهم شحاح ... وبالدنيا الدنيَّة أسخياء
يحضُّهُمُ على العمل التوقِّي ... ويمنعهم من الكسل الحياء
فصدِّقهم بما فعلوا وقالوا ... فإنَّ خلافهم داءٌ عَياء
تُقصِّرُ عنهم وتخوض فيهم ... فلا نور لديك ولا ضياء!
عجبت لمن يُصِرُّ على المعاصي ... ويُنكر ما يقول الأولياء

وقلت:

أَوْلياءَ الرَّحْمنِ طِبتُمْ وطبْنَا ... بِلِقَاكُمْ طِيبَ الفَتَى بالجَليسِ
عَجَبٌ لِلْغَبِيِّ كَيْفَ يُحاذِي ... نَافِخَ الكِيرِ في المَكانِ الخَسيسِ
إنَّ مَنْ يَنْتَمي إلَيْكُم ويُعْزَى ... لِحِمَاكُم لَفِي مَقَامٍ أَنِيسِ

الدخيـل

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وعمل لا يرفع، ودعاء لا يسمع.

كانت الدعوة السلفية كالطليقة يوم قام الشيخ ابن عبد الوهاب والشيخ ابن باديس بالغارة السيفية والغارة التشهيرية على البدع والشرك. أما الآن فالدعوة هنا وهناك مكمومة مزمومة يتأبطها الطاغوت السلطاني، لا تنطق إلا بإذنه، ولا تدخل فيما لا يعنيها خارج نطاق ما حدده لها السلطان.

وكان صمود الإمام أحمد السرهندي رحمه الله وخلفائه مثاليا كما كان جهاد السنوسي رحمه الله وخلفائه بناء لامعـاً في غُرَّة تاريخ الإصلاح. لم ينفرد الوهابيون والسلفيون بالإسم، بالنهوض ضدَّ الطاغوت الشيطاني، وانفرد المصلحان الصوفيان العظيمان بالجمع بين جهاد الطاغوت بوجهيه. انفردا بمقاومة السلطان الجائر مقاومة لا هوادة فيها ولا هدنة في نفس الوقت الذي أحيى فيه كل منهما السنة بين العامة وأمات البدعة. أسلوب السلفيين يغلب عليه الزجر والنهي عن المنكر، وأسلوب الربانيين رِفْقٌ بالعامة الجاهلين وغلظة على الحكام الجاهليين.

كان المصلحون السلفيون، ولا يزال أتباعهم ومقلدوهم، كمن يحاول أن يطفِئَ نارا ويخمد لهيبها مستجيرين بالحاكم، ومستظهرين به، أو ساكتين عنه. وفي أحسن الأحوال تُمَهِّد فِرَقُ الإطفاء الطريق أمام الطاغوتية الحكمية. وانظر ما أعقب جهاد محمد بن عبد الوهاب وإخوانه من انتصاب عرش كسروي عشائري، وتأمل كيف انضوت جمعية العلماء التي أسسها ابن باديس رحمه الله تحت لواء الحكم المستبد العسكري بعد انتصار الثورة الجزائرية التي كان مددها من النَفَسِ الإسلامي الشعبي لا من غيره. انضوت مكرهة إلى حين.

تنتهي الإصلاحية السلفية إلى حيث انتهى التصوف المنحرف: تحت إبط السلطان وهو الشيطان الأكبر. ونحن إذ نعالج هذا الموضوع الحساس فإنما نسَدِّدُ نظرتنا وتطلعنا إلى مستقبل يَتبين فيه الدعاة ما هو الأصيل من دينهم وما هو الدخيل، ليطبِّبوا أمراض الأمة عن معرفة تامة بأدواء الاعتقاد والسلوك والسياسة. وإن كثيرا من العاملين الإسلاميين لا خبر لهم عن التربية الصوفية إلا عجاجًا معلقا في سماء الاطلاع السطحي تخلف عن الفكر السلفي المنخُول. نخل الإمام محمد ابن عبد الوهاب فكر ابن تيمية، ونخل محمد عبده ورشيد رضا ومدرستهما فكر ابن عبد الوهاب، ونخلت طبقة ابن باديس فكر رشيد رضا، وبقي للمطالعين في التعليقات على كتب هذه المدارس السلفية فتات عليه يعيشون، وبه يشعلون حربا ضروسا مُعَمَّاةً مُعَمَّمَةً على كل ما يمت للتصوف بصلة. وما تأخذ كل حلقة من الحلقة السابقة إِلا القشور لا اللب. تأخذ النُّخَالَة والصافي تطرحه.

فقد رأينا كيف يُعَظم ابن تيمية وتلميذه ابن القيم شأن العارفين بالله وشأن السلوك. أما محمد بن عبد الوهاب فلم يكن له من حظ في الفن التربوي إلا التسليمُ لمقالات الأستاذ ابن تيمية، لا يجد ابن عبد الوهاب وتلامذته محيداً عن الاعتراف بالتصوف إذا كان سنيا لأنهم لا يجدون دليلا على الإدانة في مراجعهم. ويحُزُّ في نفوسهم ما يرونه من تدجيل وتحريف وعبادة للقبور، يدخلها الزُّوَّارُ المبتدعون الجاهلون مكتوفي الأيدي مستغيثين مبتهلين عابدين، فيهولهم الواقع ولا يجدون لذلك التصوف السني إلا وصفا مجنحا في كتب أصحابهم الأولين، ولا أثر له، في نظرهم القاصر على ملاحقة المبهرجين، على وجه الأرض.

يقول عبد الله بن الإمام محمد بن عبد الوهاب: «ولا ننكر الطريقة الصوفية وتنزيه الباطن من رذائل المعاصي المتعلقة بالقلب والجوارح، مهما استقام صاحبها على القانون الشرعي، والمنهج القويم المرعي».[1]

(1) أنقل عن كتاب «التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث»، للدكتور مصطفى حلمي، ص:196.

ولم يحارب ابن باديس التصوف من أصوله، إنما حارب «بدعة لم يعرفها السلف. ومبناها كلها على الغُلُوِّ في الشيخ، والتحيز لأتباع الشيخ، وخدمة دار الشيخ وأوْلاد الشيخ».(1)

حارب ابن عبد الوهاب الانحرافات وحارب ابن باديس الطرقية وهي توارث الأوراد والأحزاب والزاوية خلفا عن سلف، تنبُتُ بعد الشيخ المؤسِّس نابتة الأجيال التي لم تتربَّ إلاَّ على تقبيل أيدي ولد الشيخ، والسبق إلى تلبية رغبات ولد الشيخ، وخدمة ولد الشيخ، والتبرك بولد الشيخ. فتنتفخُ نفس ولد الشيخ فإذا هو أمير مملكة، وإذا الطريقة وسيلة للإثراء ومباءة للبدع. أستغفر الله، فمن أبناء المشايخ صالحون، لكنها ذريعة، ولكنه تاريخ.

أما محمد عبده فقد لقي في فجر حياته صوفيا من أقاربه صحبه أياما. فيقول عنه: «أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قُيُود التقليد إلى إطلاق التوحيد (...). وهو مفتاح سعادتي إن كانت لي سعادة في هذه الحياة. وهو الذي ردَّ لي ما كان غاب عن غريزتي، وكشف لي ما كان خفي عني مما أُودِعَ في فطرتي».(2)

بعد أن خاض محمد عبده رحمه الله، مع جمال الدين الأفغاني وبعده، في طرائق «إصلاحه»، وبعد أن غازل الفكرَ الاعتزاليَّ زمانا، انتهى في آخر عمره عند مراجعة حصيلة جهوده إلى أُمْنِيَّةٍ غريبة: تمنى، كما يحكي الشيخ رشيد رضا في تاريخه لشيخه، أن يعتزل في جزيرَة مع عشرة من الشباب يربيهم «تربية صوفية». انظر كيف زعمت نفسه لهذه الشخصية الكبيرة، عالم المسلمين الموقَّرِ، أن يربِّي غيره التربية الصوفية التي لا تصوُّرَ له عنها إلا جذبةٌ نورانية في أيام معدودات صادفها في أول حياته! ما عنده رحمه الله وغفر لنا وله حتى مُجرَّد تصوُّرِ ما هو السلوك. كيف هبطت الأمور من ابن تيمية الذاكر العابد الزاهد ذي الكرامات والقراءة في اللوح المحفوظ والذوق والوجد والفتح الـمُعَسَّل آخر الأمر إلى مزاعم لا تستند

(1) التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث، ص:245.

(2) «تاريخ محمد عبده»، لرشيد رضا، ج 1، ص:22.

إلا على الأماني المعسولة لرجل كبير العقل والطموح والمكانة رأى جهوده تفشل فحنَّ إلى صباه.

من جاءوا بعد محمد عبده ورشيد رضا من خصوم التصوف تغذَّوْا بنُخَالة الطعام السلفي التيمي الوهابي. اللُّبُّ طرحوه، اللُّب ما ذاقوه، اللب حب الله ورسوله، وصحبة العارفين، والصدق في الإرادة. وتداول الناس، حابلهم ونابِلهم، فكر محمد عبده ومقالات رشيد رضا من بعدهما يلتقطون أحكاما مخلوطة عن الانحراف الطرقي، وعن التدجيل الشيطاني، وعن التصوف القديم، وعن صفاء العقيدة المفقود المنشود في الرجوع إلى الكتاب والسنة.

ويجتذب عطف السنة على الكتاب قلوب أجيال تائقة لدينها وعقولهم، فينفضون أيديهم من كلمة «تصوف» وينفرُون من سماعها. ويزداد تقزُّزُهم من المضمون العفن الذي التفَّ، دَخيلا زنيما، ولا يزال يلتف في مسوح التصوف إذ يَعْزُون تخلف المسلمين وانقهارهم وخمولهم إلى الغيبية التي حاربها محمد عبده وبالغ غفر الله لنا وله حتى أنكر وجود الجن وشبَّههم بنوع من الجراثيم والمكروبات، وحتى أصدر مقالاته الملغومة في النبوة، وهي أقرب إلى مقالات الفلاسفة منها إلى مقالات من يرشح نفسه للمشيخة الصوفية.

وبعد، فما هو الدخيل وما هو الأصيل من الدين؟ وهل كان كبار المشايخ العارفين يجهلون مزالق السالكين، ومخاطر إغراءات الرئاسة، ومهاويَ أكل الدنيا بالدين؟ نقرأ نصَّين طويلين للإمامين الرفاعي والجيلاني لنعرف هل دخل التصوف في الدين فهو بدعة أم دخلت البدع على التصوف فيجب طردها ليصفو الدين.

قال الإمام الرفاعي قدس الله روحه: «أي محجوب! تزعم أنك اكتفيت عنا بعلمك! ما الفائدة من علم بلا عمل؟ ما الفائدة من عمل بلا إخلاص؟ الإخلاص على حافة طريق الخطر. من ينهض بك إلى العمل؟ من يداويك من سم الدنيا؟ من

يدلك على الطريق القويم بعد الإخلاص؟ ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1]. هكذا أنبأنا العليم الخبير.

«تظن أنك من أهل الذكر؟ لو كنت منهم ما كنت محجوبا عنهم. لو كنت من أهل الذكر ما حُرِمْت ثمرة الفكر. صدَّك حجابك! قطعك عملك! قال عليه الصلاة والسلام: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع».

«لازم أبوابنا! أي محجوب! فإن كل درجة (4 دقائق من الزمن) وآونة تمضي لك في أبوابنا درجة وإنابَة إلى الله تعالى. صحَّت إنابتنا إلى الله. قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾[2].

«أيها المتصوف! لم هذه البطالة؟ صر صوفيا حتى نقول لك: أيها الصوفي. أي حبيبي! تظن أن هذه الطريقة تورث من أبيك! تَتَسَلْسل من جدك! تأتيك باسم بَكْرٍ وعمرو! وتُصَرُّ لك في وثيقة نَسَبك! تُنْقَشُ لك على جيب خرقتك! على طرف تاجك! حَسِبْتَ هذه البِضاعةَ ثوبَ شَعَرٍ! وتاجا وعكازاً ودلقـاً! وعمامة كبيرة! وزِيّاً صالحـاً! لا والله! إن الله لا ينظر إلى كل هذا.

«ينظر إلى قلبك كيف يُفْرِغ فيه سرَّه وبركة قربه. وأنت غافل عنه بحجاب التاج (الطربوش) بحجاب الخرقة، بحجاب السبحة، بحجاب العصا، بحجاب المسوح. إيش هذا العقل الخالي من نور المعرفة! إيش هذا الرأس الخالي من نور العقل! ما عملت بأعمال الطائفة وتلبَسُ لباسهم يا مسكين!

«يا أخي! لو كلَّفت قلبك لباس الخشية، وظاهرك لباس الأدب، ونفسك لباس الذل، وأنانيتك لباس المحْو، ولسانك لباس الذكر، وتخلصت من هذه الحجب! (...). لكن كيف يقال لك هذا القول وأنت تظن أن تاجك كتاج القوم، وثوبك كثوبهم! كلا! الأشكال مؤتلفة، والقلوب مختلفة.

---

(1) النحل، 43.

(2) لقمان، 15.

«لو كنت على بصيرة من أمرك خلعت أباك وأمك (بدل أن تدعي المشيخة بالوراثة)، وجدك وعمك، وقميصك وتاجك، وسريرك ومعراجك، وأتيتنا بالله لله، وبعد حسن الأدب (معنا) لبستَ.

«أيْ مسكينُ! تمشي مع وهمك! مع خيالك! مع كذبك! مع عُجْبك وغرورك! وتحمل نجاسة أنانيتك! وتظن أنك على شيء! وكيف يكون ذلك! تعلَّم علم التواضع! تعلم علم الحيرة! تعلم علم المسكنة والانكسار.

«أي بطالُ! تعلمت علم الكبر! تعلمت علم الدعوى! تعلمت علم التعالي! إيش حصل لك من كل ذلك! تطلب هذه الدنيا الجائفة بظاهر حال الآخرة! لبئس ما صنعت! ما أنت إلا كمشتري النجاسة بالنجاسة! كيف تُغْفِل نَفسك بنفسك، وتكذب على نفسك وأبناء جنسك!»[1]

وقال الإمام عبد القادر قدس الله سره: «ويحك! إلى متى تشتغل بنفسك وأهلك عن الحق عز وجل! (...). علِّم أولادك الصنائع وتفرغ لعبادة الله عز وجل، فإن الأهل والولد لا يُغنُون عنك من الله شيئا. أَلْزِمْ نفسك وأهلك وولدك القناعة بما لابد لك منه، وتفرغ أنت وهم لطاعة مولاكم عز وجل (...).

«المؤمن القانع إذا احتاج إلى شيء من الدنيا دخل على ربه عز وجل بأقدام سؤاله وتضرُّعه وذُلِّه وتوبته، فإن أعطاه الذي يريده شكره على عطائه، وإن لم يعطه وافقه في المنع، وصبر معه على إرادته من غير اعتراض ولا منازعة. لا يطلب الغِنَى بدينه وبريائه ونفاقه وتنمُّسه كما تفعل أنت يا منافق! الرياء والنفاق والمعاصي سبب الفقر والذل والطرد من باب الحق عز وجل.

«المرائي المنافق يأخذ الدنيا بدينه، بزِيِّه، بزي الصالحين من غير أهلية فيه. يتكلم بكلامهم، ويتلبس بثيابهم، ولا يعمل مثل عملهم. يدعي النسب إليهم وليس هو من نسبهم.

(1) البرهان المؤيد، ص:44-45.

«قولك «لا إله إلا الله» دعوى. وتوكلك عليه وثقتك به وإعراض قلبك عن غيره بَيِّنَـةٌ.

يا كذابين، اصدقوا! يا هاربين من مولاهم، ارجعوا! اقصدوا بقلوبكم باب الحق عز وجل، وصالحوه واعتذروا إليه. في حالة الإيمان تأخذ من الدنيا بمباح الشرع، وفي حالة الولاية تأخذ بيد الله، بأمره عز وجل. مع شهادتهما له، يعني مع شهادة الكتاب والسنة. وفي حالة البَدَلِيَّة والقطبية تأخذ بفعل الله عز وجل، تُفَوِّض الأشياء إليه».(1)

قال محب لله عز وجل، مشتاق إليه، سائر إليه:

ولقد أقول لصاحب ودَّعتُه ... فوق الرِّحالة والمَطِيُّ رَوَاقي
أو ما شممت بذي الأبارِقِ نفحة ... خلصت إلى كبد الفتى المشتاق؟
فأوى وقال: أرى بقلبك لسْعَةً ... للحب ليس لدائها من راقي

وقال طالب وجه الله عز وجل، جاد في الطلب، مخلص:

ذهبت أطلب قلبي ... في كل شعب ووادي
فما وجدت فؤادي ... فمن يَحُلُّ قيادي!
لأذْرِفَنَّ دموعي ... لأهجرن رقادي!
حتى أفوز بقُرب ... والقرب منك مُرادي

وقلت:

أرى دَعيّاً مُريباً ... يُضِلُّ بَعْضَ العِبَادِ
شِبَاكُهُ مُشرَعَاتٌ ... لِصَيْدِ أهلِ الوِدَادِ
ويُظْهِرِ النُّسْكَ حتى ... يسْتَسْلموا لِلْقِيَادِ

(1) الفتح الرباني، ص:103.

قُبَّةُ البَشَرية

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾. اللهم أحيني مسكينا وتوفني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين.

عبارة «قبة البشرية» من كلام الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي قدس الله سره. والمقصود بقبة البشرية هذه البنية الجسمية، ما تتضمنه من وجوه الساكن الروحي وقواه وميوله الهابطة الضعيفة. خطأ العقل من لوازم القبة البشرية، وشهوات النفس، وأمراض القلب.

لكن الأنبياء عليهم السلام، والأولياء على درجات الكمال، إن كان يظهر في سلوكهم اليومي وجانبهم المادي ما شاء الله من الضعف البشري فإن لهم الخصوصية الروحية التي يتميّزون بها وحدها عن عامة المحجوبين تميزا شاسعا.

وقد أخفى المولى الحكيم سبحانه سرّه في أجساد عباده المصطفين، من نبي وولي، فهم بشر كالبشر فيمَا تراه العين من غالب أحوالهم، وهم بشر ليسوا كالبشر فيما تكنه القلوب الطَّاهرة، والبصائر النيرة، والحظ من الله عز وجل، والقرب منه، ومعرفته، ومشاهدته.

تظهر أحيانا من النبي المعجزة، ومن الولي الكرامة، فتخرق حجاب البشرية لأعين الرائين، وتبهر ألبابهم. ويأتي الوحي والتنزيل في القرآن الكريم ليعطي كل ذي حق حقه: حق الخالق عز وجل الربوبية والألوهية، وحق البشر العبوديَّة، فهو

بشر مهما ظهر منه مما هو معجز خارق. ويأتي الابتلاء فتظهر الخوارق من أولياء الشيطان، ويهلك فيهم الهالكون. تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام، وتعالت حكمته. ويهلِك الهالكون في أولياء الرحمن أيضا.

لقن الله عز وجل نبيه محمدا ﷺ الجواب حين طلبت منه قريش إظهار المعجزات: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[1]. وهلك اليهود حين قالوا: عزير ابن الله، كما هلك النَّصارى حين قالوا: المسيح ابن الله، واتخذوه وأمه إلهين من دون الله لما رأوه يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طائرا بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله، وينبئهم الخبر اليقين بالكشف المكين.

«قبة البشرية» فتنةٌ إن غلبت الروحانية وظهرت فأنست بشرية النبي والولي، كما هو الشأن في المسيح عليه السلام، تغَالى الناس في المخلوق وعبدوه. وإن كان الغالب هو المعتاد من المظاهر البشرية قالوا: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾[2] وقارنوا بشريته في ظروفها الخلقية الجسمية وفي ظروفها الاجتماعية ونصيبها من المال والشرف والمكانة فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[3].

لذلك نصح رسول الله ﷺ الأمة لتضع الأمور مواضعها حين قال: «اللهم إني أتخذ عندك عهدا لن تُخْلِفنيه. فإنما أنا بشر، فأي المؤمنين آذيته، شتمته، لعنته، جلدته، فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة». رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه. في رواية لهما: «أغْضَبُ كما يغضب البشر».

لهذه المشاركة في البشرية ولوازمها من الضعف والحاجة والمرض وسائر ما استعبد الله عز وجل به الخلق ينحجب الولي فلا يكاد يعرف بميزة. وبحجاب البشرية

(1) الكهف، الآية الأخيرة.

(2) الفرقان، 7.

(3) الزخرف، 31.

يبتلي الله عز وجل العباد، فيمر الناس بالنبي، في زمان النبوة، وبالولي، آخر الدهر، بل يعاشرونهما العشرة الطويلة، فلا يستفيدون منهما شيئا، ولا يؤمنون، ولا يعترفون.

قال الإمام أحمد السرهندي محيي السنة ومميت البدعة، وهو مربي السالكين العارف بمداخل الوهن على الطالبين: «قباب أولياء الله تعالى هي أوصافهم البشرية، حيث إن كل ما يحتاج إليه سائر أفراد البشر يحتاج إليه هؤلاء الأكابر أيضا. والولاية لا تخرجهم من الاحتياج. وغضبهم أيضا مثل غضب سائر أفراد الناس. وإذا قال سيد الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام: «أغضب كما يغضب البشر» كيف لا يصدر الغضب من الأولياء!

«وكذلك هؤلاء الأكابر شركاء لسائر الناس في الأكل والشرب ومعاشرة الأهل والعيال ومؤانستهم. فإن التعلقات الشَّتَّى التي هي من لوازم البشرية لا تزول عن العوامِّ والخواصِّ. قال الله سبحانه في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾.[1] (...)

«فمن اقتصر نظره على ظواهر أهل الله كان محروما، وكان مصداقَ خُسرانِ الدنيا والآخرة. واقتصارُ النظر على الظاهر هو الذي جعل أبا جهل وأبا لهب محرومَين من دَوْلَة الإسلام (أي من فضله العظيم) ورماهما في الخسران الأبدي. والسعيد هو الذي كف نظره عن ظواهر أهل الله ونفذت حدة بصره إلى أوصافهم الباطنية واقتصر عليها (...).

«ظُلْمَةُ الصفات البشرية تسري في كلية العوام، وتحيط بِقوالبهم وقلوبهم وأرواحهم. وأما في الخواصِّ فهي مقصورة على القالب والنفس، وفي أخص الخواص فهي مقصورة على القالب، والنفسُ مبرأةٌ منها».[2]

قلت: ويظهر أحيانا من الولي الكامل من أوصاف بشريته ما يُوهِم أنه ساقط الهمة ضعيف النفس. فيقول الإمام: «فإن قيل: ربما يُفْهَمُ الرغبة في الدنيا من الكامل

(1) الأنبياء، 8.

(2) مكتوبات الإمام الرباني، هامش الجزء الثاني، ص: 78.

المكمل، ويشاهد منه ما هو منافٍ للتوكل، ويظهر منه الجزع الذي هو مناف للصبر، وتوجد فيه الكراهة التي هي منافية للرضى، فما وجه ذلك؟ أجيب: إن حصول هذه المقامات (مقامات الولاية) مخصوصٌ بالقلب والروح. وتحصل هذه المقامات أيضا في النفس المطمئنة بالنسبة إلى أخص الخواص. أما القالب فهو خال من هذا المعنى، ولا نصيب له منه، وإن انكسرت حِدَّتُه»[1].

وعن حكمة إخفاء الله عز وجل أولياءه في قباب البشرية يقول رحمه الله: «وهذه الأشياء (من الضعف البشري) هي التي جعلها الحق سبحانه قباب أوليائه، وجعل بها أكثر الناس محرومين من كمالاتهم. وفي إبقاء هذه الأشياء في الأولياء حكمةٌ غامضة، وهي عدم امتياز الحق عن الباطل الذي هو من لوازم هذه الدار التي هي محل الابتلاء.

«وفي إبقائها فيهم، ولو بحسب الصورة، تَرقِّيهم. فإنه لو ارتفعت هذه الأشياء عن الأولياء بالكلية لانْسَدَّ طريق ترقِّيهم، ولصاروا محبوسين في مقام مخصُوص كالملَك. والسلام على من اتبع الهدى والتزم متابعة المصطفى عليه وعلى آله أتم الصلوات وأكمل التسليمات»[2].

قلت: هذه الأشياء تتعلق بالجانب المادي الجسمي النفسي الفاني. فيبقى المحروم مع هذه القشور البشرية في الولي، ويميز الموفقُّ السعيد الخصَال الخلقية الدينية القلبية التي بها وحدها يتفاضل الناس، لا بالطول والعرض، والصحة وبسطة الجسم، والفصاحة والبيان، والأموال والمكانة والمكان.

ينتبه الموفَّق السعيد الساعي إلى صحبة أهل الله للغالب على سلوكهم، فيما عدا البشرية المشتركة. هذا الغالب هو ما ذكره الأستاذ القشيري رحمه الله في رسالته فقال : «فإن قيل: ما الغالب على الولي في حال صحوه؟ قيل: صِدقُه في أداء حقوقه سبحانه، ثم رفقه وشفقته على الخلق في جميع أحواله، ثم انبساط رحمته لكافة

(1) مكتوبات الإمام الرباني، هامش الجزء الثاني، ص:97.

(2) نفس المصدر، ص:99.

الخلق، ثم دوام تَحَمُّله عنهم بجميل الخُلُق، وابتداؤه بطلب الإحسان من الله عز وجل إليهم من غير التماس منهم، وتعليق الهمة بنجاة الخلق، وترك الانتقام منهم، والتَّوقي عن استشعار الحقد عليهم، مع قِصَر اليد عن أموالهم، وترك الطمع بأي وجه، وقبض اللسان عن بسطه بالسوء فيهم، والتصاون عن شهود مساويهم. ولا يكون لأحد خصما في الدنيا ولا في الآخرة».[1]

قلت: هذا هو «الغالب» على الولي في حالة صحوه وغلبة روحانيته على بشريته. وفي حالات أخرى تبدو منه الغَلْطَة والهَفْوةُ والضَّعْفَة. وفي تصور الممكن من المستحيل سألوا الإمام الجُنَيْدَ قدس الله سره: هل يزني العارف؟ فأطرق طويلا ثم أجاب: وكان أمر الله قدرا مقدورا. إشارة إلى أن العصمة للأنبياء وحدهم، وإلى أن من عداهم يُتصور فيهم ما يعم البشر.

وليس معنى كلمة الجنيد أن العارف تطغَى عليه نفسه كما تطغى على العوامِّ، حاش لله. وحفظ الله وكلاءتُهُ من بين أيدي الأولياء ومن خلفهم.

إن اشتراك الأولياء مع العامة في الأوصاف البشرية فتنة كما أن ميزتهم وسمتهم وخصوصيتهم فتنة. ويأتي الرجل الكبير، الولي المفتوح له، فَيُؤَسِّسُ مدرسة تربوية، ثم يتوفاه الله تعالى إلى دار البقاء فيخلُفُهُ من بعده خلف لهم كل أوصاف البشر لكنَّ قلوبَهم خِلْوٌ من كل خصوصية. فلمكان التداخل بين البشرية والخصوصية، وتلاصق الحق مع الباطل في دار البلاء، يقلد الأتباع العوامَّ مثلهم المتمشيخين، ويعبُد الناس القبور، ويقوم للطرقية النكراء والصنمية الجهلاء أسواق.

قال الإمام الرفاعي رحمه الله: «أيْ سادة! لا تتخذوني دِقَّة المكَدِّي (أي صحنا يمده المتسول). لا تجعلوا رُواقي (أي زاويتي) حَرَما، وقبري بعد موتي صنما. دعوت الله أن يَجْعَلَني منفردا إليه في الدنيا، فحصل مع الجمعية. وعساني أصل إلى هذا القصد إذا فارقت الدنيا الدنِيَّة. إن صحت الجمعية مع الله فالكل هيِّنٌ:

إذا صَحَّ منك الوصل فالكل هيِّـنٌ وكـل الذي فـوق التـراب تراب

(1) رسالة القشيري، ص:160.

«عليكم به سبحانه. وحقِّه لا يضر وينفع، ويصل ويقطع، ويفرق ويجمع إلا هو! الوسائل إِلَيه لا تُنْكَرُ، والوسائط لا تكفر. وإنما المادة الكبرى كلمة تقولها وتصل، وهي: آمنت بالله.

«فإذا آمنت به آمنت بكتابه وبرسوله وبكل ما جاء به رسوله ﷺ، وعملت بقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[1]، وعظَّمْتَ الوسائل والوسائط التي تدلُّكَ على الله، ووحَّدْتَ الله، ووقفت على الباب بسائح الدموع، ولثَمْتَ الأرض بالذل والخضوع، وعرفت إلى أين المصير والرجوع، وتهيأت لما يليق بمقام الملاقاة، وأخلصت في أعمالك كلها فصرت إخلاصا خالصا.

«وبعدها تليق لك المراتب، وتَسُحُّ عليك سحب المواهب، وتعود عليك عوائد الكرم، وتُمَدُّ لك موائد النعم، وتنشر شبكة عرفانك على الخلق حتى لا تُبْقِي ولا تذر. وتصل دعوة نِيابَتِك إلى الظهور والبطون بإذن الله».

وقال الإمام عبد القادر رحمه الله: «ويحك! أنت بَطِرٌ! أنت أَشِرٌ! أنت شَبِقٌ! أنت هَوىً! أنت عبارة! انظر إلى القبور الدارسة، وخاطب أهلها بلسان الإيمان، فإنهم يخبرونك عن أحوالهم.

«يا غلام! تدَّعي إرادة الحق عز وجل وإرادة أوليائه وَأَدَعُكَ! لا! أحُكُّ وأُعَيِّر عليك! (أمتحنك وأختبرك). أنا محتسب عليكم بإذن الحق عز وجل! أقطع أَقْفِيَة المنافقين الكاذبين في أقوالهم وأفعالهم. قد احتسبْتُ على الشيوخ مرارا حتى صحَّتْ لي الحِسْبَةُ.

«يا أهل الأرض! اعجنوا أعمالكم بلا مِلْح! تعالوا خذوا له ملحاً! يا شاريَ المِلح تقدَّ! يا منافقين! عجينكم بلا ملح! فطيرٌ هو، محتاج إلى خمير! العمل ملحه الإخلاص. يا منافق! أنت معجون بالنفاق! عن قريب ينقلب عليك نفاقك نارا.

«أخلص قلبك من الفاني وقد تخلَّصَ. إذا أخلص القلب أخلصت الجوارح وتخلصت. القلب راعي الجوارح، فإذا استقام استقامت. إذا استقام القلب

(1) الحشر، 7.

واستقامت الجوارح كمُلَ أمر المؤمن، وصار راعيا على أهله وجيرانه وأهل بلده. يرتفع حاله على قدر قوة إيمانه وقربه من مولاه.

«يا قومُ! أحسنوا العشرة مع الله عز وجل واحذروا منه. اعملوا بحكمه، فإنه كلفكم العمل بحكمه».(1)

قال عامل بحكمه، كاتم لسره في قبة بشريته:

قالوا: نراك تطيل الصمت! قلت لهم ... ما طول صَمْتِيَ من عَيٍّ ومن خَرسِ
أأنشر البزَّ فيمن ليس يعرفه ... أم أنثر الدُّرَّ بين العُمْي في الغلس؟

وقال متكتم فضحه حاله، ولامه وعذله إخوانه:

دع عَذْلَه إن كنت من إخوانه ... يكفيك ما يخفيه من أشجانه
إن العذولَ هو الخَذُول إذا لحَى ... لا تعذِلَنْه فأنت من إخوانه
نشرت مطاوي سره أنفاسه ... فبكى وأعرب شأنه عن شانه
يا أيها الغادي اجتنب بَانَ اللِّوَى ... فالأُسْدُ صرعى اللحظ من غزلانه
إياك إياك العقيق فإنما ... بَلْوَايَ بين لِوَى العقيق وبانه
واستوقف الحادي وسلْ أظعانه ... ففؤادِيَ المأسورُ في أظْعَانه

وقلت:

قالوا: نَراك ضعيفا ... ولا تَكاد تُبينُ
الرَّهطُ مِنكَ عزيزٌ ... وأنتَ، أنتَ مَهينُ
قلتُ: اعذُلُوا واخذُلُوني ... إنِّي قويٌ أمينُ

(1) الفتح الرباني، ص:137.

أسرار الله في العبد

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾. اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

تكلم شيخ الإسلام أحمد بن تيمية عن مراتب الأولياء، وزعم أن في تعيين أسماءٍ مثل «الأوتاد» و«النجباء» و«الغوث» مضاهاة للرافضة الإسماعيلية وللنصيرية. وكان كلامه في القطب والأبدال أَلْيَنَ من كلامه في سائر الأسماء المتداولة المعْروفة عند الأولياء. لا جَرَمَ فذكر الأبدال والقطب كلام معتاد في كتابات الشيخ عبد القادر الإمَام المبَجَّل كما قرأنا في الفقرة الأولى من هذا الفصل، وكما نقرأ في الفقرتين بعد هذه إن شاء الله.

ورغم أن طعن ابن تيمية في هذه الألقاب مضطربٌ اضطراب الذي يفكر ويقدر بعقل لماَّ يفجأه «ما لا يخطر بالبال» وعلم لَمَّا يتنور بما «لا يدور في الخيال» فإنه يرجع آخر الأمر ليعترف بأن الله عز وجل يودع في خلقه أسراره فيقول: «نعم، يكون نور قلبه (أي الشخص الولي) وهُدَى فؤاده وما فيه من أسرار الله تعالى وأمانته وأنواره ومعرفته غيبا عن أعين الناس. ويكون صلاحه وولايته غيبا عن أكثر الناس فهذا هو الحق، وأسرار الحق بينه وبين أوليائه. وأكثر الناس لا يعلمون»[1].

وكان رحمه الله ممَّن لا يعلمون كثيرا من أسرار الله في أوليائه قبل فَتْحِه الأخير في السجن و«تعسيلته»، وقبل أن يظهر له أن بُعْدَ ما بين العاميِّ من المؤمنين وخاصِّ الخاص منهم كبُعْدِ ما بين البهيمة والملائكة. وجاء بعده تلميذه المنتصح بوصية المودِّع من السجن الذي أشار إلى نقص الجماعة في معرفة الله تعالى فأثبت القطبية

(1) الفتاوي، ج 11، ص:443.

على استحياء دون أن يذكر الـمُصْطَلح. قال: «فمن فتح الله عليه بصيرة قلبه وإيمانه حتى خرقها (حتى خرق حجاب أقوال الناس وأخبارهم) وجاوزها إلى مقتضى الوحي والفطرة والعقل فقد أوتي خيرا كثيرا. ولا يخاف عليه إلا من ضعف همته. فإذا انْضَاف إلى ذلك الفتح همة عالية فذاك السابق حقا، واحد الناس بزمانه».

هذا غاية ما عند عالم عامل مشارك ترك القيل والقال من خبر عن «واحد الناس بزمانه». والذي نريده من التذكير المتكرر بحادثة فتح ابن تيمية آخر عمره أن يخرق المقلدون المحجوبون إن استطاعوا حجاب الغفلة بالسلوك ليعرفوا ذوقا ووجدا ومعرفة أن لله تعالى أسرارا بينه وبين أوليائه. فإن لم يستطيعوا فلا أقلَّ من أن يمزقوا عن عقلهم ستائر التقليد البليد المتخلِّف المحنط لمقالات تجاوزها صاحبها قبيل موته كما تتجاوز الملائكة البهيمة، فيسكتوا. وخير لمن لا علم معه أن يسكت.

ألا وإن الله جلت عظمته وتقدست كلمته يخفي خصوصياتهم في قباب بشريتهم. فمنهم من يكتم أسرار مولاه، ومنهم من يذيعها بإذن ربه ليسمع السعيد بسابقته فيهرول إلى الباب،ويقف في صف الانتظار والصبر والادِّكار مع الأحباب ذاكرا شاكرا. بإذن ربهم يفشون بعض الأسرار كما قال الخضر لموسى عليهما السلام: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾[1]. وبعضهم ينثر كثيرا من الأسرار لتكون لبعض الناس رحمة شاملة، وعلى بعضهم فتنة عارمة.

أما كبار الأئمة الربانيين فيبثّون العلم بمقدار ما يدعو إلى العمل، ويستفِزُّون عن الهمم الراقدة بالحكمة والموعظة الحسنة داعية الكسل. ومُجمَل ما يستفيد السعيد بالسابقة والصدق والإرادة أن لله تعالى من العطايا لعبيده المقْدِمين عليه، المنقطعين إلى جنابه، المحسوبين من لاجئي بابه ما لا يحده الوصف. وأن المولى الوهاب يرقي العبد المتقرب بالفرض والنفل المحبوب مراقي ولا كما يتميز الدُّرُّ من الحصا.

قال الإمام عبد القادر: «الخلق على ثلاثة أضرب: عامي، وخاصيّ، وخاص الخاص». ثم يذكر أن العامي هو المسلم المتقي الملازم لأوامر الشرع ونواهيه.

---

(1) الكهف، 81.

يترقى المسلم من عاميته بالتقوى والعمل الصالح والتوجه القلبي للمولى عز وجل والخروج من الدنيا والخلق حتى يعبر بحورها. «فحينئذ يأتيه الصبح، يأتيه نور الإيمان، نور القرب من ربه عز وجل، نور العمل، نور الصبر، نور التؤدة والطمأنينة». هذا مقام الخواص.

قال: «وأما الأبدال، وهم خواص الخواص، فيستفتون الشرع، ثم ينظرون أمر الله عز وجل وفعله وتحريكه وإلهامه. فما وراء هذه الثلاثة هلاكٌ في هلاكٍ، سقم في سقم، حرام في حرام، صداع في رأس الدين، دبيلة في قلبه، سُلٌّ في جسده».[1]

عالج الربانيون الكبار «صداع رأس الدين» و«سل جسده» بالتربية الإحسانية. فكانوا يبسطون لمريديهم من أسرار الطريق ما به يُلْهبون ظهر العزائم. ويتسرب إلينا من تلك الأسرار ما تمجُّه الأذواق المريضة والعقول الكليلة التي تطلب الدليل فيما ليس له دليل إلا السلوك، إلا أن تطلب فتعطى، إلا أن تتقي الله جل وعلا فيجعل لك فُرقانا بنور القلب. وأحيانا يتحدث كبار المشايخ لتلامذتهم عن مقام أنفسهم وعن نعمة الله عليهم محض نصيحة، فيحسبهم الجاهل قياسا على نفسه المسلولة يتباهَوْنَ ويتراءَوْنَ.

للإمام أحمد السرهندي رسائل تحمل من أسرار الطريق ما لا تكاد تجد له مثيلا ولا قريبا في كتب القوم. كتبها في حياته لخواص تلامذته، وشاء الله أن تترجم من اللغة الفارسية التي كان يكتب بها الشيخ وتطبع وتنتشر ليعلم المتأخرون أن فضل الله على عباده لا يزال يَسِحُّ سَحّاً.

قال رحمه الله: «أنا مريد محمد رسول الله ﷺ، ومجتمع معه في مرشد واحد أيضا، مقتف أثره ﷺ. وأنا وإن كنت طفيليا في خِوانِ هذه الدولة (أي الخصوصية المحمدية) ولكني ما جئت بلا دعوة، وإني وإن كنت تابعا ولكني لست خاليا من الأصالية، وإني وإن كنت أُمَّةً، لكني شريك في الدولة. لا بالشَّرِكة التي يقوم عنها

(1) الفتح الرباني، ص:42.

دعْوَى المساواة (بالنبوة) فإن ذلك كفر، بل شركة الخادم مع المخدوم. وما لم أُطْلَبْ لم أحْضُرْ في سُفْرة هذه الدولة، وما لم أُدْعَ لم أَمُدَّ يدي إلى هذه الدولة».[1]

هذا مثل قول الشيخ عبد القادر: «أنا غلام من تقدم!» ومنصب «خادم الرسول» و«غلام الرسول» هو منصب القطبية، أشار إلى ذلك السرهندي الجالس على سفرة الكرم. هنيئا لمن لهم الهناء من رب الأرض والسماء. سبحانه وتعالى عما يشركون.

وقال رحمه الله: «لو أظهرت شَمَّةً من تلك المعاملة (أحد المقامات التي أتحفه بها ربه عز وجل في فتحه) التي هي مربوطة بتلك الولاية قُطِعَ البُلْعومُ وذبح الحُلْقومُ. فإذا قال أبو هريرة (كما روينا عن البخاري في فقرة سابقة) رضي الله عنه في إظهار بعض العلوم التي أخذها عن رسول الله ﷺ «قطع البلعوم» ماذا يقال في حق غيره! وقد جعل الله سبحانه غوامض الأسرار الإلهية بينه وبين أخصِّ الخواص من عباده. ولم يترك الأجانب محرومين من حواليها».[2] قلت: الأجانب هم العامة المحجوبون، عسى أن يفتح لهم باب الطلب من شَمٍّ بعض الأسرار فيما يقرأون.

على أن أولياء الرحمن لا يرضَوْن بغير مقام العبْدِيَّة الخالصة منتهىً. العبدية الـمُمَحضَّة لله عز وجل غاية مناهم. وما يمنحون من أسرار وكشوفات ومراتب إنما هي زينة مولاهم ونعمته، يفرحون ويشكرون، لكنَّ وجههُ عز وجل هو المطلب، العبودية له هي أعلى مكسب.

قال الإمام الرفاعي: «أيْ سادة! العبدية حقها الانقطاع عن غير السيد بالكلية. العبدية ترك كلِّ كُلِّيَّة وجزئية. العبدية رد القصد عن كل مَزِيَّةٍ. العبدية عدم رؤية العبد لنفسه على إخوانه رفعةً أو فَوْقِيَّةً. العبدية وقوف عند ما حد للطينة الآدمية. العبدية الخشية والخضوع تحت مجاري الأقدار الربانية. لا يكون العبد عبدا كاملا حتى يصل إلى مرتبة الحُرِّيَّة، والتخلص من رق الأغيار بالكلية»[3].

---

(1) مكتوبات الإمام الرباني، ج 3، ص:110.

(2) المصدر السابق، ج 3، ص:129.

(3) البرهان المؤيد، ص:66 .

الولي الكامل من كملت عبوديته لله عز وجل، سره بينه وبين ربه. لا دعوى عنده ولا داعية يراها ليفتخر على أبناء جنسه. كيف يفخر بما ليس منه ولا له ولا إليه ! إنما هي نعم مولاه، محضُ فَضْلٍ.

قال الرفاعي رحمه الله: «يتحدث القوم بالنعم اعترافا بنعمة المنعم، وشكرا لها، وحثًا للناس على العمل لتحصل لهم هذه البركة. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1]. يقول المتحدث بالنعمة: أطلعني ربي على كذا، وعلَّمني كذا، ووهبني من الخير والبركة كذا. ولكن لا يقول: أنا خير منكم! أنا أجلُّ منكم! أنا أشرف منكم! هذه كلمات دعوى، تكون من رعونة النفس، ينطق بها لسان الأحمق. ما الذي شرفني عليك، وخيرني وأجَلَّني! (...). لولا امتثال قوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾[2] لخَاطَ العاقلُ فمه بِمخْيَطٍ!».[3]

يتَّهم الخلق الوليَّ المشفق عليهم، الـمُتَحَدِّثَ إليهم بنعمة ربه، بأنه طالب رئاسة. وما به إلا أن يدعوَهم إلى الله جلت عظمته، وهو في نفسه كالطفل البريء ألبسوه يوم العيد ثوبا جديدا. طَلَبَ لكنه ما كَسَبَ.

قال الشيخ عبد القادر رحمه الله: «ويحك! كيف تَدَّعي طريق هؤلاء القوم وأنت مشركٌ بك وبغيرك من الخلق! لا إيمان لك وعلى وجه الأرض من تخافه وترجوه. لا زهد لك وفي الدنيا شيء تريده! لا توحيد لك وأنت ترى غيره في طريقك إليه! العارف غريب في الدنيا والآخرة، وزاهد فيهما وفيما سوى الحق عز وجل في الجملة. لا رغبة له في غيره.

«يا قوم! اسمعوا مني، وأزيلوا التُّهْمَة لي من قلوبكم. كيف تتهِمونني وتغتابونني وأنا شفيقٌ عليكم! أحمل أثقالكم وأخيط فتوق أعمالكم، وأشفع إلى الحق عز وجل في قبول حسناتكم والتجاوز عن سيئاتكم. من عرفني ما يبرح من عندي إلى أن يموت. يجعلني شهواته ولَذَّاتِه وطعامَه وشرابَه ولباسَه! يستغني بي عن غيري.

---

(1) العنكبوت، 69.

(2) البقرة، 151.

(3) البرهان المؤيد، ص:74.

«يا غلام! كيف لا تحبني وأنا أريدك لك لا لي! أريد منفعتك وتخليصك من يد الدنيا القتالة الغرارة. إلى متى تعدون خلفها! عن قريب تلتفت إليكم وتقتلكم! الحق عز وجل لا يترك محبيه مع الدنيا ولا لحظة! لا يأمنها عليهم، ولا يتركهم معها ولا مع غيره في الجملة. بل هو معهم وهم معه. قلوبهم أبدا له ذاكرة، بين يديه حَاضرة، وعن غيره معرضة، وعليه مقبلة. فهو معهم، حافظ لهم، ولهم مؤنس».[1]

وينادي عبد الله الشفيق على عباد الله على بضاعته وعلمه، يَفتح كُتَّابَهُ ويصيح: «تعالوا يا عباد الله عز وجل في الأرض، ويا زهادها! تعلَّموا مني شيئا ما عندكم منه خبر!

«ادخلوا كتابي حتى أعلمكم شيئا لا تجدونه عندكم. للقلوب كُتَّابٌ، وللأسرار كُتَّابٌ، وللنفوس كتاب، وللجوارح كتاب. هي درجات ومقامات وأقدام معدودات.

«القدم الأولى ما صحت لك! كيف تصل إلى الثانية! الإسلام ما صح لك، فكيف تصل إلى الإيمان! الإيمان ما صح لك، فكيف تصل إلى الإيقان! الإيقان ما صح لك، فكيف تصل إلى المعرفة والولاية! كن عاقلا! ما أنت على شيء!

«كل منكم يطلب الرئاسة على الخلق بلا آلة فيه. إنما تصح الرئاسة على الخلق بعد الزهد فيهم وفي الدنيا والهوى والنفس والطبع والإرادة. الرئاسة من السماء تنزل لا من الأرض. الولاية من الحق عز وجل لا من الخلق. كن أبدا تابعا لا متبوعا، صاحبا لا مصحوبا. ارْضَ بالذل والخمول، فإن كان لك عند الحق عز وجل ضدُّ ذلك، يجيئك في وقته.

«عليك بالتسليم والتفويض وترك حولك وقُوَّتك واعتراضك وشركك بالخلق وبنفسك. عليك بصحبة العبودية وهي امتثال الأمر، والانتهاء عن النهي، والصبر على الآفات.

«أساس هذا الأمر التوحيد، والثبات على الأعمال الصالحة. الأساس ما أحكمته، على أي شيء تبني! النية ما صحت لك، كيف تتكلم؟ سكوتك ما تم لك، كيف تنطق هذا الكلام نيابة عن الرسل!».[2]

(1) الفتح الرباني، ص:233.

(2) المصدر السابق، ص:232.

وقال غريب سالك على درب النبوة والاتباع يحث الغافل المتخلف:

إذا العلـم لا تغشى غرائبه قلبي ... ولا شاقني منه إلى المَنْهل العَذْب
ولا أنا ممَّن جاوز الدرب ناهضا ... إليه ولا أرضى مَقَامِي من ربي
ولا كان حظي منه إلا حكاية ... على الناس أتلوها فحسبي إذن حسبي!
أليس عجيبا أن نفسي حقيقتي ... وما سَلْمُها سلمى ولا حربها حربي!
تمر بنا الأيام تحت لجَاجَةٍ ... وما ينقضي لومي عليها ولا عتبي
أيا ذات نفسي فارْفُقِي بي فإِنَّها ... لطائفُ تستولي فَتُنْبِي بما تُنْبي
هي العروة الوثقى هي السنة التي ... يمر عليها مُقْتَفِي إثر الرَّكْب
ولا ترض بالحظ الخسيس سفاهة ... فمثلك من قد حل في المنزل الرحب
تجافوا عن الدار التي أصبحوا بها ... على غربة واستوطنوا حضرة القرب

وقلت:

إذا كان حظُّكَ حِفظَ السُّطو ... رِ وَثَلْبَ الرِّجالِ بِلا كَلَلِ
ولم يَنْبَعِثْ منكَ شوقٌ إلى ... سُلوكٍ إلى اللّه بالعَجَلِ
أيا قفصاً غادَرَتْهُ الطُّيو ... رُ أُراكَ خَسِيساً مِنَ الهَمَلِ

استقامة السر

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾. اللهم إنك سألتنا من أنفسنا ما لا نملكه إلا بك، اللهم فأعطنا منها ما يرضيك عنا.

الهداية منه سبحانه وتعالى ومن رسوله ﷺ والاستقامة منا. ﴿ **كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾[1]. ونحن بمشيئتنا نَعوَجُّ أو نستقيم. ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾[2]. مَشيئَتُنا ومشيئتهُ، طلَبُنا وطَلَبُه. ندعوه: ﴿ **اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ** ﴾[3] فيأمرنا: ﴿ **فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ** ﴾[4]... ويعلق الهداية والاستقامة على المشيئتين المرتبطتين ارتباطا فتنويا لا ينفَصِمُ، ارتباطُ إرادته الكونية باختيار راجع إليه وبكسبنا المستمَدِّ من السابقة، وله عز وجل الحجة البالغة. قال جل وعلا: ﴿ **وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ** ﴾[5]. الفتنة، وهي الامتحان اللازم لهذه الدار، مسألة سابقة لاحقة.

الاستقامة إليه، وفي العبارة تضمين للحركة والسير والصيرورة. الاستقامة على الطريقة عبارة تؤدي نفس المعنى. السنة طريق، والاتباع للرسول ﷺ سير. والسير على طريقته ﷺ اهتداء واستقامة، وسلوك على مراحل، وصيرورة إلى الله عز وجل، ووصول إليه. قال جلت عظمته يخاطب عبده ورسوله ﷺ: ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ** ﴾[6].

(1) المدثر، 31.
(2) التكوير، 28.
(3) الفاتحة، 5.
(4) فصلت، 6.
(5) الجن، 16-17.
(6) الشورى، 52.

الهداية الإلهية فعل المشيئة المهيمنة، والهداية النبوية رحمةٌ مهداة، والاستقامة من مشيئتك ومشيئته تفضُّلاً منه وكرما، فإن اعوَجَّ سيرُك، أو توقف، أو تلكَّأ، أو انحرف فهي مصيبة من نفسك. وعند قدَمَيْكَ ومن خلفك وأمامك فتنة دائمة أنت مسؤول عن مغالبتها، فلا استقامة إلا غلابا وحربا على الشيطان والنفس والهوى والطبع والعادة والأنانية والعقلانية الجاحدة والفساد الاجتماعي والاستبداد السياسي والظلم وعدوان المعتدين.

الاستقامة اقتحام صاعد لعقبة صاعدة. وبجهد استقامتك وجهادها تتقرب إلى الله عز وجل حتى يُحِبَّك ويكون سمعك وبصرك ويدك ورجلك. وقد كتب سبحانه الاستقامة على كل كثائفك ولطائفك، من جوارح ونفس وقلب وروح وسر كما سنقرأ قريبا إن شاء الله في صفحَة مشرقة للإمام الرفاعي. «والسر لطيفة إنسانية مُودَعَةٌ في القالب (...). إنها مَحَلُّ المشاهدة كما أن الأرواح محَلُّ المحبة والقلوبُ محلُّ المعارفِ».[1]

«الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها. وبوجودها حصول الخيرات ونظامُها. ومن لم يكن مستقيما في حالته ضاع سعيه وخاب جهده».[2]

للمبتدئ في السلوك على طريقة الولاية والصحبة والاتباع واقتحام العقبة استقامةٌ، وللمتوسط استقامةٌ، وللمنتهي استقامة. قال الأستاذ القشيري رحمه الله: «فمن شرط المستأنف الاستقامة في أحكام البداية كما أن من حق العارف الاستقامة في آداب النهاية. فمن أمارات استقامة أهل البداية أن لا تَشُوبَ معاملتهم (مع الله) فترة. ومن أمارات استقامة أهل الوسائط أن لا يصحب مُنازَلَتَهم وقفة. ومن أمارات استقامة أهل النهاية أن لا تَدْخُلَ مواصلتهم حجة».[3]

قال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله عنه، وهو من أكابر الأولياء وخبرائهم في علاج الكثائف واللطائف: «الاستقامة لها ثلاثة مدارج: أولها التقويم، ثم الإقامة، ثم

(1) رسالة القشيري، ص:45.

(2) المصدر السابق، ص:94.

(3) المصدر السابق، نفس الصفحة.

الاستقامة. فالتقويم من حيث تأديب النفوس، والإقامة من حيث تهذيب القلوب، والاستقامة من حيث تقريب الأسرار».

يتصور عامة الناس أن الولاية تنحصر في أسرار تنزل، ومعارف توهب، وكرامات تخرق العادة. وليست الولاية إلا الاستقامة على الصراط المستقيم صراط الذين ﴿أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً﴾[1]. فما جاء مع الاستقامة من كشوفات وأسرار وكرامات فإنما هو ابتلاء بالنعمة المطلوب معها مزيد من الاستقامة لقوله تعالى لإمام المنعم عليهم محمد ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2]. وإن النعمة لَتُطْغِي، وإن النعمة لَيَغْتَرُّ بها السالك فيتراخى في الأمر والنهي فيَهْلِكَ مع الهالكين.

وما جاء من كشف وخوارق مع الاعوجاج فهو بلاء محض واستدراج.

لذلك قال أبو علي الجوزجاني رحمه الله: «كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة. فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك عز وجل يطالبك بالاستقامة». وقال غيره: «إن الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر، لأنها خروج عن المعهودات، ومفارقة للعادات، وقيام بين يدي الله عز وجل على قدم الصدق».

دوام الاستقامة يوجب دوام الكرامة، والروَغَان عن الطريق غرامةٌ وندامة. فمن استقام على صحبة الكاملين دامت له كرامة التوفيق. ومن انعزل عن جماعة الصالحين ابتلعته الفتنة المحيطة. ومن زهد في حِلَقِ الذكر، وزاغ عن الأوراد، وتهاون في الأوقات، قسا قلبه، وكسِلت جوارحه، وأظلمت روحانيته. ومن عامل الله عز وجل بإرادة مائلة، وأنانية متطاولة، وجبن في مواطن الثبَات، وبخل في حلول الحاجات هَوَى عن العقبة، وسقط فاندقَّت منه الرقبة.

قال الإمام أحمد الرفاعي قدس الله سره العزيز: «أيْ بُنَيَّ! اعلم أن من تجرد بسره عن الكل، وتفرَّدَ بسر السِّرِّ الفَرْدِ، كشف له الغطاء، واستبانت له البراهينُ عند

(1) النساء، 69.

(2) هود، 112.

مشاهدة الحق سبحانه. وهنالك يسقيه الله عز وجل بكأس محبته، حتى يُسكره به عن غيره. ويزيل عنه التعب والنصَبَ. ويصير سكوته ذكرا، وأنفَاسه تسبيحا، وكلامه تقديسا، ونومه صلاة.

«ولا يزال العبد يَرْكَبُ بسره مَرْكَبَ المعرفة حتى يتصل بالمعروف. فإذا اتصل بالمعروف بقي معه إلى الأبد، من غير أن يلتفت عنه إلى ما سواه.

«واعلم أن مثل القلب كالقصر، والمعرفة فيه كالسلطان، والعقل أمير على الأركان، له تَبَعٌ وأعوان. واللسان كالترجمان. والسر من خزائن الرحمن.

«ولابد لكل واحد منها من الاستقامة في مواضعه. ودوران كلِّها على استقامة السر مع الحق جل وعلا. فإذا استقام السر استقامت المعرفة، فيستقيم العقل. وإذا استقام العقل استقام القلب. وإذا استقام القلب استقامت النفس. وإذا استقامت النفس استقامت الأحوال.

«فالسر مُنوَّر بنور الجمال والجلال. والعقل منور بنور اليقظة والاعتبار. والقلب مُنَوَّر بنور الخشية والأفكار. والنَّفس منورة بنور الرياضة والانزجار.

«فالسر بَحْرٌ من بحور العطايا، وأمواج الهمة فيه لا يحصى عددها، ولا يَنْقَطِع مددها. وإن استقامة السر مع الحق هي الدّوام على بساط المشاهدة، مع فقد رؤية الاستقامة.

«واعلم أن صراط استقامة السرِّ أَدَقُّ من صراط الآخرة والمرور على جَسرها أصعب من المرور على جَسر الآخرة. وإنَّ عالم الأسرار غَيُورٌ، لا يُحب أن يكون في قلب العبد حبٌّ أو ذكر لغيره (...).

«دخل رجل على سريٍّ السَّقَطِيِّ رضي الله عنه فقال له: أيُّ شيء أَقربُ إلى الله ليتقرب به العبد إلى الله؟ فبكى السَّرِيّ فقال: أمِثْلُك يسأل عن هذا؟ إنَّ أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى أن يَطَّلِعَ الله على قلبكَ وأنت لا تريد من الدارين غيرَهُ.

«وقال إبراهيم بن أدهم: غاية همتي ومرادي من الله تعالى أن يجعل لي الميْلَ إليه، فلا أرى شيئا دونَه، ولا أَشتغِلُ بأحد سواه. ثم لا أبالي: إلى التراب صيرني أم إلى العدم أرجعني (...).

«وقالت رابعة البصرية: إلهي ! همتي ومرادي في الدنيا من الدنيا ذكرُك، وفي الآخرة من الآخرة رؤيتك. ثم افعل بينهما ما شئْتَ».[1]

قلت: هذه دعوَى، وكلام أصحاب الأحوال والغَلَبَةِ والسُّكْرِ. العبد المسكين لا يطيق أن يفعل المولى الرحيم به بين هذين المطلبين الجليلين، الذكرِ في الدنيا والرؤيةِ في الآخرة، إلا العفْوَ والعافيةَ والسلامة والكلاءةَ والرِّعاية والعناية.

وقال أبو يزيد البسطامي: «رفَعَتِ السِّرَّ مواصلة الحق، فطار بأجنحة المعرفة، بنور الفطنة، في هواء الوحدانية. فاستقبلته النفس وقالت: أين تذهب! أنا نفسك، لابد لك مني! فلم يلتفت السر إليها. ثم استقبلهُ الخَلْق وقالوا: أين تذهب! نحن رفقاؤك وندماؤك! ولابد لك منا ومن معاونتنا إياكَ. فلم يلتفت إليهم. ثم استقبلته الجنة بكل ما فيها وقالت: أين تذهب! فإني لك ولابُدَّ لك مني. فلم يلتفت إليها. ثم استقبَلته العطايا والمواهبُ والكرامات كذلك. حتى جاوز الـمَمْلَكَة، وبلغ سُرادِقاتِ الفردانية، وجاوز الكلية والأنانية حتى وصل إلى الحق عز وجل وهو المطلوب».

هذه الاستقامة إلى الله، استقامة الإرادة والسير، لا يقف العبد مع شيء دون الله عز وجل، هي طريق الكمال لمن هداه الله عز وجل واتَّبَع السنة المصطفوية، عليه أفضل الصلاة والسلام، خطوةً خطوة. هدانا الله وجعلنا من أهل ذلك بمنه.

وقال الإمام عبد القادر قدس الله سره: «أول ما يَرْتَدُّ (عن الإسلام نعوذ بالله) السِّرُّ ثم القلب ثم النفس ثم الجوارح. إذا ارتدَّ السر لابد من ظهوره. المنافق في المسجد كالطير في القفص. ظاهر الشرع قفصه. لو خُلِّينا وظاهرَ العلمِ لبَيَّنّا لك ذنوبك وقلنا: يا كافر! يا فاسق! لكن الشرعَ قبض أيدينا عَنْ ذلك (...).

(1) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص:127.

«يا سِرُّ اثبُتْ وقلبك وجوارحك وكليتك! حينئذ لا بَيْعَ ولا شراءَ ولا مُعَاوَضَة! كُلْ يا من لم يأكل! اشربْ يا من لم يشرب! لمَّا صَبَرت البئْرُ على الحفر والمعاول ظهر منها المَعِينُ. صار مأوى الشارِدِ والوارد. إذا لم تصبر على آلام المجاهدات والبلايا متى تكون عارفا! (...)

«إذا تعلق قلبك بباب القرب (وهذه استقامته) وهو في ظلمة الوجود طلع عليه فجرُ العلم، وكُحِلَ بصره بِكُحْل السِّر، وأُقْرِئْتَ فِهْرِسَ الأقدار. حينئذ دونك الأَكْلَ والشرب بعد دخول الجنة. الجنة منقودة لـمُلُوك خَلْقِه (ملوك الآخرة) والنجباء من أوليائه».[1]

وقال رحمه الله: «من بلغ غاية الولاية يصير قطبا. يُحَمَّلُ أثقال الخلق جميعا، ولكن يُعطَى كإيمان الخلق جميعا ليَسْتَقْوِيَ به على حمل ما حُمِّلَ. لا تَنْظرْ قميصي وطريحتي (لباس العلماء، لبسه رضي الله عنه بعد لباس الإرادة الخَشِنِ). هذا لباس ما بَعْدَ الموت (يقصد رضي الله عنه الفناء والبقاء الذي يحدث للأولياء كما سنعرض في فقرة مقبلة إن شاء الله). هذا كَفَنٌ، وكفَنُ الميت يُجَمَّل. هذا بعد لُبْسِي الصوف وأَكْلِي الخَشِنَ والجوع. عندي شُغلٌ شاغل مع غيركم.

«يا أهل بغدادَ! كونوا عقلاءَ يا أهلَ الأرض ويا أهلَ السماء! «ويخلق ما لا تعلمون» (...). لا كلام حتى تصير أربابك ربا واحدا، وجهاتك جهة واحدة، ومحبوبك واحدا. متى يتحد قلبك! متى يُخَيِّم قربُ الحق في قلبك! متى يصير قلبك مجذوبـًا، وسِرُّك مقرَّبـًا، وتلقى ربك بعد الخروج من الخلق!

«(...) هل عندكم خبر من الله تعالى! لا والله! بل أنتم عُشَّاق الدنيا وزينتها. لوكنت صادقا فيما تدَّعيه لم تَحْتلْ في طلب ذرة!

«ارم نفسك في وادي القدَرِ، حتى يتَّصل رأس درجتك بباب القرب. استقبلك وجه أحسن من زينة الدنيا والآخرة. تمت المودة بينكما. ارتفعت الحجب والوسائط.

(1) الفتح الرباني، ص:352.

سمعت استغاثتهما من وادي قدره (...). لو علمت أن الدنيا تقطعك لما سألتها. إذا تهذب باطنك لله عز وجل تهذبت الدنيا لك».[1]

قال نافر من الدنيا وزينتها مقبل على الواحد الصمد سبحانه:

فحسبي أن آوِي إلى الواحد الفرد ... فإن سواه لا يعيد ولا يبدي
هل الغاية القصوى سوى الله وحده ... وهل بعد نيل الحق نَيْل لِذِي قصد!
يجل مقام القدس عن كلِّ وارد ... وإن كان كل الناس يطمع في الوِرْدِ
فيا راحلا في بغية الحق ... إنه يناديك من قُرب وأنت على بعد
ومن سطع النور المبين أمامه ... فما بالُه يبغيه بالنَّصِّ والوخدِ!
أعندي أنِّي لا أرى غير خالقي ... ولولا قصور الخلق بُحْتُ بما عندي
ومن لم يكن للحق أهلا أضَرَّه ... كإضرار عين الشمس بالأعين الرُّمْدِ
فسبحان من يبدو إلينا بذاته ... فندركه من غير رسم ولا حد
نراه عيانا بالقلوب وإنه ... لأقرب من حبل الوريد إلى العبد
ويُسدي إلينا أنعما فات حصرها ... ولكن تَجَلِّيهِ لها خير ما يُسْدي

وقلت:

حَسْبُكَ يا هذا التِواءً ونفاقْ ... حَسْبُكَ خَيْساً بِالمَواثيقِ الرِّقاقْ
يا راحِلاً دعْ عنك أَخْدَانَ الشِّقاق ... وَفِئْ إلى كَتيبَةِ الخَيلِ العِتاقْ
سَطعَ نور الحقِّ والنُّور يُذاقْ ... واصْطَفَّ فُرسَانُ الإلهِ لِلسِّباقْ

(1) الفتح الرباني، ص: 334.

الحال والمقام

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾. اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة، فإن جار البادية يتحول.

قدمت الحديثَ عن الاستقامة في الفقرة السابقة بين يدي الحديث في هذه واللتين تليانها عن أهوال السلوك ومخاطر الطريق. ذلك أن العبد الداخل في درب الطلب أحوجُ ما يكون إلى هداية الله عز وجل وتثبيته، وإلى الاستقامة على روح الشرع والتَثَبُّتِ فيه، وهو يعاني من تقلب الأحوال به، ويعاني من اعتراض عوارض النفس والهوى والشيطان والطبع والعادة والأنانية وبلبلة الشك وبلابل سوء الظن.

فمما يعتري السالك في الطريق إلى الله الأحوال. وإذا أُطْلِقَ لفظ «الحال» يراد به أحد معنيين: الحال المقابل للمقام، وهو اتصاف السالك بخلق إيماني إحساني قد يحول ويتغير ويتراجع عنه صاحبه. فإذا تمكن في تلك الصفة سمي تمكنُّه ورسوخه وكسبه لها مقاما. والمعنى الثاني للحال هو ظهور حركات في الجسم واضطراب في النفس وكسوف في العقل ورجة في الكيان كلِّه عند غلبة الوارد.

نتعلم من الشيخ الإمام السهروردي المربي الكبير ما هو الحال والمقام بالمعنى الأول، ونستمع بعناية لما كتبهُ شيخ الإسلام ابن تيمية عن أحوال الغلبة، فهو الخبير بها، الـمُنَقِّبُ عنها، الصيْرَفِيُّ الحاذق في تمييز الرحمني منها والشيطاني.

قال السهروردي رحمه الله: «الحال سُمِّي حالا لتحوله، والمقام مقاما لثبوته واستقراره. وقد يكون الشيء بعينه حالا ثم يصير مقاما، مثل أن ينبعث من باطن

العبد داعيةُ المحاسبة، ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس. ثم تعود، ثم تزول. فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهَدُ الحال، ثم يحول الحالُ بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم، ويغلب حال المحاسبة، وتَنْقَهِرَ النفسُ، وتنضبطَ، وتتملكها المحاسبة، فتصير المحاسبة وطنَه ومُسْتَقَرَّهُ ومُقامَه. فيصير في مقام المحاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة».[1]

قلت: هكذا يتقدَّم السالك خُطوةً خُطوةً إلى الأمام، ويُثْقِله أحيانا ثِقْلُ بشريّتِه فيعجِز عن التقدم، ويتلَكَّأُ وتَنْكَسِر عزيمته. إلى أن تتداركه عناية الله وهدايته، فيُثَبِّتُ الله عز وجل جيوش إرادته، وترسُخُ قدمُه في وطن الرجولة. فهو دائما، قبل الاكتمال، بين مدٍّ وجَزْرٍ، بين جُهده الكسبِيِّ ومواهب الهداية الإلهية.والصبر على مشاقِّ الطريق، والتعويل على استئناف شوْطٍ جديد من عزم الأمور كلما طرأت فترة، واختلط شك، وتكدر صفْوٌ. والصبرُ «مع» الصحبة الثابتة القدم، ومع جماعة الذاكرين، ومع الصادقين هو الشرط الأساسي، وهو في حد ذاته مقامٌ أيُّ مقامٍ!

يمضي السهروردي في تعليمه فيقول: «ثم (من بعد مقام المحاسبة) يُنازل حال المراقبة. ثم يَحول حالُ المراقبة، لتناوُبِ السهو والغفلة في باطن العبد، إلى أن ينقشع ضبابُ السهو والغفلة، ويتداركَ اللهُ عبدَه بالمعونة، فتصير المراقبة مقاما بعد أن كانت حالا. ولا يستقر مقام المحاسبة قرارَه إلا بنازل حال المراقبة. ولا يستقر مقام المراقبة قرارَه إلا بنازل حال المشاهدة.

«فإذا مُنحَ العبدُ بنازل حال المشاهدة استقرتْ مراقبتُه، وصارت مقامَه. ونَازِلُ المشاهدة يكون أيضا حالا يحول بالاستتار، ويظهر بالتجلي، ثم يصير مقاما. وتتخلَّص شمسه من كسوف الاستتار.

«ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقِّيات من حال إلى حال أعلى منه، كالتحقُّقِ بالفناء والبقاء، والترقي من عين اليقين إلى حق اليقين. وحقُّ اليقين نازلٌ يخرِق شِغافَ القلب. وذلك أعلى فروع المشاهدة».

(1) عوارف المعارف، ج 4، ص:244-247.

ننظر إن شاء الله في الفناء والبقاء في الفقرة المقبلة. ونقف هنا عند «نازل» الحال أو «وارده». هذا النازل حالة تفْجَأ الذاكر حالَ الذكر، وحالَ العبادة، وحال الصلاة، من خشوع ودموع وهي الأحوال الشريفة السليمة من كل فتنة. على أن كلَّ الأحوال الربانية شريفة. وقد ذكر الله عز وجل شرفها في كتابه العزيز فقال: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾[1]. فجعل سبحانه اقشعرار الجلود ولينَ الجلود والقلوب عند سماع أحسن الحديث من علامات الهداية، وجعل ضدَّ ذلك من تحجُّر القلب وتَيَبُّس العين وزَيَغَانِ العقل وشرود الذهن عند سماع كتاب الله تعالى من علامات الضلال. هذا مفهوم الآية الكريمة وإشارتُها.

من الأحوال الربانية ما يَقْوى وارِدُه حتى يُزيلَ العقلَ، وهذا حال الموَلَّهين والبهاليل ومجاذيب الطريق. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هؤلاء: «ومن هؤلاء من يَقْوى عليه الوارد حتى يصير مجنونا إما بسبب خَلْطٍ يغْلبُ عليه، وإما بغير ذلك. ومن هؤلاء عقلاءُ المجانين الذين يُعَدُّون في النساك، وقد يُسَمَّون الموَلَّهين. قال فيهم بعض العلماء: هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولا وأحوالا، فسلب عقولهم، وأسقط ما فرض بما سلب».[2]

قلت: هذا النوع من أصحاب الأحوال، بل كل المغلوبين بالحال، لا يُصْحَبُون، ولا يُقْتَدى بهم، ولا يُسْمَع لكلامهم ولو ظهرت عليهم الخوارق. وهم خطرٌ أشدُّ الخطر على السالك.

غلبة الأحوال بلاء ومحنة عافانا الله! إن كانت كلمة الشرع في أصحابها أن يُعْذَروا كما يُعْذَر النائم والمجنون والـمُغْمَى عليه، رُفِعَ عنهم التكليفُ، فما يَطلُبُ تلك الأحوالَ ولا يغترُّ بها إلا ناقص العلم ساقِطُ الإرادة عن معالي المقامات وأشرافها

(1) الزمر، 23.

(2) الفتاوي، ج 11، ص:12.

التي يتصدرها الصحابة الشاربون من معين التربية النبوية، المصطبغون بصبغة الله ورسوله، صِبْغَةِ الكمال.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «هذه الأحوال التي يقترن بها الغَشْيُ أو الموت أو الجنون أو السكر أو الفناء حتى لا يشعُرَ بنفسه ونحو ذلك، إذا كانت أسبابُها مشروعة وصاحبُها صادقا عاجزا عن دفعها كان محموداً على ما فعله من الخير وما ناله من إيمان، معذورا فيما عجز عنه وأصابه بِغَيْر اختياره. وهم أكمل مِمَّن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانهم وقسوة قلوبهم ونحو ذلك من الأسباب التي تتضمن ترك ما يحبه الله، أو فعل ما يكرهه الله».

قال: «ولكن من لم يَزُلْ عقله مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم أو مثلُه أو أكملُ منه فهو أفضل منهم.

«وهذه حال الصحابة رضي الله عنهم. وهو حال نبينا ﷺ. فإنه أُسْرِيَ به إلى السماء (قلت: بل عرج به)، وأراه الله ما أراه، وأصبح كبائتٍ لم يتغيَّر عليه حاله. فحاله أفضل من حال موسى ﷺ الذي خرَّ صَعِقًا لما تجَلَّى ربه للجبل. وحال موسى حالٌ جَلِيلَةٌ عليَّةٌ فاضِلةٌ. لكن حال محمد ﷺ أكمل وأعلى وأفضل».[1]

قلت: الأحوال الربانية، على تنوعها، تبلغ أَوْجَ القوة في الغَشْي والصَّعْق والموت. وإنه لمرتبة عالية أن يفقد العبد حسه وعقله وحياته من شدة خشيته لله. إذا قيس حال هذا العبد المصعوقِ في الله، المجنون فيه، الواله، الميت من سماع اسم الله، بغيره من العامة فهو قمة لا تُسامَى، خاصة إذا تَوَلَّه المجذوب وخُطِفَ عَقْلُهُ أو قُبِضَ وهو على درجة عالية من مقامات الإحسان، بلغها بمجاهدته ومنحة ربه قبل وارده النهائي.

ومن الأحوال ما هو نفسانيٌّ شيطانيٌّ ينزل بصاحبه دركاتٍ عن مرتبة عوام المسلمين. هذه الأحوال المتَلَبِّسة الظاهرة بمظاهر الكرامة وخرق العادة كانت ولا تزال فتنة للناس، كما هي لهم فتنةُ العِرافةُ والتَّنجيمُ والسحر.

---

(1) الفتاوي، ج 11، ص:12.

قال ابن تيمية رحمه الله يفضح طائفة من أصحاب الأحوال التلبيسية: «وأما كشف الرؤوس وتفتيل الشعَرِ وحملُ الحيَّات فليس هذا من شعار أحد من الصالحين، لا من الصحابة ولا من التابعين، ولا من شيوخ المسلمين. لا المتقدمين ولا المتأخرين، ولا الشيخ أحمد الرفاعيّ ولا غيره. وإنما ابتُدِعَ هذا بعد موت الشيخ أحمد الرفاعي بزمن طويل. ابتدعه طائفة انتسبت إليه».[1]

قلت: ليس المحرِّفون لطريق الرفاعي وحدهم المبتدعين لأكل الحيات وشرب الماء الساخن والمشي على النار ونحو ذلك. بل انتسب للمشايخ طوائف لا حصر لها، مكنَّهم حالهم النفسانيُّ أو الشيطانيُّ من قهر الحيات وإبطال مفعول النار ونحو ذلك، فخرجوا عن حقائق الدين، وخالفوا طريق المسلمين، وفارقوا طريق عباد الله الصالحين كما يعبر شيخ الإسلام رحمه الله.

على أن الأحوال الربانية قد تغلب عظماء الرجال أثناء سلوكهم، ويبقى منها لمحات حتى بعد الكمال، كما كان يقع للإمام عبد القادر قدس الله سره.

حكى رضي الله عنه عن نفسه قال: «كنت أشتغل بالعلم، فيطرقني الحال، فأخرج إلى الصحاري ليلا أو نهارا، وأصْرُخُ، وأهيم على وجهي. فصرخت ليلة فسمعني العَيَّارون (السارقون) ففزعوا. فجاؤوا فعرفوني. فقالوا: عبد القادر المجنون أفزَعْتَنَا! وكان ربما أغشي علي، فَيَلُفُّونني ويحسبون أني مت من الحال التي تطرقني».[2]

وقال رضي الله عنه يتحدث عن مقاماته في القطبية: «ذهبت عنهم (عن المريدين الصادقين) العقولُ الشرعيَّة، ووُهِبَ لهم عقلُ العقول. حتى إذا ذهبت عنهم أيام التَّبَنُّج (أي الغيبة في الأحوال) رُدُّوا إلى طعام بعد الجوع، وشراب بعد الظمإ، ونوم بعد السَّهر، ثم يُرَدُّ إلى شُغلٍ شاغل، لأنه يَطَّلعُ على خزائن الأسرار. ثم يَطَّلع ذلك العبدُ على ما يريد أن يكونَ من أهل البلدة والإقليم.

(1) الفتاوي، ج 11، ص:494.

(2) شذرات الذهب، ج 4، ص:202.

«وإذا كان هو القطب اطَّلَعَ على أعمال أهل الدنيا وأقسامهم (أي أرزاقهم)، وما تؤول إليه أمورُهم. ويطَّلِعُ على خزائن الأسرار. ولا يخفَى عليه شيء في الدنيا من خير أو شر. لأنه مُفْرَدُ الـمَلِكِ، وبِطانَتُه، ونائِبُ أنبيائِهِ ورُسله، وأمين المملكة.

«فهذا هو عين القطب في زمانه.

«القلب مورد الملائكة (...). إذا أراد الله عز وجل انقطاع عبد إليه، أولُ ما يوحشه من بني آدم، ثم يؤنسه بالسباع والوحش والجن. حتى إذا ذهبت الوحشة الآدمية بالتأنُّسِ بالجن والسباع، آنسه بالملائكة على اختلاف صورها. يسمع كلامهم في البراري والقفار والبحار (...). حتى إذا أَنِسَ إلى كلامهم واشتاق إلى رؤية صُوَرِهم رُفِعَ الحجابُ بينه وبينهم. ليس في خلق الله ألذُّ حديثا من الملائكة. أحسن الخليقة صورا وألذهم كلاما».[1]

وقال سابح في بحر نعم المولى جل وعلا، مستزيد من فضله، عارجٌ في مقامات الوهْبِ:

عسى نفحة من حضرة القدس تَسْنَح	وبارقة من جانب اللطف تَلْمَحُ
عسى اللهُ يُدْنِينِي إلى ساحة الرضَى	فأقرع أبواب العلوم فَتُفْتَحُ
عسى نفحة من رحمة الله أنَّها	تبلغني أقصى المنى حين تَنْفَح
وما زال فضل الله يغمر ساحتي	ويَبْهَرُني من حيث ما أتَلَمَّحُ
ولكنني من فضله أستزيدُه	وإن كنت في بحر من الجود أسبح
وليس سبيل الحق عنك بنازِح	ولكنه يدنو وقلبك يَنزَح
سبيل الهدى أجلى وأقومُ منهجا	ومطلع أنوار السعادة أوْضَح
ومن كان في روض المعارف سارحا	فما راقه من بعد ذلك مَسْرَح
إلى الملإ الأعلى سَمَوْتُ بِهِمَّتي	كذلك شأن الشكل للشكل يجنح

(1) الفتح الرباني، ص:353.

وإنـي لأرقـى دائمـا في معـارج　　من العُلْو فيها للبصائر مَسْبح
يبوح بسرِّ الحق صائب منطِقِي　　وكلُّ إناء بالذي فيه يَرْشَحُ

وقلت:

سَنَحتْ بَارقَـةٌ مِن يثـرب　　وتَملَّى القلبُ من نـورِ النَّبِي
سَكَن الأحشاءَ حُبٌّ غامِرٌ　　ودَنَونَا مِن مَقـام الطَّيِّبِ
فصلاةُ اللّه تَتْـرى سَرْمداً　　وسلامٌ هو خيرُ القُـرَبِ

الفنـاء والبقـاء

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾. اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى.

يترقى المريد الصادق في معارج المقامات بِسُلَّم الأحوال، درجاتُه مشدودةٌ إلى دِعَامَتَيْ الهداية، والصعود فيه بباعث الاستقامة. يترقَّى من حالِ التوبة فمقامِها، إلى حال الوَرَع فمقامه، إلى مقامِ الزهدِ، إلى مقام الفقر والافتقار إلى المولى عز وجل، إلى الصبر، إلى التوكل، إلى الرضى، إلى المراقبة، إلى القرب، إلى المحبة، إلى الخوف والرَّجَاء، إلى الشوق، إلى الأنس، إلى الطمأنينةِ، إلى المشاهدة، إلى الفناء والبقاء واليقين.

كان كلام المشايخ الصوفية في الفناء والبقاء والجمع والفرق قبل الغزالي رحمه الله إنما هو إشارات بلغة مرموزَةٍ أو عبارات تصدر عند الغلبة في الحال. قال الجنيد رحمه الله: «قربُهُ بالوجد جَمْعٌ، وغيْبَتُهُ في البشرية تَفْرِقَةٌ». وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾[1]. «أخلاهم في أفعَالِهم من أفعالِهم، وهو أول حالِ الفناءِ».

وتكلموا عن الحقيقة بكلام مجمل مبهم كقول الجنيد رحمه الله وقد سئل عن الحقيقة: سمعت سريا السقطيّ (وهو شيخه) يقول في وصف أهل الحقائق: «أكلهم أكل المرضى ونومهم نوم الغرقى». وقال: «اذكُرْه ثم ادع هذا وهذا!». وقال أبو تراب النخْشبي رحمه الله: «الحقائق ثلاث: حقيقة مع العلم، وحقيقة معها العلم، وحقيقة تشطَحُ عن العلم».

(1) الرحمن، 24.

وجاء الغزَّالي فحبس الكلام في الفناء والبقاء عند قوله: «المشاهدة تحصل بانشراح الصدر وانفساحه وإشراق نور الحق فيه (...). وأسرارُ هذا العلم لا يجوز أن تُسَطَّرَ في كتاب، فقد قال العارفون. إفشاءُ سِرِّ الربوبية كفرٌ».[1]

وأنا مع الغزالي في أن كتب ما يسميه الصوفية «حقائق» فتنة قد تؤدي الناظر فيها إلى الكفر، ومع السيوطي الذي لا يأذن للعامة في قراءتها، ثم لا يأذن.

لكن لما كان الرَّوغان عن هذه المسألة في كتاب مثل هذا من أهدافه الأساسية الصلحُ بين طوائف المسلمين قد يكون إخلالا وريبة فأنا ذاكرٌ في هذه الفقرة والتي تليها طرفا من النزاع والالتياع، وأستغفر الله العظيم من الخلل والزَّلَلِ والخَطَلِ، فالنقطة خطيرٌ الكلام فيها بغير التبليغ النبوي: فإذا أحببته كنت سمعه وبصره.

قال الإمام السهروردي: «الفناء المطلق هو ما يستولي من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبد، فيغلب كون الحق سبحانه وتعالى على كون العبد».[2]

وفي القرنين السادس والسابع ظهر من الصوفية من سماهم ابن تيمية «صوفية الحقائق» قعَّدوا الكلام في أمور الفناء والبقاء والجمع والفرق والتوحيد والوحدة كما يُقَعَّدُ النَّحْوُ والصرف. وجاء من بعدهم ابن تيمية بأجروميته وتقسيمه، وبلغ «النحو» التيمي كمال بسطه في كتاب ابن القيم «مدارج السالكين» الذي طبق فيه مؤلفه قواعد أستاذه على متن شيخ الإسلام الهروي، وكان من المشايخ السابقين منذ القرن الخامس، للكلام في «الحقائق»، وعلى متن فوائد الغزالي وأبي طالب المكي من قبله.

يقسم ابن تيمية الفناء إلى ثلاثة أقسام: «الفناءُ عن عبادة السوى، وهو حال النبيئين وأتباعهم. وهو أن يفنى بعبادة الله عز وجل عن عبادة ما سواه».

والقسم الثاني: الفناء عن شهود السوى. قال: «فهذا هو الذي يعرض لكثير من السالكين، كما يُحكى عن أبي يزيد وأمثاله، وهو مقام الاصطلام. وهو أن يغيب

(1) الإحياء، ج 4، ص:212-213.

(2) عوارف المعارف، ج 4، ص:383.

بموجُودِه عن وجوده، وبمعبوده عن عبادته، وبمشهوده عن شهادته، وبمذكوره عن ذكره. فيفنَى مَنْ لم يكُنْ، ويبقَى من لم يزل».[1]

لم يزد شيخ الإسلام، وهو يكتب قبل فتحه في السجن على أن ردَّدَ عبارات الغموض التي تركها مَنْ قَبْله. وحمل تارة على هذا «الفناء الشهودي»، وزكَّاه تارة، فعل المضطرب بين حال النبيئين الثابت وحال الأولياء أهل الذوق والوجد والحال والسُّكر المتحول. قال رحمه الله: «وهذا (الفناء الشهودي) فيه فضيلة من جهة إقبال القلب على الله. وفيه نقص من جهة عدم شهوده للأمر على ما هو عليه».[2]

أما القسم الثالث عنده، وهو الفناء الوجودي، وهو قول أهل وحدة الوجود، فقد تجنَّد لدحضه وتكفير أصحابه، واعتبر ذلك جهاد حياته. ولنا إن شاء الله رجعة للموضوع في الفقرة التالية.

وبعد، فإن السالك في مراحل وصوله إلى الله عز وجل يغشى قلبه نورُ الخالق عز وجل، وتنبسط عليه ظلالُ الأسماء الإلهية والصفات، فينقهر وجوده أمام وجود الرب عز وجل، وتخبو الأنوار المخلوقة أمام سطوة الله نور السماوات والأرض، فإذا العبد غائبٌ «بموجوده عن وجوده إلخ».

يُعطي المولى عز وجل لهذا العبد، بعد أن يذيقه فناءه ونسبتَه العدميَّة إلى وجود الحق جل وعلا، وجودا جديدا. يعطيه وَصْلاً بروحانيته التي كان محجوبا عنها. وهذا هو البقاء بعد الفناء، وهو الكمال. والحديث في الموضوع، وهو وجدانيٌّ صرف، بلُغة اللسان والحِسِّ يؤول إلى جدل لا نهاية له. وأشبه شيء بكلام أهل الحلول والاتِّحاد الزنادقة كلام من يردُّ عليهم بلغتهم. فإنه وإن صاغ نحواً خَاصّـًا به لا يجد محيدا عن استعمال أصول مشتركة، بحيث يفقد الحليم صوابه في محاولة فرز الحق من الباطل والضلالة من الهدى. اسمع مثلا هذا الكلام لابن القيم.

(1) الفتاوي، ج 2، ص:313.

(2) المصدر السابق، ص:370.

قال رحمه الله: «إنَّ الدهر يستغرق رسمه في دوام الرب جل جلاله. وذلك الدوام هو صفة الرب. فهناك يَضْمَحِلُّ الدهر والزمان والوقت، ولا يبقى له نسبةٌ إلى دوام الرب جل جلاله البتَّة. فاضمحلَّ الزمان والدهر والوقت في الدوام الالهي كما تضمحل الأنوار المخلوقة في نوره، وكما يضمحِلّ علم الخلق في علمه، وقُدْرتهم في قدرته، وجمالهم في جماله، وكلامهم في كلامه، بحيث لا يبقى للمخلوق نسبة ما إلى صفات الرب جل جلاله (...) ولا ريب أن وجود الحق سبحانه ودوامه يستغرق وجود كل ما سواه ووقته وزمانه. بحيث يصير كأنه لا وجود له».[1]

من جاء ينطق بغير ما نطق به الشرع فيقول: «ما في الوجود إلا الله». «ويفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل» فإنما ينطق خطأً. وما بين من يفسر هذه الكلمات الشاطحة بأنه لا موجود إلا الله وبين من يرُدُّ هذه المقالة إلاَّ كلمةُ «كأنَّ» وهي حرف تشبيه. وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه.

غَرَضنا في هذا الكتاب أن نستعرض سلوك الأولياء رضي الله عنهم، وهو سلوك فيه أحوال وغلبات وفناء وبقاء كما فيه عزلة وانزواء وهروب من الساحة العامة. ثم لِنَسْأَل الله عز وجل للأجيال الموعودة بالخلافة الثانية سلوكا جهاديا على غرار سلوك الصحابة رضي الله عنهم، نالوا ما ناله الأولياء من كمال دون أن يغلبهم حالٌ أو يشطح لهم مقال، أو يغيبوا في فناء، أو يسكروا بِوَجْدٍ. نالوا المقامات العليَّةَ التي مَنَّ الله عز وجل بها على الأولياء من بعدهم، ونالوا من فضله سبحانه وكرمه من زيادات الجهاد ما نتوسل في مثله للإخوان المتأخرين زمانا. أولئك الأولون أصحابه وهؤلاء اللاحقون إخوانه ﷺ كما جاء في الحديث. اللهم شفعه فينا.

نجد تطابقا في النظر إلى الصحابة بين شيخ الإسلام ابن تيمية وبين الشيخ المربي المجدد أحمد السرهندي الذي أبدأ وأعاد في وصف مواجيده في التوحيد والفناء والبقاء وسائر الأسرار التي منع الغزاليُّ رضي الله عنه الخوض فيها. غفر الله لنا ولهم.

---

(1) مدارج السالكين، ج 3، ص: 138.

فشيخ الإسلام يقول: «أكابر الأولياء كأبي بكر وعمر والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يقعوا في هذا الفناء، فضلا عمن هو فوقهم من الأنبياء. وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة (...).

فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا أكمل وأقوى وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم، أو يحصل لهم غَشْيٌ أو ضَعْفٌ أو سكر أو فناء أو وَلَهٌ أو جنون».[1]

ويسمِّي السرهنديُّ رحمه الله طريق الصحابة وسلوكهم «الطريق السلطاني» لسعته واستقامته. ويقول: «إن القرب الذي هو منوطٌ بالفناء والبقاء والسلوك والجذبة هو قرب الولاية الذي تَشَرَّفَ به أولياء الأمة. والقرب الذي تَيَسَّر للأصحاب الكرام في صحبة خير الأنام عليه وعليهم الصلاة والسلام هو قرب النبوة. حصل لهم بِطريق التبعية والوراثة. ولا فناء في هذا القرب ولا جَذْبَةَ. وهذا القرب أفضل من قرب الولاية وأعلى منه بمراتِبَ.

«فإن هذا القرب قربُ الأصل، وذلك القرب قربُ الظِّلال. شتان ما بينهما! ولكن لا يدرِكُ فهم كلِّ أحد مذاق هذه المعرفة. كاد الخواصُّ أن يشاركوا العوامَّ في عدم فهم هذه المعرفة».[2]

قلت: إن ظهور الأحوال في الزهاد والصوفية، وكثرة الكرامات، والتَّحدُّث عن المقامات، أوهم، ولا يزال يوهمُ، الكثيرين أن الأولياء تفوَّقُوا على الأصحاب. وما هذا الوهْمُ إلا تسليةٌ طفُوليَّة عاشها الصادقون المكبوتون. وللرجولةِ حقِّ الرجولة نموذجٌ هو الأشداء على الكفار الرحماء بينهم السابقون المقربون من المهاجرين والأنصار ألحقنا الله بهم وحشرنا معهم تحت لواء الحمد يحمله الحبيب الطبيب ﷺ.

اللهم افتح لنا «الطريق السلطاني» كما فتحته لهم، وأغلق عنا أبواب الجدل والمراء في أسمائك وصفاتك وذاتك وآياتك وأسرارِكَ في العباد، أنت ولي الهدى والرشاد.

(1) الفتاوي، ج 10، ص:220.

(2) مكتوبات الإمام الرباني، ج 1، ص:378.

قال ولي الله الكامل عبد القادر: «آحادُ أفراد من الخلق تُسقَى قلوبهم بَنْجَ الأُنْسِ والمشاهدة والقرب. فلا يحسون بآلام القدَر وبلاياه. فتنقضي أيامُ البلاء ولا يعلمون بها. فيحمدون الله عز وجل ويشكرونه على أن لم يكونوا موجودين حتى لا يعترضوا على ربهم عز وجل».[1]

قلت: من أعظم البلاء أن غيَّبَهُم عن حكم الظَّلَمَة وفساد العامة. نسأله تعالى اليقظة والحضور الضروريين للجهاد.

قال: «الغَيْبَةُ والفناء عند وجود القلب والسر عند الحق عز وجل. فهي حالة المشاهدة والمحادثة. يفنى باطنُه، يفنى وجوده ويُمْحَى بالإضافة (أي بالنسبة) إلى الخلق، ويوجد عند الحق عز وجل. يُمْحَى ويذوب هنالك ذوبانـاً، ثم إذا شاء أنشره».

قلت: البقاء هو الإنشاء الثاني الذي ينشئ الله عز وجل عليه أحبابه من نبي وصحابيٍّ وولي. الولي يشهد ميلاد وجوده الثاني، ومخاضَ الوضع، وبلاء الفصل والوصل والخفض والرفع، بينما يُحْمَلُ الصحابي ومن مَنَّ الله عليه بسلوك مماثل في مِحَفَّةِ العناية حتى تفتح يوما بصيرته فإذا هو يكتشف نفسه في أحسن تقويم. تبارك الله أحسن الخالقين.

قال: «إذا أراد (الله عز وجل) إعادته أعادَه، وجمع متلاشِيَه ومُتَفَرِّقَه كما جمع أجساد الخلق يوم القيامة بعد التقطُّع والتمزُّق. يجمع عظامهم ولحومهم وشعورهم، ثم يأمر إسرافيل بنفخ الأرواح فيها. هذا في حق الخلق. أما هؤلاء (وهم كمل الأولياء) فيعيدهم بلا واسطة. نظرةٌ تفنيهم، ونظرة تعيدهم. شرط المحبة أن لا يكون لك شرط مع محبوبك».

قال محب لله عز وجل على لسان الحضرة وقد طرح جميع الشروط وذل لربه وخضع:

(1) الفتح الرباني، ص:90.

إن كنت تزعُمُ حُبَّنَا وهوانا فَلَتَحْمِلَنَّ مَذَلَّةً وَهَوَانا
فاهجر لنفسك إن أردتَ وصالنا واغضَبْ عليها إن أردت رضانا
واخْلَعْ فؤادَك في طِلابِ وِدادِنا واسمحْ بمَوْتك إن أردت لقانا
فإذا فَنِيتَ عن الوجود حقيقة وعن الفناء فعند ذاك ترانا
نُونُ الهوان من الهَوَى مسروقة فإذا هَويتَ فقد لقيت هوانا

وقال عبد يكابد قرب الحبيب وبعده:

أنفُسٌ حرَّةٌ ونحن عبيد إنَّ رق الهوى لرق شديد
لي حبيب نأى به الهجر عني وأشد الهوى القريب البعيد

وقال فانٍ في ربه شهيد لحبِّه:

قُلْ لمن قال: إنما هو دَاءٌ ما لِعَانِيهِ في العُنَاة فداء
شهِد الغَيْبُ والعِيَانُ جميعا أنَّ أَهْلَ الهوى هُمُ الشُّهَدَاء

وقلت:

أنفُسٌ تَحجُبُ المَطالبَ عنَّا تأسِرُ القلبَ في قُيود البِعادِ
برَّح الوَجْدُ بالمحبِّ فنادى ربِّ فافتحْ لنا وحُلَّ قِيَادي
فأتاهُ الغِياثُ مَزَّقَ وَهماً وتجلَّت مِرْآتُهُ في الفؤادِ

وحدة الوجود والحلول والاتحاد

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾. اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل. اللهم أعني على غمرات الموت وسكرات الموت.

الصنف الثالث من الفناء حسب تقسيم ابن تيمية هو: «الفناء عن وجود السوى. وهو قول الملاحدة أهل الوحدة كصاحب الفصوص (ابن عربي) وأتباعه الذين يقولون: وجود الخالق هو وجود المخلوق. وما ثَمَّ غيرٌ ولا سوى في نفس الأمر. فهؤلاء أعظم كفرا من قول اليهود والنصارى وعُبَّادِ الأصنام».[1]

هنا نجد وجها لوجه عَلَمَيْن من أعلام الملة: ابن تيمية وابن عربي، شغل كل واحد منهما، ولا يزال يشغل، عقول المسلمين، وفتنت كتبهما الأجيال. ولا مناص لنا من النظر في هذا الخلاف، ويكون اللف من حوله بزعم اجتناب الجدل كسياسة النعامة.

الشيخ ابن عربي عند العارفين هو «الشيخ الأكبر» وكفى. وما في كتبه من كلام كفري يعزوه بعضهم إلى السكر فيعذره وبعضهم ينسُبُ تلك الكلمات، بل تلك الفلسفة المبنية، إلى دس الباطنية. وابن تيمية لا يعذِر ولا يقبل كلاما.

لِنَقُلْ أولا إن ما في كتبِ ابن عربي من قول بأن وجود الله هو وجود الخلق لا زائد قَولُ كفر وزندقة وجحد لإخبار الله عز وجل الخالق البارىء المصور. وقد فصل حاجِّى خليفة في موسوعته «كشف الظنون»، وهو الخبير الثقة بالكتب، كيف دس الباطنية قبحهم الله على الشيخ في كتبه. يؤكد لنا دفاعَ حاجى خليفة وجماعةٍ من علماء الأمة ما نقرأه في مثل كتاب «روح القدس في محاسبة النفس» للشيخ الصوفي

(1) الفتاوي، ج 2، ص:370.

الكبير وجزء وصاياه في آخر كتاب «الفتوحات المكية»، الذي كان ابن تيمية باعترافه مُعْجَباً به يوما ما، من كلام مناقض للخوض في السكريات والكفريات، كلامٍ من أعلى الكلام وأجوده وألصقه بالسنة المطهرة وأحرصه عليها.

من هذا الـمُنْطَلَق نمضي شوطا مع شيخ الإسلام في نقده اللاذع وتكفيره الصادع لنكشف لبَّ المسألة، ولنحضُرَ مشهدا من مشاهد معركة أدّى إليها حديثُ العلماء فيما يَحْرُم الحديث فيه.

ما هو لُبُّ الخلاف ؟ يقول ذلك هذا البيت من الشعر في فتوحات ابن عربي:

وطالب غير الله في الأرض كلها كطالب ماء من سراب بقيعة

معناه أن الخلق عدمٌ، وأنه ما في الوجود إلا الله.

فهل يقول ابن تيمية غير هذا وهو في حُمَّى الإرعاد والإزباد؟ قال: «الكائنات ليس لها من نفسها شيء. بل هي عدم محض ونفيٌ صرف. وما بها من وجود فمنه وبه».[1] هكذا! وقال في شرح حديث رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»، قال: «كل ما خلا الله فهو معدومٌ بنفسه، ليس له من نفسه وجودٌ ولا حركة ولا عمل، ولا نفع لغيره منه. إذ ذلك جميعه خلق الله وإبداعه وبَرْؤُه وتصويره. فكل الأشياء إذا تخلى عنها الله فهي باطل، يكفي في عدمها وبطلانها نفس تخلِّيه عنها».[2]

إن النطق في هذه الأمور بغير ما نطق به الكتاب ونطقت به السنة خطأ. ولئن خرج شيخ الإسلام من القول بعدمية العالم «المحضة» بإثبات الخلق والبَرْءِ والتصوير فإنه غفر الله لنا وله كما يغفر سبحانه للمجتهد المخطئ توَرَّط أيما تورط في الرد على القائلين بالحلول والاتحاد لعنهم الله. نفى المقالة بالحلول الـمُطْلَق وأدانها بشدة، لكنه اخترع مقالة غريبة شنيعة سماها «الاتحاد المعَيَّن».

(1) الفتاوي، ج 2، ص:405.

(2) المصدر السابق، ج 2، ص:425.

قال: «وقد يقع بعض من غلب عليه الحال في نوع من الحلول أو الاتحاد. فإن الاتحاد فيه حق وباطل. لكن لما ورد عليه ما غيَّبَ عقله أو أفناه عما سوى محبوبه، لم يكن بذنب منه كان معذورا».[1] ويفصل عفا الله عنا وعنه هذه التُّرُّهات المسماة «اتحادا معينا» فيقول: «فقول القائل:إن الربَّ والعبد شيء واحد ليس بينهما فرق كفر صريح، لا سيما إذا دخل في ذلك كلُّ عبد مخلوق. وأما إذا أراد بذلك عباد الله المؤمنين وأولياءَه المتقين، فهؤلاء يحبهم ويحبونه (...). ولا يقال في مثل هؤلاء: إن العبد والربَّ شيء واحد لكن يقال لأفضل الخلق كما قال الله تعالى: «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله»[2].

هذه أيضا خرج منها، وما كاد، باللجوء إلى النص المنزل المعصوم. ثم يعود ليقرر أن بعض العباد فيهم «نوع» و«شبه» حلول. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. ويقول: «فهذا فيما يشبه الاتحاد أو الحلول في معين، كنَبِيٍّ أو رجل صالح ونحو ذلك (...). فإنه في هذا القسم يقوم في العبد الـمُعَيَّن من آثار الربوبية وأحكام القدرة أكثر مما يقوم بغيره».[3]

ويكرر ابن تيمية رحمه الله في فتاويه المنشورة بهذا الجزء الثاني مرات كثيرة أنه يعترض على الاتحاد والحلول المطلق ليثبت ما سماه في أبجديته الجدلية حلولا واتحادا معينا. معناه: لا تقل: كل الخلق الله، لكن لا بأس إن قلت: بعض العباد فيهم نوع حلول وشبه اتحاد. أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه.

كان ابن تيمية رحمه الله متَّزنا في كلامه عن ابن عربي في رسالته إلى الشيخ الصوفي نصر الـمَنْبِجِي، المتعصب لابن عربي، الذي كان «يحط على ابن تيمية من أجل حطه على ابن عربي» كما يقول الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة».[4] وقد قرأنا في فصل سابق كيف خاطبه بإجلال وقال له: «إن الله تعالى أنعم على الشيخ

(1) الفتاوي، ص:396.

(2) المصدر السابق، ص:374.

(3) المصدر السابق، ج2، ص:407-408.

(4) المصدر السابق، ج 5، ص:165.

وأنعم به نعمة باطنة وظاهرة في الدين والدنيا. وجعل له عند خاصة المسلمين الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فساداً منزلة علية ومودَّةً إلهية، لما منحه الله به من حسن المعرفة والقصد».[1]

كيف يخفضُ الجناحَ لرجل من أشدِّ خصومه في ابن عربي! كيف يدور، كما تدور الكلمات المنسوبة لابن عربي، حول حقيقة: «فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله»، ويفضِّل المعيَّن على حلول أولئك المطلَقِ! أَبْعَدَ الله كل قائل بالحلول والاتحاد ممن لا يقبلون إخبار الله عز وجل عن نفسه وعن فعله بعباده حتى يخوضوا في الكيف والحيث!

كان الحافظ الذهبي رحمه الله تلميذ ابن تيمية الشاكُّ المشكك في حديث البخاري القدسي «من عادى لي وليا» أكثر اتزانا وإنصافا واعتدالا للشيخ ابن عربي رحمه الله حيث كتب: «وما عندي أنَّ محيي الدين (ابن عربي) تعمَّدَ كذباً. ولكن أَثَّرتْ فيه تلك الخَلَواتُ والجوعُ فساداً وخيالا وطرف جنون. وصنَّف التصانيف في تصوف الفلاسفة وأهل الوحدة فقال أشياء منكرةً، عدَّها طائفة من العلماء مروقا وزندقة. وعدها طائفة من العلماء من إشارات العارفين ورموز السالكين. وعدها طائفة من متشابه القول، وأن ظاهرها كفر وضلال، وباطنها حق وعرفان، وأنه صحيح في نفسه، كبير القدر».[2]

قيض الله عز وجل في حكمته البالغة وبلائه للعباد أن تنتشر في عصرنا كتب ابن تيمية انتشارا ما عرفه من قبل مؤلف. ونشأ عن هذا الانتشار إرهابٌ «ديني» ضدَّ من ينطق مُجرَّدَ النطق باسم ابن عربي، فأحرى أن يترحم عليه. والنص الذي أوردتُه للذهبي، وهو تلميذ ابن تيمية اللصيق به، وهو الحافظ الكبير الذي كان ابن حجر يتمنى على الله بلوغ مرتبته، يرُدُّ الأمور إلى حجمها. فابن عربي تغالى في تقديره وتعظيمه طائفة جليلة من العلماء عديلَ ما تغالى ابن تيمية وأتباعه في تجْرِيمه.

(1) الفتاوي، ج 2، ص:452.

(2) في «ميزان الاعتدال»، ج 3، ص:108.

وقد ألف السيوطي كتابا بعنوان: «تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي» دافع فيه عن الشيخ الجليل ونهى عن قراءة الكتب المدسوس فيها عليه. وعظم الشيخ الأكبر علماء في كل العصور ابتداءً من معاصره الحافظ البرزالي الذي تتلمذ له إلى الشيخ محمد عبده السلفي المتناقض في سلفيته وتصوفه وزعمه عفا الله عنه أن الجن نوع من الجراثيم والمكروبات.

سراج الدين المخزومي، سلطان العلماء العز بن عبد السلام، سبط ابن الجوزي، الصلاح الصفدي، قطب الدين الشيرازي، مؤيد الدين الجخندي، نصر المنبجي، الحافظ الحجة محيي الدين النووي، جلال الدين السيوطي، اليافعي اليمني، الشيخ الصوفي الإمام الشعراني، شيخ الإسلام زكرياء الأنصاري الشافعي صاحب المصنفات الشهيرة، وكثيرون. هذه أسماء علماء أجلاء غابت عن الأبصار شهاداتهم لابن عربي وطُوِيَتْ في بطون الكتب، فلا تُرْوَى إلا إدَانةُ ابن تيمية، وانتصب كل من هب ودب قاضيا يُكفِّر بشهادة الخصم ولا يسمع للمتَّهَمِ كلمة. هذا بلاء مبين. وإني أنهى من قرأ كتاباتي عن النظر في كتب ابن عربي وأمثاله إلا أن تكون قدمه راسخة، بمعنى أن يكون في حِجْر شيخ مرب يأذن له ويشرح له ويحرر له الحق من الباطل والأصيلَ من المدسوس.

وفي المتأخرين نجد علمين من أعلام الأمة، عالمين مجاهدين لا نجد لهما مثيلا في مقاومة الكفر وقتاله والصمود في وجهه. الأول الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله تتلمذ لابن عربي وألف كتاب «المواقف» عرض فيه مقالات الشيخ الجليل المدسوس عليه المظلوم، حتى ليعد الأمير عبد القادر من أبرز شراح «الفتوحات» المكية. وهو رحمه الله أنفق على طبع الفتوحات وأشرف. أما الثاني في مفخرة العلماء المجاهدين فمحمد بن عبد الكريم الخطابي رحمه الله الذي قاوم الجيوش الفرنسية والإسبانية منفردة ومجتمعة تلك المقاومة العزيزة الخالدة. ذكر في مذكراته أنه أثناء قيادة الجهاد كان لا يفتر عن قراءة الفتوحات.

وكما كتبت في آخر الفصل الأول من هذا الكتاب هديَّةً إليك هي توبة الشوكاني رحمه الله الذي كان يكفر ابن عربي، فإني أهديك هنا إشادةَ مجد الدين الفيروزبادي

رحمه الله بالشيخ محيي الدين. الفيروزبادي هو مؤلف القاموس، عَلَمٌ من الأعلام. وكلمته لا أريدُها توصية بابن عربي، لكن أريدها صوتا من جانب الإنصاف عسى تتعادل كِفَّتَا الجدل، فنتجاوز أنا وأنت باحترام وسلامة طوية وسعي في الصلح بين المسلمين كل هذا الكدر والدخن الذي تصاعد من أراضي المعارك المذهبية فخنق أنفاسنا وضبَّبَ عيُونَنَا. نتجاوزه صعودا إلى ينبوع الحكمة ومصدر الهداية ودليل الاستقامة: ألا وهو قال الله وقال رسول الله. لا إله إلا الله.

قال الفيروزبادي الذي شرح صحيح البخاري وطرزه بكلام ابن عربي: «اللهم أنطِقْنَا بما فيه رضاك. الذي أقوله في حال المسؤول عنه (ابن عربي الذي استفتوه في شأنه) وأعتقده وأدين الله سبحانه وتعالى به أنه كان شيخ الطريقة حالا وعلما، وإمام الحقيقة حدّاً ورَسْما، ومحيي رسوم المعارف فعلا واسما. إذا تغلغل فكر المرء في طَرَفٍ من بَحرِه غَرِقَتْ فيه خواطِرُه في عُبَاب لا تدركه الدِّلاءُ وسحاب تتقاصَر عنه الأنواءُ. وأما دعواته فإنها تَخْرِق السبع الطِّبَاقَ، وتفترقُ بركاته فتملأ الآفاق. وإني أصفه وهو يقينا فوق ما وصفته، وغالب ظني أنني ما أنصفته:

وما عَلَيَّ إذا ما قلت مُعْتَقَدي ... دعِ الجَهولَ يَظن الجَهْلَ عُدْوانَا

واللهِ! تالله! بالله العظيم ومَنْ ... أقامَهُ حُجَّة لله برهانَا

إن الذي قلت بعض من مناقبه ... ما زدت إلا لَعَلِّي زدتُ نقصانا».[1]

وقال القطب الرباني الإمام عبد القادر رحمه الله: «يا إنسان! اسمع! يا ناس! اسمعوا! يا مكلفين! اسمعوا! يا بُلَّغ! يا عُقَّل! كلام الباري عز وجل وإخباره. هو أصدق القائلين.

«غيروا له من نفوسكم ما يكره حتى يؤتيكم ما تحبون. الطريق واسع (قلت: هذا يقال لمن ضيَّق رحمة الله وكفر المسلمين). إيش بكم يا زَمْنَى! قوموا وتشبثوا! اعملوا ولا تغفُلوا ما دام الحبل بطرفيه في أيديكم. استعينوا به على ما يُصْلِحُكُم. نفوسكم اركبوها وإلا ركبتكم (...).

(1) نقله عنه عماد الدين الحنبلي، الحنبلي المنصف، في «شذرات الذهب»، ج 5، ص: 196.

«اهرُبوا ممن يشغَلُكم عن الله عز وجل كهربكم من السَّبُع. عاملوه فإنه من عامَلَهُ ربِحَ. من أحبَّه أحبه، من أراده أراده. من تقرَّب إليه قرَّبه منه. من تعرَّف إليه عرَّفَه نفسه.

«اسمعوا مني، واقبلوا قولي. فما على وجه الأرض من يتكلم على الناس على حالةٍ غيري. أريد الخلق لهم لا لي. وإن طلبتُ الآخرة طلبتُها لهم. كل كلمة أتكلم بها لا أريد بها إلا الحقَّ عز وجل (...).

«تعالوا إليَّ! أنا مِحَكٌّ! أنا صاحب الكورة ودارُ الضَّرْبِ! يا منافق! إيش تَهْذِي! هَذَيَانُك فارغٌ! كم تقول: أنا! ومن أنت! ويلك ترى غيره وتقول أنا! تأْنَسُ بغيره وتقول أنا! تسمِّي نفسك راضيا وذاك مُعارضَةٌ. تسميها صابرة وبقَّةٌ تُزعِجُكَ وتُكَفِّرُك! لا كلام حتى يصير لَحْمُكَ ميتا لكثرة الآلام والآفات فيه!».[1]

وقال كاتم لسره، ضنين بأمره، وقى الناس من شره:

وأكتم سرَّ السِّرِّ كتْم ضنانة	ولولا قصور الخلق كنت أُصَرِّحُ
وليس جنابُ القُدسِ إلا لأهْلِهِ	وما كلُّ إنسان بواديه يَسْرَحُ
وما يُستفادُ الحقُّ إلا بِذَاتِهِ	وحسبُك أن الحقَّ بالحقِّ يُفْصِحُ
تعطَّش أرباب السلوك وعندهم	لسَمْعِ نداء الحق شوقٌ مُبَرِّحُ
وليس يكون الشوق إلا لغائب	وما الحقُّ إلا حاضرٌ ليس يَبْرَحُ
وهَذِي إشاراتٌ تفيد تَنَبُّهاً	ويكفيك منِّي أنْ أكونَ أُلَوِّحُ
غَنِيتُ بنَيْل الحق عن كل مَكْسَبٍ	فما بعد نَيْلِ الحق للنفس مَطْمَحُ
وَيُكْسِبُني علمي بقدر سكينةٍ	وتَنْزُو بِيَ الأرواح طَوْراً وتَجْمَحُ
قَبَضْتُ عناني عن مخالطة الوَرَى	وقلت: سبيل الصبر أولى وأنْجَحُ
ولكن ضرورات المَعِيشَةِ رُبما	تُغَيِّر في وجه المراد وتقدَحُ
وحسبِيَ مَدْحُ الواحد الفرد إنَّه	لأَكْرَمُ من يُثْنَى عَلَيْه ويُمْدَح

(1) الفتح الرباني، ص:150.

وقلت:

أَضِــنُّ بِخِلِّي أنْ أرَى الوقْتَ فـاتَه   بِخفْق جَناحٍ في الرَّعيـل الـمُحلِّــقِ
أضِــنُّ بهِ أنْ لا يَطــيرَ بهـمَّـــــةٍ   إلى الملإِ الأعلى وقَلبٍ مُشوَّقِ
وأوصيهِ أقدامَ الرَّســولِ يقُصُّهـا   فذلك شرطٌ في السُّلــوكِ الموفَّــقِ

شعب الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾. اللهم من وَلِيَ من أمر أمتي شيئا فشقَّ عليهم فاشقق عليه. ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفَقَ بهم فارفُقْ به.

السمت هو المذهب الحسن في الدين كما قال الراغب الإصفهاني رحمه الله. وقد جمعت في خصلة «السمت الحسن» سبع شعب من شعب الإيمان تشمل الظواهر الحسنة للدين، هي: الطهارة والنظافة، ثم آداب اللباس، ثم السمت الحسن، أقصد الهيئة الحسنة، والبشر، ثم الحياء، ثم آداب المعاشرة، ثم الجمعة والعيدان، ثم عمارة المساجد.

وفي هذا الفصل تحدثتُ عن سمت البواطن وإحسان الدين وجمعه وتتويجه ببلوغ الولاية والترقى في درجاتها. ويطْرَح حديثي مسألة التربية الخاصة لجند الله والعامة لسائر المسلمين. ما لا بد منه هو أن تجمع التربية الدينَ من أطرافه، فيَعْلَم جند الله ثم يعملوا على السلوك الإحساني، ويثار طموح كل منهم لمقامات الإحسان وتُوَجَّه خطاه. ومما لا ريب فيه أن سلوك الصوفية رضي الله عنهم، مع ما يعتريه من أحوال وغلبة وسكر وما يعقب السُّكْرَ أحيانا من نطق غير منضبط بالشرع، سلوكٌ يتنافى مع مقتضيات الجهاد، ذلك الجهاد الذي مثل له الأنبياء وصحابتهم عليهم الصلاة والسلام خير تمثيل، فكان سمتهم خير سمت، وكانوا خير أمة أخرجت للناس.

وما عند أحد غير الله عز وجل واهب المِنَن من قُدْرَةٍ على إعفاءِ أجيال الخلافة الثانية من الأحوال والسكر وسائر الغَلَبَات. فإياه نسأل جلت عظمته في ذلك. إياه نسأل في سلوك على منهاج النبوة وسمت الصحابة. وأن يبلّغنا ذُرَى مقامات الولاية

والصحبة. وقد بشَّر الحبيب المصطفى ﷺ بإخوانه الذين يأتون من بعد أصحابه واشتاق إليهم. فتلك بشرى نعتد بها. لله الحمد.

والذي علينا أن نبلُغَ الجهد لكسبه، مستعينين بمن لا حول ولا قوة إلا به، هو أن نؤسس تربية المجاهدين، وتربية سائر المسلمين، على الصواب لا على الخطإ، وعلى التسامح لا على العناد والشقاق، وعلى طرح الخلافيات والسكريات التي تجاوزها العلماء والأولياء المتشاكسون أنفسهم قبل موتهم، وعلى التسليم لله عز وجل والاعتراف بفقرنا وعجزنا عن معرفته، إذ هذا العجز مع التسليم لما أخبر به الشرع هو قمة العرفان.

كل نُطْق ومحاولة تفسير لسِرِّ الله في عباده بصيغةٍ غير الصِّيَغ المرويَّةِ الصحيحة خطأ. قال الإمام الغزالي رحمه الله: «يترقَّى الحَالُ (بالسالك) من مشاهدة الصُّورِ والأمثال (وهو ما يسمى بالكشف الصوري) إلى درجات يضيقُ عنها نطاقُ النُّطق. فلا يُحَاول مُعَبِّرٌ أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطإ صريح لا يمكنه الاحترازُ عنه. وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يَتَخَيَّلُ منه طائفة الحلولَ، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول. وكل ذلك خطأ».[1]

الإمام أحمد السرهندي رحمه الله سَبَحَ في بحور عرفانية لم يسبقه إليها غيره، وحارب ابن عربي تارة أشد الحرب وصالحه أخرى، ثم رجع في أواخر كتاباته إلى الكفِّ عن الكلام الخطإ. قال: «إن تَحَقُّقَ الإنسان بتلك الأسرار (العرفانية هو) كمال الإيمان. والتعبير عنها بعبارة كيفِيَّة عين الكفر والإلحاد. ينبغي أن يستعمل (السالك هذه الحكمة شعارا له): «من عرف الله كلَّ لِسَانُه» في هذا المقام».[2]

إن كل خصام بين العلماء في الدنيا لا ينال من دينهم، إذ هم صادقون في اجتهادهم. ويرجعون آخر المطاف للصُّلح والتَّسامُحِ. فينبغي أن يتربى المجاهدون والمسلمون على السماحة، وأن تُكَفَّ الرعونات الفجة عن الخوض في الخلافيات. كان خصام الإمام التقي السبكي مع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما

(1) المنقذ من الضلال، ص:54.

(2) مكتوبات الإمام الرباني، ج 3، ص:130.

الله أشد خصام، ومع ذلك لم يمنع خصامهما ابن تيمية من التأدُّب التام مع حضرة الإمام كما جاء في «طبقات الشافعية».

ولم يمنع الخصام الإمام السبكي رحمه الله من الإدلاء بهذه الشهادة العطرة في حق أخيه في العلم والإيمان والتقوى ابن تيمية. قال السبكي في رسالة إلى الحافظ الذهبي: «المملوك (يعني نفسه، وهي عبارة تأَدُّبِيَّة في ذلك العصر المملوكي) يتحقَّقُ قدرَه (قدر ابن تيمية)، وزخارَةَ بَحْرِه، وتوْسِعَتَه في العلوم الشرعيَّة والعقلية، وفَرْطَ ذكائه، واجتهاده، وأنه بلغ من ذلك كلَّ المبلغ الذي يتجاوز الوصف.

وقال رحمه الله: «والمملوك يقول ذلك دائما. وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجلُّ. مع ما جمعه الله له من الزهادة والورَع والديانة ونُصْرةِ الحق والقيام فيه لا لغرض سواه، وجَرْيِهِ على سَنَنِ السلف الصالح، وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان، بل في أزمان».[1]

من الواجب الـمُحَتَّم طرحُ كتب السُّكْر والدَّسِّ، مثل كتب الشيخ ابن عربي رحمه الله، وطرح جدليات ابن تيمية رحمه الله على السواء. إلا ما كان علما صحيحا راسخا على علماء المستقبل أن يعرضوه على الأصول من الكتاب والسنة بفهمهم، لا أن يتخذوا كلام الرجال معيارا يستقيلون عن الفَهْم عند قَدَمَيْه. إن الرجال يترقون من سَنَةٍ إلى سنة، بل من يوم إلى يوم. وربما يكتبون في مرحلة ما رأيا يندمون عليه فيما بعد لما يرون من فهم جديد وفتح جديد، كما قرأنا في رسائل ابن تيمية حين فتح الله له في سجن موته «ما لا يخطر على البال ولا يدور في الخيال».

وكما نقرأ عند السرهندي رحمه الله إذ يقول: «ما ظهر من بعض أولياء الله تعالى من المعارف التوحيديَّة لعلها ظهرت منهم في ابتداء أحوالهم من مقام القلب (وهو مقام السكر). فلا يلحقهم حينئذ نقصٌ من هذه الجهة أصلا. وقد كتب هذا الفقير (يعني نفسه) أيضا رسائل في المعارف التوحيدية. ولما نَشَرَ بعض الأصحاب تلك الرسائل تعسَّر جمعها (لإخفائها ومنع رواجها). فتُرِكتْ على حالها».[2]

(1) شذرات الذهب، ج 6، ص:83.

(2) مكتوبات الإمام الرباني، ج 1، ص:343.

ويقول رحمه الله: «إن التكلم بأمثال هذا الكلام (كلام صدر منه) في الصَّحْوِ الخالص عسير. وكل هذه الدفاتر التي كتبها هذا الفقير في علوم هذه الطائفة العليَّة وأسرارهم كأنه تقرَّرَ في خاطركم الشريف (يخاطب مُراسِلَه) أنه كتبها عن صحْو خالص بلا مَزْج السُّكْر. حاشا وكلاَّ من ذلك! فإنه حرامٌ ومنكرٌ وجزافٌ (...).

قال: «وطريق الإسلامية والشفقة هو أنه إذا صدر عن شخص كلمة ظاهرُها مخالف للعلوم الشرعية ينبغي أن يُنْظَر إلى قائله أنه مَنْ هُو. فإن كان ملحدا وزنديقا ينبغي أن يَرُدَّه وأن لا يشتغل بإصلاحه. وإن كان من المسلمين وكان له إيمان بالله ورسوله ينبغي أن يجتهد في إصْلاَح كلامه، وأن يحمله على مَحْمَل صحيح، وأن يَطْلُبَ حلَّه من قائله».[1]

ويقول رحمه الله: «إن كثيرا من المعارف تصدر بمقتضَى ذلك الوقت ثم (...) في وقت آخر تُتْرَكُ تلك المعرفة، ويترقى إلى مقام فوقاني».[2]

بعض القضايا من ماضي المسلمين تبقى أُمْثُولَةً يَتَلَهَّى بها البَطَّالون من المعلِّقين والمؤلفين كقضية الحلاَّج. أورِدُ هنا كلمة الشيخ الإمام عبد القادر المعروف قوله: لو أدركت الحلاج لأخذت بيده. يقول قدس الله سره: «طار طائر عقل بعض العارفين (يعني الحلاج) من وَكْرِ شجَرِ صورته. وعلا إلى السماء خارقا صفوف الملائكة. فكان بازيـاً مِنْ بزاة الـمَلِكِ، مَخِيطَ العينين بخيطِ «وخلق الإنسان ضعيفا». فلم يجد في السماء ما يحاول من الصيد. فلما لاحت له فريسةُ «رأيت ربي» ازداد تحيُّرُه في قول مطلوبه: «فأينما تولوا فثمّ وجه الله».

«عاد هابطا إلى حضرة خِطَّةِ الأرض، طالبـاً ما هو أعدم من وجود النار في قعور البحار، يَتَلفَّتُ بعين عقله، فما شاهد سوى الآثار. فَكَرَّ، فلم يجد في الدارين محبوبا سوى محبوبه. فطرب وقال بلسان سكره: أنا الحق! ثم ترنَّم بِلَحْنٍ غير معهود، صفَّر في روضة الوجود صفيرا لا يليق. ولَحَنَ بصوته لَحْنـًا عرَّضه لحَتْفِهِ».[3]

---

(1) مكتوبات الإمام الرباني، ج 3، ص:173.

(2) المصدر السابق، ج 3، ص:172.

(3) الفتاوي الحديثية للهيثمي، ص:230.

قلت: ذلك جزاء من ينطق الخطأ. وما لي وما للحلاج واللجاج إن كُنْتُ لا تصْدَحُ في قلبي بلابل الشوق إلى ربي، وإن كنت لا تنهض همتي لطلبه ومعرفته! عذر الإمام عبد القادر الحلاج بالسكر، ولم يعذِرْه ابن تيمية. مع الإمام «الشفقة والإسلامية»، ومع شيخ الإسلام الحق في سد الذَّرائع. ولا ينبغي أن يُسْمَحَ في دولة القرآن بكلمة واحدة لم يجئ بها الشرع.

يُسَمِّي السرهندي رحمه الله السُّكر مرضا، ويهجم على ابن عربي رحمه الله فيكتب: «والعجب من كبراء العُرَفاء أنهم تَسَلَّوْا بالتشبيه عن التنزيه، وبالحادث عن القديم. إذ اكتفوا بالمثال، وعكفوا على التمثال، وظني أن ذلك المرض حدث لهم من قولهم بالحلول والاتحاد».[1]

اللهم اعصمنا من ذلك القول الشنيع، مطلقه ومُعيَّنِه.

اللهم عرفنا بعجزنا عن معرفتك إلا بما تتعرف به إلينا.

قال الشيخ أحمد السرهندي: «العجز عن المعرفة عبارة عن معرفة أنه سبحانه لا يُعْرَف. قال الصديق الأكبر (أبو بكر) رضي الله تعالى عنه: العجز عن دَرْك الإدراك إدراك. فسبحان من لم يجعل للخلق إليه سبيلا إلا بالعَجْز عن معرفته (...).

«فإذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عاجزين في معرفة صفة كبريائه، وقال الملائكة: سبحانك ما عرفناك حق معرفتك، واعترف الصديق رضي الله عنه الذي هو رئيس هذه الأمة (بعد نبيها) التي هي آخر الأمم بالعجز، فمن ذا الذي يدَّعي المعرفة بعد هؤلاء! إلا أن يظن جهلَه الـمُرَكَّب معرفة، ويعتقد غير الحق حقـًا.

«وهذا العجز عن المعرفة هو نهاية نهايات مراتب العروج، ومنتهى غايات مدارج القرب. ومن لم يصل إلى النقطة الأخيرة، ولم يطو مراتب التجليات والظهورات، ولم يجد الوصل والاتصال الذين كان مسرورا بهما مُدَّةً كثيرةً عينَ الانفصال، لا يكون مُشَرَّفـًا بدولة هذا العجز، ولا يتخلَّص من الجهل بالله ومعرفة غير الحق حقّـًا».[2]

(1) مكتوبات الإمام الرباني، ج 3، ص:92.

(2) المصدر السابق، ج 3، ص:172.

اللهم اطو لنا المراحل وعرفنا بك وحُفَّنا في الحَلِّ والتَّرحال بعنايتك ورعايتك وكلاءتك. يا ملك يا وهاب. يا ذا الجلال. يا ذا الجلال. يا ذا الجلال.

قال الإمام عبد القادر رحمه الله: «يا منافق! طهَّر الله عز وجل الأرض منك! ما يكفيك نفاقك حتى تغتاب العلماء والأولياء والصالحين بأكل لحومهم! أنت وإخوانك المنافقون مثلك عن قريب تأكل الديدان ألسنتكم ولحومكم، وتقطعكم وتمزِّقُكم! والأرض تَضُمُّكم فتسحقكم وتُقَلِّبُكم!

«لا فلاح لمن لا يُحَسِّنُ ظَنَّه بالله عز وجل وبعباده الصالحين ويتواضعُ لهم. لم لا تتواضع لهم وهم الرؤساء والأمراء! مَنْ أنت بالإضافة إليهم!

«الحق عز وجل قد سلم الحلَّ والربط إليهم. بهم تمطر السماء وتنبت الأرض. كلُّ الخلق رعيَّتُهم. كل واحد كالجبل لا تزعزعه ولا تحركه رياح الآفات والمصائب. لا يتزعزعون من أمكنة توحيدهم ورضاهم عن مولاهم عز وجل، طالبين لأنفسهم ولغيرهم.

«توبوا إلى الله عز وجل، واعتذروا إليه، واعترفوا بذنوبكم بينكم وبينه، وتضرعوا بين يديه. إيش بين أيديكم! لو عرفتم لكنتم على غير ما أنتم عليه. تأدبوا بين يدي الحق عز وجل كما كان يتأدب من سبقكم.

«أنتم مخانيث ونساءٌ بالإضافة (بالنسبة) إليهم! شجاعتكُم عندما تأمركم به نفوسكم وأهويَتُكم وطباعُكم. الشجاعة في الدين تكون في قضاء حقوق الحق عز وجل. لا تستهينوا بكلمات الحكماء والعلماء! فإن كلامهم دواءٌ، وكلماتهم ثمرة وحي الله عز وجل».[1]

قال مشتاق لمعرفة مولاه عز وجل، يُوَرِّي بالكثيب وحاجر:

حرامٌ على الركب العِرَاقِيِّ مَسْرَاه ... إذا لم تَرِدْ ماء العُذَيْبِ مَطَايَاهُ
وتَلْبثُ فيه اليَعْمُلاَتُ هنيئة ... وتَرْتَع في أشجاره وخُزَامَاه

(1) الفتح الرباني، ص:68.

سألت حُدَاةَ العِيسِ هَلْ سُقِيَ الحِمَى وطـاب لهم ذاك الكثيـب ومغنـاه
يَبُثُّـون مـا ألقـاه شوقـا إليـهمُ جهـارا ولـولا بَيْنُهُـمْ ما جَهَرْنـاه
أحِـنُّ إلـى ذاك الكثيـب وطيبـه وأصبُـو إلى ذاك الكثيـب ومعنـاه
وأشتـاق إن هبَّـت صباحا نسيمـة تُذَكِّـرنا مـن حاجِـرٍ مـا عَهِـدْناه

وقلت:

تـراءى لقلـبي ما أطـار صوابه وجلَّ عنِ التكييفِ والكُنْهِ مَعنـاهُ
خليلي إن لا تعـذروا ذا ودادكم عَليلَ الحَشَا صَبَّ الفُؤادِ مُعنَّاهُ
أصاب المنى، فالصمت خير مطية وذَرْ خَاليـاً يَهـذي، فَـذا ما مَنَعَـاهُ

الفصل العاشر

التؤدة

- الصبر
- الرضى بالقضاء
- الحياء من الله عز وجل
- العفو والرفق
- حسن الظن
- علوم الصمت
- النقد
- تلبيس إبليس
- السماع
- السكر والشطح
- شعب الإيمان

الصبــر

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾. اللهم زدنا ولا تنقصنا. وأكرمنا ولا تهنا. وأعطنا ولا تحرمنا. وآثرنا ولا تؤثر علينا. وأرضِنا وارض عنا.

التُّؤَدَةُ هي التأني والتمهل والرفق. والصبر شعبة من التؤدة وفرع عنها، أو هي مظهر من مظاهره. وفي الصبر والتؤدة معنى التحمل ومطاولة المصاعب والشدائد واستعمال الوقت لحلها وتجاوزها. الصبر قوة، وهو من صفات الرجال أهل الإيمان والإحسان والكمال. قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: **﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل﴾**[1]. وقال له: **﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾**[2]. وقد مدح الله عبده أيوب عليه السلام لصبره فقال جلت عظمته: **﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾**[3]. وأحب سبحانه الصابرين كما يحب المحسنين فقال: **﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾**[4].

الصبر عُدَّة المجاهدين لأنه يقتضي معية الله عز وجل. قال المجاهدون مع نبيهم الذين يجزمون بلقاء الله: **﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾**[5]. وقد ضرب رسول الله ﷺ المثل لأصحابه بصبر من كان قبلهم في موقف كان الثباتُ والتحمل هما كلمة الساعة فقال: «قد كان من قبلكم يوخَذُ الرجل، فيُحفَر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يُؤتَى بمنشار فيوضع على رأسه، فيُجْعَل نصفين.

(1) الأحقاف، 34.

(2) النحل، 127.

(3) ص، 44.

(4) آل عمران، 146.

(5) البقرة، 249.

ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه. ما يصده ذلك عن دينه. والله ليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صَنْعَاء إلى حَضْرمَوْتَ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه. ولكنكم تستعجلون». أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي رحمهم الله عن خباب بن الأرث رضي الله عنه.

الصبرُ على البلاء، وعلى البلاء مبنى الحياة والموت والمسيرة في الدنيا، والثبات في مواطن الخطر، وتحملُ الأذى في سبيل الله عنوان الرشد والعزيمة، وشرط الفلاح والنجاح والنصر. قال عز وجل يوصي رسوله وحبيبه ﷺ: ﴿**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ**﴾[1]. لا تتغير سنة الله تعالى في كون رجال الدعوة وأمناء الرسالة يواجهون بالتكذيب والأذى، كما لا تتغير في كون النصر يَعْقُبُ ذلك بشرط الصبر.

لهذا كان رسول الله ﷺ يسأل ربه عز وجل الثبات فيقول: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد». رواه الترمذي والنسائي عن شداد بن أوس رضي الله عنه. وأكثر الدعاة استحقاقا للنصر أرفعهم قدرا. من رفعة قدرهم نموذجيتهم في تحمل البلاء ليتأسى بهم غيرهم فلا يظنوا أن هذه الدنيا دار نُزهة وفرجة. قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل». رواه الترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجة رحمهما الله.

ومن رفعة قدر الدعاة الصبر مع الناس، والصبر على مخالطتهم. قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾[2]. وقال رسول الله ﷺ: «المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم». رواه الترمذي عن ابن عمر بإسناد حسن.

تختلف الأحوال والأزمان والفرص، أحسن ذلك ما شابه السلوك الجهادي القرآني السّنّي الذي يكون فيه الدعاة صابرين مع الذين يدعون ربهم كما أُمِرَ رسولهم ﷺ،

---

(1) الأنعام، 34.

(2) الكهف، 28.

ويكون فيه المسلمون صابرين على مخالطة بعضهم. لا فائدة من تكرار الأسباب التي دفعت السادة الصوفية إلى الخروج من المجتمع.

الفائدة في مسيرة الدعوة وهي تقود جمهور الأمة وعامتها أن نتعلم أن سياسة الناس تقتضي منا تؤدة، وتقتضي أن نحمل عامة الشعب على الصبر معنا، وعلى تحمل أعباء البناء، وعلى الاستمرار في بذل الجهد، والسماح في بعض الحقوق، وعدم استعجال النتائج.

في يوم ما وقطْرٍ ما يمسك جند الله زمام الحكم. الشعب ينتظر حل مشاكله المعيشية حالا. خلق الإنسان من عجل، وبُنِيَت السياسة المألوفة في الديموقراطيات والاستبداديات على الوعود الانتخابية المنفوخة الكاذبة بحجم أو بآخر. ولئن كان التبشير بالرخاء تحت راية الإسلام سنة مصطفوية كما قال رسول الله ﷺ لقريش: «جئتكم بكلمة تدين لكم بها العرب، وتدفع لكم بها العجم الجزية»، فإن تعبئة الشعب على البذل والعطاء والاستمرار في المجهود دينٌ من صميم الدين. قال الله تعالى يخاطبنا معشر الأمة المحمدية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1].

إن من يُحتمل أن يصبروا على البأساء والضراء بباعث الصبر الإيماني الإحساني قلةٌ قليلة. ولا يلبث حماس عامة الناس بعد الاستجابة لشعار «ثوري» جديد أن يتلاشى. والصبر هو بالضبط الفضيلة التي تأتي من بعد الحماس الموقوت ومن ورائه. فالدعاة لا مناص أن يعتمدوا، وهم يمسكون الزمام، على قدر كبير من الموازنة بين وازعي القرآن والسلطان، بين صبر الخاصة من المؤمنين والمحسنين وتصبير العامة الناطقين بالمطالبات النقابية، إلى أن يكتشفوا أن التغيير الإسلامي بذل وعطاء قبل أن يكون رحمة يبشر بها فقط الصابرون على شيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات. ولَن يَعْدَم أي تغيير إسلامي الأسباب الكونية من عوامل التخويف الجاهلي الخارجي والداخلي، ومن عوامل التجويع لتخلفنا

(1) البقرة، 154-156.

الزراعي واحتكار القوى الاستكبارية، ومن عوامل الخنق الاقتصادي والتمويل المشروط والمساومة على استقلال البلاد.

مراحل دقيقة خطيرة يكون الله عز وجل معنا فيها وفي غيرها، وعداً منه غير مكذوب، إن صبرنا كما صبر أولو العزم من الرسل.

والتربية الإحسانية على الصبر لها رجالها، نستفيد من فقههم الدقيق الرقيق ليكون كل قائم بالقسط من المجاهدين صابرا في موقعه مع عامة الناس، مثبِّتا لهم، راجعين إليه هم، كما هو راجع معتمد على من يقبل شكواهم وشكواه، وينصر بلواهم وبلواه، ويسمع نجواهم ونجواه. هو الله، لا إله إلا هو الوكيل الجليل.

قال فقيه الإحسان الإمام الرفاعي رحمه الله: «أي بُنَيَّ! اعلم أن الله تعالى خلق الدنيا، وجعلها دار مِحنة، ومحل الأخطار والأشرار. ثم خلط فيها الأبرار والفجار، وأهل المحبة بأهل البطالة. ثم يقلبهم من حال النعمة إلى حال الشدة، ومن حال الشدة إلى حال النعمة. لإظهار من يعبده على بساط المحنة ممن يعبده على بساط النعمة، ومن يعبده على رُؤْية الـمُعْطِي ممن يعبده على رؤية العطاء (...)

«قال بعض العلماء. من يعبده على بساط النعمة أولى ممن يعبده على بساط المحنة. لأن منزلة الشكر أفضل من منزلة الصبر. وذلك لأن الشكر على النعمة طاعة على بساط الفَراغَة، والصبر على الشدة طاعة على بساط الشغل. وليس من عبد الله فارغا كمن عبده مشغولا.

«وقال بعضهم: من يعبده على بساط المحنة أفضل، لأن الأنبياء أفضل مرتبة ممن دونهم. فامتحن الله عامتهم (كل الأنبياء) بأنواع المحن والبلاء. قال ﷺ: «إن أشد الناس بلاء الأنبياء». وإن الكفرة هم أهون الخلق على الله، وعيش عامتهم بأنواع النعم.

«وليس من طلبه سبحانه بنفي الحجاب كمن طلبه من وراء الحجاب. فالشاكر يطلبه من وراء الحجاب، والصابر يطلبه دون الحجاب. الشاكر يعبده على حَظ

نفسه، والصابر يعبده على حب ربه. الشاكر مفتخر بمِلْكِهِ، والصابر مفتخر بمليكه. الشاكر حبس نفسه مع النعمة، والصابر حبس نفسه مع المنعم.

«الشاكر يقول: ما دامت النعمة معي لا أبالي إن أصابني ما أصابني. والصابر يقول: ما دام المنعم معي لا أبالي إن أصابني ما أصابني. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّـآ إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾[1]. وإن الله تعالى أوجب للشاكر الزيادة. ونفى عن أجر الصابر النهاية حيث قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2]. وقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[3]. (...)

أيْ بُنَيَّ! الخلق صنفان. ولي وعدو. والحال حالان: شدة ونعمة. فربما تصل الشدة إلى الولي كرامة له، كما وصلت إلى الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وربما تصل اللذة إلى العدو خسرانا له، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾[4] (...).

«ثم الابتلاء على نوعين: إكرامٌ وإهانة. فكل بلاء يقربك من المولى فهو في الاسم بلوى وفي الحقيقة زُلْفَى. وكل بلاء يبعدك عن المولى فهو في الحقيقة بلوى. ألا ترى أن الله تعالى ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكان عاقبة ابتلائه الخُلَّةَ والقُرْبَةَ، وابتلى إبليس وكان عاقبة ابتلائه اللعنة والفضيحة».[5]

وقال فقيه القلوب الإمام عبد القادر رحمه الله: «الصبر على ثلاثة أضرب: أحدها صبر لله عز وجل وهو على أداء أمره والانتهاء عن نهيه. وصبر مع الله عز وجل وهو الصبر تحت جريان قضائه وأفعاله فيك من سائر الشدائد والبلايا. وصبر على الله عز وجل وهو صبر على ما وعد من الرزق والفرج والكفاية والنصر والثواب في دار الآخرة».[6]

---

(1) البقرة، 155.

(2) الزمر، 11.

(3) آل عمران، 146.

(4) إبراهيم، 32.

(5) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص:233 وما بعدها.

(6) الغنية، ج 2، ص:195.

وقال: «يا غلام! أين عبودية الحق عز وجل! هات حقيقة العبودية وخذ الكفاية في جميع أمورك. أنت عبد آبق من مولاك! ارجع إليه، وذِلَّ له، وتواضع لأمره بالامتثال، ولنهيه بالانتهاء، ولقضائه بالصبر والموافقة! إذا تمَّ لك هذا تمت عبوديَّتُك لسيدك، وجاءتك منه الكفاية. قال الله عز وجل: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[1].

«إذا صحت عبوديتك له أحبك، وقوّى حبه في قلبك، وآنسك به، وقرَّبك منه من غير تعب ولا طلب لك. لا تطلب غيره، وكن راضيا عنه في جميع أحوالك. فلو ضيق عليك الأرض برُحْبِها، وسد عليك الأبواب بسَعَتِها لم تسخط عليه، ولم تقرُبْ باب غيره، ولم تأكل من طعام غيره. تلتحق بموسى عليه السلام حيث قال الله عز وجل في حقه: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[2].

«ربنا عز وجل لكل شيء شاهد، في كل شيء حاضر، على كل شيء رقيب، ومن كل شيء قريب. لا غُنْيَةَ لكم عنه. ما أَمَرَّ الإنكارَ بعد المعرفة! ويحك! تعرف الله عز وجل ثم تعود تنكره! لا ترجع عنه فإنك تُحْرَمُ الخير كله! اصبر معه ولا تصبر عنه. أما علمت أن من صبر قدر. وإيش هذا العقل! إيش هذه العجلة! قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

«وفي الصبر آيات كثيرة في القرآن تدل على ما فيه من الخير والنعم، وحسن الجزاء والعطاء والراحة دنيا وأخرى. عليكم به وقد رأيتم الخير عاجلا وآجلا».[4]

وقال: «من خَدَمَ خُدِمَ. إذا جاءه القدر وافقه. إن حمله إلى البر أو البحر، إلى السهل أو إلى الجبل، إن أطعمه حُلْوا أَوْ مُرا.

«وافقهُ في العز والذل، والغنى والفقر، والعافية والسَّقَم. مشى مع القدر حتى إذا علم القَدَرُ أنه تعب نزل وأركبه مكانه، وصارَ رِكاباً له، وخدَمه، وتواضع له لقربه من

(1) الزمر، 35.

(2) القصص، 11.

(3) آل عمران، الآية الأخيرة.

(4) الفتح الرباني، ص:33.

الله عز وجل وكرامته له. وكل ذلك لمخالفته لنفسه وهواه وطبعه وعاداته وشيطانه وأقران السوء.

«اللهم ارزقنا موافقة قدرك في جميع الأحوال. ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».[1]

وقال: «لا تعارض الحق عز وجل في نفسك، ولا في أهلك، ولا في مالك وأهل زمانك. ما تستحِي أن تأمره أن يغير ويبدِّل؟ وأنت أحكم منه وأعلم منه وأرحم منه؟ أنت والخلق كلُّهم عباده. هو مدبِّرك ومدبرهم. إن أردت صحبته في الدنيا والآخرة عليك بالسكون والسكوت والخَرَسِ.

«أولياء الله عز وجل متأدبون بين يديه. لا يتحركون حركة، ولا يخطون خطوة إلا بإذن صريح منه لقلوبهم (...). هم قيام مع الحق عز وجل. قيام مع مقَلِّب القلوب والأبصار. لا قرار لهم مع ربهم عز وجل حتى يَلْقَوه بقلوبهم في الدنيا وبأجسادهم في الآخرة».[2]

قال مبتلى صابر، مفَوِّض إلى ربه عز وجل الحاضر الناظر:

تعـودتُ مَـسَّ الضُّـر حتـى ألفتُـه ... وأسلمـني طول البـلاء إلى الصبـر
ووسَّـع قلبي للأذَى الأنـسُ بـالأذَى ... وقـد كنـت أحيـانا يضيق بـه صدري

وقال تائب من فتنة لم يعبر بلاءها:

أقـام رجـالا نظَّمُـوا حبـه سِلْكـًا ... وأقْعَـد قـوما في خطـاياهُمُ هَلْكَى
ألا ليت شعـري هـل لنا من وسيلـة ... تقـرِّب منـا مـا نـؤملـه منكـا
فـإن أنـت لـم تُبْـرِئْ شكـايا عقـولنا ... وتَجْلُ عمـاياها، إذن فلمـن يُشكَى!
نعـوذ بـك اللهـم مـن كـل فتـنـة ... تُطَـوِّقُ من حلَّت به عيشـة ضَنْكـا

(1) الفتح الرباني، ص:93.
(2) المصدر السابق، ص:27.

فمـا ذكرتـك النفـس إلا وشـفـهـا بُكائِي مِنْ نفسي،على مثلها يُبْكى!
رجعـنا إليك الآن فاقـبل رجوعـنا وقلِّبْ قلـوبا طـال إعـراضها عـنكـا
وقد آثـرت نفسي رضـاك وقـطَّرت عليك جفـوني مـن جـواهرها سِـلْكًا

وقلت:

عليك جُفـوني قَطَّـرتْ مِن دُموعها فلا صَبرَلي مَولايَ لا صبرَلي عَنكَـا
إلهي يَضيقُ الصَّدْر من خُلطة الورى إذا لمْ تَلُـحْ في أفقِنـا نَظرةٌ مِنكَا
أَنَخْنـا على الأبـواب والصَّــبرُنافد نُعَدُّ من البأساءِ في جُملةِ الهَلْكَى

الرضى بالقضاء

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾. اللهم ارزقني حبك وحب من ينفعني حبه عندك. اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب. اللهم وما زوَيْت عني مما أحب فاجعله فراغا لي فيما تحب. اللهم إني أسألك الصحة والعفة والأمانة وحسن الخلق والرضى بالقضاء.

الاعتقاد القلبي بالقدر خيره وشره ركن من أركان الإيمان، لا يكون أحد مؤمنا إلا به. والرضى بالقضاء سعادة، والتسخط عليه شقاء، والانتظار البليد أمام ما يكره شرعا من الأقدار عجز، والجمع بين الإيمان بالقدر وبين مقاومة القدر بالقدر، على حد تعبير الشيخ عبد القادر، إحسان لا يقدر على بلوغه إلا الأقوياء من المؤمنين.

قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد كتِب مقعدُه من النار ومقعده من الجنة». قالوا: يا رسول الله: أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال: «اعملوا فكل مُيَسَّر لما خُلِق له. أما من كان من أهل السعادة فسيصير لعمل أهل السعادة. وأما من كان من أهل الشقاء فسيصير لعمل أهل الشقاء». ثم قرأ: **﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾** بقية الآية: **﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾**[1]. رواه الشيخان وأبو داود والترمذي عن الإمام علي كرم الله وجهه.

وقال ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره. وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليُخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه». رواه الترمذي رحمه الله عن جابر رضي الله عنه بإسناد حسن.

(1) الليل، 5-7.

وقال ﷺ: «من سعادة ابن آدم رضاه بما قَضَى الله. ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قَضَى الله». أخرجه الترمذي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وروى مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك. واستعن بالله. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا. ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل. فإن «لو» تفتح عمل الشيطان».

المؤمن القوي يجتهد فيما ينفعه دينا ودنيا، ويستعين بالله في اجتهاده، ويكون من العجز المذموم والاتكال المشؤوم تَرْكُه الِاجتهادَ في نطاق الأسباب المشروعة، يمسح عجزه في القدر وفي كلمات التمني والتحسر. والمؤمن القوي المستقيم العقيدة لا يخوض في غامضات القضاء والقدر، بل يفوِّض علم ذلك إلى الله عز وجل ويثق بحكمته عز وجل وتدبيره وحسن اختياره لخلقه، غير غافل لحظة عن أن مَبْنَى هذه الدار الفانية ومعناها ابتلاء العباد بالشر والخير فتنة. ولله سبحانه الحجة البالغة في باديات الأمر وخفياته.

الجدل في القضاء والقدر انحراف. قال أبو هريرة رضي الله عنه: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر. فغضب حتى احمر وجهه. حتى كأنما فُقِئَ في وجنتيه حَبُّ الرُّمَّان. فقال: أفبهذا أُمِرْتُم! أم بهذا أُرسلت إليكم! إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر. عَزَمْتُ عليكم أن لا تنازعوا فيه». أخرجه الترمذي رحمه الله بإسناد حسن.

إذا كان الجدل في القضاء والقدر انحرافًا لسانيا عقليا قلبيا غَضِبَ عليه رسول الله ﷺ، فإن التبلد أمام القدر، والاستكانة والمسكنة والخمول، انحراف عملي خطير. المؤمن القوي، والجماعة المؤمنة المخاطبة بالقرآن، مأمورون باتخاد كل الأسباب المتاحة المقبولة شرعا لتحقيق كل الأهداف المأمور بها شرعا. المؤمن القوي والجماعة القوية ما عليهم أن يشتغلوا بأمر الله الكوني وقضائه في العباد عن أمره الشرعي التكليفي.

إنما تأخرت الأمة عن مصاف القوة، وتردت تحت سنابك الأقوياء، لتركها الجهاد، ولفشو العقيدة الناقصة التي تأخذ بعين الاعتبار كون ما قُدِّر لم يكن ليتخلف، دون أن تعالج الموقف بدواء: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

ما قضاه الله عز وجل وقدره واقع لا محالة ولا راد لقضائه، لكن لا يستوي من عمل بأمر الله الشرعيِّ، وبَذَل الجهد، حتى طواه القدر أو بسط له، ومن عجز عن العمل وتكاسل وتخامل حتى فاجأه القدر. الأول مأجور معزوزٌ، عمل بقضاء الله فيسره الله للحسنى، والثاني آثم مأزور، لم يستعن بالله، ولم يتوكل عليه بخطوات عملية، فيسره للعسرى، وجر عليه عجزُه جزاء الجبناء. ولله الأمر في الآخرة والأولى.

عملك لتحقيق ما أُمِرْتَ به شرعا جزء من القضاء، على نهوضك أنت للعمل وتشميرك فيه، أو توقفك عنه وعجزك، تترتب النتائج. هذا ما يقوله الحديث النبوي الشريف: «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم». فقال رجل من القوم: إذن نُكْثِرُ! فقال رسول الله ﷺ: «الله أكثر». رواه الترمذي رحمه الله عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه بإسناد صحيح.

وهذا ما يقوله بالتصريح الحديث النبوي الذي رواه الترمذي رحمه الله عن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يردُّ القضاءَ إلا الدعاءُ، ولا يزيد في العُمُرِ إلا البرُّ». إسناده حسن.

وفي هذا الصدد قال الشيخ عبد القادر رضي الله عنه قولته المشهورة التي تستحق الإشادة والفهم: «كثير من الرجال إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا. وأنا انفتحت لي فيه رَوْزَنَةٌ (نافذة)، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق. والولي من يكون منازعا للقدر، لا من يكون موافقـًا له».

معنى كلامه النفيس أن مُبادراتي وجهدي، وفي مقدمة ذلك الدعاء الذي لا يردُّ القضاءَ غيره، هي أقدار إلهية، عليَّ أنا ترجع مسؤولية تعطيلها إن عجزت ولم أستعن بالله عز وجل في السعي بما ينفعني. وفي هذا المعنى روى الترمذي رحمه الله أن رجلا

قال: يا رسول الله! أرأيت أدْويَةً نتداوَى بها، ورُقىً نسترقِي بها، وتُقىً نَتَّقيها، هل تردُّ من قدر الله شيئا؟ فقال ﷺ: «هن من قدر الله».

في دواوين الحديث أبوابٌ أخبر فيها رسول الله ﷺ بالقضاء والقدر النازل بعده على الأمة تُدْرَجُ تحت عنوان: «الفتن». إلى جانب الأبواب التي تتضمن أمر الله وأمر رسوله الشرعيين نقرأ أبواب أمر الله الكونيِّ المستقبلي. وقد أخبر رسول الله ﷺ أصحابه جهرة بكل ما يقع بعده إلى خروج الدجال إلى نزول الإمام المهدي ونبي الله عيسى عليهما السلام فقيام الساعة.

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «والله إني لأعلم الناسِ بكل فتنة هي كائنةٌ فيما بيني وبين الساعة. وما بي إلا أن يكون رسول الله ﷺ أسَرَّ إليَّ في ذلك شيئا لم يُحدِّثْهُ غيري». الحديث أخرجه مسلم رحمه الله.

أُنْسِيَ الصحابةُ رضي الله عنهم طرفاً من ذلك الإخبار النبوي، وروى عنهم مَن بعدَهم طرَفاً. فكان ما رَوَت الأمة من أخبار القضاء والقدر عاملا مهما في تحديد مواقف العلماء في كل عصر ومصر. ويشاء الله عز وجل أن تقتحِمَ أجيالُ هذه الأمة من العلماء المستقبل وهي تقرأه، في خطوطه الرئيسية، مُسَبّقاً. ومن ضمن ما نقرأ في أخبار الفتن وصايا رسول الله ﷺ بالكف عن سفك الدماء بين المسلمين، وبطاعة المتسلطين على الحكم. وهكذا أحنى علماء الآثار رؤوسهم أمام القدر بسُلطانِ الإخبار النبوي والوصية النبوية، وسكن الأولياء تحت مطارق القدر ومعهم من الإخبار الشريف ومما يخص الله عز وجل به بعضهم من إلهام ووحي منام وكشف. وقد قرأنا في فصل «العلم» من هذا الكتاب كيف قرأ شيخ الإسلام نبأ انتصار المسلمين على التتار في اللوح المحفوظ، فبشَّر الجيش، وأقام حفلة فرح بالنصر قبل أن تبدأ المعركة.

لمستقبل الخلافة الثانية الموعودة، معنا إخبار رسول الله ﷺ الذي بشر في الحديث الصحيح بالخلافة على منهاج النبوة بعد الحكم العاض والجبري. راجعهُ في الفصل الثاني من هذا الكتاب. ولمستقبل هذه الخلافة الثانية ينبغي لجند الله أن ينازعوا القدر

بالقدر على منهاج النبوة ووفق النموذج الجهادي النبوي الصحابي الراشدي. حتى إذا نزل قدر الله بما لا يصبر على مثله الضعفاء فينبغي أن تتجلى التربية الإحسانية في الموقف القوي، موقف السكينة والثبات والقَبول والرِّضى بالقضاء. فما الرضى بالقضاء، حقَّ الرضى، انهزام وضعف، بل هو قوة. لا تَفُتُّ ضربات القدر الغالب في عضد المحسنين، بل تزيدهم قربا من ربهم عز وجل، ولجأً إليه، واستعانة به، ليستأنفوا دائما جهدا جديدا لاقتحام العقبة.

في فقه هذا الرضى المحمود يقول الرفاعي رحمه الله: «أيْ بنيَّ! اعلم أن العبد إذا علم أن الله سبحانه حكيم فيما حكم، وقدير عالم فيما قضى ودبَّر، و(أن العبد إذا) عرف أنه جاهل بالمحبوب والمكروه، رضي عن الله عز وجل في حكمته وقضائه. والرضى هو سكون القلب إلى الحكيم، وترك الاختيار مع التسليم. ولا شيء أشد على النفس من الرضى بالقضاء، لأن الرضى بالقضاء يكون على خلاف رضى النفس وهواها. فطوبى لعبد آثر رضى الله تعالى على رضى نفسه».[1]

وقال: «وإن قضاء الله تعالى على أربعة أوجه: قضاء النعمة، فعلى العبد فيه الرضى والشكر. والثاني قضاء الشدة، فعلى العبد فيه الرضى والصبر. والثالث قضاء الطاعة، فعلى العبد فيه الرضى وذكر المِنَّة والقيام بالواجب إلى الموت. والرابع قضاء المعصية، فعلى العبد فيه الرضى والتوبة. وسئل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن القضاء والقدر فقال: ليلٌ مظلم، وبحر عميق. سر الله الأعظم. فمن رضي به فله الرضى، ومن سخط فله السخط».[2]

نقرأ كثيرا عند الإمام عبد القادر الوصية بالرضى عن الله عز وجل في قضائه وقدره. فلا ننسُبْ إلى أمثاله من العلماء والعارفين جناية خمول الأمة، ولنَأْخُذْ في حسابنا الإخبار النبوي بالفتن ووصاياه بشأنها. فإن هذه الوصايا وذاك الإخبارُ مفتاح لا ينفتح لنا فهم تاريخ المسلمين إلا به. وما يوصي أمثال عبد القادر، وهم أرباب علم وقلوب، إلا بالصواب.

---

(1) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص:176-177.

(2) الفتح الرباني، ص:179.

قال عبد القادر رحمه الله: «ويحك! تدعي أنك مسلم وأنت معترض على الله عز وجل وعلى الصالحين من عباده! كذبت في دعواك! الإسلام مشتق من الاستسلام لقضاء الله عز وجل وقدره، والرضى بأفعاله. مع حفظ حدود كتابِه وسنة رسوله ﷺ. فحينئذ يصح لك الإسلام.

«شُؤْمُ طول الأمل هو الذي يوقِعُكَ في معاصي الله عز وجل. متى ما قَصَّرْتَ أملك جاءك الخير، فتمَسَّكْ به. إذا أردت الفلاح فأيُّ شيء جاء به القدر فخذه من يده، وارض به، مع موافقة الشرع. الراضي عن القضاء لا نفس له ولا هوىً ولا طبع ولا شيطان. أعني أنه قد أُعين عليهم، لا أنهم قد انعدموا من كل وجه. ليس لنا معصومٌ بعد ذهاب الأنبياء عليهم السلام.

«الراضي عن القضاء نفسُهُ مطمئنَّة، وهواه مغلوب، وثائرة طبعه مخمودة، وشيطانه حابِسٌ، ما يقع بيده منه شيء، يطوف عليه لا يَجدُه.

«التوكل ليس فيه وقوف مع سبب، والتوكل ليس فيه رُؤية الضّر والنفع من أحد. أنت نفس كليَّة! هوىً كليٌّ! عادة كلية! ما عندك من التوكل والتوحيد خبر. مرارة ثم حلاوة، ثم كسْر ثمَّ جَبْر، ثم موت ثم حياة دائمة. ذُل ثم عِز، فقر ثم غنى، انعدام ثم إيجاد. بك وبدونك. إن صبرت على هذا صح لك ما تريد من الحق عز وجل. وإلا فما يصح لك شيء. كل ما أشغلك عن الحق عز وجل فهو عليك مشؤوم».[1]

قال صبار على مراد الله عز وجل في قضائه وقدره:

ولست بمَيّال إلى جانب الغنى — إذا كانت العلياء في جانب الفقر
وإني لصبار على ما ينُوبُني — وحسبك أن الله أثنى على الصبر

وقال لاجئ إلى ربه عز وجل، متوكل عليه صابر معه، يناجيه:

يا من له التوحيد والتحميد — ولوجهه التعظيم والتمجيد
يا واصلي لـمَّا جفاني خلقُه — يا قائما بي والعباد رقود

(1) الفتح الرباني، ص:246.

يـا حافظـي والنـاسُ عنـي غُفَّـلٌ   يـا مـن حمـاني والعيـون هجـود
أمـن المـروءة أن أَلُـوذَ بغيـره   أمُـدَبِّـراً غيـر الإلـه أريـد؟
تـالله لا عَلِـقَ الفُـؤادُ بغيـره   مـا دام في الشـجر الـمُوَرَّق عـود

وقال واثق بحكمة مولاه وتدبيره راض بقضائه:

سيكـون الـذي قُـضي   كَـرِهَ العبـد أم رضـي
ليـس هـذا يـدوم بـل   كـل هـذا سينقضـي

وقال مرشد إلى الحكمة:

قـد قضـى فيك حُكمَـه   فانقضـى مـا يريـده
فـأرِدْ مـا يكـون إن   لـم يكـن مـا تريـده

وقال حكيم ساكن في مواقع القدر:

أيَّ يومَـيَّ مـن المـوت أفِـرْ   يـوم لا يُقْـدَرُ أو يَـومَ قُـدِرْ!
يـومَ لا يُقْـدَرُ لا يـأتي بـه   ومـن المقـدور لا يَنْجـو الحَـذِر

وقلت:

ظَـلَّ كَسـلانَ خَامِـلاً ثـمَّ   قـال: القَـضـا نَـزَلْ!
قَـد رَضينـا بحكمِـه   وسَرحْنَـا مع الهَـمَـلْ!
قَد كَفَى النِّكْسَ مـا بِـهِ   ليسَ يُقضَى لِمن كَسَلْ

الحياء من الله عز وجل

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾. اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي. وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة. وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى. وأسألك القصد في الفقر والغنى. وأسألك نعيما لا ينفد. وأسألك قرة عين لا تنقطع. وأسألك الرضى بعد القضاء. وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت. وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم. وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مُضِرَّة، ولا فتنة مضلة. اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هدَاة مهتدين.

يختلف البناء النفسي العقلي الخلقي السلوكي عند الكافر الذي يعيش في مجتمع قانوني عن البناء المقابل عند المسلم والمؤمن والمحسن في مجتمع إسلامي يقيم شرائع الدين وحدوده. قد يكون الكافر ذا مروءة عالية يمسكه ضميرهُ الإنساني عن المخازي ويدفعه الحرص على سمعته ومصالحه والحياء من أقرانه أو مجرد اقتناعه الفكري والمبدئي للعمل الشريف. وتبقى عامة الروادع في المجتمع الكافر أهله، اشتراكيا كان أو ديموقراطيا أو استبداديا، روادعَ قانونية هي الخوف من العقاب.

أما المجتمع المسلم أفرادُه، المفتون نظامه وحكمه، فلا القانونية المتطورة التي تتمتع بها المجتمعات المتقدمة حضاريا من نصيبه، ولا الأخلاقية الدينية الكامنة في النفوس تجد مجالا للتعبير العملي عن نفسها في الحياة العامة.

المطلوب إقامة المجتمع الإسلامي الخاضع أفرادا وحكما واقتصادا وأخلاقا لشرع الله وحدوده، المسلم فيه وغيره موزوعٌ بوازع السلطان القرآني، وللمؤمن والمحسن فيه مَزِيَّة السلوك المستقيم خوفا من الله عز وجل ورجاءً، ومحبة فيه سبحانه وحياء منه.

في السلوك الاجتماعي العام، وفي الأخلاق الخاصة تتجلى خصلة التؤدة وفروعها من صبر ومصابرة ومثابرة وتحمل واستمرار وكف عن أذى الناس وفي قدرة المؤمن والمحسن على ضبط النفس وامتلاك زمامها بما لا يقدر عليه المسلم الذي لا مروءة له، والمسلم الذي لا يذكر الله إلا قليلا ولا يستحضر الآخرة.

المؤمن المستقيم يذكر الله عز وجل، ويذكر أفعاله سبحانه في الدنيا والآخرة، فيخاف الوعيد ويرجو الوعد.

والمحسن صابر مع الله عز وجل، ذاكر له شاكر، يستحضر عظمته عز وجل، فتستولي عليه الهيبة من الجلال الإلهي، ويَتَحَمَّله الحياء من رب العزة، وكأن قلبه ناظر إليه كل حين، إلى ذرى الاستقامة.

وللحياء من الناس، وهو خلق فاضل، الأثر الجميل في سلوك المحسن والمؤمن وسائر ذوي المروءات من الناس. يمنعهم الحياء من قبيح الأعمال.

الحياء، مطلق الحياء، شعبة من شعب الإيمان كما جاء في صحيح مسلم رحمه الله. والحياء من الله عز وجل درجة إحسانية منه. وللحياء بشتى درجاته المكانة الطيبة في ضبط أقوال المؤمن والمحسن، وضبط أفعالهما، وإضفاء السكينة والوقار على شخصيتهما.

الحياء من الله عز وجل عروة مكينة متينة إليها يُشَدُّ خلق المحسنين، لهم من خشية الله عز وجل ورجائه النصيب الأوفر كما للمؤمنين حقَّ الإيمان. تميز المحسنون بالحضور الدائم مع الله عز وجل. المؤمنون مع أفعال الله عز وجل، والمحسنون مع ذاته الأزلية وصفاته العلية.

قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء» قلنا: إنا لنستحيي من الله يا رسول الله! والحمد لله. قال: «ليس ذلك. ولكن الحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وَعَى، والبطن وما حَوَى، وتذكر الموت والبِلَى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، وآثر الآخرة على الأولى. فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حقَّ الحياء». أخرجه الترمذي رحمه الله عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بإسناد صحيح.

في ضمن الحياء من الله عز وجل الخشية من المصير الأخروي. إنه بناء بعضه أصلٌ لبعض، وما تُتَصَوَّرُ محبة لِلَّه سبحانه محلِّقَةً ولا حياءٌ منه مقطوعا عن الأصل الإيماني وهو الخوف والرجاء. وأخطأ من يقول: إن الخوف والرجاء من خصال عامة المؤمنين، لا سبيل له ليدخل في قلوب المحسنين الذين يعبدونه حُبّاً له خالصا، لا خوفاً من ناره ولا رجاءً في ثوابه.

إنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، وإن رسول الله ﷺ إمام المحسنين أشدُّ الناس خشية لربه عز وجل. قالت أمنا عائشة رضي الله عنها: «صنع رسول الله ﷺ شيئا فرخَّصَ فيه. فتَنَزَّه عنه قوم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخطب. فحمد الله ثم قال: «ما بال أقوام يتنزَّهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدُّهم له خشية». أخرجه البخاري رحمه الله.

الحياء خير كله، أصله وثماره. قال رسول الله ﷺ: «الحياء خير كله أو قال: كله خير». أخرجه الشيخان رحمهما الله عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

وكان لخير خلق الله وأكرمهم على الله ﷺ النصيبُ الأكبرُ من هذا الخير. لا جَرَمَ يكون أزكى الخليقة شمائلَ وقد طبع الله عز وجل بشريَّتَه بشريف الخصال. على أن حياءه الجَمَّ ﷺ لا يحول دون تبليغه ما أمِرَ به، ولا دون الغضب لله سبحانه كلما لزم الغضب. قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خِدْرِها. فإذا رأى شيئا يكرهه عرفناه في وجهه». أخرجه الشيخان.

الحياء من الله عز وجل ومن الناس وازعٌ عن القول السائب وعن الفعل العائب. قال رسول الله ﷺ: «الحياء والعَيُّ شعبتان من الإيمان. والبَذَاء والبَيَان شعبتان من النفاق». أخرجه الترمذي رحمه الله عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه بإسناد صحيح، وشرحه فقال: العَيُّ: قلة الكلام. والبَذَاء: الفُحْش في الكلام. والبيان هو كثرة الكلام، مثلا هؤلاء الخطباء الذين يخطبون الناس ويتوسعون في الكلام

ويتفصحون فيه من مدح الناس فيما لا يُرضي الله. انتهى كلامه. وواضح أنه يقصد خطباء القصور مدَّاحي الظلمة.

وقال رسول الله ﷺ في كون الحياء وازعا عن الفعل الرديء: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فافعل ما شئت». أخرجه البخاري وأبو داود رحمهما الله عن أبي مسعود البَدري رضي الله عنه.

فهذا عامٌّ في الخلق، كافرهم المجبول على المروءةِ، ومسلمهم ومؤمنهم ومحسِنهم، خاصتِهم وعامتِهِم. وبما أن الحياء كله خير، أخبرت بذلك النبوة طَوْراً بعد طور، فالإسلام أحق بالحياء، الحياءُ خلق الإسلام، وقاعدة جِبِلِّيَّة لبناء الإيمان، ومعارج على سُلم الإحسان. قال رسول الله ﷺ: «إن لكل دين خُلُقا. وخلق الإسلام الحياء». رواه الإمام مالك رحمه الله في الموطأ مرسلا، ووصله ابن ماجه رحمه الله فارتقى إلى درجة الحسن.

وكان الحياء من الله عز وجل خُلُقَ الصالحين في كل جيل. معاملتُهم معه جلت عظمته كانت على الذكر والمراقبة والشوق والمحبة والقرب والأنس كما كانت على الحياء.

كان سيدنا الحسين بن علي، الإمام ابن الإمام رضي الله عنهما، إذا توضأ ليصلي اصفرَّ لونُه، وارتعدت فَرائِصُه. فقيل له في ذلك فقال: حُقَّ لمن وقف بين يدي رب العرش أن يتغير لونه حياء من إجلاله.

قال يحيى بن معاذ، من مشايخ الصوفية رحمه الله: «اعرِفْ حرمة من لا تعرف الفضل إلا منه، ولا ترجو الراحة إلا منه، واستح منه حقَّ الحياء، واذكر امتنانه إذ خلقك ولم تكن شيئا، وزينك بنور المعرفة حتى كأنك لم تزل تعرفه. ولولا فضله ورحمته عليك كيف كنت تعرفه بأنه مولاك من غير أن تراه بعينك؟ ثم طَهَّر سرك وضمائرك من الشك والشبهة والنفاق، وألبَسَكَ من أحسن لباسه، وتوَّجَكَ بتاجه، بلا سؤال. ثم دعاك إلى دار السلام».

الحياء من الله عز وجل يمنع العبد المنيب من سؤال غير الله، ومن الاعتماد على غير الله، ومن مراقبة العباد دون مراقبة الله كما فعل الخوَّانون الآثمون الذين وصفهم الله عز وجل في قوله: ﴿**يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ**﴾[1].

قال مَلِكٌ من ملوك الدنيا لشقيق البلخي الزاهد الصوفي رحمه الله: سل حاجتك! فأجابه: «إني لأستحي من ربي أن أسألك ومولاي ناظر إليَّ يقول: سل حاجَتك بلا حِشْمَة حتى أرْضَى عنك، ولا تسأل غيري فأمقُتَك».

ودخل على ربيعة البصريَّةِ الصالحةِ الزاهدةِ رحمها الله جماعة من الزهاد فيهم سُفيانٌ الثوريُّ العالم الجليل رحمه الله، فرأوا لها حالة رثَّةً، فقال لها بعضهم: أما تُرسلين إلى بعض مواليك ليُعطِيَك شيئا؟ فقالت: والله إنني لأستحي أن أسأل الدنيا ممن يملكها (وهو الله جل جلاله وعظُمَ سلطانُه)، فكيف أسألها ممن لا يملكها!

قال الإمام الرفاعي رحمه الله: «علامة السعداء ثلاثة. التمسك بسنة النبي المختار، والصحبة مع الأولياء الأخيار، والحياء من الملك الجبار».[2]

وقال الإمام عبد القادر رحمه الله: «لا تهرُب من البَلاء، فإن البلاء مع الصبر أساسٌ لكل خير. أساس النبوة والرسالة والولاية والمعرفة والمحبة البلاء. فإذا لم تصبر على البلاء فلا أساس لك. لا بقاء لبناء إلا بأساس. أرأيت بيتا ثابتا على مزبَلَةٍ رَبْوَةٍ!

«إنما تَفِرّ من البلاء والآفات لكونك لا حاجة لك في الولاية والمعرفة والقرب من الله عز وجل. اصبر واعمل حتى تَسْرِيَ بقلبك وسرك وروحك إلى باب القرب من ربك عز وجل.

«العلماء والأولياء والأبدال وُرَّاثُ الأنبياء، الأنبياءُ السماسرةُ، وهؤلاء المنادُون بين أيديهم.

(1) النساء، 108.

(2) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص:210.

«المؤمن لا يخاف غير الله عز وجل، ولا يرجو غيره. قد أُعْطِيَ القوة في قلبه وسِرِّه. كيف لا تكون قلوب المؤمنين قوية بالله عز وجل وقد أسْرِي بها إليه ! لا تزال عنده القلوب، والقالب في الأرض. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾[1].

«يُصْطَفَوْنَ عن أهاليهم وأهل زمانهم. تتميز معانيهم، وتَتَنَوَّر مَبانِيهِم. ولهذا فارقوا الخلق وزهدوا في المألوفات. ساروا إلى قُدَّامٍ، ونبَتَ العُشْب وراءهم. ما بقي لهم رجوع. استأنسوا بالوحدة (...).

«هنالك يُقَرِّبُ قلوبهم ويؤنسها به. تُوقَفُ مبانيهم مع مباني المرسلين والصديقين والشهداء. وتوقف معانيهم معه. لا يزالون وقوفا في الخدمة ليلهم ونهارهم. خلوة وراحة المشتاقين، وطيبة المستأنسين بالله عز وجل».[2]

قال مستأنس بربه عز وجل يصف حالة المستوحشين:

قَلَّ حياء الناس من ربهم ... فكلهم يُظْهِر تقْواه
ليس يُبالي الخُبْثَ في ثوبه ... من بَال في عاجل دنياه
يخاف أن يَمقُتَه أهلُه ... ولا يُبالي مَقْتَ مولاه

وقال ذاكر لمولاه، يناجيه في خلوته وأشواق محبته:

ذكرتُك لا أنِّي نسيتك لَمْحَةً ... وأهْوَنُ ما في الذكر ذِكْرُ لساني
وكِدْت بلا وَجد أموت من الهوى ... وهام عليَّ القلب بالخَفَقَان
فلما رآني الوجد أنَّك حاضري ... شهدتُك موجودا بكل مكان
فخاطبت موجودا بغير تكلم ... ولا حظت معلوما بغير عيان

(1) ص، 47.
(2) الفتح الرباني، ص:61.

وقال عارف واصل شاهَدَ قلبُه جمالَه وكمالَه:

سبحان من بهر العقول جماله   وبدت به أسرار كلِّ كمال
فالْواصلون رأوْا به أفعاله   والسالكون رأَوْهُ بالأفعال

وقلت:

تَذكُرُ الموتَ والبِلَى   تَحفَظُ الفرضَ والنُّفُولْ
مِن حَلالٍ بِلا امْتِلاَ   تَتغذَّى، بِلا فُضولْ
احتَسِبْ ذلِك البَلا   وتَورَّعْ فيما تَقولْ

العفو والرفق

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾. اللهم اغفر لي ذنبي، ووسع لي في داري، وبارك لي في رزقي.

في آيتين من كتاب الله تعالى عرض الحق عز وجل على عباده جزاء الآخرة وجزاء القرب منه، وحرَّض على السباق إلى الجائزة، وحدد شروطه، فقال جلت عظمته: **﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾**.(1)

هتان الآيتان وما يليهما من القرآن تشرطان الإحسان بقوة العباد على ضبط أنفسهم، وبسماحة هذه النفوس وتحكُّمها في سلوكها مهما كانت الظروف استفزازيَّة ضيِّقة.

وإن الأقوياء الأمناء الموعودين بالخلافة الثانية لفي أمس الحاجة إلى تُؤدة الصبر والأناة وكظم الغيظ لإحقاق الحق وبناء الأمة بقدر ما هم بحاجة إلى القوة العازمة المنضبطة لإبطال الباطل. هناك باطل يجثم على صدر الأمة متمثل في الحكم الطاغوتي. هذا الباطل لا صبر عليه إلا بمقدار ما يكون الصبر دُؤُوبا على العمل من تحته لنسف أصوله، ومعظم هذا العمل الناسف إيقاظُ الأمة وتأليفُ حزب الله والتبشير بالإسلام.

أما بعد نزع قوة السلطان من الأيدي الخبيثة فحاجة المؤمنين المحسنين لتؤدة الرفق وكظم الغيظ والعفو عن الناس تزداد إلحاحا. ذلك أن ماضي الفتنة لا بد أن يُخلِّفَ آثارهُ الفاسدة المفسدة المتمثلة في أقوام بأعيانهم وفي تضامنات وعصبيات

(1) آل عمران، 134.

ومصالح متحجرة مشتبكة مع مصالح جمهور الأمة. فالحل العنيف الصراعي الثوري الذي يوصي بالقتل والسفك وتخريب بَيْتِ كل من انتمى مرَّةً للماضي حل غير إسلامي. وليس الرفق هو السكوت عن الماضي جملةً. فلا بد من رد المظالم، ولا بد من كنس القُمامة، ولا بد من التغيير الجذريِّ. والرفق في هذه العمليات، والأناة فيها، وحقن الدماء هي الحكمة المطلوبة.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف». أخرجه مسلم رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها. وأخرج الإمام أحمد رحمه الله عن عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ وهو مستخف لا يزال في بداية تبليغه لرسالته، فسأله قائلا: ما أنت؟ فقال رسول الله ﷺ: «نَبِيٌّ» فقلت: وما النبي؟ فقال: «رسول الله! فقلت: ومن أرسلك؟ قال: «الله عز وجل». قلت: بماذا أرسلك؟ فقال: «بأن توصل الأرحام، وتُحْقَنَ الدماء، وتُكْسر الأوثان». الحديث.

إن الثورات تبني قوتها على الغضب الجماهيري على الأوضاع القائمة المكروهة وعلى الوعود بالبديل الأفضل. ثم لا شيء بعد نجاح الثورة واستقرار الانقلاب، إلا العنف الثوريُّ وتصفية الناس. في القومة الإسلامية نسأل أسئلة عمرو بن عبسة رضي الله عنه من نحن؟ ومن ابتعثنا؟ وبماذا ابتعثنا؟ ونستحضر أجوبة النبي ﷺ الذي أعلن منذ البداية أن دينه صِلَةُ الرحم وحقن الدماء، لكنَّ دينه أيضا كسر الأوثان وتقويض بناء الشرك وإقامة دولة التوحيد والعدل والإحسان. وفي عمله الشريف ﷺ وسيرته العطرة أمثلة فائقة للتؤدة والرفق والعفو والصفح الجميل.

روى ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾[1] أن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رحمه الله فسَّر ﴿ **خُذِ الْعَفْو** ﴾ بأن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم. وهذا التفسير هو اختيار شيخ المفسرين ابن جرير رحمه الله. وروى بن كثير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في أمره

(1) الأعراف، 199.

تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾[1]، قال ابن مسعود: يجاهدهم بيده، فإن لم يستطع فليكْفَهِرَّ في وجوههم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جهاد الكفار بالسيف، وجهاد المنافقين باللسان. أُذهِبَ الرفق عنهم.

علماؤنا الأولون كانوا حديثي عهد بالجهاد النبوي، فاعتبروا أن إغلاظ الكلام للمنافقين والاكفهرار في وجوههم مواجهة كافية، وجهاد ناجع. ولا شك أن قدرا كبيرا من هذه الغلظة الكلامية يصبح ضرورة غدَاة تسلم الحكم لفضح النفاق وأهل النفاق وفكر النفاق ودسائس النفاق. ونحْترز من المنافقين بين ظَهرانَيْنَا، حتى إذا أبدَوْا صفحة وجههم، وكشفوا سترهم، وفعلوها ماكرةً مكر السَّيِّئ أو عنيفة مُعْتَدِيَةً كان سيف الإسلام عليهم هو الرفق، وحدودَه هي الصدق.

إنَّ أَخْذَ العفو والإعراض عن الجاهلين، ما لم يكن الإعراض ضعفا وتضعيفا للحق، لهما الخصلتان النبويتان الراشديتان، بِهما تكمل القوة والأمانة، إذ هما عنوان امتلاك النفس ومن ثم امتلاك الموقف. دخل عُيَيْنَة بن حصن على أمير المؤمنين عمر في مجلس شوراه المكوَّنِ من القراء، أي أهل القرآن والعلم، كهولا وشبابا. فقال له عيينة: «هيه يا ابن الخطاب! فوالله ما تعطينا الجَزْلَ، ولا تحكم بيننا بالعدل!». فغضب عمر حتى همَّ به. فقال الحُرُّ بن قيس، ابن أخي عيينة: يا أمير المؤمنين! إن الله تعالى قال لنبيه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[2]. وإن هذا من الجاهلين. قال الراوي ابن عباس رضي الله عنهما، وكان في مقدمة أهل مجالس عمر وشوراه: «فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه. وكان وقّافاً عند كتاب الله». رضي الله عنه. أخرج الحديث الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه.

إن بناء الدولة الإسلامية الراشدية الثانية يريد رجالا من تلك الطينة الإحسانية القوية، وما عطاء الله لعباده شَحَّ لفراغ خزائِنِه وهو الغني الوهاب. نسأله رجالا وقَّافين عند كتابه بالإرادة الواعية والقصد القاصد الـمُدَبِّر. لا تغلبهم القوة الغضبية،

---

(1) التوبة، 73.

(2) الأعراف، 199.

ولا تقصر بهم الهمة عن جمع مكارم الأخلاق. قال الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه: «ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من قول الله عز وجل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. قال الحافظ بن حجر رحمه الله في شرح البخاري: ووجَّهوا قول جعفر بأن الأخلاق ثلاثة بِحَسَبِ القُوَى الإنسانية: عقلية، وشهوية، وغضبية. فالعقلية الحكمة ومنها الأمر بالمعروف، والشهوية العفة ومنها أخذ العفو، والغضبية الشجاعةُ ومنها الإعراض عن الجاهلين.

في كلمة «عفو» معنى القصد والإرادة. قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: «يقال عفاه واعتفاه بمعنى قصده مُتَناوِلاً ما عِنْدَهُ». وفي معنى الآية، حسب تفسير الإمام جعفر رضي الله عنه وتوجيه العلماء، معاني الحكمة العقلية والعفة الخلقية والشجاعة على النفس وهي قمة الشجاعة والقوة.

قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنَّما الشديد الذي يملك نفسهُ عند الغضب». أخرجه الشيخان رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنه. الصُّرَعة الذي يغلب الرجال في المصارعة ويكون في ذلك مشهورا شديد البأس.

وإذا كان لتربية العقل حتى يشتغل في خدمة القلب وخدمة الأهداف الإيمانية الإحسانية وسائلها، وكان لتربية الشهوة وإحصانها مثلُ ذلك، فإن لتربية الطبع على الشجاعة العالية المتمثّلةِ في امتلاك النفس عند الغضب طرُقُها. يجمع كل هذه التربية سلوك شعب الإيمان ومعارج الإحسان حتى يصفو القلب وتَستقيم وجهته لله عز وجل، فيكون هو الأميرَ لا الرعونة النفسية، ولا الشهوةُ، ولا الإسراع إلى البطش.

عندئذ يكون أمر الله عز وجل ونهيه، حرامه وحلاله، الخوف من عقابه والرجاء فيما عنده، الإخلاص له والوفاء والحبُّ والقرب، هي البواعث والروادع. بقصد ثابت، وإرادة واعية حاكمة.

وقد أوصى رسول الله ﷺ رجلا سأله وصية جامعة قائِلا: «لا تغْضَبْ». وأمر أن يتوضأ المرء إذا ساورهُ الغضب، وأن يجلس إذا كان قائما، ويضطجع إذا كان جالسا. وأن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، لأن الغضب سَوْرَةٌ شيطانية.

وجاء في حقن الدماء آيات في كتاب الله عز وجل وأحاديثُ نبوية. فكما أن رسول الله ﷺ أمر أن نَدْرأَ الحدود بالشبهات لكيلا يجلد ظهر أو يقطع عضو أو تُزْهَقَ روح ما وَسِعَنَا اجتنابُ ذلك، فكذلك أكدَّ على العفو في القصاص مفصِّلاً ما أجمله القرآن الكريم في قوله تعالى في القتل الخطإ: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾.[1]

زادت السنة النبوية أن أهل القتيل إذا أصَرُّوا على قتل القاتل العامد وفعلوها فهم من أهل النار. روى أبو داود والنسائي عن أنس رضي الله عنه قال: «ما رأيت رسول الله ﷺ رُفِع إليه شيء فيه قصاص إلا أمر فيه بالعفو». إسناده حسن. وأخرج النسائي عن نفس أنس أن رجلا أتى بقاتل وليِّه رسولَ الله ﷺ. فقال النبي ﷺ: «اعْفُ عنه!» فأبى. فقال: «خذ الدِّيَّة!» فأبى. فقال: «اذهب فاقتله! فإنك مثله!» فلُحِق الرجل، فقيل له: إن رسول الله ﷺ قال: إن قَتَلَهُ فهو مثله! فَخَلَّى سبيله». الحديث إسناده حسن. وعند البخاري في صحيحه: «باب ما يحقن بالأذان من الدماء». ذكر فيه أن رسول الله ﷺ كان إذا غزا بلدا رجع عنه بمجرد سماعه الأذان. أي رفق هذا!

قال الإمام عبد القادر رحمه الله: «يا غلام! لا بد من الحلاوة والمرارة والصلاح والفساد والكدر والصفاء. فإن أَرَدْت الصفاءَ الكليَّ ففارق بقلبك الخلق، وواصله بالحق عز وجل. فارق الدنيا، ودع أهلك، وسلمهم إلى ربك عز وجل، وأخرج قلبك عُريانا عن الكل. واقرب من باب الآخرة ثم ادخلها. فإن لم تجد ربك عز وجل فيها فاخرج منها هاربا طالبا للقرب منه. إذا وجدته وجدت كل الصفاء عنده».[2]

قلت: هذا هو الطريق الصوفي والسلوك الصوفي الذي ينبغي أن نهجره هجرا جميلا لنصل حبلنا بحبل الصحابة رضي الله عنهم، ولنقتحم عقبات الجهاد الممزوج فيها الصلاح بالفساد، والصفو بالكدر، والحلاوة بالمرارة. وإن الفراق الصوفي للأهل وللوطن يقابله في السلوك الجهادي تطهير الأرض من الشرك والفساد حتى نكون للمتقين إماما، وحتى يَكونَ لنا بإذن الكريم الوهاب من أزواجنا وذرياتنا قرةُ أعين كما يليق بعباد الرحمن، ونجد الله ربَّنَا كما وجدوا. آمين.

(1) النساء، 92.

(2) الفتح الرباني، ص:61.

قال ناصح يفتح لنا باب الجهاد الأول، جهاد النفس على التوبة:

صــرَّح عــن محضــه الصريـــحُ وجـــد في وعظـــه النصيـــح
وقصَّــرَتْ أربعـــون حـــولا عُمْــــرَكَ لــو أنــه فسِيـــح
طـــار غـــرابٌ بهـــا وجـــاءت حمـــامة بالـــرَّدَى تنـــوح
وأنــت تَلْهُـــو وكُـــلَّ يـــوم يَفْغَـــرُ فـــاه لــك الضَّريـــحُ
كــم طَلَــقٍ[1] للهـــوى بعيــد جـــرى لــه طرفــك الجمـــوح
وكــم نصيــب مــن التصـــابي هفـــا بـــه غُصْنُـــكَ الــمَرُوح
ومذهـــب للتُّقَـــى جميـــل غيَّـــره فِعلُـــكَ القبيـــح
فجـــاهد النفـــس في هـــواها لعلهـــا منـــك تستريـــح
وكيـــف تثْنـــي عِنـــانَ نفـــس لهـــا إلـــى غيِّهـــا جُنـــوح
فانْـــوِ لهـــا توبـــة بصـدق لعلهـــا تـــوبـــة نصـــوح
والعمـــل الصالـــح اغتنمـــه فإنـــه مَتْجَـــرٌ ربيـــح
واســعَ وبـــادِرْ ســحاب عُمْــر تجـــري بـــه للمنـــون ريـــح
واغـــد ورُحْ في ســـبيل خيـــر مـــادام في الجســـم منــك روح

وقلت:

حَسْبُـكَ مِـن مُبْـدعٍ جَهُـول يُـبَـدعُ النَّـــاسَ بالجِـزَافِ
يُكَفِّـرُ الخلـقَ بِالتَّسـاوي بالسُّخطِ والعُنفِ والتَّجـافي
لَمْ يَنْـجُ منه سِـوَى صديـق وصـاحِـبٍ تـابِـعٍ مُضـافِ

---

(1) الطلق: الشوط في المسيرة.

حسن الظن

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. اللهم إنيَ أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحَوُّل عافيتك، وفجأة نقمتك، وجميع سخطك.

يكون في معدن بعض الناس خِسَّةٌ أصليَّة وَعَوَزٌ في المروءة وخفة في العقل ونقص في الدين وسقوط في الهمة وإفلاس من الخير ومرض في القلب، كل ذلك مجتمعا متوالدا. فينصِبُ الواحد منهم نفسه رقيبا على الناس يقيس المسلمين بمقياس نفسه، فلا يرى إلا المنكر أينما ولى وجهه. وما معه من أدوات النهي عن المنكر إلا أُصْبُع الاتهام ومكاييل صيَغِ التكفير والتبديع.

المؤمن يحسن الظن بالله عز وجل وبعباده. ذلك خلق الإسلام. عين المحاسبة والمطالبة والمراقبة موجَّهة منه إليه. نفسُه وهواه وطبعُه وشيطانُه وأنانيتُه وعاداتُه وزلاتُه هم خُصَماؤُه أسْبَقَ شيء من دون الناس. ولكافة المسلمين عنده حُرمةٌ. على عكس الشخصية المقلوبة العاديَة.

قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظنَّ، فإن الظن أكذبُ الحديث. ولا تَحَسَّسُوا، ولا تَجَسَّسُوا، ولا تنافسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا. وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم. المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذُله ولا يحقِره. التقوى ههنا، التقوى ههنا! –ويشير إلى صدره– بِحَسْبِ امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام. دمه وعرضُه ومالُهُ. إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». رواه الشيخان رحمهما الله وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

لا تنافسوا في الدنيا وتوافهها، أما المسارعة إلى مغفرة من الله وجنة عرضها السماوات والأرض وإلى رضوان الله عز وجل ومحبَّته فهي مطلوبة، وهي جائزة المتقين الكرماء اليَدِ والخُلُقِ، الكاظمين الغيظ، العافين عن الناس. والله يحب المحسنين، ولا يحب المعتدين.

هذا الحديث الشريف يُعطي القاعدة الأخلاقية لسلوك المسلمين بعضهم تُجاهَ بعض على صعيد الحياة الخاصة. وهي قاعدة صبر على أذى الناس، وكفٍّ لأذاك أنت عن الناس، وضبطٍ لِلِسانك، بل وسوء ظنك عن الناس. و«المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم». كما جاء في الحديث النبوي الذي أخرجه الترمذي رحمه الله عن ابن عمر رضي الله عنهما بإسناد حسن.

ومخالطة المسلمين بعضهم لبعض تتضمن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن على أساس من احترام المستورين والمتَسَتِّرين من الناس. وليس سوء الظن المنهي عنه هو الخواطر التي تنتاب الإنسان، فهي من طبع البشر، لكن سوء الظن الذي يؤدي إلى المس بكرامة الناس بغير حق.

المؤمن حَسَن الظن بالله وبعباد الله. «المؤمن غر كريم والفاجر خَبٌّ لئيم» كما قال رسول الله ﷺ في حديث أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه. لكنَّ المؤمن يُحسن الظَّن أولا، ثم إذا بدا من أحد بادرةُ سوء كان منه على حذر. لأن «المؤمن لا يلسع (في رواية: لا يلدغ) من جحر مرتين». كما جاء في الحديث النبوي عند البخاري ومسلم وأبي داود رحمهم الله عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الخَبُّ الخدَّاع المكَّار الخبيث. وكان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يقول: «لست بالخَبِّ ولا الخَبُّ يخدعني!». كان أميراً للمؤمنين، فلزمه من الحذر والحيطة ما لا يلزم غيره من عامة الناس في مخالطتهم اليومية. وإن في سيرة النبي ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم دروسا للحيطة تقدم لنا نمطا للحكم والإدارة

ما هو نمط الدولة البوليسية القاتلة لحرية الناس المبنية على سوء الظن الـمَبْدَئِيِّ وعلى التجَسس. نمط النبوءة والخلافة الراشدة حذَرٌ ويقظة موجهين إلى الحاكم أول شيء. نمَطُ النبوءة والخلافة الراشدة أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، الحاكم أولُ من تُسْدَى إليه هذه الخدمة، من قِبَل الجمهور، ومن قِبل أميره، أولُ من يراقَبُ ويُحاسَبُ ويُلام ويعاقب.

هذا النمط المطلوب تجديده في الخلافة الثانية هو مقلوب نمط الدولة البوليسية الاستبدادية الجبرية التي يكون فيها الحاكم بمنجاةٍ من كل حساب، يكون صَنَماً، ويكون عامة الناس في الحصار التجسسي والتحقير والتعسف والظلم.

ذكر أبو يوسف في كتاب «الخراج» أنه كان لعمر رضي الله عنه جهاز سري لمراقبة ولاته (لا لمراقبة الناس). فلم يكن له في قطر من الأقطار، ولا مصر من الأمصار والٍ ولا عامل ولا أمير جيش إلا وعليه له عَيْنٌ لا يفارقه. فكانت أخبار ولاته بالمشرق والمغرب عنده كل مَمْسىً ومَصْبَحٍ.[1]

إن الذهنية المقلوبة، والنفسية المريضة اللتين «يتمتع» بهما مكفِّرو المسلمين ومبدِّعوهم، ما عندهم للمسلمين غير ذلك، تقترنان بحسن الظن البالغ بالنفس كما تقترنان بالخضوع القابع لحكام الجوْر. من هؤلاء ينبغي التحرز في دولة القرآن لأنهم لو مُلِّكوا من السلطان نفساً لأحالوه حكما متعنتا مُبيداً. حفظنا الله والمسلمين. آمين.

وإن لهذه الذهنية السيئة الظن بغير نفسها لَمَسْرَحاً في خلافات العلماء الأوَّلين، واستمداداً من كدورات الخلافيات، يلزمُ من التؤدة والصبر وكظم الغيظ والعفو بجانب أصحاب هذه الذهنية الفضل الواسع حتى تعاد تربيتهم على السنة السمحة. هدانا الله وإياهم. آمين.

وأكثر ما يتوجه سوء ظن هذه الطائفة إلى صوفية الماضي وطرقية الحاضر. وما من بأس أن يكون من علماء الأمة حسبةٌ على الطوائف الطرقية. بل من الواجب قمع البدع أنَّى كانت. لكن الإجحاف هو أن يقرأ أنصافُ الأميين مقالة أو اثنتين عن

(1) كتاب الخراج، ص: 140.

خلافات الماضي فيَسْحَبُوا على الحاضر سوء ظنهم مضافا إلى مبالغة من يقلدونهم من الأقدمين، مَضْرُوباً ذاك في هذا، معرِّضين مستقبل الإسلام لتكرار مآسي الخلاف دوْراً كما تدور الآلة الميكانيكية الخَرِبَة.

والإنصاف أن نُعْطِيَ كل ذي حق حقه، حاكمين بمعيارنا لزماننا، وبمعيار الـمُنصفين الناطقين من هناك، المحدودين غيرِ المطلقين.

قال منصفٌ من العلماء: «وهذه الشطحات (شطحات بعض الصوفية أي كلامهم السُّكْري) أوجَبَتْ فتنة على طائفتين من الناس. إحداهما حُجِبت بها محاسنُ هذه الطائفة (الصوفية)، ولُطْفُ نفوسهم، وصدق معاملاتهم. فأهْدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأساءوا الظن بها مطلقا. وهذا عدوان وإسراف، فلو كان كل من أخطأ أو غلط تُرِكَ جملةً، وأهْدِرت محاسِنُه، لفسدت العلوم والصناعات والحِكَمُ، وتعطلت معالمها.

«والطائفة الثانية حُجِبوا بما رأوه من محاسن القوم، ولكفاء قلوبهم، وصحَّة عزائمهم، وحسن معاملاتهم، عن رؤية عيوب شطحاتهم ونقصانها. فسحبوا عليها ذَيْلَ المحاسن، وأجْرَوْا عليها حكم القبول والانتصار لها. واستظهروا بها في سلوكهم.

«وهؤلاء أيضا معتدون مفرطون.

«والطائفة الثالثة -وهم أهل العدل والإنصاف- الذين أعْطَوْا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح. بل قَبِلوا ما يُقْبَل، وردوا ما يرد».[1] قلت: ونعم ما فعلوا إن كانت معهم صنوجُ الميزان كاملةً!

وقال الشيخ ابن عطاء الله رحمه الله: «إيَّاك أيها الأخ أن تُصْغِيَ إلى الواقعين (المكفرين المبدعين) في هذه الطائفة (الصوفية) والمستهزئين بهم، لئلا تسقط من عين الله، وتستوجب المقت من الله. فإن هؤلاء القومَ جلسوا مع الله على حقيقة

(1) ابن القيم في «مدارج السالكين»، ج 2، ص: 39.

الصدق، وإخلاص الوفاء، ومراقبة الأنفاس مع الله. قد سلموا قيادَهم إليه، وألقَوْا أنفسهم سِلْمـًا بين يديه.

«تركوا الانتصار لنفوسهم حياء من ربوبيته، واكتفاء بقيوميته. فقام لهم بأوفى مما يقومون لأنفسهم، وكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غالبهم.

«ولقد ابتلى الله هذه الطائفة بالخلق، خصوصا أهل العلم الظاهر. فَقَلَّ أن تجد منهم من شرح الله صدره للتصديق بولي مُعَيَّنٍ. بل يقول لك: نعم! نعلم أن الأولياء موجودون، ولكن أين هم؟ فلا يُذْكَر له أحد إلا وأخذ يدفع خصوصيَّةَ الله فيه طَلْقَ اللسان بالاحتجاج، عارياً عن وجود التصديق.

«فاحذر من هذا وصفُه. وفِرَّ منه فرارك من الأسد. جعلنا الله وإياك من المصدقين لأوليائه بِمَنِّه».[1]

هـذا. وإن على جند الله، لا سيما عندما تزول الكربة، وتقِلّ الغربة، ويذهب زمان الاضطهاد والـمَغْرَم، وتتاح فرص الـمَغْنَم، أن يحترزوا من المنافقين والدجالين. وإن من الناس ذئابا وثَعالب يندسُّون في الصف بحساب المنافق لمصالحه. فلا يكونن جند الله أغـرَارا يدخل فيهم الخَبُّ اللئيم كما يدخل الثعلب في الحظيرة!

قال الإمام عبد القادر قدس الله سره: «يا غلام! أعرض عن المنافقين المتعرضين لمقت الله عز وجل. كن عاقلا ولا تقرب أكثر أهل الزمان. فإنهم ذئاب عليهم ثياب. خذ مرآة الفكر، وانظر فيها، واسأل الله عز وجل أن يُبَصِّرَكَ بك وبهم. إني قد خَبَرْتُ الخلق والخالق، فوجدت الشر عند الخلق، والخير عند الخالق.

«اللهم سلِّمنا من شرورهم، وارزقنا خيرك دنيا وآخرة. إني لا أريدكم لي، وإنما أريدكم لكم. في حِبَالِكم أَفْتِل (...).

(1) لطائف المنن، ص: 326.

«أنا مِحَكُّ أَهْل الأرض، فكونوا عقلاء، ولا تُبَهرجوا علي. فإني أعرف جيِّدَكم من رديئكم بتوفيق الله عز وجل وتأهيله لي. إن أردت الفلاح فكن سِنداناً لمطرقتي حتى أقْرَعَ دماغ نفسِك وهواك وطبعِك وشيطانِك وأعدائِك وأقرانِك السوء.

«استعينوا بربكم عز وجل على هؤلاء الأعداء. والمنصورُ من يصبر عليهم. والمخذول من وُكِلَ إليهم.

«الآفات كثيرة ومنزلها واحد. الأمراض كثيرة وطبيبها واحد. يا مرضى النفوس، سلموا نفوسكم إلى الطبيب. لا تتهموه فيما يفعل بكم. فهو أرأف بكم منكم بنفوسكم. اِخرَسوا بين يديه، ولا تعارضوه، وقد رأيتم الخير كله دنيا وآخرة. القوم في سكوت كُلِّيٍّ، وخمود كلي، ودهشة كلية. فإذا تم لهم ذلك وداموا عليه، أنطقهم كما يُنْطِق الجمادات يوم القيامة. لا ينطقون إلا إذا أنطقوا. لا يأخذون إلا إذا أُعْطُوا. لا ينبسطون إلا إذا بُسطوا. التحقت قلوبهم بقلوب الملائكة».[1]

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه يحسن الظن بربه عز وجل:

يا سميع الدعاء كن عند ظني ... واكفني من كفيتَه الشر مني
وأعِنِّي على رضاك وخر لي ... في أموري وعافِني واعف عني

وقال راج ربه عز وجل، طامع في عفوه ومغفرته وجنته:

وزادي قليل ما أراه مُبَلِّغي ... فللزّاد أبكي أم لبُعد مسافتي؟
أتحرقني بالنار يا غاية المُنَى ... فأين رجائي فيك! أَيْنَ مَحَبتي!

وقال تائب راغب خلع بُرْدَ الغواية وانخرط مع أهل الهداية:

يا نداماي صحا القلب صَحَا ... فاطردوا عني الصِّبَا والمَرَحَا
شمِّروا بُرْديَ للنُّسْك ولا ... تعجبوا من فاسد إن صلُحا

(1) الفتح الرباني، ص:326.

وقال غافل استيقظ، فظمئ إلى وِرْدِ الأحباب:

قالوا: عساكَ مُترجِمٌ فتُبِينَ لي	هيهات ليس بناظري إن غرَّني!
هاتيك دارهم وهذا ماؤهم	فاحْبِسْ وَرِدْ،وشَرِقْتَ إن لم تَسْقِني!
اشتقتُ يا سُفُنَ الفلاة فَبَلِّغي	وطَرِبْتُ يا حادي الرفاق فغنِّني

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه يوصي بالحذر والحيطة من شر الخلق:

لا يكن ظنك إلا سيِّئا	إن سوء الظن من أقوى الفِطنْ
ما رمى الإنسان في مخْمَصة	غيرُ حُسْن الظن والقول الحسن

وقلت:

كمْ عَملٍ صَالِح أتاهُ	الرَّجلُ الصَّالحُ النَّصوحُ
رَأتهُ عَيناكَ محضَ نُكْر	لِسوءِ ظَنٍّ مِنْكَ يَفوحُ
أوْ لِعلوٍّ في النَّفْس يَبغِي	لِلْخلقِ إصْراً، وذَا قَبيحُ

علوم الصمت

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. اللهم إني أعوذ بك من مُنْكَرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء.

هذا عنوان لأبي طالب المكي رحمه الله في كتاب «قوت القلوب» الذي كان يحبه شيخ مشايخنا أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه ويقول عنه: «إنه يُعْطِي النور» كما يقول عن إحياء الإمام الغزالي رحمه الله: «إنه يعطي العلم». وكان يدرسهما لأصحابه لما فيهما من علم الإيمان والإحسان.

قال أبو طالب رحمه الله في عنوانه: «ذكر بيان تفضيل علوم الصمت وطريق الورعين في العلوم». قال: «روينا في الخبر: العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة قائمة، ولا أدري. وعن الشعبي أنه قال: «لا أدري نصف العلم».[1]

كتاب القوت كتبَه رجل زاهد ورع لزُهَّادٍ ورعين. كتبه إمام في العزلة والخلوة والجلوس لمحاسبة النفس بين أخِلاَّءِ الصفاء. فأيُّ نور يمكن أن نقتبسه لعصور الانبعاث من الغفوة الصوفية، وأي ورع يليق، وأي زهد في الكلام، في عهد تحتاج فيه الدعوة ثم الدولة إلى أَلْسِنَةٍ ناطقةٍ، وأفئدة صادقة؟ تحتاج الدعوة للسان صدق بين الكاذبين، ولسان تبليغ بين الساكتين الخُرْسِ عن الحق، ولسان فُرْقان وسط اللَّغَط الحزبي السياسي، ولسانِ وعظ يذكر بالله ورسوله وباليوم الآخر على عكس

(1) قوت القلوب، ج 1، ص: 277 وما بعدها.

التيار التسطيحي الذي يدفع بالخطاب الإسلامي إلى الحديث عن الدنيا وعن البديل الإسلامي الحضاري في غفلة، بَل إغفال، عن ذكر الله وذكر المعاد.

تحتاج الدعوة إلى «علوم الخطاب والبلاغ» بقدر ما تحتاج إلى «علوم الصمت» حتى لا تقول إلا الحق ولو سكتتْ مرحليّاً عن بعض الباطل. تحتاج علماءَ يعلِّمون العامة مبادئ دينهم وفقَ الربانية التي تربي بصغار الأمور قبل كبارها كما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما. تحتاج الدعوة لِعلماءَ ناطقين بالحق غير متملقين ولا متزلفين للسلطان الجائر كما يفعل علماء السوء الذين شبَّهَ رسول الله ﷺ تخلُّلَهم بألسنتهم بفعل الباقورة، وهي البقرة الشابة.

تحتاج الدعوة إلى ناطقين بالصدق والصواب في عصر «الصحوة الإسلامية» التي كثرت فيها الأعناق المشرئبة إلى الـمُعَمَّمِ الخطيب، ولفَظَتْ فيها المطابعُ الإنتاج الغزير، وسجلت فيها مكائن اليابان خليطا من جيد الكلام ومن الثرثرة الـمُتَفَيْهِقَة. وقلَّ العالم الـمُعَلم الورع الذي يقول: لا أدري، ففات الـمُتَعالِمَ نصفُ العلم بزعمه أنه كنزٌ للعلوم لا ينضُب، وفات المستفتين والسامعين والقارئين كلُّ العلم لأنهم يَرِدون مِنْ بحر لا ساحل له من الدعوَى الهائمة.

تحتاج الدعوة، قبل الدوْلة القرآنية وفيها، إلى الكلمة الهادية الهادئة بَدلاً عن التشدد والتَّشنُّج. قال أبو طالب: «كان الثوري رضي الله عنه (الإمام سفيان: قمة من الرجال) يقول: «إنما العلم الرخصة من ثقة، فأما التشديد فكلُّ أحد يُحسنه»».

تحتاج الدعوة في عصر ارتفعت فيه أعلام الإسلام، ورجع إليه طوعا وسياسة وتوبة صالحة ونفاقا فِئَامُ الناس، إلى علماء متمكنين شجعانا متئدين متسامحين ورعين، لا يقعُد بهم الجُبْن أمام الجائرين عن الجهر بالحق إِبّانَ المحنة، ولا تستَفزُّهم الرئاسةُ بعد النصر عن التزام الورَع، ولا يتجرَّأون على الفتوى بغير عِلم، لأن الجرأة الجاهلة عليها تقحُّمٌ في النار كما جاء في الخبر.

قال أبو طالب رحمه الله: «الورَع هو الجبن عن الإقدام والهجوم على الشبهات». فمن لنا بعلماءَ يقول الواحد منهم «لا أدري» لِيترك مجالًا لاجتهادٍ جماعيٍّ تجتمع

فيه أنصافُ العلم بما عند كل من صواب ليتكون للأمة ذُخْرٌ من العلم الجامع! من طَبْع علماء النصوصِ الذين لم تتهذب نفوسهم ولم يُطبِّبْ طبيبُ الإحسان قلوبَهم النَّزْوُ على الكلام والسبْقُ إلى الجدل والاعتمادُ على الأخضر الحي واليابس الميت والملْتَهب المُحرِق من تراث الخلاف ليَغْلب رأيُه وتنتصر كلمته.

أية تربية، أو إعادة تربية، تَلْزَم لكيلا يضيع العلماء بعد انتصار الدعوة في الإهمال، وهم كانوا في قيلولة الدعة ومسالمة الباطل وأهلِه أيامَ المحنة؟ أيةُ تربية زائدة على تربية الأحداث وعِبرَة الواقع تلزَم لكيلا تضيع الأمة في أسراب أهل العلم المتدربين المحَصِّلين الذين صمتوا أيامَ كان الكلام بغير تَجمِيرِ الحاكم الظالم ببَخور النفاق مَغْرَما؟

يحرِص أحدهم على منصبِه في المجتمع، ويخاف أن تموت سمعتُه، ويجبُن عن كلمة الحق ولو لم تُرْضِ الناس، ويجبُنُ حتى عن الحياد واللِّواذِ بكلمة «لا أدري» المنجِيَة. فإن جَبُنَ أحدهم حتى عن حياد «لا أدري» يومَ كان الجبارون في الأرض يحشدون خطباءَ الجمعة لتمجيد الفسق فقد أصيبَتْ مقاتِلُ دينه، وانهدَّتْ أركانُ مروءته. فكيف تستصلح الدعوة بعد النصر هؤلاء الأفاضلَ، أم كيف تُحيِي فيهم ما كان خَمَد، وتُرمم ما كان انهَدَّ؟

هذه أسئلة على «علوم الصمت» و«علوم الخطاب» نطرَحها ليومِ التؤدة والصبر والحلم والعفو والسماحة. وإن أهل العلم الناطقين زُوراً بالأمس لأحَقُّ الناس بالفضل. يشفَعُ لهم العلمُ، ويرعَى حرمتَهم الانتساب إليه، ويوجب عليهم دينُهم الوفاءَ بحقه، وافتدَاءَ الماضي الصامتِ الأخرسِ الناطقِ بأمجاد السلطان من أسر المسؤوليّة الدينية التي ألقاها الله عز وجل على أهل العلم في قوله: ﴿**وَإِذَ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ**﴾.[1]

قال أبو طالب رحمه الله: «قال علي بن الحسن ومحمد بن عجلان: إذا أخطأ العالـمُ قولَ «لا أدري» أصيبت مقاتله. وقاله مالك والشافعي بعدهما».

(1) آل عمران، 187.

على العلماء الناطقين بالصدق، المتَرجِمِين عن الحق أن يُبَيِّنوا للناس الكتاب والحكمة. متى اجتَرأ أحدُهم على الجهر، طائعا أو مغلوبا مجرورا، بكلمة الخطَلِ فقد قلَّ حياؤه، وتشيطن بيانُه. وقد قرأنا في الحديث الصحيح في فقرة سابقة أن رسولَ الله ﷺ قال: «الحياء والعَيُّ شعبتان من الإيمان، والبيان والبَذَاء شعبتان من النفاق». وقال الترمذي رحمه الله في شرحه للحديث: «البيان (المقصود في الحديث) هو كثرة الكلام، مثل هؤلاء الخطباء الذين يخطبون الناس ويتوسعون في الكلام، ويتفصحون فيه من مدح الناس فيما لا يُرضي الله».

وكما يجب أن تحترز الدعوة، لاسيما بعد النصر وقيام دولة القرآن حين يغيب المغرَم وتتكاثر الترشيحات للمغنم، من تقَحُّم الجاهلين المجتَرئين، كذلك يجب أن تحترزَ من وصايةٍ تُفْرَضُ عليها من جانب أهل التحصيل والتخصص والشهادات والسمعة والمؤلفات.

فمن خصائص هذه الأمة المباركة المرحومة أنه لا كهنوتَ يمكن أن يُقْبَل على المسلمين، ولا احتكار للرأي، ولا استبدادَ بزعم التفوق العلمي. يُخافُ من تسلط أهل اللسَن والفصاحة والخطابة والبيان (كما شرحه الترمذي) أن يستولوا على العامة الميَّالين إلى الإعجاب بكل من يجيد العربية، أو يُظهِر للعامة أنه يجيدها.

من خصائص هذه الأمة أن يشارِكَ كل مؤمن ومؤمنة في التبليغ والبيان، على شرطي الحياء والعَي بمفهومهما الحديثي، وهو الحياءُ من الله عز وجل ومن العباد أن ننطق بغير علم، والكفُّ عن الثرثرة المتعالِمة وعن الجدل، والإمساكُ التام عن الفتوى بنصف علم أو عشره أو رائحته ووهمه.

قال أبو طالب رحمه الله: «كل مؤمن (قلت: ومؤمنة) من هذه الأمة يسأل عن علم الإيمان، ويُسمع قوله، ويؤخَذ من رأيه وعلمه مع حداثة سنه. ولم يكونوا فيما مضى (من الأمم) يسمعون العلمَ إلا من الأحبارِ والقسيسين والرهبان، لا غير من الناس».

لا مناص من أن يكون للدعوة ناطقون برأيها، سواء كانت الدعوة القائمة واحدة بالتنظيم أو متعددة في دائرة التعاون على البر والتقوى. لكلِّ فئة دعَوِيَّة رأيُها

واجتهادُها تجهَر به وجوبا ولا تكتُمه، ويُرَدُّ عليها وتَرُدُّ. أما أن يزْعُم أحد أن نطقَه هو كلمة الدين، لا دين لمن خالفه ولَوْ في غيرما هو معلوم من الدين بالضرورة، فهو تنبّؤ ودجَل. عافانا الله من سيِّئ الأعمال والأهواء والأدواء.

أما الدولة المقامة على الدعوة، المُراقَبة من طرفها، المضبوطةُ بضوابطها، السائرة في رِكابها، الخادمةُ لأهدافها، فيكونُ لها صمتها وأسرارها وكلامها، وتصريحُها وتلميحُها. مدبَّراً كل ذلك مقدَّرا محسوبا. لا يجوز بعد شورى أهل الدعوة وتقليبهم للرأي، وتصويتهم، وإجماعهم أو شبهه، وعزمة إِمارتِهم، أن يكون في خطاب الدولة خلل أو تناقض. وإنما خطاب الدولة الإسلامية وسطَ ضوضاء السياسة العالمية والتصريحات اليومية والمواقف المتحركة صناعةٌ دقيقة تسمى دبلوماسية بلسان العصر. وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم «فالحرب خدعة»، كما روى البخاري رضي الله عنه عن الإمام علي كرم الله وجههُ.

قال الإمام عبد القادر قدس الله سره العزيز: «يا قوم! اتعظوا بمواعظ رسول الله ﷺ. ما أقسى قلوبكم! سبحان من أقدرني على مقاساة الخلق. كلما رُمت الطيرانَ جاء مِقَصُّ القدر وقص جناحي. غير أني أتسلى بأني مقيم في بَراح الملِكِ.

«ويلك يا منافق! تتمنى خروجي من هذه البلدة! لو تحركتُ تبدل الأمر وانفصلت الأعضاء وتغير الحديث! (...)

«ويلك تستهزئ بي وأنا واقفٌ على باب الحق عز وجل أدعو الخلق إليه! سوف ترى جوابَك! اِبنِ إلى فوق ذراعا وإلى تحت آلافا. سوف ترون يا منافقون عذاب الله عز وجل وعقابه دنيا وآخرة. الزمانُ حُبْلَى، سوف ترون ما يكون منه. أنا في يد تقليب الحق عز وجل، تارة يصيِّرني جبلا، وتارة يصيرني ذرة، وتارة يصيرني بَحْرا، وتارة يصيرني قَطْرَة، وتارة يصيرني شمسا، وتارة يصيرني لَمْعَةً وبرقة. يُقَلِّبني كما يقلب الليل والنهارَ! كل يوم هو في شأن، بل كل لحظة.

«اليوم لكم، واللحظةُ لغيركم!

«يا غلام! إن أردت سَعَة الصدر وطِيبَ القلب فلا تسمع ما يقول الخلق، ولا تلتفت إلى حديثهم. أما تعلم أنهم ما يرضَوْن عن خالقهم، فكيف يرضون عنك! أما تعلم أن كثيرا منهم لا يعقلون، ولا يبصرون، ولا يؤمنون، بل يكذِّبون ولا يصدِّقون.

«اتبع القوم الذين لا يعقلون غير الحق عز وجل، ولا يسمعون من غيره، ولا يُبصرون غيره».(1)

قال عارف بالله لا يرى قدرة غير قدرة الله، ولا يشاهد قلبه غير الله:

تنـزَّهَ عـن أن يسموَ الفكـر نَحْـوه ... وجل عن التكييف بالقَبْلِ والبَعْدِ
وما الرب إلا حـاضرٌ غيـرُ غـائـب ... وإن طاح ذو الإلحاد في هُوَّة الجحْد
إذا ما تبَـدَّى نـورُه لقـلـوبنـا ... محـا كـلَّ ظـل للضـلالـة مُمْتـدِّ
فلـولاه كنـا هـائمـيـن بمَـهْـمَـه ... من الشك في ليل من الجهل مُسْوَدِّ
وليس بحـيٍّ مـن يرى الحقَّ بـاطـلا ... ولكنـهُ مـن ظـلـمة الجهل في لحد
أرى العـارفين السابقين إلى المَدَى ... كثيـرين في المعنى قليـلين في العَدِّ
ونحـن أنـاسٌ طهَّــر الحـق سـرَّنـا ... ففـي الله ما نخـفي وفي الله ما نُبـدي
فإن كنت لا ترضى سوى الحق مطلبا ... فَـيمِّـمْـه من باب التجـرُّد والزهـد
فمـا يستَفَــاد الفـوز دون مشقـــة ... ولا تُجْتَـنَى الراحـات إلا مـن الكـدِّ
خَـلـوْتُ بنفسـي كـي تتِـمَّ سعـادتي ... فأجْنِي ثمارَ الفوز من مَنْبَت الجِدِّ
وما أنا وحـدي حين أعْرِضُ عنكـمُ ... ولكـن معي مـن ليس يتـركني وَحْـدي

وقلت:

لَيـسَ مَـن يَنطِـقُ خُـرْقًا ... كَالحَكيــــمِ المُطْمَـئِـــنِّ
سِــــرُّنا يُحفَـــظُ عَمَّــنْ ... كــــانَ مِن إنـــس وجـــنِّ
لستُ أُفْشي السِّــرَّ أَبْـــد ... يهِ وَلا لـــستُ أُكَـنِّـــي

(1) الفتح الرباني، ص:50-51.

النقـد

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾. اللهم متعني بسمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني، وانصرني على من ظلمني، وخذ منه بثأري.

في «كتاب الرقاق» من صحيح الإمام البخاري رضي الله عنه «باب حفظ اللسان». روى فيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن العبد ليَتكلَّم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلْقِي لها بالا يَهْوِي بها في جهنم».

مَعَنا في هذه الفقرة كلماتٌ فصيحات من رضوان الله خَلَّفها رجل من عظماء هذه الأمة تَخْرِقُ الصمت الشاكَّ المشكك الذي يحوم بأجنحته السوداء الدَّكْنَاء حول قضية التصوف وحول قضية التربية الإيمانية الإحسانية. صَمْتٌ مُرتَابٌ مُرِيبٌ حتى إنه ليكفي أن يسمعوك تتحدث عن ذكر الله، وعن حب الله، وعن تعظيم رسول الله، ليُصَنِّفُوك في خانة المطعون في عقيدتهم قبل أيَّة محاكمة.

ثمان صفحات كتبها الإمام حسن البنا رحمه الله، أستاذ هذه الأجيال الخيِّرة، يخبِر فيها بصدق ووفاء وثقة لا تتلَجْلَجُ عن صحبته للصوفية، وعن كريم خصال شيخ الطريقة، وعن استفادته منذ طفولته حتى اكتمالِه من رصيد محبتِه للذاكرين. ثم ينتقد الأستاذ الصوفيةَ والتصوفَ نقدا رفيقا لا يجرَح، لكنه لا يترك في الغموض الجوانبَ السلبية، ولا جناياتِ المنحرفين على المستقيمين. النقد هو تمييز صالح الدنانير من مغشوشها. ليس النقد الكسرَ والتمزيق والتقبيحَ والرفضَ. وعبقريُّنا البنا صَيْرَفِيٌّ في معرفة الرجال، فقيهٌ في الدين، مُبالٍ بما يخطه يمينُه أعظم الـمُبالاة. فنفتح

أبواب نقد الصوفية بكلماته، ذلك النقدُ الواجبُ الذي لا يحتمل الهوادَة في فضح الزيف، ولا يحتمل الصبر ولا الصمت عن طرح البهرج والبراءةِ منه.

لقيَ الطفلُ حسن البنا الإخوان الحصافيَّة وهو في الثانية عشرة من عمره في المسجد، فاجتذبته حلقة الذكر «بأصواتها المنَسقة، ونشيدها الجميل وروحانيتها الفياضة».[1] واحتذبته سماحة الشيوخ الفُضَلاءِ، والشبابِ الصالحين وتواضعهم فواظب على حِلَق الذكر، وقرأ مناقبَ شيخ الطريقة الذي مات قبل ذلك بثمان سنوات فأُعْجِبَ بسيرته غايةَ الإعجاب. والشيخ حَسَنَيْن الحصافيُّ كما يصفه الأستاذ جديرٌ حقا بأن يكون قُدْوةً. فمعه العلم، إذ هو عالم أزهري، ومعه التقوى، ومعه التربية الصوفية تلقاها من رجالها، ومعه الكراماتُ التي لَمْ تُؤَثِّرْ أخبارُها على الطفل الذاكر مثلما أثرت عليه أخبارُ شجاعة الشيخ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وجه الخاص والعام.

ويرى البنا رُؤْيَا يَقُصُّها بطولها[2] يجادل فيها الشيطان ويباريه حتى تلَقَّاه الشيخ الجليل في صدره واحتجزه وطرد الشيطان. ولازم البنا الطفلُ قراءةَ الوظيفة الحصافية ومصاحبةَ الإخوان الفقراء، كما لازم «الحضرة» وهي الرقص الوجدي الذي لنا فيه كلمة مقبلة إن شاء الله. ولم يتيسر للبنا ملاقاة ابن الشيخ إلا بعدَ خمس سنوات، فبايعه وتلقى منه الطريقة الحصافية الشاذلية، وأذِنَهُ في أورادها ووظائفها.

قال البنا: «وجزى الله عنا السيد عبد الوهاب (ابن الشيخ مؤسس الطريقة) خير الجزاء، فقد أفادتني صحبتُه أعظمَ الفائدة».[3]

فلما أنشأ البنا جماعة الإخوان المسلمين وانتشرت كان للسيد عبد الوهاب في ذلك رأي غيرُ رأي البنا «وانحاز كلٌّ إلى رأيه». قال البنا في مذكراته التي كتبها بعد ثلاث وعشرين سنة من صحبته للصوفية، وبعد خلافه مع شيخها:[4] «ولا زِلنا نَحْفَظ

(1) مذكرات الدعوة والداعية، ص:9.

(2) المصدر السابق، ص:12.

(3) المصدر السابق، ص:14.

(4) المصدر السابق، ص:15.

للسيد -جزاه الله عنا خيرا- أجمل ما يحفَظُ مريد محب مخلص لشيخ عالم عامل تقي نَصَحَ فأخلص النصيحة، وأرشد فأحسن الإرشاد».

من وفاء هذا المريد المحب المخلص أنه كلما عرَّف بجماعة الإخوان المسلمين ذكر أنها، من بين وظائفها، حقيقة صوفية. ومن وفائه ما رواه الشيخ سعيد حوى رحمه الله عن شيخه محمد الحامد رحمه الله أن البنا كان يدَرِّس حِكَمَ ابن عطاء الله رحمه الله في مجالِسَ خاصَّةٍ لِخاصَّةِ أصحابِه.

كان البنا رحمه الله مجددا للدين، هذا لا ريبَ فيه. كان مبارَكا على الأمة بنعمة الله عليه بصحبة أهل الله. وحاول أن يُدْمِجَ التربية الصوفية في مناهج جماعته بما كان معه من خبرة في الموضوع وبما كان معه من وفاء وإخلاص للطريقة شأنَ المريد المحب.

كان رحمه الله رائدا في العمل الإسلامي، أخرجه من سبات التديُّن الفردي إلى آفاق التربية الجهادية والتنظيم وغَشَيَانِ الساحة العامة التي كانت تحتكرها قبلَه الأحزابُ السياسية. رائدا كان، والرائد لا يكذب أهله، والرائد الصادق إن لم تَغْتَلْه المنية لا يَهدِي أهله لغير الـمَرْبَع والمرتع والـمَنْبع. فكانت ريادةُ البنا رحمه الله تتطلع إلى منبع الكتاب ومربع السنة، حطَّ هو في خاصة تربيته منذ الطفولة الرحالَ في مروج التصوف التي تُسْقَى من ذلك النبع العظيم، وأراد أن يَحْدُوَ بِركْبِهِ الكريم خطواتٍ جامعةً. فخالفه الصوفية، وطوتْ من بعده جماعة الاخوان شهادتَه القيِّمة ونقده الأصيل للتصوف، نَقدَ من ذاق حلْوَها ومُرَّها، لا تخريفَ من يَهْرِفُ بما لا يعرف.

يأخذ نقد البنا للصوفية الحيِّزَ الممتاز في مِلَفِّ هذه القضية الحيوية. وتجد أجيالُ الخلافة الثانية إن شاء الله في شهادته الصريحةِ الفصيحةِ دليلا عمليا تجريبيا في كيفية طَرْحِهِ الجُبَّةَ الصوفيةَ الضيقَةَ الأكمام، المتنازَعَ عليها بين الأخوال والأعمام، لكي يرتديَ جندُ الله رداء السنة الكاملة، رداءَ الصفاء الأصلي التبعي المحتفِظ بكل عناصر العلم والعمل التي تفرقت بعد عصر النبوءة والخلافة الأولى على جداولِ الفقه والحديث والتصوف وما تفرع وتقطع.

قال البنا رحمه الله: «هذا القسم من علوم التصوف، وأسمِّيه «علوم التربية والسلوك» لا شك أنه من لُب الإسلام وصميمه، ولا شك أن الصوفية بلغوا به مرتبةً

من علاج النفوس ودوائها، والطبِّ لها والرُّقِيِّ بها، لم يبلغ إليها غيرهم من المربين. ولا شك أنهم حملوا الناس بهذا الأسلوب على خُطَّةٍ عملية».[1]

الرجل رحمه الله كان رجلَ عمل لا رجل جدل، فلذلك استوقفته «الخطة العملية».

ثم يُبرز رحمه الله ما طرأ على الصوفية من مبالغات كالمبالغة في الصمت والجوع والسهر والعزلة. ويشجبُ الشوائبَ الدخيلة على بعض المتصوفة الذين مزجوا الدين بعلوم الفلسفة والمنطق و«مواريث الأمم الماضية وأفكارها». قال: «وفُتِحَت الثغرات الواسعة لكل زِنديق أو ملحد أو فاسد الرأي والعقيدة ليدخل من هذا الباب باسم التصوف والدعوة إلى الزهد والتقشف والرغبةِ في الحصول على هذه النتائج الروحية الباهرة».[2]

يتحدث هنا رحمه الله عن طلاَّب الخوارق عن طريق الرياضات، وهؤلاء ليسوا من الله في شيء، ولا خوارقهم من الروحانية في شيء وإن بهرت الأغرارَ من رَعَاع العوام.

ثم يُعبر رحمه الله عن رِيبته وحذَره الشديد من الدُّخلاء فيقول: «وأصبح كل ما يُكتب أو يقال في هذه الناحية يجب أن يكون محلَّ نظر دقيق من الناظرين في دين الله والحريصين على صفائه ونقائه».[3]

نعم، يجب النَّظر الدقيق. لكن من علماءَ واسعي الأفق، منهاجُهم الخطة العملية لا الوراثة الجدلية. وما يزال المدققون الموفَّقون الذين صبروا مع الذاكرين الصادقين الأعوام الطويلةَ يُدْلُون بشهادة المحبة والوفاء لمشايخهم إلى جانب توصيتهم بالحذر والتدقيق من أحوال المنافقين والشيطانيين. ضَع البنا في امتداد الغزالي وابن تيمية رحمهم الله بهذا الصدد ولا تُبالِ.

ويتخلص البنا إلى مرحلة «التشكك العملي» في الطوائف الصوفية ومتعدِّدات طرقهم. قال: «وتدخلت السياسةُ (قلت: وتدخلت مصالح أمراء الزاوية ومتصرفي

(1) مذكرات الدعوة والداعية، ص:15.

(2) المصدر السابق، ص:16.

(3) المصدر السابق، نفس الصفحة.

الخانقاه بعد عهد الشيوخ المؤسسين) بعد ذلك لتتخذ من هذه التشكيلات (الطريقة) تُكَأَة عند اللزوم. ونُظِّمَتْ الطوائف أحياناً على هيئة النظم العسكريَّة (قلت: في التطبيل والتزمير ورفع الأعلام الملوَّنة، سلاحِ المخرفين)، وأخرى على هيئة الجمعيات الخاصة... حتى انتهت إلى ما انتهت إليه اليوم من هذه الصُّوَر الأثرية التي جمعت بقية ألوان هذا التاريخ الطويل، والتي يمثلها الآن في مصر مشيخة الطرق الصوفية ورجالُها وأتباعها».[1]

يضع الأستاذ رحمه الله أصبعنا على نقطة الداء في جسم التصوف وفي عَصَبِ الدين. تلك هي نقطة وجود مخلفات أثرية أفرزها التاريخ الطويل. ما مر من دار البلاء والامتحان في هذه الدنيا رجل صالح هدَى الله به معاصريه إلا خلفه «ورثة» يحافظون على الاسم واللقب. قد يكون منهم الصالحون، بل هم كائنون قطعا. لكن آخرين في حاجة إلى «تفكير طويل»، كما يعبر البنا، لإصلاح حالهم. ذلك الإصلاحُ الذي يَظنه البنا في آخر مقالته عن التصوف سهلا ميسورا. ويوصي أن هذا الإصلاح لا تفيد فيه الكتابات النظرية، إنما تفيد «الخطة العملية». رحم الله الأستاذ الفذ. آمين.

قال الأستاذ عبد القادر رحمه الله: «يا غلام! قد تبت على يدي وصحِبْتَني. إذا لم تقبل مني ما أقولُ لك، إيش ينفعك ذلك! رغبت في الصورة دون المعنى. من يريد يصحبُني يقبَلُ ما أقول له، ويعمل به. يدور كيف دُرْتُ وإلا فلا يصحَبْني، فإنه يخْسَرُ أكثر مما يربَح. أنا سِماطٌ نُصِبَ ولا يأكل مني أحد! باب مفتوح لا يدخله أحد! إيش أعملُ بكم! كم أقول لكم وأنتم لا تسمعون مني! فإني أريدكم لكم لا لي. إني لا أخافكم ولا أرجوكم. لا أفرق بين الخراب والعمران، بين الباقي والميت، بين الغني والفقير، بين الملِك والمملوك. الأمرُ بيد غيركم.

«لما أخرجْتُ الدنيا من قلبي صح لي هذا. كيف يصح لك التوحيد وفي قلبك حبُّ الدنيا. أما سمعت قول رسول الله ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»؟

(1) مذكرات الدعوة والداعية، ص:16.

«ما دمت مُبْتدئا مُعْتدّاً طالبا سالكا فحبُّ الدنيا في حقك رأس كل خطيئة. فإذا انتهى سرُّ قلبك ووصل إلى قرب الحق عز وجل حبَّبَ إليك قَسْمك من الدنيا وبَغَّضَ إليك قسم غيرك (...).

«لا تزاحم القوم بنفاقك فإنك ما تُخَلَّى بلا كلام حتى تقطع الزُّنَّارَ، وتجدد الإسلام، وتتحقق التوبةُ بقلبك، وتخرجَ من بيت هواك وطبعك ووجودك (...) فقه القلب لا فقه اللسان. فقه القلب يقربك إلى الحق عز وجل، وفقهُ اللسان يقربك إلى الخلق ومُلوكِهم».[1]

قال ناقدٌ لنفسه، زاجر لها، مُمسِك بعِنانها:

إذا ما عَــدَت النفــسُ عــن الحق زَجَرْنــاهــا
وإن مــالــت إلــى الدنيــا عــن الأخــرى منعناهــا
تــخــادِعــنــا ونخدعــهــا وبــالصــبــر غلبنــاهــا
لــها خــوف مــن الفــقــر وفي الفــقــر أنخنــاهــا

وقال من أناخَها في أرض الزهد وزمنه:

قطع الليالي مع الأيام في خلق والنوم تحت رواق الهم والقلق
أحرى وأجدر بي من أن يقال غدا إني التمست الغنى من كف مختلق
قالوا: رضيت بذا؟ قلت: القنوع غنى ليس الغنى كثرة الأموال والورق
رضيت بالله في عسري وفي يسري فلست لأسلك إلا واضح الطرق

وقلت:

إذا ما مُنْكَــرٌ شَــاعَــا بِنَــادِينَــا قَــمَــعْــنَــاهُ
وإن خَطَــلٌ من الرأي اسْــ تبــان لنــا نَقَــدْنَــاهُ
وإن نَطَــقَ السَّفِيــهُ بسا فِــلِ القــول زَجَــرْنَــاه

(1) الفتح الرباني، ص:176-177.

تلبيس إبليس

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. اللهم إني أسألك غنايَ وغنى مولايَ.

أصبَحت عبارة «تلبيس إبليس» شِعاراً مرفوعا ضد التصوف والصوفية، حتى إن الشَّحنة النقديَّة التحامُلية التي في كتاب ابن الجوزي تركزَّت في هذا القُرْصِ المقتضب الضارب. في سمع عامة المتمسحين بالكتب الدينية، كثيرٍ منهم، الصوفيةُ هم تلبيس إبليس، وتلبيس إبليس هو التصوف. وكفى.

وأقُولُ: إن هذا بالإضافة إلى كونه جهلا مُطْبَقا ظلْمٌ لمؤلف الكتاب الفقيه الحنبلي الواعظ المحدث ذي التآليف الغزيرة. فقد أعلن هذا الفقيه الخصمُ المنغَلِقُ للصوفية أنه يذكر في كتابه «الشر» لا غيرُ، والتزم بمبدئه التزامـاً دقيقا مُخلِصـاً حتى إنه صور التصوف من ألِفِه إلى يائه شَرا أسودَ محْضـاً. فمن اعتمد على مثل هذه الكتب دون أن يسأل عن قصد المؤلف وباعِثه ظلَم نفسه وظلم المؤلف وظلم الناس.

قال ابن الجوزي في المقدمة: «فإِنَّ في تعريف الشر تحذيراً عن الوقوع فيه. ففي الصحيحين من حديث حذيفة قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير. وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يُدركني».[1] وما عدا الكاتبُ الفقيه منهجية السؤال عن الشر، فجمع أقوال الملاحظين المنصفين وأقوال المتحاملين وحكايات الشذاذ، واستقصى في ذلك استقصاءً. وألغى كل رأي مخالف للنظرة «الشرية»، ونشر المثالب والمعايب، معلنا أن آلتَه العقلُ و«مثال العقل العينُ، فإذا انفتحت وكانت سليمة رأت

(1) تلبيس إبليس، ص:12.

الشمس». ويقصد بالشمس الشريعة كما يراها الفقيهُ المفتي أحكاماً يتداولُها العقل عن النقل خارج الدوائر القلبية التي لا يحب الفقيه أن يسمع حتى عن خبر أبجديتها.

من السهل أن نصنف كتاب ابن الجوزي مع كتب «المثالب» المعروفة في الأدب العربي: مثالب الوزراء، مثالبُ العرب، مثالب العجم، إلخ، لولا أن كثيرا من الـمُخْزِيات التي أوردَها حقائق واقعيَّة، كانت ولا تزال، ولولا أن وجود هذه المخزيات الفاضحة يشكل طعنة في فؤاد الدين. كان يَظُن الفقيهُ الخصم الـمَبْدَئِيُّ أن مجرَّدَ فضح لعب إبليسَ بالناس كافٍ لصد هجماته. قال: «وإنما يصح له (أي إبليس) التَلصُّصُ في ليل الجهل. فلو قد طلع عليه صبحُ العلم افتضح». أما العلماء بما هو عليه أمر المتلصصين على الدين باسم التصوف، مثالان الغزالي وابن تيمية رحمهما الله، فقد بلغ بهم الغضبُ على الملَبِّسين إلى الاستنجاد بالسيف لقطع دابر القوم الذين ظلموا.

وعالمٌ ثالث، هو حسن البنا ذو الأساس الصوفي المتين، مكنته صحبته الطويلة للصوفية من إدراك الواقع الصوفي في مصرِ القرن الرابع عشر بما له وما عليه، فأعطى صورة رفيقة للمسألة هوَّن فيها من شأن النقائص، ورأى أن إصلاح الطوائف الصوفية «سهل ميسور».

ونحن تتميَّز نفوسُنا غضبا على الدكاكين المتاجرة في الدين باسم التصوف، لكننَّا نسمع لسان «الخطَّة العملية» كما سمعها حسن البنا، وهي لسانُ الرفق النبَوي والتؤدة. على أن يكون سيفُ الوازع السلطاني الإسلامي، في غد الإسلام، مُصْلَتا في الأفُق إرهابا لأعداء الله وأعدائنا، ومن أحقرهم وأشدهم فتكاً الملَبِّسُون.

قال الأستاذ البنا رحمه الله بعد أن عرض «الصورة الأثرية» للصوفية الطائفية في عصره: «ومن واجب المصلحين أن يطيلوا التفكير في إصلاح هذه الطوائف من النّاس. وإصلاحُهم سهل ميسور، وعندهم الاستعداد الكامل لهُ. ولعلهم أقربُ الناس إليه لو وُجِّهُوا نحوه توجيها صحيحا. وذلك (...) لدراسة هذه المجتمعات

(يعني الطرق الصوفية)، والإفادةِ من هذه الثرْوَةِ العلمية، وتخليصِها مما علِقَ بها، وقيادةِ هذه الجماهير بعد ذلك قيادةً صالحة».[1]

انفتح للبنا رحمه الله أُفُقُ العمل الإسلامي الإحيائي، فتكلم بلسان المسؤولية. وعاش الغزالي رحمه الله، بعد سلوكه وفتحه، حسرتَه على ما رأى من انحرافات الملبسين الإبليسيين فأرسل زفراته من خلف جدران زاويته حيث كان يربي التربية الصوفية العلمية ثُلةً من المريدين.

قال في حق الإباحية والزناديق ومن على شاكلتهم، بعد أن ذكر الحديث النبَويَّ عن افتراق الأمة ثلاثا وسبعين فرقة: «وأما سبب ازدياد هذه الفرق، فإن الشيطان حسد الصوفية الذين هم أحسن الخلق، وكانوا غيرَ مبْتَلَيْنَ بأيَّة شهوة أو معصية. وحسدَ الفاسقين وقال: ولو أنهم من أسوءِ الخلق إلا أن باب الأمل مفتوح لهم. وهو أن يعلموا خطاياهم فينظرُوا في أنفسهم بعين النقصان ويتوبوا. فإذا تابوا فإن الله تعالى يقبل التوبة. ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ**﴾.[2]

«فلا بد من طريق لتلويث هؤلاء الطيِّبين بالمعاصي، وتعمية هؤلاء الفاسقين حتى لا يرَوْا شرورهم وآثامهم. فأراد أن يجمع بين الصوفية والفاسقين، فجاء قائلا للصوفية. لماذا تزجُرون أنفسَكم بلا فائدة! حيث إن الله لا يحتاج لشيء من طاعتكم، ولا يضره شيء من معصيتكم (...) فزجْرُ النفس ورَدْعُ الشهوات ليس إلا من الحمق.

«فلما أثَّرَتْ في قلوبهم هذه الوسوسَة وأمدَّتهم الطبيعة الحيوانية لطلب الشهوة أخذت ترسخ وتستَحْكم حتى أخذوا بالمعاصي وأباحوا النساءَ والأولادَ، وكانوا في لَبْسِ ولباس الصوفية.

«(...) وفي الحقيقة إنهم أسوأ الخلق وأردأ الأمة. وعلاجُهم البأس. ولا تفيدهم المناظرةُ ولا النصيحةُ. فمن الواجب استئصالهم وقمعُهم وإراقة دمائهم. ولا طريقَ سوى هذا في إصلاحهم. يفعل الله بالسيف والسنان ما لا يفعل بالبرهان».[3]

---

(1) المذكرات، ص:17.

(2) طه، 82.

(3) رسائل حجة الإسلام الغزالي، ص:147-148.

أستغفر الله العظيم. فليست الطوائف الطرقية التي رأى الأستاذ البنا أنها أقرب الناس إلى الإصلاح من نوع الإباحية الذين نذَرَهم الإمام الغزالي للسيف. وإن في هذه الطوائف، قطعا وجزما، رجالاً صادقين وإن كان كل تجمع لا يخلو من منافقين.

لا، وليست طوائف مصرِ القرنِ الرابع عشر، على ما عند كثير منها من بدع، من صنف الطوائف الضالة المضلة التي ناظرها في شام القرن الثامن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ثمّ نذَرها للسيف لَمَّا رأى، مثلما رأى قَبْله حجة الإسلام، أنه لا يُصلحها إلا السيف.

انبرى شيخ الإسلام لغزو الملَبِّسين في حملة من حملاته، فبارز طائفة من «البطايحية» المنتسبين، كما تنتسب الفرق الضالة للإسلام نفسه، إلى الإمام الرفاعي. ولم يعمِّم ابن تيمية حكمه على أهل تلك النسبة، بل أنصف، وميز بين الخبيث والطيب، ولم يؤاخذ السليم بجريرة المجذوم.

قال رحمه الله: «ويوجد في بعضهم التعبُّد، والتألُّه، والوَجْد (قلت: الوجد عند ابن تيمية محمدة وعند ابن الجوزي شيطنة. وشتان بين من يدري ومن لا يدري!) والمحبة، والزهد، والفقر، والتواضع، ولينُ الجانب، والملاطفةُ في المخاطبة والمعاشرةِ، والكشفُ، والتصرفُ ونحو ذلك».[1]

وقال عن الرديئين: «يوجد أيضا في بعضهم من الشرك وغيره من أنواع الكفر، ومن الغلُوِّ والبِدَعِ في الإسلام، والإعراضِ عن كثير مما جاء به الرسول، والاستخفاف بشريعة الإسلام، والكذب، والتلبيسِ، وإظهارِ المخارق الباطلة، وأكلِ أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله».[2]

كانت لشيخ الإسلام مع هؤلاء المشعوذين وقائعُ قصها في كلام مسجوع. وهذا نادر في نثر ابن تيمية، وكأنَّ أسجاعه أرجوزَةٌ من هذه الأراجيز التي كان العرب ينشدونها في ساحة الوغَى. كان الرجل الكبير، العالم المشارِك، من الخبرة

(1) الفتاوي، ج 11، ص:446.

(2) المصدر السابق، نفس الصفحة.

والدِّراية والذوق والوجد بحيث يفرق بين كشف الصالحين وكراماتهم وتصرفهم وبين مخاريق أهل الباطل الباطلة. كان صيْرَفيّا ماهرا، في حدود ما قبلَ فتحه في السجن. ولم يكن ابن الجوزي، غفر الله لنا وله وجزاه عن حسن قصده، إلا جمَّاعا للأخبار.

قال شيخ الإسلام: «فمن معه ذهبٌ فَلْيأْتِ به إلى سوق الصرف. إلى عندِ الجهابذة الذينَ يَعرِفون الذهب الخالص من المغشوش».[1]

ولأنه كان صيرفيا جهَبَذاً وكان صادق الغيرة شجاعَ القلب خاض المعاركَ دفاعا عن الإسلام مع المنحرفين الماكرين الذين استحوذوا على عقول العامة والخاصة. قال: «وكانوا لِفَرْطِ انتشارِهم في البلاد، واستحواذهم على الملوك والأمراء والأجنادِ، واستبدال أكثر الناس بالنُّور الظلامَ، وطموسِ آثار الرسول في أكثر الأمصارِ، ودروس حقيقة الإسلام في دولة التتار، لهم في القلوب موقع هائل، ولهم (للملوك والأمراء) من الاعتقاد ما لا يزول بقول قائل».[2]

ومع صولتهم قارَعَهم بالحجة والمناظرة، حتى حضر معهم في بَلاطِ أمير البلد حيث ناشده أن يعمل فيهم بسيفه كما قرأنا في فصل سابق.

قال الإمام عبد القادر رحمه الله: «ويحك! إذا قلتَ «لا إله» فهي نفْيٌ كلي، و«إلا الله» إثبات كلي. له لا لغيره. فأيَّ وقت اعتمد قلبك على شيء غيرِ الحقِّ عز وجل فقد كذبت في إثباتك، وصار إلهك الذي اعتمدت عليه. لا اعتبارَ بالظاهر. القلب هو المؤمن، هو الموحد، هو المخْلِص، هو المتقي، هو الورع، هو الزاهد، هو الموقِنُ، هو العارف، هو العامل، هو الأمير ومن سواه جنوده وأتباعه.

«إذا قلت: «لا إله إلا الله» فقل أولا بقلبك، ثم بِلسانك. واتكل عليه، واعتمد عليه سبحانه دون غيره. اِشْغَلْ ظاهرك بالحكم (الشرعي)، وباطنك بالحق عز وجل (...).

(1) الفتاوي، ص:448.

(2) المصدر السابق، ج 11، ص:456.

«من عرفه سبحانه ذَلَّ له، وكلَّ لسانُه بينَ يديه، وتواضع له ولعباده الصالحين، وتضاعف همُّه وغَمُّه وبكاؤه، وكثر خوفه ووجله، وكثر حياؤه، وكثر ندمُه على ما تقدم من تفريطه، وتشدَّد حذره وخوفه من زوالِ ما عنده من المعرفة والعلم والقرب (...).

«من جملة العارفين، في الشذوذ والندور، من يأتيه الأمْنُ. يُتْلى عليه ما سبق له، يَعلَم بموئِله وما يكون مصيرُه إليه، يقرأ سرَّه وما له في اللوح المحفوظ. ثم يُطْلِعُ القلبَ على ذلك ويأمُرُه بكتمه وأن لا تطَّلِعَ النفس على ذلك. ابتداءُ هذا الأمر الإسلام وامتثال الأمر، والانتهاء عن النهي، والصبرُ على الآفات. وانتهاؤه الزهدُ فيما سوى الحق عز وجل».[1]

قال زائر أنكر ما بدَّل المبدلون ولبَّس الملبسون:

لا والذي حجَّت قـــريش بيتَه مستقبلين الركـــنَ من بَطحائها
ما أبصـرت عيني خيامَ قبيلة إلا ذكـــرتُ أحبّتي بفِنـائهـــا
أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحـــي غيرَ نسائهـــا

وقال زاجر لنفسه، غير مغتر بتزْيينها:

وصَفْنَا طريق الصـالحين وفعلَهم ومــا حظنا إلا التزيُّـــنُ بالوصف

وقال لائم لنفسه موبخ لها على قبيح اعوجاجها:

ومن العجائب أن تكون كما أرى وتظن نفســك فــائزا مقبـولا!
كيف السبيـــل إلى نعيم آجل في حق من لم يستقم في الأُولَى!

وقلت:

سيُسْفَعُ بِالنَّوَاصِي الكَاذبَاتِ تَمَطَّتْ بِالنَّـوَادِي الْخَاطِئَــاتِ
يُزَوِّرُ بَعْضُهُمْ قَـوْلاً غُـرُوراً وَيلْبَسُ مَنْ مُسُوحِ الْمَكْرُمَـاتِ
ذِئَــابٌ فِي ثِـيَابٍ لَوْ تَـرَاهُمْ نُكُوسَ الرَّأْسِ منْ بَعْدِ الـمَمَـاتِ

(1) الفتح الرباني، ص:74-75.

السماع

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾. اللهم إنيَ أسألك من عندك رحمة تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلُم بها شعثي، وتُصلح بها غائبي، وترفع بها شَاهدي، وتُزكي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها أُلْفَتي، وتعصمني بها من كل سوء.

السماع غناء بألحان كان ولا يزال يصنعه بعض الصوفية. واختلس الشيطان وحزبُه من الملبسين والماجنين والإباحِيِّين الاسمَ فأطلقوه على الغناء الفاجر الذي سماه فضيل بن عياض رحمه الله «حُداء الزِّنا». لا خلافَ عند أهل الحقِّ في أن السماع الشيطانِيِّ رجسٌ وفسق. إنما كان الخلاف في التغني بشعر زهدي تذكيري على هيئة خاصة. فرخص طائفة فيه من الصوفية منهم الغزالي، ومارسه آخرون من العلماء الأجلاء مثل العز بن عبد السلام، وتشدد في منعه آخرون.

نرجع إلى الموضوع إن شاء الله بعد أن ننظر في الغناء وبلائه باهتمام مستقبليٍّ. إن اللهو واللعب والمتاعَ سمات كل مجتمع جاهليٍّ، وما فتح على جاهلية من أسباب ذلك ما فُتح على الحضارة الماديَّة المستكبرة في الأرض في زماننا. الكُرَةُ الأرضية كلها مسرَحٌ واحد لعرض مشاهد الرقص والغناء والعُري وكل لوازم الفاحشة ومؤيداتِها ومُغرياتِها ودعاياتها و«فنونها» و«ثورتها الجنسية». وحول الأرض طَوْقٌ متواصل من الأقمار الصناعية تبُث بالصوت الجاهر والصورة واللون ما تُفرِزُه دور إنتاج الفاحشة في أمريكا وسائر عواصم الفساد.

لا بد غداةَ وقوف الدولة الإسلامية على ملإٍ من المنتظرين والمتربِّصين أن يُتَّخَذَ قرارٌ في شأن هذا البلاء المصبوب صَبّا من فجاج الأرض والسماء، المندسِّ دَسّـًا في أجهزة الترانزستُور بكل بيت وفي كل يد، المخزونِ في المسجِّلات اليابانية، المتبرج

بالألوان الزاهية على شاشات التلفزيون العالمي الذي تتبارى شبكاته المتنافسة في صناعة إغواءِ السامع والناظر.

المنعُ والتحريم والعقابُ لا معنى لها ولا جدوَى. وكيف تقبض على الهواء الساري والماء السائل! فراغٌ هائل في حياة الأسرة تملأه جلسة الأطفال والكبار والنساء والرجال إلى مُعلِّم الخَنا التلفزيون، يشرحُ أبواب اللهو والدوابِّيَّة على متون تطبعها الأستوديوهات اليهودية والوثنية. وليس لنا من مندوحة عن الدخول في المباراة العالمية لجلْب انتباه السامع والناظر بوسائل الإعلام الحديثة وفنونه وتقنياته، من مسرح ونشيد ونحو ذلك. وإنَّ قطعَ الصلة بين أشكال الإعلام التي يتيحها التقدم العلمي التكنولوجي وبين مضمونها الجاهليّ الدوابي قطعاً مفاجئا لا يتيسر إن أردنا الاحتفاظ بسمع السامع وبصر المتفرج، وهما كل زيد وعمرو من المسلمين وذراريهم. والإذاعة الإسلامية والتلفزيون الإسلامي اللَذيْن يُتْلَى منهما القرآن والوعظ بالجِد اللازم قد يستمع إليهما المتقون ساعةً، لكنَّ عامَّةَ الناس تدير الزِّرَّ سريعا إلى محطة مَرَح ولهو تؤنس نفوسا تغذت «تربيتها الفنية» بذلك الغِذاء حتى أصْبحَ جزءاً من ماهيتها.

أعني أن قطعَ الأوتار والمزامير، وفكَّ الجوقات الموسيقية لن يكون إلا عملية تدريجية قد تطول.

أما النشيدُ الذي يحمل كلمتَنا للناس فليس النشيدَ الصوفي، وقد سمى الأستاذ البنا رحمه الله السماعَ الذي كان يحضره «نشيدا جميلا»، لكنه النشيد الجهادي الذي نجد له أصلا من فعل رسول الله ﷺ وقوله. فلا كلامَ ولا جدالَ. فإنْ أدخلْنا مع الإنشاد إيقاعَ الدفوف فترَخُّصٌ من سنة رسول الله ﷺ الذي أمر بضربها في الأعراس، وقال لعائشة رضي الله عنها كما روى البخاري رضي الله عنه: «ما كان معكم من لهو؟! فإن الأنصار يعجبهم اللهو». وإن راعينا غُرْبَة الإسلام وتمَكُّنَ «حُداء الزِّنَا» من النفوس، ورأينا أن مضمون الكلمة الدينية يَسْلَمُ لنا ولو امتزج بنغمات الأوتار إلى حين يعيد العلماء تقديرَ الرأي في هذه النقطة الفقهية المختلَفِ فيها، فالشكلُ الفنيُّ المقتبَسُ لا يعدو أن يكون، في أكثر التقديرات تشدُّداً، خَيْطاً جاهليا دخل في نسيجنا، تمحوه

النية، ويُبَدِّل الاستغفار سيآته حسناتٍ. وقد قال رسول الله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «إنك امرؤ فيك جاهلية»، وما أخرجه ذلك عن الإسلام والإيمان والإحسان.

قالت أمنا عائشة رضي الله عنها مُعقِّبَةً على روايتها لصنع رسول الله ﷺ بها حين ستَرَها لتتفرج طويلا على لعب الحبش: «فاقدُرُوا قدْرَ الجارِية الحديثة السن تسمع اللهو». رواه البخاري رضي الله عنه. ونحن نأخذ بعين الاعتبار كلَّ ما ذكرنا لنبلغ رسالة الإسلام والإيمان والجهاد، متجاوزين السماع الشيطاني المحرم والسماع الصوفي المختلَف فيه. إن شاء الله.

أخرج البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: «لما كان يومُ الأحزاب وخَنْدَقَ رسول الله ﷺ، رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتى وارَى عني الترابُ جِلدةَ بطنه -وكان كثيرَ الشعَر-. فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب، يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

قال: ثم يمُد صوتَه بآخرها».

قلت: بأبي وأمي ناقلُ تراب يرتجز ويمد صوته! وفي هذه الـمَدَّة النبوية العظيمة سَلْوَةٌ لنا وإسوة عن شدة القاعدين المبَدِّعين المكفرين.

شكا قوم إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه رجلا يغني، فجاءه فسمعه يُنشِد فيما يُنشد يخاطب فؤاده ويعظ نفسه:

لا أراه الدهرَ إلاَّ لاهيا ... في تماديه فقد برَّحَ بي
ويْحَ نفسي لا أراها أبدا ... في جميل لا ولا فِي أدب
نفسُ! لا كنتِ ولا كان الهوَى! ... راقبي المولى وخافي وارهَبي

فردَّدَ عمر رضي الله عنه البيت الأخير وقال: على هذا فليُغَنِّ من غنى![1]

(1) روى القصة الشاطبي في كتاب «الاعتصام»، ج 1، ص: 369.

طوَّر الصوفية هذا الغناء الزهدي الوعظي الذي حبَّذه أمير المؤمنين رضي الله عنه فَسُمِّيَ سماعا له أصولُه وآدابُه. قال ابن القيم رحمه الله في تعريف السماع الصوفي المختلَفِ فيه: «اجتماعهم في مكان خال من الأغيار (أي ممن ليس منهم) يذكرون الله، ويتلون شيئا من القرآن. ثم يقوم من بينهم قَوَّالٌ (منشد) ينشدهم شيئا من الأشعار المزهِّدة في الدنيا، المرغِّبة في لقاء الله ومحبته، وخوفه ورجائه، والدار الآخرة، وينبههم على بعض أحوالهم من يقظة وغفلة».[1]

ويعرِّفُ السماع الشيطاني الذي لم يكن إلا الغناءَ المجونيَّ الفحشائيَّ ملفوفا في ثوب الاسم متلبسا به. يقول: «غرهم من استحسانه ﷺ الصوتَ الحسن بالقرآن، وأَذْنَه له، وإِذْنَه فيه، ومحبةَ الله له، فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النِّسوانِ والـمُرْدَانِ وغيرهم بالغناء المقرون بالمعازف والشاهد، وذكرِ القدِّ والنَّهْدِ والخَصْرِ، ووصف العيون وفعلها، والشعر الأسود، ومحاسِنِ الشباب، وتوريد الخدود، وذكر الوصل والصَّد، والتجَنِّي والهجران، والعتاب والاستعطاف، والاشتياق، والقلق والفراق».[2]

قلت: لا يكادُ يخفى تعاطُف ابن القيم رحمه الله مع السماع الأول، مع أن مذهب الإمام أحمد رحمه الله والحنابلة هو التحفظ الشديد.

وأريد هنا أن أذكر مذهبي في هذا السماع الوعظي. فأنا أزهدُ الناس فيه، وأعتبره مضيعة صرفة للوقت على معرفتي بما يعطيه من انفعال وقتِيٍّ يلتذ بخشوعه بعضُهم، ومع احترامي واعتذاري وعذري لرجال حملهم الوَجْد على أجنحة الحال حتى اضطربَت أجسامهم في إيقاع وتمايُل وذكر هائج باللسان. وسمى الملاحظون هذا الاضطرابَ الحاليَّ الغالب اللذيذَ رقصا صوفيا. وقد ذكر الذهبيُّ رحمه الله أن سلطان العلماء رحمه الله كان يحضر السماعَ ويرقُص. وقرأنا في مذكرات الأستاذ البنا أنه كان يحضر «الحضرة»، ويسميها المغاربةُ «عمارة».

(1) مدارج السالكين، ج 1، ص:501.

(2) المصدر السابق، ج1، ص:492.

ذلك متاعٌ للعاطلين عن حلية الجهاد وشُغْلَتِه. وأبردُ من كل بارد، وأفدحُ من كل بِطالة، صنع قوم ما هبَّ عليهم من الوَجد والذوق نَسْمَةٌ، فتشبهوا بأصحاب الحال، وقاموا واصطفوا وتواجدوا وتفعَّلوا وتكلَّفُوا وتراقصوا. إن كانت غلبةُ الحال والوجدِ تعذِر الصادقين، فالمتصنعون محافظون على آثار بديعة في متاحف الزور.

مذهبي الترخيص للعامة، من باب ارتكاب أخف الضررين في جو المنافسة العالمية على حُداء الزنا، في نشيد الإذاعة والتلفزيون وما يواكب النشيد من تمثيليات خيالية أو تاريخية بشرط إدخال ذلك في الإسلام وتصفيته قدر المستطاع. مذهبي لنفسي ولجند الله أن نعذرَ أهلَ الوَجد والحال الصادقين، وأن نُعلِّم، فيمن نعلم من الجاهلين، أهل الرقص المتواجد، وفي أنفسنا ننقل تراب خنادق التحصن، وعتاد التصنيع والقوة، وأعباء الجهاد والمسؤولية، ولا حرج عندئذ أن نمد الصوت كما مده الصوتُ الملهم الشريف.

على أن نتدرج بالرَّكب الإسلامي جميعه إلى السماع الإحساني، وهو الاستماع والإنصات إلى كتاب الله عز وجل يُتلى، ويُرتل، ويُجوَّد، ويتغنَّى به المؤمنون، من الاستغناء به عن غيره، ومن الغنة وتحسين الصوت. ونتجنب هذه الأصواتَ المسجلة المحترفة المتعرِّجة الـمُخَنَّثَةَ، بعضها لا كُلَّها.

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا. آمين.

قال الإمام الرفاعي قدس الله روحه في المتواجدينَ المتراقصين المتصنعين: «إيش أعمل بالسماع الذي رَقَصَ فيه الراقصُ بغير قلب، ونجاسةُ النفس لطَّخْتْه! كيف يُحسَب برقْصِه ونقصه من الذاكرين! (...) الراقصون كذابُون، والذاكرون مذكورون. بين الملعون والمحبوب بَوْنٌ عَظيم (...) أيْ سادةُ! إياكم والدجاجلة! إياكم والشيطانية! إياكم والطُّرُقَ التي تؤدي إلى كلا الوصفين. أخجِلوا الشيطان بخالص الإيمان. خرِّبُوا بِيَع الدَّجَلِ بيد الصدق».[1]

كان الشيخ أحمدُ السرهندي على مذهب مشايخه النقشبندية من العزوف الكاره عن كل سماع غير القرآن.

---

(1) البرهان المؤيد، ص:56 وما بعدها.

قال رحمه الله: «وقد جَعَلَت الصوفيَّةُ القاصرون اليوم السماعَ والرقص دينهم ومِلَّتَهم، مستندين إلى عمل مشايخهم واتخذوه طاعتهم وعبادتهم. أولئك الذين اتخذوا دينَهم لهوا ولعبا».[1]

وقال مغلوب الحال والوجد المترَخص في السماع:

زيادةُ حسنِ الصوتِ في الحلق زينَةٌ	يروقُ بها لحنُ القريض المحبَّرِ
ومن لم يحركه السماعُ بطيبه	فذلك أعمى القلب أعمى التصوُّر
تُصيخُ إلى الحادي الجِمال لواغِبًا	فَتُوضِع في بَيْدائها غيرَ حُسَّرِ
ولله في الأرواح عند ارتياحِها	إلى اللحن سرٌّ في الورى غيرُ مُظْهَرِ
وكل امرئ عاب السماعَ فإنه	من الجهل في عشوائه غيرُ مبْصِر
وأهل الحِجَى أهلُ الحِجَازِ وكلهم	رأوْهُ مُباحًا عندهم غيرَ منكر
وهام به أهلُ التصوف رغبةً	لتهيِيج شوْقٍ نارُه لم تُسَعَّر
وإن رسول الله قد قال: زيِّنُوا	بأصواتِكم آيَ الكتاب المطهَّر
وزانَتْ لداودَ النبيِّ زَبُورَه	مزاميرُه بالنَّوْحِ في كل مَحْضَر
وفي الخُلْدِ إسرافيلُ يُسمع أهلَه	فيُسْليهمُ المسموعُ عن كل منْظر
فإن أكُ مُغْرىً بالسماع وحسنِه	فحسبي اقتداءً بالكريم ابن جَعْفَر

وقلت:

أنْصِتْ إلى الرَّحْمَةِ يَا عَانِي	هَاكَ الشِّفا مِنْ آيِ قُرآنِ
كُلُّ سَمَاعٍ دُونَهُ رَغْبَةٌ	للنَّفسِ فِيهَا وِزْرُ بُهْتَانِ
عَدا النَّشِيدَ لضِعَافَ المَلا	يَنْسَلُّ لِلْقَلْبِ بسُلْطَان

(1) المكتوبات، ج 1، ص: 279.

السكر والشطح

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾. اللهم أعطني إيمانا ويقينا ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة.

روَوْا عن الإمام الشافعي أنَّ السكران بِشُرْب الـمُسكرِ الذي يقام عليه الحد يُعْرَفُ «إذا اختلط كلامُه المنظومُ، وأفشَى سرَّه المكتومَ». وعرف الإمام أحمد السكران الشارب فقال: «السكران من لم يعرف ثوبَه من ثوب غيره، ونَعْلَه من نعل غيره».

وهذان التعريفان ينطبقان بوجه مجازِيٍّ على السالك في طريق الولاية إذا حصل في حال الفناء «فغاب بموجوده عن وجوده وبمشهوده عن شهوده» كما قرأنا في الفصل قبل هذا. وكما يُذْهِلُ السكرُ الحرامُ الشاربَ الآثمَ عن معرفة ثوبه من ثوب غيره ويختلط نظمُ كلامه ويأخذ في إفشاء أسراره، فكذلك السالك الفاني يُذهِله تجلي الأنوار الإلهية عن شعوره بذاته فينطِق بكلام المجانين.

واصطلح الصوفية على كلمة «سكر» فأطلقوها بجانب هذه الحالة المعروفة لديهم، كما أطلقوا اصطلاحات أخرى لا يقبَلها ذوق التقي الورع. وقد شجَبَ هذه المصطلحات المقتبسةَ من حياة الغافلين طائفةٌ من العلماء منهم ابن القيم رحمه الله حيث قال: «ونحن لا نُنْكر المعنى المشارَ إليه بهذا الاسم (السكر). وإنما المنكر تسميَّتُه بهذا الاسم. ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك اسم «الشراب»، أو تسمية المعارف بالخمر والواردات بالكؤوس».[1]

لا ينكر ابن القيم كما لا ينكر كل من ذاق الحال والوجد وغلبتهما وخبرَ الأمرَ في الميدان شيئا من أحوال الصادقين. ويتعفف الورع التقي عن استعمال هذه الألفاظ

(1) مدارج السالكين، ج 3، ص: 306.

المبتذلة. على أنه لم يكن لهم بُدٌّ من استعمالها ليتفاهموا فيما بينهم. «الاصطلاحات لا مُشاحَّةَ فيها إذا لم تتضمن مفسدة» كما يقول شيخ الإسلام ابن القيم بهذا الصدد.

وينطق سكرانُ الحال، أو المفتري الدجالُ، بأقاويلَ لا يقبلها الشرعُ فتسمَّى هذه الكلمات شطحا. قال حجة الإسلاَم الغزالي رحمه الله في تعريف الشطح: «الشطح نَعْنِي به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية. أحدُهما الدعاوي الطويلةُ العريضةُ في العشق مع الله تعالى والوصال الـمُغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهِي قوم إلى دعوَى الاتحادِ وارتفاعِ الحجابِ والمشاهدةِ بالرؤية والمشافهة بالخطاب. فيقولون: قيل لنا كذا، وقلنا كذا. ويتشبَّهون بالحلاج الذي صُلِبَ لأجل إطلاقِه كلماتٍ من هذا الجنسِ، ويستشهدون بقوله: أنا الحق، وبما حُكِي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال: سبحاني سبحاني (...).

«الصنف الثاني من الشطح كلماتٌ غير مفهومة، لها ظواهر رَائِقَةٌ، وفيها عبارات هائلة، وليس وراءَها طائل (...) ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يُشَوِّشُ القلوب، ويُدهش العقول، ويحيِّرُ الأذهان».[1]

ويضيف الإمام الغزالي رحمه الله صنفا آخر من الكلام المنكَر الكفريّ يسمِّيه «الطامات». قال: «وأما الطامات فيدخُلُها ما ذكرناه في الشطح وأمرٌ آخر يخصُّها. وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنةٍ لا يسبق منها إلى الأفهام فائدةٌ، كَدَأْبِ الباطنيَّة في التأويلات. فإن هذا أيضا حرام وضررُه عظيم (...). وبهذه الوسيلة توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم (...) حتى إنهم يحرِّفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره. وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء».[2]

إن سألت عن الفائدة من التنقيب عن السكر وشطحه وعن هذيان المجانين وكفريات الزنادقة وطوام الباطنية في كتاب مستقبلي يدعو إلى سلوك جهادي على المنهاج النبوي الصحابي الراشدي أجبتك من وجهين: أحدهما أن تراثَ المتشابه

(1) الإحياء، ج 1، ص:32.

(2) المصدر السابق، ج 1، ص:33.

من القول مبثوث في الكتب متداوَل في أيْدي الخاصة والعامة، فمعرفة الحق من الباطل في هذا التراث تتعين. والوجه الثاني أن السالكين المتعرضين لغلبة الحال قد يتشبه بهم الزنادقةُ اليومَ وغدا فينطقون بكلمة أبي يزيد والحلاج، فيتعين أن نعرف من هو مغلوب الحال الذي يُعذَر، ومن هو الدجال الذي يقول بقول الكفر صاحيا حاضرا فيقامُ عليه الحد.

وقد عذَر شيخ الإسلام ابن تيمية أبا يزيد البسطامي ولم يعذِر الحلاج كما لم يعذِره علماء زمانه الذين أفتوا بقتله.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وقد يقع بعض من غلب عليه الحال في نوع من الحلولِ والاتحاد، فإن الاتحاد فيه حق وباطل. لكن لـمَّا ورد عليه ما غيَّب عقله أو أفناه عما سوى محبوبه، ولم يكن ذلك بذنب منه كان معذورا (...).

«فهذه الحال تعتري كثيرا من أهل المحبة والإرادة في جناب الحق وفي جانبه. وإن كان فيها نقص وخطأ فإنه يغيب بمحبوبه عن حبه وعن نفسه، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن عرفانه، وبمشهوده عن شهوده، وبموجوده عن وجوده.

«فلا يشعرُ حينئذ بِالتمييز ولا بوجوده. فقد يقول في هذا الحال: أنا الحق، أو سبحاني، أو ما في الجبة إلا الله ونحو ذلك. وهو سكرانُ بوَجْدِ المحبة الذي هو لذةٌ وسرورٌ بلا تمييز.

قال: «وذلك السكران يُطْوَى ولا يُرْوَى إذا لم يكن سكرُهُ بسببٍ محظور».[1]

وقال: «لكن بعض ذوي الأحوال قد يحصل له في حال الفناء القاصرِ سكرٌ وغيبة عن السِّوَى. والسكر وجْدٌ بلا تمييز. فقد يقول في تلك الحال: سبحاني، أو ما في الجبة إلا الله، أو نحو ذلك من الكلمات التي تُؤْثَرُ عن أبي يزيد البسطامي أو غيره من الأصحاء. وكلمات السكران تُطْوَى ولا تُرْوَى ولا تُؤَدَّى».[2]

قلت: فلَمَّا لم يقدر الحلاج على طيِّها طواه سيف الشرع.

(1) الفتاوي، ج 2، ص:396.

(2) المصدر السابق، ص:461.

هذه الحال الفنائية القاصرة التي لم يعرفها الصحابة، وحاشاهم من النقص، يسميها مربِّي المريدين المجددُ الكبير الإمام السرهندي رحمه الله: «كفْرُ الطريقة». قال رحمه الله: «ولكفر الطريقة هذا مناسبةٌ تامَّة بكفر الشريعة، وإن كان كافر الشريعة مردودا ومستحقا للعذاب، وكافر الطريقة مقبولا ومستحقا للدرجات. فإن هذا الكفر والاستتار (قلت: كفر لغةً بمعنى ستر) ناشئ من غَلَبة محبةِ المحبوب الحقيقي ونسيان غيره كله (...)».[1]

قال رحمه الله يفصل الدرجات التي يستحقها مستور المحبة «كافر» الطريقة:

«وإسلام الطريقة عبارة عن مقام الفرق بعد الجمع (قلت: وهو مقام البقاء) الذي هو مقام التمييز. الحق والخير متميزان هنا من الباطل والشر.

قال: «ولإسلام الطريقة هذا مناسَبَة تامة بإسلام الشريعة. بل إذا بلغ إسلام الشريعة كمالَه تحصُل له نسبة الاتحادِ بهذا الإسلام».[2]

وقال عن الشطحات المعذورة: «وكل من تكلم من المشايخ قدس الله أسرارهم بالشطحات من الكلمات المخالفة لظاهر الشريعة فإنما تكلم من مقام كفر الطريقة الذي هو موطن السكر وعدم التمييز. والأكابرُ الذين تشرفوا بدَوْلة إسلام الحقيقة مُنَزَّهون ومُبَرَّأون من أمثال هذه الكلمات، ومُقْتَدون بالأنبياء، ومتَّبعون لهم ظاهراً وباطنًا.

«فالشخص الذي يتكلم بالشطحات، ويكون في مقام الصلح مع الكل، ويظن الجميعَ على صراط مستقيم، ولا يُثْبِتُ التمييزَ بين الحق والخلق، ولا يقول بوجود الاثنينيَّة، إذا وصل هذا الشخص إلى مقام الجمع، وتحقق بكفر الطريقة ونسيَ السوى فهو مقبول، وكلماته ناشئة من السكر، ومصروفةٌ عن الظاهر».[3]

(1) المكتوبات، ج 2، ص:144-145.

(2) المصدر السابق، ج2، ص:145.

(3) المصدر السابق، نفس الصفحة.

ثم قال عن الزنادقة والـمُبْطلين والناطقين بالطوام: «وإن تكلم بهذه الكلمات بدون حصول هذا الحال، وبدون وصولٍ إلى الدرجة الأولى من الكمال، وزعم أنَّ الكل على حق وعلى صراط مستقيم، ولم يميز الباطل من الحق، فهو من الزنادقة والملاحدة الذين مقصودُهم إبطالُ الشريعة، ومطلوبُهم رفعُ دعوة الأنبياء الذين هم رحمة للعالمين، عليهم الصلوات والتحيات (...).

قال: «فهذه الكلمات الخِلافية تصدر من الـمُحق وتصدر من الـمُبطل. وهي لِلْمُحِقِّ ماءُ الحياة، وللمبطل سم قاتلٌ (...). وهذا المقام مزَلَّةُ الأقدام، قد انحرف فيه جم غفير من أهل الإسلام عن الصراط المستقيم (...). ومصداقُ امتياز الـمُحق من الـمُبطل الاستقامةُ على الشريعة أو عدم الاستقامة عليها. والذي هو مُحق لا يرتكب خلافَ الشريعة مقدارَ شَعْرة مع وجود السكر وعدم التمييز. كان الحلاج، مع صدور «أنا الحق» عنه، يصلِّي كلَّ ليلة في السجن خمسمائة ركعة مع قيد ثَقيلٍ، ولا يأكل الطعامَ الذي مسته يدُ الظَّلَمة».[1]

قال الإمام عبد القادر قدس الله سره: «يا غلام! تفكر في أمرك وحاقِقْ نفسَك ما ليس فيك. ما أنت صادق ولا صِدِّيقٌ ولا محب ولا موافق ولا راض ولا عارف! قد ادعيت المعرفة بالله عز وجل. قل لي! ما علامة معرفته؟ إيش ترى في قلبك من الحُكْم والأنوار؟ ما علامة أولياء الله عز وجل وأبدال أنبيائه؟

«تظن أن كل من ادعى شيئا سُلِّمَ إليه ولا يطالب بالبيِّنة! ولا يُحَكُّ ديناره على المِحَكِّ!

«من جملة صفات العارف بالله عز وجل أنه يصبر على الآفات، ويرضى بجميع أقضية الله عز وجل وأقداره في جميع الأحوال (...).

«يا محب الحق عز وجل، دُرْ مع قدَرِه حيث دار. وطهر قلبك الذي هو مسكن قرب الحق عز وجل. اكنُسْه عما سواه، واقعد على بابه بسيف التوحيد والإخلاص والصدق. ولا تفتحه لأحد غيره ولا تشغل زاوية من زوايا قلبك بغيره.

(1) المكتوبات، ج2، ص:145.

«يا لَعّابين ! ما عندي لعب! يا قشورُ! ما عندي سوى اللُّبِّ! عندي إخلاص بلا نفاق، وصدق بلا كذب. الحق عز وجل يريد التقوى والإخلاص من قلوبكم. ما ينظر إلى ظاهر أعمالكم. قال الله عز وجل: ﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ**﴾.[1]

قال أبو تراب النّخْشَبِيُّ رحمه الله في علامات المحب الصادق الصديق:

ومــن الدلائــل حزنُــه ونحيبــه ‏ ‏ ‏ جَـوفَ الظـلام فما لَهُ من عــاذِلِ
ومــن الدلائــل أن تــراه مسافرا ‏ ‏ ‏ نحــو الجهــاد وكلِّ فــعلٍ فاضِلِ
ومــن الدلائــل زُهدُه فيمــا يرى ‏ ‏ ‏ مــن دار ذل أو نعيــــم زائــلِ
ومــن الدلائــل أن تــراه راضِيــاً ‏ ‏ ‏ بمليكــه في كُــل حكــم نــازل
ومــن الدلائل ضِحْكُه بيــن الورَى ‏ ‏ ‏ والقلــبُ محزون كقلــب الثاكل

وقال الإمام الجنيد رضي الله عنه يصف أحوال التكميل والكمال:

سَــرَتْ بأُنــاسٍ في الغيوب قلوبهــم ‏ ‏ ‏ فحلُّوا بقــرب الماجد المتفضل
عِراضــاً بقــرب الله في ظــل قدســه ‏ ‏ ‏ تجــولُ بهــا أرواحهــم وتَنَقَّــلُ
مــواردهم فيها على الــعز والنُّهَى ‏ ‏ ‏ ومصــدرُهم عنها لِما هُــو أكمل
تــروح بِعِــزٍّ مفــرَدٍ من صفاتــه ‏ ‏ ‏ وفي حُلَلِ التوحيد تمشــي وَتَرْفُــلُ

وقلت:

يَقِـظٌ حَـاضِـرٌ تَشَـمَّـرَ لِلزَّحْـ ‏ ‏ ‏ ـفِ وَصَدِّ الْعِـدَا بِحَدِّ السُّيُـوفِ
مِحْنَـةُ النَّـاسِ أنَّ فِيهِمْ ضِعَـافـاً ‏ ‏ ‏ مِنْ جَبَـانٍ وَخَـامِـلٍ وَسَخِيفِ
مِحْنَـةُ السَّـالِكِينَ: مِنْهُـمْ سُكَـارَى ‏ ‏ ‏ صدَّعُـوا الرَّأسَ بالكَلاَمِ الـمُخِيفِ

---

(1) الحج، 37.

شعب الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. اللهم إني أسألك الفوز في القضاء، ونزُل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء.

يتألف المجتمع المسلم الذي ظهرت من أحشائه الصحوة الإسلامية من خليط من الناس قل منهم من يُعلن ارتداده عن دينه. بل يزداد تأكيدُ المثقفين فيه والسياسيين هويتهم الإسلامية كلما اقتنع القاصي والداني أن الإسلام هو مستقبل المسلمين لا غير من المذهبيات. على أن هؤلاء المؤكِّدين والمنْتَحلين يكثر فيهم المزَوِّرُون الذين يصرخون احتجاجا على من يجرِّدهم من إسلاميتهم، ثم هي في فكرهم وتصرّفهم واقتناعهم وتصريحهم أيضا إسلاميةٌ غُفْلٌ: نحن مسلمون وكفى! ومن بعد القَولةِ الدعائية يُلَبِّس كلٌّ ويُمَوِّه ليروج تحت ألفاظ إسلامية وشعارات تراثية مذهبيته اليمينية أو اليسارية، اللبرالية أو الاشتراكية، الإصلاحية أو الثَّورية. ويحلل كلٌّ التاريخَ الماضيَ والأحداث الحاضرة، ويخطط للمستقبل، على منوال إديولوجيته إن كان له إديولوجية، وعلى منوال هواه دائما.

فما هو الرفق وما هي التؤدة اللازمان للتعامل مع هذا الصنف من المواطنين ومع كل صديق للإسلام وعدو منافق وخصم مُتَخَفٍّ؟ وما هي العلاقات التي يقيمها الإسلام بين الناس يومَ يأخذ بالزمام، وما هي المؤسسات، وما هو النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي؟ ما هو التغيير الضروري الذي يتحتم على الإسلام أن يفرضه بعد أن يُقْنِع به؟ وما هو موقع النية الإسلامية اليومَ والممارسةِ الإسلاميةِ غدا من النظامين السائدين في العالم: الديموقراطية والاشتراكية، ومن الأسلوبين المألوفين: الإصلاحية والثورية؟

في هذا الكتاب تعرضنا قبل كل شيء للتغيير اللازم في نفسية المسلم والمؤمن وعقليته وسلوكه ليكون صالحا في الآخرة، قريبا من الله عز وجل في مقاعد الصدق. وصلاحُه في الآخرة وربانيَّته واستقامته على أمر الله ونهيه ضمان ليكون عمله في المجتمع صالحا في ميزانه يوم القيامة، مصلحا لغيره، نافعا لخلق الله. وفي هذه الفقرة نتعرض للمزايا الانضباطية التي تُمسك المؤمنين والمحسنين على إلحاق الأذى بغيرهم، إذ النفوس التي يطغَى بها هواها وشهوتُها وغضبُها لا تكون إلا آفة على الغير مهما كانت الإديولوجية والنظام المقترح والأسلوب والبواعثُ الأولى لحركة التغيير.

كنت صنّفتُ في خصلة «التؤدة» ثمانيَ شعب إيمانية، هي: الصوم، والقيام في حدود الله، وحقن الدماء والعفو عن المسلمين، وحفظ اللسان والأسرار، والصمت والتفكر، والصبر وتحمل الأذى، والرفق والأناة والحلم ورحمة الخلق، ثم التواضع. وفي هذا الفصل المشرفِ على نهايته نظرت إلى هذه المزايا من جهة كونِها مقاماتٍ إحسانية تُبَلِّغ السالك الفردَ، وهو كائن روحيٌّ مارٌّ من هذه الدنيا الزائلة إلى دار الجزاء والبقاء، أوجَ المعرفة وقمةَ الصلاح في خاصة نفسه.

فهل تكون هذه المزايا الانضباطيّة الصبرية الصمتية العفوية غيرَ عرقلة لجماعة تريد التغيير؟

هذه الشخصية الإيمانية الإحسانية الصابرة الـمُصْطَبِرةُ المثالية أَلْيَقُ شيء بمجتمع ملائكي أخويٍّ سماويٍّ منزه عن التدافع والتقاتل والتحاسد والتباغض الأرضية. المجتمع البشري كيان سياسي، أي تركيب تحكمُه علاقات المصلحة والعُنْف والحيلة، فكيف يتصرف جند الله المتحلّيْنَ بالعفة والقناعة والرفق والصدق وسط التيارات السياسية وإزاءَ خِضَمِّ الأحداث العالمية التي تسوقها وتسيطر عليها القيمُ الجاهلية المادية، وهي مصلحةٌ كلها، وعنفٌ، وحيلةٌ؟

إن استراتيجية التغيير الإسلامي، كما نقرأها في السيرة النبوية وفي القرآن الكريم، تتأسس على إرادة جماعة مجاهدة مبنية بناء خاصا، ثم إذا تغيرت النفوس الفردية في

الجماعة وتقوت في الإيمان والإحسان إلى أن تكون، عن استحقاق، معنيَّةً بقول الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أصبح القرآن برنامَجَها ونظامها المقترَح وأسلوبَها، وأصبح موقعُ النظُم الجاهلية والأساليب والخُطَطِ منها موقعَ الكفر من الإيمان، وموقعَ عصيان الله من الطاعة له ولرسوله، وموقع العنف من الرفق.

ونفس القرآن والسنة الآمران بالرفق والصبر ومجاهدة النّفس يأمران بالجهاد والغلظة على المنافقين، والشدةِ على الكافرين. نفسُ الدين الذي حث على الأخوة بين المؤمنين، والبِرِّ بالمسلمين، والرحمة بالخلق أجمعين، وبَّخَ الناكصين عن قتال المستكبرين، القاعدين عن نصرة المستضعفين.

توازن الشخصية المؤمنة المحسنة يُنْسَجُ على منوال المعادَلة بين ضبط النفس وإنصاف الغير. إن كان ضبط النفس بلجامِ الشرع شرطا لرقِيِّ الإنسان في مراتب الإحسان فهو في نفس الوقت عطاء جانبي، يَضْمنُ كفَّ الأذى عن الناس، ويضمن نهوض المؤمن لصد العدوان والظلم عن الغير، ويضمن إيصالَ النفع إليهم بدافع إحساني تَبَرَّأَ صاحبُه من الأنانية والشهوانية والغضبية.

في الفصل الأخير من هذا الكتاب أتحدث إن شاء الله عن الجهاد. والصورة اللاصقة بأذهان الجاهلين بالإسلام هو أنه دين السيف والعنف والإكراه. فأريد هنا أن أُلِحَّ على أن الإسلام ضبط للنفس ويسر وسكينة. ذلك لكي يتحرك جند الله في مجالات التغيير بحِلمٍ ينافي الرخاوة وبقوة ليست هي العنف. لين في غير ضعف وقوة في غير عنف، كما يقول أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه.

روى مسلم وأبو داود رحمهما الله عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يُحْرَم الرفق يُحرم الخير كله».

وأخرج أبو داود عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه في بَعض أمره قال: بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا». الحديث رواه أيضا البخاري ومسلم رحمهما الله. في رواية للبخاري عن أنس رضي الله عنه: «يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا».

بوب البخاري في صحيحه في «كتاب الإيمان»: «باب الدين يسر وقول رسول الله ﷺ: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة». وفي هذا الباب روى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قوله: «إن الدين يُسْرٌ، ولن يشاد الدينَ أحد إلا غلبه. فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغَدْوَة والرَّوْحَةِ وشيء من الدُّلْجَةِ». وفي مسند الإمام أحمد بسند صحيح عن رجل من الأعراب أن رسول الله ﷺ قال: «خيرُ دينكم أيسرُه».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله، وقد وجه حديث «الدين يُسر» توجيهَ العبادة الفردية: «وقد يُستفاد من هذا الإشارةُ إلى الأخذ بالرُّخْصَة الشرعية. فإن الأخذ بالعزيمة في موضع الرخصة تَنَطُّعٌ». والتنطع التشدد. وفي الحديث: «هلك المتنطعون». أخرجه مسلم وأبو داود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعا.

نقرأ نحن السنة قراءة جهادية، اليُسْرُ من صلبها في العبادة الفردية كما هو في العلاقات بين الناس. والتنطع هَلَكَةٌ، سواء في ترك إتيان رُخَص الله لعباده في التيمم والتقصير بشروطهما، وفي التعسير والتنفير بَدَلَ التيسير والتبْشير.

والحكمة المرجُوُّ من الحق عز وجل أن يلهمها جنده تتمثل في التنسيق بين الـمَضَاءِ بعزيمة في إبطال الباطل وإحقاق الحق وبين الترفق والتسكين والتدريج. لا يُؤتِي الحكمةَ إلا هو سبحانه. ضراعتنا إليه أن يهدينا الصراط المستقيم، وهي خيرُ الدين، وسِمَتُها اليُسر. واليسر فضيلة بين رذيلتين، واعتدال بين تطرفين: تطرف اللين الضعيف، وتطرف التنطع العنيف.

عند الإمام البخاري رضي الله عنه في صحيحه في «كتاب الأدب» أبواب متساوقة تخط صراط اليسر والرفْق والتؤدة. «باب قول النبي ﷺ: «يسروا ولا تعسروا»»، «باب الانبساط إلى الناس»، «باب الـمُدَاراةِ مع الناس». وبعد ذلك يأتي «باب لا يُلدَغ المؤمن من جحر مرتين»، ليعلم القارئ في السُّنَّة أن ذلك الـمُيَسِّرُ الـمُبَشِّرُ الرفيق المنبسط إلى الناس الـمُدَارِي لهم في غاية الحيطة، ليس رِفْقُه من قبيل رخاوة المغفلين.

قال الإمام عبد القادر رحمه الله: «يا غلام! أكلُ الحرام يُميت قلبَك، وأكل الحلال يحييه. لقمةٌ تنوِّر قلبك ولقمة تظلمه. لقمة تشغلك بالدنيا، ولقمةٌ تشغلك بالآخرة،

ولقمةُ تُزَهِّدُك فيهما، ولقمة تُرَغِّبُكَ في خالقهما. الطعام الحرام يشغلك بالدنيا ويحبب إليك المعاصيَ. والطعام المباح يشغلك بالأخرى ويحبب إليك الطاعات. والطعام الحلال يُقرِّب قلبك من المولى.

«هذه الأطعمة لا تُعرف إلا بمعرفة الحق عز وجل. ومعرفته إنما تكون في القلب لا في الدَّفاتر. منه تكون لا من خلقه. إنما تحصل معرفة الله عز وجل بعد العمل بحُكمه. بعد التصديق والصدق. بعد التوحيد لله عز وجل والثقة به. بعد الخروج من الخلق في الجملة.

«كيف تعرف الحق عز وجل ولست تعرف إلا ما تأكل وتشرب وتنكح، ولا تبالي من أي وجه كان! (...)

«فلا تبال بجميع الأشياء، ولا تُسَمِّ شيئا، ولا يشغلك عنه شيء. لا يقيِّدْك الخَلْقُ عنه، غير أنك تحدِّثُهم بما يعقلون، وتتصَدَّقُ عليهم بالمداراة. تعمل بقول النبي ﷺ: «مداراة الناس صدقة».[1]

وقال هارب إلى الحق مشغول عن الخلق جملة:

نَعِمَ الزاهدون والعابدونا	إذ لِمَولاهُمُ أجاعوا البُطونا
أسهروا الأعين العليلةَ فيه	فانقضى ليلُهم وهُمْ ساهرونا
شغلتهم عبادة الله حتى	قيلَ في الناس: إنَّ فيهم جنونا

وقال زاهد في الدنيا خبير بآفاتها:

إذا نلت من دُنياك قُوتا فلا تُبَلْ	بمن نال منها فوقَ ما نال قَيْصَرُ
إلى غاية يجري مُقِلٌّ ومُكْثِرٌ	ومجتهد في سعيه ومُقَصِّر
تَوَدُّ من الدنيا اتصال سلامة	وفيها من الآفات ما ليس يُحْصَرُ
وما بهوى المَلاَّحِ هبَّت تعوقُه	عن الغرض المطلوب نكْبَاء صَرْصَرُ

(1) الفتح الرباني، ص:180.

وكم بَكَّرتْ وَرْقــاءُ تطلب رِزْقها فَعــنَّ لها بالخنْقِ بَــازٍ مُصَرْصر
فلا تحسِبَــنْ أن الســلامة سَــرْمَدٌ وأنَّ خُطَى الأحــداثِ دونَك تَقْصُر

وقلت:

دَرْبُ الْجِهَــادِ طَوِيــلٌ وَمــا إلَيْــه سَبِيـــلُ
إلاَّ بِصَبْــرٍ طَـوِيــل مُعــانِــدٍ لاَ يَــزُولُ
فَــإنْ صَبَــرْتَ طَوِيــلاً فَعِنْــدَ ذَاكَ تَصُــولُ

الفصل الحادي عشر

الاقتصاد

- السلوك
- الحجب المانعة عن القصد
- الطريق خطرة
- آداب السلوك
- سلوك الإمام الصادق
- سلوك الإمام الغزالي
- سلوك الإمام عبد القادر
- سلوك الإمام الرفاعي
- سلوك الإمام الشاذلي
- سلوك الإمام السرهندي
- شعب الإيمان

السـلــوك

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. اللهم إني أُنزل بك حاجتي، فإن قَصُر رأيي وضعُف عملي افتقرت إلى رحمتك. فأسألك يا قاضيَ الأمور، ويا شافي الصدور كما تجيرُ بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور.

الاقتصاد في لغة القرآن معناها الاستقامة على الطريق بين طرفي الإفراط والتفريط، ويتضمن معنى الاعتدال والتوسط. وأستعمل الكلمة بهذا المعنى وبالمعنى اللغوي الذي يفيد السير في الطريق بمواظبة وبدون انقطاع، ويفيد الصمود إلى الهدف المنشود، كما تقول العرب: أقصد السهم إِذا أصابَ وقتل مكانه. وتتمم خصلة «الاقتصاد» خصلة «التؤدة» وتكملها لكيلا يغلب التأني والتريّث على السير المتواصل.

السلوك إلى الله عز وجل، والسير إليه، عمل منصوص في الكتاب والسنة، كان الصحابة رضي الله عنهم أعلم الناس به. كان معنى القصد إلى قرب الله عز وجل بالتعبد، ومعنى طلب الحظوة عنده والزلفى لديه بالأعمال الصالحة علما مستقرا عندهم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «كان جميع الصحابة يعلمون السلوك بدلالة الكتاب والسنة والتبليغ عن الرسول، لا يحتاجون في ذلك إلى فقهاء الصحابة».[1]

معناه أن السلوك كان من البديهيات ومما يعلم من الدين بالضرورة. معناه أنهم كانوا يتمثلون حق التمثل أن الدين إسلام وإيمان وإحسان، وأن الناس تتفاضل، وأن الأمر درجات يندب القرآن وتندب السنة إلى المسابقة إليها في مثل

(1) الفتاوي، ج 19، ص:273.

قوله تعالى: ﴿سَارِعُوا﴾[1] وقوله تبارك اسمه: ﴿سَابِقُوا﴾[2] وقوله عز من قائل: ﴿فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ﴾.[3]

قال ابن تيمية رحمه الله: «فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد، كلها منصوصة في الكتاب والسنة (...). والصحابة أنفسهم (...) لم يتنازعوا في العقائد ولا في الطريق إلى الله تعالى التي يصير بها الرجل من أولياء الله الأبرار المقربين».[4]

ثم بعد الصحابة دخلت البِدَع في العقائد من جراء نهوض أسئلة فُضولية فلسفية، وتكلم الناس فيما كان من حقه أن يُتَلَقَّى بالقَبُول الفطري، وأظلم طريق السلوك وتَعتَّم علمه الذي كان مسلَّما به عند الصحابة. وتعطل العمل السلوكي إلا عند طائفة سماهم التاريخ صوفية.

كان كل الصحابة يبتغون إلى ربهم الوسيلة ويستهدونه ويتأسون برسوله ﷺ الماثل بين ظَهْرانَيهم. فيما بعد، وفي عتَمة البدع وظُلَلِ الفتنة التي مرت على الأمة مرورَ قطع الليل المظلم، احتاج السالك إلى نظر خاصٍ، واسترشاد خاص، وصحبة خاصة. قال ابن تيمية: «الكلام في أعيان أحوال الرجل السالك يحتاج إلى نظر خاص».[5]

اختصَّ بعض المؤمنين في النظر العملي التطبيقي إلى السلوك، حملهم حب الله عز وجل والثقة بوعده والتسليم له والتفويضُ على التشمير إليه، والتقرب. هؤلاء حدثونا عن تجربتهم وعن تَحْصيلهم للمقصود، وعن الوصول والمعرفة والكمال وسائر ما تعرضنا لتفصيله في هذا الكتاب.

وتخصص مؤمنون آخرون من علماء الحديث والفقه في النظر العلمي إلى الدين، فكان فيما أبدوا فيه رأيهم السلوكُ والسيرُ إلى الله عز وجل. من كان منهم ذا حظ من السلوك وعلى «قدر مشترك» مع الصوفية السالكين قارن المنصوص

(1) آل عمران، 133.

(2) الحديد، 21.

(3) البقرة، 148.

(4) الفتاوي، ج 12.

(5) المصدر السابق، ج 22، ص:334.

من علم السلوك بالمحَصَّل عليه من الذوق والوجد والمعرفة، فجاء كلامُ الذوقي الوجدي المعرفي (أقصد معرفة الله تبارك وتعالى لا المعرفة العقلية للكون) شرحا مستنيرا لما ورد به الكتاب ووردت به السنة. مثال لهذا الصنف من العلماء، على مقاديرهم ومرتبة علمهم يوم أدوا شهادتهم، شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وكثير من العلماء المشاركين.

وسبحان الله كيف اكتفى علماء آخرون من السلوك بالاطلاع على نصوصه، و«خدمتها» بالشرح اللفظي والتأويل وتقييد الآراء والتعليق على أقوال الناس فيها. هذا إن لم يكادوا يشكُّون في صحتها كما كاد الحافظ الذهبي رحمه الله يشك في حديث البخاري رضي الله عنه: «من عادى لي وليا».

هذا الحديث العظيم أمتن تبليغ نبوي في موضوع السلوك والولاية والقرب من الله تبارك وتعالى، وأوضحُه وأكملُه وأجلاه. وقد فزع العلماء الناظرون بنية العلم مما طرب له ووثِقَ به وصدقه وعمل عليه الناظرون إلى «الخطة العملية»، المشمِّرون على جادة الطريق.

فزِع أولئك وطرب هؤلاء وصدقوا بقول الله عز وجل عن العبد المتقرب: «فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله». أخبر السالكون العمليون بما أصابهم من وعد الله الكريم الوهاب، وحام الفزعون حول النص يُشبِعونه تقليبا وتدوينا وتأويلا.

نقل الحافظ ابن حجر عن الطوفي أنه قال: «هذا الحديث أصْل في السلوك إلى الله والوصول إلى معرفته ومحبته وطريقه. إذ المفترضات الباطنة وهي الإيمان، والظاهرة وهي الإسلام، والمركب منهما وهي الإحسان (توجد) فيهما كما تضمنهُ حديث جبريل. والإحسان يتضمن مقامات السالكين من الزهد والإخلاص والمراقبة وغيرها».[1]

كلام الطوفي رحمه الله يتضمن اعتراف الفقهاء والمحدثين بكون الحديث العظيم أصلا في السلوك. اعتراف مجمل.

(1) فتح الباري، ج 11، ص:345.

أما في التفصيل فأقوال العلماء النُّظَّار في العلم والنصوص تضاربت وتقابلت ولم تتفق إلا على أمر واحد. هو أن لا يكون في الحديث «مُتَمَسَّك للاتحادية والقائلين بالوحدة المطلقة»، كما عبر الحافظ ابن حجر.

وقد روى الحافظ مقالات النظار[1] في معنى «كنت سمعه». فمنهم من قال: إنه ورد على سبيل التمثيل، ومنهم من قال: كنت سمعه أي أنَّ كليته مشغولة بي فلا يُصغِي بسمعه إلا إلى ما يرضيني. ومقالة ثالثة: أجعل له مقاصده كأنه ينالها بسمعه وبصره. ورابعة: كنت له في النُّصرة كسمعه وبصره ورجله. وخامسة: كنت حافظ سمعه الذي يسمع به فلا يسمع إلا ما يحل استماعه. وسادسة: معنى سمعه مسموعه، فلا يسمع إلا ذكري ولا يلتذ إلا بتلاوة كتابي ولا يأنس إلا بمناجاتي ولا ينظر إلا في عجائب ملكوتي ولا يمد يده إلا فيما فيه رضاي. وسابعة: قد يكون عبر بذلك عن سرعة إجابة الدعاء ونُجْح الطلب. وذلك أن مساعي الإنسان كلها إنما تكون بهذه الجوارح المذكورة.

وينقل ابن حجر رحمه الله في آخر عرضه مقالة الصوفية وكأنها مجرد نظرية تُحَطُّ إلى جانب ما سبق من نظريات. قال: «وحمله بعض متأخري الصوفية على ما يذكرونه من مقام الفناء والمحو، وأنه الغاية التي لا شيء وراءها. وهو أن يكون قائما بإقامة الله له، محبا بمحبته، ناظرا بنظره له من غير أن تبقى له بقية تُناطُ باسم أو تقف على رسم أو تتعلق بأمر أو توصف بوصف».[2]

قال شارحا مترجما لكلامهم حسب إدراكه، موافقا مسلما غير معارض: «ومعنى هذا الكلام أنه يشهد إقامة الله له حتى قام، ومحبته له حتى أحبه، ونظره إلى عبده حتى أقبل ناظرا إليه بقلبه».

ثم يلتفت إلى الزنادقة فينقل مقالتهم، وهي شبيهة بشطحات أهل السكر، وهي مقالة الحلولية والاتحادية الزائغين. ويُنكر هذه المقالة الشنيعة، وقد رجع من عرضه بنتائج حكاية العلم وتقريره وبفضيلة النهي عن المنكر.

(1) فتح الباري، ص:344.

(2) المصدر السابق، ج 11، ص:344.

سبحان الله! ما يحبسني عن الهيمان على وجهي في البراري أطلب ما طلب الرجال! كيف تحلو الحياة، بل كيف تُحتَمَلُ لحظة، وأنا لا أعرف ما اسمي في الملكوت! كيف أُسَوِّفُ رحيلي إلى ربي، وتوبتي الكلية ورجعتي إليه وهو سبحانه يتحبب إلي وينادي ويعد ويبشر!

قال الإمام عبد القادر قدس الله روحه: «اهجُرْ طبعك وهواك وشيطانك ولا تركن إليهم. إذا ثبت هذا فاجعل بينك وبين أقران السوء عداوة. ولا تصادقهم حتى يوافقوك في حالك. التوبة قلب دولة».[1]

أقول نعم! التوبة الكلية التي تتمثل في هجر كل ما ذكر والطيران بجناحي الإنابة والشوق إلى المولى الكريم انقلاب عميق. لكن من يقدر عليه إلا همة مرفوعة سبقت لها عند الله الحسنى!

ويقول الشيخ الإمام في شروط السلوك بعد التوبة: «إذا تركت نفسك مع الدنيا، وقلبك مع الأخرى، وسرك مع المولى، حينئذ صارت خلوتك أنسا بالله. وأما مع وجودها ووجود غيرها من الأنفس فلا يكون لك خلوة.»[2]

لا يقصد الشيخ هنا الخلوة المعروفة، وهي حبس المريد نفسه في حجرة خاصة ليتفرغ للذكر، إنما يقصد التخليَ المعنويَّ الذي يرتفع به نظرُ النفس عن اللذات، ونظر القلب عن الدنيا جملة، ونظر السر عن الدنيا والآخرة. حينئذ يقف بالهمة واقف العناية على «باب الملك».

قال الإمام: «لا كلام حتى ترى الباب! فحينئذ ترى الغلمان (يقصد الأولياء المشايخ) (...) كن مع الصادقين حتى تعامَل بما عوملوا به. اصدق في أقوالك وأفعالك في جميع أحوالك. الصدق هو التوحيد والإخلاص والتوكل على الله عز وجل (...).

---

(1) الفتح الرباني، ص:206.

(2) المصدر السابق، ص:205.

«قرب الحق عز وجل لا يحتمل الزَّحْمَة. من كل ألف ألف منكم إلى انقطاع النفَسِ واحد يعقل ما أقول ويعمل به. وباقيكم يدخلون في غماره، ويتبركون بحضورهم معه. إني أرجو لكم الخير في الدنيا والآخرة. الدنيا سجن المؤمن. فإذا نَسي سجنه جاءه الفرج. المؤمنون في سجن، والعارفون في سكر، فهم غائبون عن السجن».[1]

قال عبد محب لمولاه، غريب عنه ما سواه، غريب هو في الناس:

غريب الوصف ذو علم غريب ... عليل القلب من حُبِّ الحبيب
إذا ما الليل أظلم قام يبكي ... ويشكو ما يُكِنُّ من الوجيب
يُقَطِّعُ ليله ذكرا وفكرا ... وينطق فيه بالعجب العجيب
به مِن حب سيده غرامٌ ... يجِلُّ عن التطبُّبِ والطبيب
ومن يكُ هكذا عبداً محبا ... يطيب ترابه من غير طيب

وقال سالك إلى ربه، يتحدث بنعم قربه:

تفرد في الدنيا لطاعة ربه ... فأورثه علم الكتاب بلا رَيْب
وآثَرَ حبَّ الله فانكشفت له ... عجائبُ أسرارٍ ثوابًا على الحُب
فمن كان في دعوى المحبة صادقا ... تجلت له الأنوار من غير ما حُجْب
فيرتع في روض المعارف دائما ... ولذتها أشهى من الأكل والشرب
تخاطبه الأحوال من كل جانب ... فيفهم عنها بالضمير وبالقلب
يكاشَفُ بالأسرار من ملكوتها ... فيأتي عليه الفَيْضُ من عالم الغيب

وقلت:

أُعَاني غُربَتَيْنِ في البَرايا ... فلي ضِعفُ الجَزاء على مُصابي
فغُربة ذاكرٍ بالبَدْع يُرمَى ... وغُربةُ مسلمٍ بين الذِّئاب
فَطُوبى ثمَّ طُوبى ليس يحصَى ... حَصادُ الصَّابرين من الثَّواب

(1) الفتح الرباني، ص:205.

الحجب المانعة عن القصد

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾. اللهم ما قصُر عنه رأيي، ولم تبلغه نيتي، ولم تبلغه مسألتي من خير وعدته أحداً من خلقك أو خير أنت معطيه أحدا من عبادك، فإني أرغب إليك فيه، وأسألك برحمتك يا رب العالمين.

قال الشيخ عبد القادر قدس الله سره: «باب قرب الحق لا يقبل الزحمة». نداء الله عز وجل المتلو شهادة والـمُلْقى غيبا في الثلث الأخير من الليل لا يجد من العباد الاستجابة. فأكثرُ العباد لا يريدون الله، إنما يريدون ما عند الله. يا حسرة على العباد. حَجَبَ العباد عن ربهم، وعن الإسراع إليه والسير والسلوك والمشي والتقرب والوصول ما كسبت أيديهم. حَجَبَ القلوبَ ما ران عليها وعلاها من أوساخ الذنوب والمعاصي والنفاق وسوء الظن بالله وبعباده والكسل عن الطاعات.

حَجَبَهم قرناء السوء واستخفافُهم بالصالحين وحسدُهم وقياسهم للآخرين على أنفسهم عن صحبة الأخيار وهي الشرط الأول في السلوك. حجبهم الغفلة والعادة والطبع والهوى والأنانية وتأويل كلمة الحق عن ذكر الله وعبادته على قدم السنة، والذكر هو الشرط الثاني في السلوك. وحجبهم كذبهم وتكذيبهم بالحسنى ونفاقهم عن صدق التوبة، وصدق النية، وصدق اليقظة، وصدق الاعتقاد، وصدق الطلب مع الصادقين، والصدق هو الشرط الثالث.

ومن تركيب هذه الموانع والحجب وضرب بعضها في بعض تنتُج الأعداد الهائلة، حتى يُقال: إن بين بعض العباد وربهم سبعين ألف حجاب من ظلمة ونور. وما وضع هذه الحُجُبَ غيرهم، ولا كسب سيئاتِها سواهم.

قال الله تبارك وتعالى يخبرنا عن حال المجرمين: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾.[1] الرَّيْنُ: الصدأ.

وقد شرح لنا رسول الله ﷺ كيف يتكون هذا الصدأ ويعلو القلوب فتنحجب عن ربها عز وجل، فقال فيما رواه مسلم رحمه الله عن حذيفة رضي الله عنه: «تُعْرَض الفتن على القلوب كالحصير عَوْداً عَوْداً. فأي قلب أُشْرِبَهَا نُكِتَ فيه نكتةٌ سوداء. وأي قلب أنكرها نُكِت فيه نكتةٌ بيضاء. حتى تصير على قلبين: أبيضَ مثلَ الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسودُ مُرْبادّاً كالكُوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أُشْرِبَ من هواه». الحديث.

تعرض الفتن كالحصير عودا عودا: قال ابن الأثير رحمه الله: تحيط بالقلوب كالمحصور المحبوس. عَوْدا عَوْدا: أي مرة بعد مرة. قال: أشربها. دخلت فيه وقبلها وسكنت فيه. مُرْبَادّاً: الذي في لونه رُبدة وهي بين السواد والغُبْرة. كالكوز مُجَخِّيًا: كالإناء المائل عن الاستقامة والاعتدال.

هكذا يعلمنا الله ويعلمنا رسوله أثر مكاسبنا على قلوبنا. ما من عمل حسن إلا يزداد به القلب بياضا ونورا. وما من خطيئة وفتنة يُشْرَبُها القلب ولا يتوب فاعلها ويستغفر إلا نَكَتَتْ في قلبه سوادا. ويتراكم السواد طَبَقا عن طبق حتى يؤلِّفَ صدأ يرين على القلب فيحجبه عن ربه عز وجل دنيا وأخرى.

السلوك سير قلبي، والمشايخ المسلِّكون أطباء في تصفية القلوب. ليس طِبُّهم من قبيل وصف الدواء من بعيد، بل هم أنفسهم دواء، صُحْبتهم ومجالستهم ومحبتهم ومخاللَتهم تَعَرُّضٌ مباشر للإشعاع القلبي الشافي بإذن الله الذي يودعه الله عز وجل في قلوب أوليائه.

لكن كيف يعتَرِف عليلُ القلب، وداؤه مستورٌ عن الأبصار، أنه مريض! داء العُجْب يمنعه عن الاعتراف. أم كيف يقصد رجلا مثلَه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق يقول له: داوني! الكبرياءُ وسوءُ الظن يمنعان من ذلك. حُجُبٌ بعضُها فوق

(1) المطففين، 14.

بعض وظلمات. ويموتُ مريض القلب بدائه، لم يعرفه، أو عرفه ولم يرض بعرضه على أصحاب البصائر. وتسمعه يقول: هذا كتاب الله وهذه سنة نبيه. وما عنده علم بالمصيبة الجُلَّى التي أصابت قلبه وسره فمَنعته من ملامسة نور الكتاب ونور السنة. ألا وهي مصيبة الرين والحجاب.

قال الإمام الرفاعي رحمه الله: «أيْ بُنيّ! اعلم أن أعظم مصائب السر حجابُه عن الله تعالى. فكل من حلت به هذه المصيبةُ فقد تلاشت سائر مصائبه في جنبها. فإن المحجوب سكران، والسكران لا يجد حالة سكره وجعَ المصيبة. فإذا أفاق وجد الألم.

«ومصيبة المحجوب لا تنجبر أبدا إلا بتجريد السر عن كل ما دون الله تعالى. ولا وعيد في القرآن أصعب من قوله تعالى: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم**﴾.[1]

«فكم من طاعة حَجَبت صاحبها عن المطاع (سبحانه)، وكم من نعمة قطعت صاحبها عن الـمُنعم. ورُبَّ نائمٍ رُزق الانتباه بعد رقدته، ومنتبهٍ نام بعد طول الانتباه. ورب فاجر رُزق الولاية، وبلغ منازل الأبرار، وزاهد سقط عن ولايته وسلك مسالك الفجار. وكم من عامل حجبته رؤية أعماله عن رؤية امتنان ربه حتى عميَتْ بصيرته فصار مبعدا وهو يحسب أنه واصل.

«ولا مصيبة أشد على العارف من الحجاب ولو طرفة عين. وأعظم عقوبة على العبد البُعد من الله والحجابُ».[2]

قال رحمه الله: «واعلم أن الكفار محجوبون بظلمة الضلالة عن نور الهدى. وأهل المعصية محجوبون بظلمة الغفلة عن نور التقوى. وأهل الطاعة محجوبون بظلمة رؤية الطاعة (أي الاعتزاز بعملهم من دون الله واهب المنن والاستكبار به والاستغناء) عن أنوار رؤية التوفيق وعناية المولى.

«فإذا رفع الله عنهم هذه الحجب نظروا بأعين النور إلى النور. فعند ذلك يحجبون عن غيره به.

---

(1) المطففين، 14.

(2) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص:133-134.

«فكل من نظر إلى حركاته وأفعاله في طاعة الله صار محجوبا عن وليها (سبحانه) مفلسا. ومن نظر إلى وليها صار محجوبا به عن رؤيتها. لأنه إذا رأى عجزه عن تحقيقها وإتمامها صار مستغرقا في امتنانه. وربما يُحْجَب برؤية العبادة عن وجدان حلاوتها. وربما يُحْجَبُ برؤية وِجدان الحلاوة عن صحة الإرادة. وربما يُحْجَبُ برؤية المنة عن رؤية المنان سبحانه».[1]

قلت: نَعَمْ! المحجوب سكران: سكرة العقل بعلمه ومخزون مكتسباته، وسكرة النفس بأنانيتها واستكبارها، وسكرة الماجن بلذاته، والرئيس برئاسته، والمالك بمِلْكِهِ، والمعافَى بصحة بدنه، والمريض بمرضه، والفقير الـمُعْوِز بعَوَزه، حتى تحيط بالدنيا وهوسها عدّاً، عكسا وطردا. الدنيا دار فتنة، وما من فتنة عينية جزئية أُشْرِبَها القلبُ حتى استقرت فيه إلا أظلمت ركنا منه وتكاثف عليه الريْنُ فما بالك بمن أُشْرب حبَّ الدنيا كلها، وهي الفتنة مُجَسَّدة! لذا كان حب الدنيا رأسَ كل خطيئة، وكانت حجابا عن الآخرة، وكانت هي والآخرة، لمن وقف عندهما بسره، حجابا عن الله عز وجل.

والموفَّق من لا يقف مع شيء من دون الله، خصوصا مع طاعته يَعتَدُّ بها ويباهي. الموفق من يخرق الحجاب الأكبر، وهو الزمان، وهو العمر، وهو حظه من الدنيا، ويطويه فيطلِّقُ الدنيا من قلبه، ثم يطلق الآخرة من سره، ويقطع المراحل كأنه في الدنيا غريب أو عابر سبيل. يقطع المراحل وهمُّه الله لا غيره.

قال شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله: «العبد من حين استقرت قدمه في هذه الدار فهو مسافر فيها إلى ربه. ومدة سفره هي عمره الذي كتب له. فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه. ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره. فكلُّ يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يطويها مرحلة مرحلة حتى ينتهي السفر.

«فالكيِّس الفطن (الموفق) هو الذي يجعَل كل مرحلة نُصْبَ عينيه، فيهتم بقطعها سالما غانما. فإذا قطعها جعل الأخرى نُصْبَ عيْنيه. ولا يطول عليه الأمد فيقسو

(1) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص:135-136.

قلبه، ويَمْتَدّ أمله، ويحضر بالتسويف والوعد والتأخير والمطل. بل يعدّ عمْرَه تلك المرحلة الواحدة. فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته.

«فإذا تيقن قِصَرَها وسرعة انقضائها هان عليه العمل، فطوعت له نفسه الانقياد إلى التزوُّدِ. فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك. فلا يزال هذا دأبه حتى يطوي مراحل عمره كلها. فيحمد سعيه، ويبتهج بما أعده ليوم فاقته وحاجته. فإذا طلع صبح الآخرة، انقشع ظَلاَمُ الدنيا، فحينئذ يحمد سُرَاهُ، وينجاب عنه كَراهُ. فما أحسن ما يستقبِلُ يومه وقد لاح صباحُه، واستبان فلاحه»[1].

قال الشيخ عبد القادر رحمه الله: «ويحك يا جاهل! بدل ما تشغل نفسك بالاعتراض، اشغلها بالسُّؤال من الحق عز وجل. شاغِلْها به حتى تذهب أوقات البلايا وتنطفئ نيران الآفات (...).

«إذا تحيرت قل: يا دليلَ المتحيرين دُلني. إذا ابْتُليتَ وعجزت عن الصبر قل: إلهي أعِنِّي وصبِّرني واكشف عني. وأما إذا وصلت، وأُدْخِل قلبُك وقُرِّبَ منه، فلا سؤال ولا لسان! بل سكون ومشاهدة. تصير ضيفاً. والضيف لا يَتَشَهَّى، بل يُحْسِنُ الأدبَ، ويأكل ما يُقَدَّم له، ويأخذ ما يعطى. إلا أن يقال له: تشهَّ! فيتشهى امتثال أمر لا اختياراً منه.

«السؤال عند البعد، والسكوت عند القرب. القوم لا يعرفون غير الحق عز وجل. تقطعت الأرباب عنهم، وانخلعت الأسباب من قلوبهم (...).

«من ادعى محبة الله عز وجل وطلب منه غيره فقد كذب في محبته. أما إذا صار محبوبا واصلا ضيفا مقربا فيقال له: اطلب وتشَهَّ وقل ما تريد فإنك مُمَكَّنٌ! (...) اطلبوا منه طيبة القلوب معه، فإنه يُوَسِّع طيبة القلوب على من يشاء، يُكثِر أرزاق القلوب على من يشاء»[2].

(1) طريق الهجرتين، ص:234.

(2) الفتح الرباني، ص:237.

قال مخالف لهواه وشهوات نفسه في الدنيا:

إذا طالبتك النفس يوما بشهوة ... وكان عليها للقبيح طريق
فدعها وخالف ما اشتهيت فإنما ... هواك عدوٌّ والخلاف صديق

وقال مغترب في الدنيا، طاوٍ المراحلَ إلى عليّين:

بنفسي إذا نفسي أنابت وأصلحت ... غريبٌ جرت من مقلتيه غُروب
إذا ذكر المولى تنسم قلبه ... وإن غلبته النفس كاد يذوب
أناخ بعِلّيّين رائدُ سره ... إلى حيث لا تمضي العقول يجوب
أبى الله أن تُدْرى ذخائره التي ... شَآبيبُها ماء السماء يَصوبُ
هم حسنات الدهر عند كماله ... ولكنهم عند الأنام ذنوب
محبتهم فرض ورُؤيتهم هدىً ... وللدين منهم ألْسُنٌ وقلوب
بَقيتَ قرير العين ما دمت فيهم ... وجانبك المكدور وَهْوَ نَكُوبُ

وقلت:

أناخَتْ بأعْلى الشَّوْطِ سَامقُ هِمَّةٍ ... يُراودُها الوعْدُ الشَّريف المُصدَّق
تنسَّمَ قَلبي الطِّيبَ من قُرب ربِّه ... فَليس له دون الإله تَعلُّقُ
إلى المَلإِ الأعلَى تَتوقُ جُهودُنَا ... وَلِي بالنَّبيِّ الهَاشميِّ تَعشُّقُ
عليه صلاة الله ثم سلامه ... أُردّدها والقلب بالحبِّ يَخْفُقُ

الطريق خطرة

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. اللهم يا ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود، الركع السجود، الموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، وإنك تفعل ما تريد.

يقول شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله عن طريق السلوك الصوفي: «كم فيها من قتيل وسليب وجريح وأسير وطريد!». في اصطلاح الإسلاميين المعاصرين يعرف «المتساقطون في الطريق» بأنهم الذين نكصوا على أدبارهم وتخلوا عن الدعوة لأسباب الابتلاء الخارجي، أو لأسباب نفسية تنظيمية، أو لمجرد ملل أو شك في القيادة والمنهاج، أو استبطاءً للنتائج.

وإذا كان الصبر والمُثَابرة والاستمرار خصالا ضرورية في العمل الجماعي الجهادي فإنها أيضا ضرورية في سلوك طريق الولاية. على أن أسباب التساقط في هذه الأخيرة أوفر عددا وأعمق في الاعتبار.

إن الاستمساك بعروة الدين وسط الفتنة والغربة رجولةٌ لا يتحلى بها إلا الأقوياء ذوو العزائم والمضاء، سواءً في ذلك السائرون في الطريق الجماعية الجهادية أو في الطريق الفردية الصوفية. روى أبو داود والترمذي عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأَصحابِه: «فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبرُ فيهن كالقابض على الجمر. للعامل فيهن مثل أجْر خمسين يعملون مثل عملكم». ورواه أيضا الطبراني وابن حبان وغيرهما فارتفع الحديث إلى درجة الصحة.

ضوعف الأجر بمضاعفة البلاء. وتعاظم الخطر في الطريق الصوفية لعلوِّ المقصد وطول الشُّقَّة وشروط الصحبة ودوام الذكر والحضور ومحاسبة النفس ودقة المعاملة

مع الله عز وجل. ولئن كان المتساقطون في طريق الجهاد قد يلحقون بالمنافقين فإن المرتدين عن الطريق الصوفية والغاطسين في أوحالها قد ينزلقون من سكر الطريقة و«كفرها» إلى الزندقة والإلحاد كما انزلق الحلولية والاتحادية والإباحيون. قاتلهم الله، أنى يؤفكون.

إن الاقتصاد في السلوك معناه السير الحثيثُ المتواصل بين طرفي الإفراط في الحماس الكاذب الذي يظهر على المبتدئين في السير ثم يخبو ويضمحِلُّ، وبين التراخي المالِّ الـمُمِلِّ الآئل إلى التوقف والفشل. هذان الطرفان المذمومان يُعَبِّرُ عنهما النطق النبوي بـ«الشِّرّة» و«الفَترة».

قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء شِرَّةً، ولكل شيء فَتْرَةً. فإنْ صاحِبُها سدد وقارب فارجوه. وإن أشير إليه بالأصابع فلا تَعُدُّوه». أخرجه الترمذي رحمه الله بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه. وصححه ابن حبان رحمه الله.

السائر إلى الله عن طريق الولاية، كالسائر مع الجماعة في طريق الجهاد، يعتريه حماسٌ أحيانا فيشتد، ويعتريه الفتور لأسباب ظاهرة أو نفسية فيسترخي. فيقول الدليل الرباني محمد ﷺ عن هذه الحالة وتلك: إن رأيتم المشتد والفاتر رجعا إلى استقامة مقتصدة قاصدة من بعد التطرف فارْجُوا للراجع نجاح القصد. أما إن خرج عن دائرة المحمود من السلوك المثابر وتمادى في مذموم الشرة والفترة حتى أصبح شاذا يشار إليه بالأَصَابع ويعرف بتطرفه فلا تَحْسُبُوه من المفلحين.

عَقَدَ السائر مع الجماعة العاملة للإسلام عهدا مع الله عز وجل ومع أصحابه، وعَقَدَ طالب القربة من الله عز وجل خاطبُ مقامات الولاية عهدا. عاهد كل الله تعالى لينصرانِّ الله في أنفسهما أو في العالم. فنقضَ ذلك العَهْدَ سقوطٌ وسلبٌ نعوذ بالله من السقوط والسلب. وليس عامل من عوامل الفشل أبْلغَ هدماً للإرادات من النفس. ما كان من قتيل وجريح وساقط وسليب وطريد في طريق الله عز وجل فمن النفس المعترَكَةِ بين شهواتها وأنانيتها وبين المغريات الخارجية، بين ما عندها من

قياس واستئناس وبين ما يدخل أو يخرج من عوائد الناس. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.[1]

الابتلاء الخارجي والاستفزاز الشيطاني ما هما إلا الجانبان الأضعفان في مُرَكَّب العقبة التي على المرء أن يقتحمها صُعُداً إلى رضى الله ومعرفته والوصول إليه. ووجود النزغات النفسية العدوَّة هو الذي يعطي للجهاد معناه وقيمته، ولنصر الله عز وجل عبده في معركة النفس والآفاق مغزاه ومداه. قال حكيم الصوفية الشيخ ابن عطاء الله: «ما توقف مطلب أنت طالبُه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك».

عاهد الله كل من الملتزم مع الجماعة والمريد الطالب وجه الله عز وجل على الاستقامة في السير إلى ما رسمه كلٌّ من أهداف. الشرط على المبتدئ بالعهد الذي نذر نفسه لله تعالى الاستقامة، والشرط الذي أخذه الله عز وجل على نفسه ووعد بإنجازه لمن وفَّى هو الهدايةُ بمقتضى قوله عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.[2] صدق الله العظيم، ووثِقَ به سبحانه وصدَّقه وصدَقَه كل عبد ذي مَحْتِد كريم. وما خذلك في سيرك إلا نفسك، فانظر من أين أُتيتَ.

إن الصدق سيف الله في الأرض، والثقة به سبحانه زاد السائر السالك. فمهما أخلَّ العبد بشرط الصدق قطعه سيف الله، ومتى اختلت ثقته بِربه عز وجل سقط على أم رأسه.

أما إن وفَّى العبد بشرط الصدق فإن الله مع الصادقين. قال ابن القيم رحمه الله: «وهو (الصدق) سيف الله في أرضه، الذي ما وُضِعَ على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلا إلا أرداه وصرعه. من صال به لم تُرَدَّ صولتُه. ومن نطق به علت على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال، ومِحَكُّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال».[3]

وأشد الأهوال مُظْلِماتُ النفس وتُرَّهاتُها وتعاظُمُها وكبرياؤها. يهون الحجاب الزمني أمام حاجِبِيَّتِها. وما أوقات العمر كلِّه إلا محطاتٌ لنزواتها وتحولاتها وتقلباتها.

(1) النساء، 79.

(2) العنكبوت، 69.

(3) مدارج السالكين، ج 2، ص:368.

وما للسالك إلى الله عز وجل من راحة من أفعى نفسه حتى يخرج من سلطانها ويكسر سوْرَتها بمطرقة الذكر على سندان المخالفة والمحاسبة حتى تفيء إلى أمْر الله.

فإن فاءت فالصلح معها جائز على أن تقف في حدود الله، وتَفْسَحَ للقلب باب المعاملة الصادقة الواثقة معه سبحانه.

النُّقلة من المعاملة النفسية الملتوية إلى المعاملة القلبية المستقيمة نُقلة نوعية، نُقلة من أرض الوباء النفسي، أرض المزالِقِ والمهاوِي والسقطات، إلى سماء الوفاء القلبيِّ. على أن النفس الأمارة بالسوء لا تُؤْمَنُ بَوائِقُها أبدا إلى أن تطمئن بالموتة المكتوبة فيقال للمُحسنات منهن ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾[1].

قال الإمام الرفاعي رحمه الله في فقه المعاملة القلبية: «معاملة القلوب على عشر مدارج. أولها الخطرات، ثم حديث النفس، ثم الهم، ثم الفكر، ثم الإرادة، ثم الرضى، ثم الاختيار، ثم النية، ثم العزيمة، ثم القصد. حتى يبلغ إلى عمل الظاهر.

قال: «فمن حفظ معاملة القلب عند الخطرات فهو على مدارج الصديقين. ومن قام لله تعالى فحفظ معاملة القلب عند حديث النفس فهو على مدارج المقربين. ومن قام لله تعالى فحفظ معاملة القلب عند الهم فهو على مدارج الأوابين. ومن قام لله على حفظ معاملة القلب عند الفكرة فهو على مدارج المخلصين. ومن قام لله فحفظ معاملة القلب عند الإرادة فهو على مدارج المريدين. ومن قام لله فحفظ معاملة القلب عند الاختيار فهو على مدارج المتقين. ومن قام لله فحفظ معاملة القلب عند النية فهو على مدارج الزاهدين. ومن قام لله فحفظ معاملة القلب عند القصد فهو على مدارج المجتهدين. ومن قام لله فحفظ معاملة القلب عند عمل الظاهر فهو على مدارج العابدين من عامة الموحدين».[2]

قلت، والبناء هرمي، إنما يبني في الهواء مَن لا أساس له من عمل الجوارح كما يعمل العابدون من عامة الموحدين. والصعودُ في هذه المدارج والمعارج قلبيٌّ يتقدم

---

(1) الفجر، الآية الأخيرة.

(2) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص:168.

فيها القلب بخطى المعاملة اليقظة الوفية مع الله تبارك اسمُه، وليس للنفس الحابِطة الهابطة سيرٌ ولا دُروج ولا عُروج، ثَبَّطَها شِرْكها بالخَلق ومُراءاتها ونفاقها وشقاقها على المعالي.

قال الإمام عبد القادر رحمه الله: «كل البلايا والأمراض في شِرْكِكَ بالخلق، ورؤيتهم في الضّرِّ والنّفع، والعطاء والمنع. وكل الدواء وزوال البلاء في الخروج عن الخلق من قَلبِك، وعزمك عند نزول الأقضية والأقدار. وأن لا تطلب الرياسة على الخلق والعلو عليهم. وأن يتجرد قلبك لرَبك عز وجل، ويصفو سرُّكَ له، وتَعْلُوَ همتك إليه.

«إذا تحقق لك هذا ارتفع قلبك، وزاحم صفوف النبيئين والمرسلين والشهداء والصالحين والملائكة المقربين. وكلما دام لك كبُرتَ وعظُمْتَ ورُفِعْتَ وقُدِّمت ووِلِّيت وأُمِّرْتَ. تُرَدُّ إلى ما تُرَدُّ، تُوَلَّى ما تُوَلَّى، تُعْطَى ما تُعْطَى. المحروم من حُرِم سَمَاع هذا الكلام والإيمان به والاحترام لأهله.

«يا مشغولين بمعايشهم! غِنَى المعيشة عندي! والأرباحُ عندي! ومتاع الأخرى عندي! وأنا منادٍ تارة، وسمسارٌ أخرى، ومالِكُ المتاع أخرى. أُعْطِي كل شيء حقه (...).

«كل من اطلع على كرم الله عز وجل لا تجد عنده بخلا. كل من عرف الله عز وجل هان عنده ما سواه. البخل من النفس، ونفس العارِفِ ميّتة بالإضافة إلى نفوس الخلق. هي مطمئنة إلى وعد الله عز وجل خائفةٌ من وعيده.

«اللهم ارزقنا ما رزقت القوم، وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»[1].

قلت: تُرى من هذا الذي يقول: أنا! وعندي! ما هو طَبْلٌ أناني فارغ، بل هي والله نفس عارف بالله جلت عظمته، لا يَعظُم في عينه شيء غيرُ الله، وما ينادي ويُسَمْسر في بضاعة غير بضاعة الله.

(1) الفتح الرباني، ص:71.

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه يصف أهوال الطريق إلى سُعادِ السعادة:

كيف الوصول إلى سُعادَ ودونها قُلَلُ الجبال ودونَهُنَّ حتوف!
والرجل حافيَة ولا لي مركبٌ والكف صِفْر والطريق مَخوفُ

وقال سائر سالك مغترب غاب عنه الركب:

ومغترب بالأرض يبكي لشَجْوه وقد غاب عنه الـمُسْعِفُون على الحُب
إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه تنشَّقَ يستشْفي برائحة الرَّكب

وقال غريب المثوى، غريب الأحوال، هائم في غيب الملكوت:

مستعجم السر صامت ذاكر منعجم الأمر غائب حاضر
منقبض في الغيوب منبسطٌ إذا بدا الغيب مُطرقٌ ناظر
تراه تحت السكوت منطرحا كذاك من كان عارفا ذاكر
يرقد في ليله بلا سِنَةٍ فهو مدى الليل راقدٌ ساهر
يُؤْيِسُه الظن ثم يُطْمِعه! فمن رأى قَطُّ آيِسا ظافر!

وقلت:

كَم ساقِط وجَريحِ على الطَّريق المَخُوفْ
في البَرِّ وعْرُ البَوادي وفي البُحورِ الحُتوفْ
ما لِلوصول سَبيلٌ إلاَّ بِخلٍّ عَطوفْ

آداب السلوك

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. اللهم اجعلنا هادين مهتدين، غير ضالين ولا مضلين. سلما لأوليائك وعدوّاً لأعدائك. نحب بحبك من أحبك. ونعادي بعداوتك من خالفك.

الأدب لغة هو الدعوة والجمع والتعليم. فمن اجتمعت فيه خصال الدعوة إلى محامد الأفعال والأخلاق والنيات، وتحلى بمجامعها، وتعلمها ثم علَّمها فذاك الأديب.

والأدب في اصطلاح الصوفية وأهل السلوك عبارة عن حفظ آداب الحضرة الإلهية. وقد افتتح الأستاذ القشيري رحمه الله «باب الأدب» من رسالته بقول الله عز وجل عن نبيه وعبده محمد ﷺ في معراجه وقربه من ربه: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾[1] فعد ثبات رسول الله ﷺ في ذلك المقام الأقدس وطمأنينته أدبا. وعلق ابن القيم رحمه الله على صنيع الأستاذ فأحسن التعليق. قال: «لم يتجاوز البصر حده فيَطغَى، ولم يمِلْ عن المرئي فيزيغَ. بل اعتدلَ البصرُ نحو المرئي، ما جاوزه ولا مال عنه كما اعتدل القلبُ في الإقبال على الله، والإعراض عما سواه. فإنه أقبل على الله بكليته (...). وهذا غاية الكمال في الأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه (...).

وقال: «فلم يزل ﷺ في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه وتكميل مراتب عبوديته له حتى خرق حجب السماوات، وجاوز السبع الطباق، وجاوز سدرة المنتهى، ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين. فانصبَّت إليه هناك أقسامُ القرب انصبابا، وانقشعت عنه سحائب الحُجْب ظاهرا وباطنا حجابا حجابا. وأقيمَ مقاما

(1) النجم، 17.

غَبَطه به الأولون والآخرون. واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله، ما زاغ البصر وما طغى».[1]

قلت: وفي هذا المقام الأسنى والدرجة العليا علمه ربه عز وجل وكلفه وشرفه، تتميما لتعليم الوحي لـمَّا كان في الأرض وبعد أن رجع إليها. فاجتمع فيه ﷺ كمال العلم وكمال المحامد، وعلم أمته فأحسن التعليم كما علمه ربه وأدبه. روى ابن السمعاني رحمه الله عن ابن مسعود رضي الله عنه بإسناد صححه السيوطي رحمه الله أنه ﷺ قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

فأدَبُ أتباعه ﷺ يبتدئ وينتهي عند اتِّباعه ﷺ فيما بلغ عن ربه عز وجل، مع محبته وطاعته. فالأدب بهذا المعنى هو الدين كله، يشمل آداب القول والفعل والتخلق والنية. يشمل آداب المسلمين والمؤمنين والمحسنين السالكين، كلٌّ على حسب مدرجته وحظه من الله ومن العلم بالله، يشمل الأدب مع الله عز وجل ومع رسوله الكريم ومع الخلق كافة.

يتعين على السالكين إلى مقامات الإحسان وفيها يقظة خاصة حتى يؤدوا مراسيم العبودية مما فرضهُ الله عز وجل وندب إليه ونهى عنه وكرهه بالدقة التي يحرسها الورع، ويُجَلِّلها في القلوب الحضور الدائم مع الله عز وجل، ويوفِّيها هضم حق النفس الزائغة الطاغية بطبعها وهواها ليُصان حقُّ الله وحق عباد الله.

الأدب إحسان يلُفُّ سلوك السائر إلى الله عز وجل، المتقرب إليه سبحانه بالفرض والنفل، وبالنية الصادقة الواثقة في أن يُوَفِّيَ له الله تبارك اسمه ما وعد. يكتنف الأدبُ أقوال المريد الصادق الواثق وأفعالَه وأخلاقَه وخلجات قلبه في علاقته بالمصحوب الذي يدله على الله، وعلاقته بالجماعة المرافقة له في الطريق، وعلاقته بالله عز وجل في الصلاة والذكرِ وسائر العبادات. منبع هذا الأدب القلب ورقيق معاملته وصادق تحبُّبِه ومجاملته. فإن كان في القلب بقايا من جفاء وجفوة، أو سطا عدوان النفس الهَلوعة المنوعة على فَيْضات القلب فكدَّر منها الصفو وأزعج منها الانبعاثَ، فيرد هذا السالك إلى سياسة نفسه في صفوف العوام لِسوء أدبه.

(1) مدارج السالكين، ج 2، ص: 383.

العبـد السـالك بيـن طاعـة ونعمـة توجبـان الشـكر، وبين قضـاء وقدر يلـزم معهما الصـبر، وبيـن معصيـة وتقصيـر وغَفلـة طارئة يفـر منها إلـى الله العزيز الغفـور بالتوبة المجـددة والاستغفار. فهـو في كل حالاتـه متنقل لا يستقر من شـعور لشعور، ومن حركـة لحركـة، ومـن لفـظ لسـان إلـى خَفْـق جنـان. كل هـذا في عبـادة لا تنقطـع، يرجـع دائمـا مـن الله إلـى الله، شـأن الذاكـر الدائـم علـى صلاتـه، المحافـظ علـى دقائـق أوقاته.

وقد تكلم المشايخ في الأدب كلاما يعود في جملته إلى قهر النفس والمعاملة القلبية مع الله عز وجل. قال سعيد بن المسيب التابعي الجليل رضي الله عنه: «من لم يعرف ما لله تعالى عليه في نفسه، ولم يتأدّبْ بأمره ونهيه، كان من الأدب في عزلة». وقال عبد الله بن المبارك رضي الله عنه: «نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم». وقال أيضا: «الأدب للعارف كالتوبة للـمُستأنِف».

وقال عالم الصوفية الشيخ سهل بن عبد الله التستُري رحمه الله: «من قهر نفسه بالأدب فهو يعبُد الله تعالى بالإخلاص». وقال: «استعانوا بالله على أمر الله فصبروا على أدب الله تعالى».

وقـال ابـن عطـاء رحمـه الله: «الأدب الوقـوف معَ المستحسنات». قيـل لـه: ومـا معنـاه؟ قـال: «أن تعامـل الله تعالـى بـالأدب سـرا وعلنـا. فـإذا كنـت كذلـك كنـت أديبـا وإن كنـت أعجميّـا».

وقال أبو علي الدقاق: «ترْكُ الأدب موجب يوجب الطرد، فمن أساء الأدب على البساط رُدَّ إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رُد إلى سياسة الدواب».

وذكر أبو نصر الطوسي السَّرّاج أدب الناس فقسـمهم ثلاث طبقات: أهل الدنيا، وأهـل الديـن، وأهـل الخصوصيـة. قـال: «فأمـا أهـل الدنيـا فأكثـر آدابهـم في الفصاحـة والبلاغـة وحفـظ العلـوم وأسـمار الملوك. وأما أهـل الدين فإن أكثـر آدابهم في رياضة النفـوس وتأديـب الجـوارح، وطهـارة الأسـرار وحفـظ الحـدود، وتـرك الشـهوات، واجتنـاب الشـبهات، وتجريـد الطاعـات، والمسـارعة إلـى الخيرات».

قال رحمه الله: «وأما أهل الخصوصية فأكثر آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر، وحسن الأدب في مواطن الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب».

قلت: وكلما ارتقى العبد في سلم المعرفة بالله عز وجل كانت تكاليف الأدب وضبط النفس عليه أدقَّ وأرقَّ. وقد قال يحيى بن معاذ: «إذا ترك العارف أدبَه مع معروفه فقد هلك مع الهالكين». ولخَّص الموقف النفسيَّ القلبيَّ للسالك خير تلخيص شيخ الإسلام ابن القيم فقال عن حالة الفتح وأخطار سوء الأدب فيه: «مواهب الرب تبارك وتعالى تنزل على القلب والروح، والنفس تسترق السمع. فإذا نزلت على القلب تلك المواهب، وَثَبتْ لتأخذ قسطها منها، وتُصَيِّرَه من عُدَّتها وحواصلها. فالمسترسلُ معها، الجاهل بها، يَدَعُها تستوفي ذلك.

قال رحمه الله: «فبينا هو في موهبة القلب والروح وعُدة وقوة له، إذ صار ذلك كله من حاصل النفس وآلتها وعُدَدِها. فصالت به وطغت، لأنها رأت غناها به. والإنسان يطغى أن رآه استغنى بالمال، فكيف بما هو أعظمُ خطرا وأجل قدراً من المال بما لا نسبة بينهما من علم أو حال أو معرفة أو كشف. فإذا صار ذلك من حاصلها انحرف العبد به -ولا بد- إلى طرَفٍ مذموم من جُرْأة أو إِدْلاَلٍ ونحو ذلك».

قال: «فوالله كم ههنا من قتيل وسليب وجريح يقول: من أين أُتيتُ؟ ومن أين دُهيتُ؟ ومن أين أصِبْتُ؟ وأقلّ ما يعاقب به من الحرمان بذلك أن يُغلق عنه باب المزيد.

قال: «ولهذا كان أرباب البصائر إذا نالوا شيئا من ذلك انحرفوا إلى طَرَفِ الذُّلِّ والانكسار ومطالعة عيوب النفس، واستدعوا حارسَ الخوف، وحافظوا على الرباط بملازمة الثغْر بين القلب وبين النفس، ونظروا إلى أقرب الخلق من الله عز وجل وأكرمِهم عليه وأدْناهم منه وسيلةً وأعظمهم عنده جاها، وقد دخل إلى مكة يوم الفتح وذقَنُه تمس قربُوسَ سَرْجه انخفاضـًا وانكسارا، وتواضعا لربه تعالى في مثل

تلك الحال التي عادة النفس البشرية فيها أن يملِكهَا سرورُها، وفرحها بالنصر والظفر والتأييد، ويرفعها إلى عنان السماء.

قال: «فالرجل من صان فتحه ونصيبه من الله، ورواه عن استراق نفسه، وبخل عليها به. والعاجز من جاد لها به. فياله من جود ما أقبحه، وسماحة ما أسفه صاحبها. والله المستعان».[1]

قلت: لوجود علة النفس الميَّالة للفرح بزينة الدنيا وللطغيان إذا استغنت خاف المشايخ المربون على السالك أن توقفه عن السير وتزيغه عن القصد بوادر الفتح إن فاجأته قبل أن تزكُوَ نفسه وترتفع عن المطالب الدنيا. وكل ما سوى وجه الله عز وجل دون، ولو كان من علوم الغيب والكشف والكرامة. قال المشايخ رضي الله عنهم «من سبق فتحه جهاده لنفسه لا يأتي منه رجل».

وقال الإمام عبد القادر رضي الله عنه: «يا قومُ. دعوا عنكم الهوسات والأمانيَّ الباطلة (...). اِخرَسْ أنت. فإن أراد الله عز وجل منك النطق فهو ينطقك. إذا أرادك لأمر هيأك له. صحبتُه (سبحانه والأدب معه) خرسٌ كليٌّ. فإذا تم الخرس يجيء النطق منه إن شاء أو يديم ذلك إلى حينِ الاتصال بالآخرة.

«وهذا معنى قول النبي ﷺ: «من عرف الله كلَّ لسانُه». يَكِلّ لسان ظاهره وباطنه عن الاعتراض عليه في شيء من الأشياء. يصير موافَقَةً بلا منازعة. يُعْمِي عينيْ قلبه عن النظر إلى غيره. يتمزق سرُّه، ويتلاشى أمرُه، ويتفرق ماله، ويخرج من وجوده، ويخرج من دنياه وآخرته. يذهب اسمُه ورسمُه. ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾[2].

«يوجِدُه بعد الفقد، يعيده خلقا آخر، يفنيه بيد الفناء، ثم يعيده بيد البقاء ليطلب اللقاء. ثم يعيده ليدعوَ الخلق من الفقر إلى الغنى. الغنى هو الغنى بالله عز وجل والاتصال به. والفقر هو البعد عن الله عز وجل والاستغناء بغيره. الغَنِيُّ من ظفر قلبه بقرب ربه عز وجل، والفقير من عدِمَ ذلك».[3]

---

(1) مدارج السالكين، ج 2، ص:394.

(2) عبس، 22.

(3) الفتح الرباني، ص:172.

قال حائر في سيره، مدهوش لما رأى من أمره:

إن كنتُ أدْرِي من أين آتي ... وأين من حَيْرَةٍ أمُرُّ
فأنت يا مركبي حبيسٌ ... ويا غلامي فأنت حُرّ

وقال هائم في بحار الأنوار:

تعَرَّضْ نَسِيما هَبَّ من أَرضِ نُعمان ... لِيحيَى به ما مات من قلب هَيْمَانِ
وقف عن يمين الروح من جانب الحِمَى ... وقوف ذليل هائم القلب حَيْرَان
وناد: سلام الله يا بانة الحِمَى ... عليك ومن لي بالسلام على البان!
وقل إن رآك الواشِيَان مُدَلَّها ... ضَلَلْتُ على النهج القويم فدُلاَّني
فإن شئتما قتلا فها أنا صابرٌ ... وإن شئتما أسْرا لديكم فشُدّاني
لعلهمُ أن يسمعوا لك أَنَّةً ... فنادِهمُ: صفحَ الكرام عن الجاني

وقال طيَّار على رفرف العناية ما عرف الخلقُ مَسْرَاهُ:

تَسترتُ عن دهري بِظلِّ جناحه ... فطرفي يرَى دهري وليس يراني
فلو تسألُ الأيامَ ما اسْمِيَ ما دَرَتْ ... وأينَ مكاني؟ ما عرفن مكاني

وقلت:

كَبِّرِ اللّه واعْزِم ... واقتَحمْها لا تُحجِم
ومَعَ اللّه فاتَّخِذْ ... عَهْدَ عَبدٍ مُسَلِّم
وتأدَّبْ بشرعِه ... وتوكَّل وأقْدِم

سلوك الإمام الصادق

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.
اللهم هذا الدعاء، وعليك الاستجابة، وهذا الجُهد، وعليك التُّكلان.

في هذا الفصل أورِدُ نماذج من الوصايا والتوجيهات السلوكية لبعض أئمة الطريق. أبدأُها بوصية للإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الشهيد الحسين بن الإمام أمير المؤمنين علي. رضي الله عن السيدة فاطمة البتول وعن آل البيت المطهرين تطهيرا بإرادة خاصة وعناية مخصوصة من رب العزة جل وعلا.

إن كان في المسلمين أولياءُ فعليٌّ والأئمة الأطهار من ذريته بعد أبي بكر وعمر، ورضي الله عن أمير المؤمنين عثمان ثالث الخلفاء الراشدين. وواجبُ كل تقي ولي من أمة المصطفى جد الشرفاء أن يحب آل البيت عملا بقوله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي». رواه الترمذي والحاكم رحمهما الله عن ابن عباس رضي الله عنهما وصححه السيوطي رحمه الله. ولقوله عليه الصلاة والسلام: «إني تارك فيكم ثَـقَلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، من استمسك وأخذ به كان على الهدى، ومن أخطأ ضل. فخذوا بكتاب الله تعالى واستمسكوا به. وأهلَ بيتي. أُذَكِّرُكم الله في أهل بيتي! أُذَكِّرُكُمُ الله في أهل بيتي!» عزاه السيوطي في الجامع الصغير للإمام أحمد وعبد بن حميد ومسلم رحمهم الله عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

ومن بعد وصية رسول الله رحمة العالمين وتذكيره الله إيانا في أهل بيته نلتفت فنجد الأمر القرآني بوحدة الأمة، فيتعين علينا أن نلتمس جسورا لِلَمِّ شَعَثِ المسلمين من شيعة وسنة. وليس من جسر أشرف ولا أطهر ولا أمتن من محبة آل البيت والوفاء لآل البيت، السلام على آل البيت ورحمة الله تعالى وبركاته.

ما يرجح ميزان العبد المتقرب إلى الله عز وجل الموالي لأوليائه المعادي لأعدائه إن لم يكمِّل سلوكه بالسعي الجاد في ترجيح وحدة الأمة على شتاتها وترجيح جمعها على فرقتها. أهل السنة والجماعة طوائف منهم من يُسيء الظن بكل ما سُمِّيَ شيعة ويُفيض كراهيته على الصوفية لِمَا عَرَفَ من حب الأولياء الشديد لآل البيت. وإنك لتقرأ المطوَّلات من الكتب في صلة التشيع بالتصوف وصلتهما بالباطنية. وما هو إلا خَرْصٌ ورَهْصٌ.

ولئن كان ينتسب إلى الشيعة روافضُ، قاتلهم الله، يكرهون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ويفشو في عوام الشيعة داء التطرف الرفضيِّ الوبيل فليس الذنب ذنب الأئمة من آل البيت، حاشاهم. ولئن كان في علوم الشيعة ورواياتهم تقلُّص فمرجع ذلك إلى الإرهاب الأموي والعباسي الذي لاحق الأئمة المطهرين فاندسَّ شيعتهم بانفعال يفسره الاضطهاد، ويفسر هو نفورَهم من علومنا معشر أهل السنة والجماعة، الواسعة الكاملة.

هذا الإمام جعفر الصادق رأس المذهب الفقهي الجعفري الذي يعتمده الشيعة الإمامية كان علما مشارا إليه في الأمة، روى عنه أبو حنيفة رحمه الله في مسنده كما روى عن أبيه الإمام الباقر وتتلمذ لعمه الإمام زيد بن علي رأس المذهب الزيدي. كما تتلمذ لعبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط رضي الله عنهم.

ولَنِعْمَ الشاهد بين أهل السنة والشيعة الإمام الأكبر أبو حنيفة الذي والى آل البيت وساندهم في قوماتهم على بني أمية وبني العباس. ساند الإمام زيدا في قومته، وساند محمدا النفس الزكية وأخاه إبراهيم في قومتهما حتى قال رحمه الله وقد سئل عن الجهاد مع النفس الزكية: «خروجه يُضاهي خروج رسول الله ﷺ يوم بدر».[1]

وما يزال أئمة الصوفية يحفظون عهد النبي ﷺ في آل البيت ويعظمون الأئمة منهم تعظيما. قال الرفاعي رحمه الله: «إذا وعظتم الناس فإياكم والتصريح، وخذوا بالتلويح، فإن هناكَ رائحة السنة وشمَّةَ النفحة النبوية. وبها والله يُصلح الله القلوب».[2]

(1) انظر كتاب «أبو حنيفة»، للشيخ أبي زهرة، ص:180 وما بعدها.

(2) البرهان المؤيد، ص:109.

قلت: نهى معاصريه عن التصريح بلواعج حب آل البيت وفجائع التنكيل بآل البيت تَحَسُّباً للاضطهاد المستمر الذي مارسه ملوك بني العباس على آل البيت. ومع ذلك صرح رضي الله عنه فقال: «الحسين عليه السلام طلبَتْ بشريَّتُه حقها الشرعي الذي لا نزاعَ فيه، فغارت الربوبية، فرفعت روحه إلى مقعد صدق (...) فكانت شهادة الإمام رِفْعَةً له، وكان ظَفَرُ أعداء الله خزيا لهم».

ونجد عند الإمام أحمد السرهندي رحمه الله حملاتٍ شعواء على الروافض، وإشادَةً بمقام الخلفاء الراشدين قبل علي رضي الله عنهم أجمعين. ثم نجد عنده في آخر مكتوباته إخبارا فريدا من كشفه الخاص. يعطينا هذا الإخبار الكشفي جسرا إضافيا إلى جانب فَرْض حب آل البيت وفرض توحيد الأمة. وعلوم الكشف تسلَّم لصاحبها المعروف بالصدق ولا تكون شرعا لأحد.

فنستأنس بكشف الشيخ السرهندي حين كتب أن سلسلة السلوك الصوفي تبتدئ من أب الأشراف الإمام علي وتمتد عبر الأئمة من آل البيت إلى أن تنتهي إلى الشيخ عبد القادر الذي يَعتبره عُمْدَةَ الأولياء ويَعْسُوبهم، حتى إنه لا يعتبر نفسه إلا «نائباً مناب حضرة الشيخ قدس الله سره (...) كما قالوا: إن نور القمر مستفادٌ من نور الشمس».[1]

هذا الإمام العظيم عبد القادر أجمعت الأمة على توقيره، وشهد الكل بجلالة قدره: الصوفية والمحدثون الحنابلة، ابن تيمية ومن قبله وبعده، ثم هذا كشف محيي السنة أحمد السرهندي يربطه ربطا وثيقا بأئمة آل البيت. ومن آل البيت كان أئمة التربية مثل الشيخ عبد القادر والشيخ الرفاعي والشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمهم الله وكثير غيرهم. فالمرجو من الله جل شأنه أن ينفع الأمة بشمة نبوية ببركته على محمد وآل محمد حتى تتوحد الأمة على سنة محمد متجاوزة عصور الكدر والطائِفية. صلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

جاء الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه زائرا المدينة المنورة في بعض تحركات آل البيت المراقبة فتوسل إلى لقائه رجل يُسمَّى عنوان كان من حلقة إمام دار الهجرة

(1) المكتوبات، ج 3، ص:185.

مالك بن أنس رضي الله عنه. سأل الإمام زائره عن حاجته فقال: «سألت الله أن يُعَطِّفَ عليَّ قلبك ويرزُقَني من علمك». قال الإمام: «يا أبا عبد الله! ليس العلم بالتعلم، وإنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تعالى أن يهديه».

قلت: يقصد الإمام علومَ الأولياء التي آلتُها القلب، لا علوم الرواية والدراية التي لا بد فيها من تعليم وتعلم ودراسة.

قال الإمام: «فإن أردت العلم فاطلب في نفسك أولا حقيقة العبودية. واطلب العلم باستعماله. واستفهم الله يُفهمك». قال المسترشد: وما العبودية؟ قال الإمام: «ثلاثة أشياء: أن لا يَرَى العبدُ لنفسه فيما خَوَّلَهُ اللهُ مِلْكاً، لأن العبيدَ لا يكون لهم مِلْكٌ. يرَوْن المالَ مالَ الله، يضعونه حيث أمرهم الله. ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً».

قلت: المقصود أن العبدَ الموفق لا يختار مع القدر الغالب شيئا بعد أن يتخذ كل الوسائل الشرعية للمقاصد الشرعية.

قال الإمام: «ويجعل اشتغاله فيما أمره الله به ونهاه عنه».

قال: «فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوَّله الله مِلكا هان عليه الإنفاق فيما أمره أن يُنفِق فيه. وإذا فوض العبد تدبير نفسه إلى مدبِّره هانت عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل العبد بما أمره الله ونهاه لا يتفرغ إلى المِراء والمباهاة مع الناس».

قال: «فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة هانت عليه الدنيا وإبليسُ والخلقُ. لا يطلب الدنيا تكاثُرا وتفاخرا. ولايطلب ما عند الناس عزّاً وعُلُوا. ولا يدعُ أيامَه باطلا. فهذا أولُ درجة التُّقى».

قال المسترشد: يا أبا عبد الله، أوصني.

قال الإمام: «أوصيك بتسعة أشياء، فإنها وصيتي لمريدي الطريق إلى الله تعالى. أسأل الله أن يوفقك لاستعمالها».

قال: «ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحِلْم، وثلاثة منها في العلم. فاحفظها، وإياك والتهاون فيها».

قال عنوان: ففرَّغت قلبي له.

قال الإمام: «أما اللواتي في الرياضة:

1. فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه، فإنه يورث الحماقة والبلهَ.

2. ولا تأكل إلا عند الجوع.

3. وإذا أكلت فكل حلالا، وسم الله، واذكر حديث رسول الله ﷺ: ما ملأ آدمي وعاءً شرا من بطنه، فإن كان ولا بد فثُلثٌ لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسِه».

قلت: الحديث «ما ملأ ابن آدم...» رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم رحمهم الله عن المقدام بن معديكرب رضي الله عنه بسند حسن.

قال الإمام: «وأما اللواتي في الحلم:

1. فمن قال لك: إن قلت واحدة سمعت عشرا. فقل له: إن قلت عشرا لم تسمع واحدة.

2. ومن شتمك فقل له: إن كنت صادقا فيما تقول فأسأل الله تعالى أن يغفر لي. وإن كنت كاذبا فيما تقول، فأسأل الله تعالى أن يغفر لك.

3. ومن توعدَّك بالخَنَا فعده بالنصيحة والدعاء».

قال الإمام: «وأما اللواتي في العلم:

1. فاسأل العلماء عما جهلت، وإياك أن تسألهم تَعَنُّتًا وتجربة.

2. إياك أن تعمل برأيك شيئا. وخُذْ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلا». قلت: نهاه أن يعمل برأيه فيما لم يرد فيه نص قطعي من الدين فيحتاج لاجتهاد العلماء.

3. واهرُب من الفتيا هروبك من الأسد. ولا تجعل رقبتك للناس جسرا ». ثم قال الإمام رضي الله عنه: «قم عني يا أبا عبد الله فقد نصحت لك. ولا تُفسد عليَّ وِرْدي. فإني امرؤٌ ضنِينٌ بنفسي. والسلام على من اتبع الهدى».

قال ناصح لإخوانه، يذكرهم بربهم وبالمصير إليه:

عامِلْ بذاتك مولىً أنت صَنْعَتُه ... وعامل الناس، إن عاملت، بالعَرَضِ
واستـرزق الله واسأله فإن له ... لطفا يَكُفُّكَ عن راضٍ ومعترض
يا جامع المال لم يُخْلِلْ بمكسبه ... وقد أخل بمسنون ومُفْتَرَض
تـنام مُـتَّخِماً حرصا ومَنْهَمَـة ... وجار بيتك مَطْوِيٌّ على مَضَض
لا تأمن الموت واحذره فبطشته ... لم تَقْوَ يوما عليها نفس مُنْتَهِض
تقول في المرض: الذكرى تُذَكِّرُنَا ... كم ميِّتٍ قد رأيناه بلا مرض!
تنجو السفينُ وموجُ البحر مُرْتَكِمٌ ... وربما غَرِقَتْ في مَأمَنِ الفُرَض
فانْبِذْ بِدُنْياك في دين خُلِقْت لَهُ ... واقبض عنان الهوى ما اسطَعْتَ وانقبض
في كل شيء إذا فارقته عِوَضٌ ... وليس لله إن فارقت من عِوَضِ

وقلت:

أمْطَرَتْ رحمةً سماءُ البَشائِرْ ... لعُبيدٍ بالصِّدقِ والعَزْم سائرْ
أظمَأ النَّفسَ بالنَّهار وباتَتْ ... حولَه النَّاس نُوَّما وَهْوَ ساهِرْ
حَضَنَتْه الأملاكُ حَفَّتْهُ باللُّطـ ... ـفِ وَفضَّتْ عنهُ حِجَابَ السَّتَائرْ

سلوك الإمام الغزالي

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. اللهم اجعل لي نورا في قلبي، ونورا في قبري، ونورا بين يدي، ونورا من خلفي، ونورا عن يميني ونورا عن شمالي، ونورا من فوقي ونورا من تحتي، ونورا في سمعي، ونورا في بصري، ونورا في شعري، ونورا في بشري، ونورا في لَحمي، ونورا في دمي، ونورا في عظامي، اللهم أعظِم لي نورا، وأعطني نورا، واجعل لي نورا.

سبق الغزاليَّ في مضمار السلوك أجيالٌ من الزهاد والصوفية في البصرة والكوفة والعراق وجبال لبنان، وكتب في «علوم الآخرة» قبله أمثال الحارث المحاسبي والحكيم الترمذي وخصوصا أبو طالب المكي رحمهم الله. وسبقه إلى طرح الدنيا والإقبال على الله عز وجل أمثالُ إبراهيم بن أدهم رحمه الله الذي كان من أبناء الملوك فتزهد وتصوف وسلك طريق القوم حتى أصبح من المشار إليهم بينهم.

لكن امتازَ أبو حامد بأنه أول فقيه شهير طرح شهرته ودنياه الواسعة ودخل في صف القوم حتى تعلم علمهم، وهو الفارس المغوار الشديد الصولة، ثم خرج على الناس بفقه السلوك مقَعَّدا مرتبا. فكان لكتاباته، ولا يزال، الأثر البالغ في تعليم الأجيال من بعده. خاصة لكتابه «الإحياء» الذي قيل عنه: «من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء». واختلف بعض الناس في تقويم الإحياء، فأحرقه علماء المغرب بعد وصوله. ورد عليهم ابن السبكي رحمه الله بعد نحو قرن ونصف بعد أن رحب بعودة المغاربة إلى تبجيل كتب الغزالي فقال: «وأين نحن ومن فوقنا وفوقهم من فهم كلام الغزالي أو الوقوف على مرتبته في العلم والدين والتأله!»[1] وقال: «لا يعرف أحد

(1) طبقات الشافعية، ج 4، ص:129.

ممن جاء بعد الغزالي قدر الغزالي ولا مقدار علم الغزالي، إذ لم يجئ بعده مثله. ثم إن الـمُدَانِيَ له إنما يعرف قدره بقدر ما عنده، لا بقدر الغزالي في نفسه».[1]

ثم برز لمحاربة فكر الغزالي على مستوى عال من المبارزة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فكان جل ما أخذ عليه ورَدَّ مدسوسات دسها عليه الأعداء والحساد كما شكا الغزالي ذلك في إحدى رسائله فقال: «هاج حسد الحساد، ولم يجدوا أيَّ طعن مقبول غير أنهم لَبَّسوا الحق بالباطل وغيروا كلمات من كتاب «المنقذ من الضلال» وكتاب «مشكاة الأنوار»، وأدخلوا فيها كتاب كفر».[2]

كان الغزالي قبل خروجه في طلب شيخ يُسَلِّكه عالم خراسان والعراق. وكان له في بغدادَ صولة وجاه عظيمان. قال معاصره العارف به عبد الغافر الفارسي رحمه الله: «وعلت حِشْمَتُه (ثروته وأبهته ومكانته الاجتماعية) ودرجته في بغداد حتى كانت تغلب حشمته الأكابر والأمراء ودار الخلافة».[3] ثم زهد في ذلك كله. قال: «وسلك طريق الزهد والمِثَالَة، وترك الحشمة، وطرح ما نال من الدرجة للاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة. فخرج عما كان فيه».

هذه الهجرة من الدنيا ورئاستها في طلب الله عز وجل هي بداية طريق كل صادق، يَجْفُل مما هو فيه ويَعَافُه وتستولي عليه فكرة الطلب. نقرأ هذه الخطوة في سلوك الغزالي العملي قبل أن نقرأها في مكتوباته. سَمِّها يقظة وإرادة.

الخطوة الثانية الضرورية هي طلب الدليل على الله عز وجل الولي المرشد. وقد خطاها الغزالي بنفسه قبل أن يكتبها. قال عبد الغافر: «وأخذ في مجاهدة النفس وتغيير الأخلاق وتحسين الشَّمائل (...) والانقياد لكل من يتوسم فيه أو يشُمُّ منه رائحة المعرفة أو التيقظ بشيء من أنوار المشاهدة».

تلا هذا الاختلاط بالصالحين، وقد تَزَيَّا بزِيِّهم الخشن بعد لباس «الحشمة» وجَهَازِها، البحْثُ عن رجل يَقتدي به ويُسَلِّكه، حتى لقي الشيخ الفارمدي رحمه

(1) طبقات الشافعية، ص:106.

(2) رسائل حجة الإسلام، ص:45.

(3) طبقات الشافعية، ج 4، ص:107 وما بعدها.

الله. قال عبد الغافر: «فابتدأ بصحبة الفارمدي وأخذ منه استفتاح الطريقة، وامتثل ما كان يشير به عليه». والفارمدي تلميذ من تلامذة الأستاذ القُشيري الشيخ الجليل رحمه الله.

إن امتثال حجة الإسلام لشيخ الطريقة وبحثه عنه قبل ذلك هو في حد ذاته أكبر درس عمليٍّ لطلاب السلوك. فالصحبة هي نقطة البداية وشرط الاستفتاح. هي المفتاح وكفى. وهذا ما يؤكده أبو حامد رحمه الله في كتاباته بعد أن عاشه وسجله تاريخُهُ الحافل.

يحدد حجة الإسلام للشيخ المصحوب وظيفتين، ويشترط في أهليته شرطا أساسيا. الشرط الأساسي هو أن يكون الشيخ قد تعلم بالصحبة من شيخ أخذ عن شيخ صحب من صحب... إلى أن ينتهي السند إلى رسول الله ﷺ. هذا شرط جوهري ينفيه ويتجاهله ويرفضه من لا يدري ولا يحِب أن يعترف بأنه لا يدري، ففاته نصف العلم، بل فاته العلم كله، والخير كله.

وهذا شرط يتبناه النصَّابون والدخلاء فينتسبون إلى سلسلة من سلاسل المشايخ تمريرا لبضاعتهم المزَوّرة. والمؤونة في هذا الانتساب يَسيرة، إذ ليس ثمة رواية تُنْتَقد ولا علم جرح وتعديل وتاريخ كما هو الشأن في سند الحديث.

ثم إن من أهل النِّسْبَة الحقيقيين من يصحب عارفا وأصلا موصول السند، لكنه في نفسه يقصر عن مرتبة المشيخة التربوية. ولا يعرف كثير من الناس كيف يُمَيِّزُون بين الشيخ المربي الذي هو بغية الطالبين وكنز الأسرار وبين شيخ التبرك الذي جلس على السجادة بعد وفاة شيخه. وقد يكون هذا صاحب كشف وكرامات ويكون ذاك لا يظهر عليه شيء من ذلك، فينحاز الناس إلى المظهر وتروج الإجازات المكتوبة شيخا عن شيخ، والإذن الشفوي. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

لم يترك الغزالي رحمه الله سلسلة من المشايخ ترثه مثلما ترك المشايخ عبد القادر والرفاعي والشاذلي وغيرهم رضي الله عنهم. وإنما مدرسته وطريقته كتبه. ومن أجلة العلماء، كانوا ولا يزالون، من يعتقد أن التصوف السني يتلخص وينحصر

في ترقيق القلوب بقراءة الكتب الجليلة مثل الإحياء. وهذا ما يُعارض وصية الإمام الغزالي وعمله، حين بحث عن شيخ، وحين امتثل، وحين صحب، وحين تأكدت لديه ضرورة الصحبة فكتب يقول: «شرط الشيخ الذي يصلح أن يكون نائبا لرسول الله ﷺ أن يكون عالما (...). وكان قد تابع لشخص بصيرٍ تتسلسل متابعته إلى سيد المرسلين ﷺ».[1]

قال: «متابعة شخص». لم يقل: «متابعة كتاب». بعد هذا الشرط الأساسي في الشيخ المصحوب، وهو أن يكون «شخصا» تابع شخصا في تسلسل موصول، نَعْرِض للوظيفتين اللتين حددهما حجة الإسلام لشيخ التربية تُجَاهَ مريده.

أولهما أن يُعَرِّفَه بنفسه ومعايبها. وهذا مقدمة ضرورية لتطبيب الأمراض القلبية. قال رحمه الله: «يجلس (المريد) بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، مطَّلِع على خفايا الآفات. ويُحَكِّمه في نفسه، ويتبع إشارته في مجاهدته. وهذا شأن المريد مع شيخه، والتلميذ مع أستاذه. فَيُعَرِّفه شيخه وأستاذه عيوب نفسه، ويعرفه طريق علاجها. وهذا قد عزَّ في هذا الزمان وجوده».[2]

قلت: وهو في كل زمان عزيز، والكتب موجودة، والذاكرون المتبركون بالنسبة وفرة. والمفتاح يضعه الله عز وجل في يد من شاء. فقم من الليل وصل لربك وتضرع إليه: «يا رب من أصحب» كما أوصاك الناصح عبد القادر يأتِك رزقك.

الوظيفة الثانية للشيخ كما يراها حجة الإسلام رضي الله عنه هي وظيفة الدليل الخفير في عقبات الطريق ووُعورتها، يحفظ السالك من صولة لصوص الطريق، ويُجِيزُه على أهوالها، كما يُطبِّب أمراضه النفسية، ويصفي رَيْنَهُ القلبِيَّ.

قال رحمه الله: «المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهدِيه إلى سواء السبيل. فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة. فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة. فمن سلك سُبَل البوادي الـمُهْلِكة

(1) أيها الولد المحب، ص:63.

(2) الإحياء، ج 3، ص:55.

بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها (...). فمُعتصَم المريد بعد الشروط المذكورة شيخُه. فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد بحيث يفوض أمره إليه بالكلية. ولا يخالفه في وِرْده ولا صَدَرِهِ ولا يُبْقِي في متابعته شيئا ولا يَذَر. وليعلم أن نفعه في خطإ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب. فإذا وجد مثل هذا الـمُعْتَصَم وجب على معتَصِمِه أن يَعْصِمَهُ ويحميَه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق».[1]

قال مستعصم بودادهم لا يسمع مقالة لائم عَذولٍ:

لا العَــذْل ينفعــه ولا استِعْبَـــاره لَــذَّ الغـــرامُ لــه ولَــجَّ أُوَارُه
فتجنبوا تَـأنِيبَــه وتــعــوّذوا من مثل ما هُتِكَتْ به أستارُه
لـو كـان فيــه للغَـــرامِ بَقيَّـــة أو لِلتحمُّــل ما بَدت أســـرارُه
فحضــوره غَيْبٌ على حكـم الهَوَى فيما يُحِبُّ وهكـذا اسـتحضـاره

وقال محب لهم، تابع مطاوع مشتاق:

قطعت الأرض ذا سَيْرٍ حثيث كلَمْعِ البرق حبّـًا في التــلاقي
فـقـال ليَ العذول، وقـد رآني سبــوقـا بالـمُضَـمَّـــرَةِ العِتــاق
ركبـتَ على البــراق؟ فقلــت كلا! ولكنــي ركــبت علــى اشتــياقي

وقال ناصح باللجوء إلى طبهم، والوقوف ببابهم:

مـا تقبلــون لواعـــظ نصحـــا وهـو الطبيـب وأنتم الجرحى
يـــا راقـــداً في ليــل غفلتـــه والشـيْبُ قـد أبـدى لـه صُبحا
يـــا خاســرا في بيــع صفقتـــه ضيعـت رأس المـال والربحـا
إن أبعـــدوك فَقِــفْ ببابهـــمُ متضـرعا وسلهـم الصفْـحا

(1) الإحياء، ص:65.

وقلت:

هَلْ مِن مَلاذٍ عِندكُم لِمُطَوَّحٍ	هَجرَ الأَلِيفَ وهَامَ في التَّطوَافِ؟
مِن خَلفِ أَسْوارِ الغَوايَة جَاءكم	مِن كهفِ غَفلتِه، من الأَحلافِ
يَرجو يُصافِحُ كَفَّ شمس هِدايةٍ	بَزغتْ بأُفقِكُمُ على الأشرافِ

سلوك الإمام عبد القادر

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. سبحان الذي تعطَّف بالعز وقال به. سبحان الذي لَبِس المجد وتكرم به. سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له. سبحان ذي الفضل والنعم. سبحان ذي المجد والكرم. سبحان ذي الجلال والإكرام.

أخرج ابن ماجة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر. وإن من الناس مفاتيحَ للشر مغاليق للخير. فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه. وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه». الحديث ضعَّف سنده الحافظ الهيثمي، ومعناه صحيح لا سيما في موضوع الصحبة. وأئمة الحديث على أن الحديث الضعيف يستشهد به في فضائل الأعمال.

شاهِدُنا في الحديث أن الشيخ عبد القادر الذي لم يختلف عليه علماء الأمة من كل المذاهب والفنون والعصور وأجمع الكل على ولايته كان كغيره من أئمة الهدى مفتاحا للخير. وقد نقلنا كثيرا من كلامه الفريد في أسلوبه، وننقل هنا نبذة من بيانه لمبادئ السلوك يُعطي فيها الأهمية القصوى للصحبة، كما يعطيها الكمَّلُ الناصحون من الأولياء. وسبحان الله كيف أخذ المحدثون الحنابلة عن الإمام عبد القادر رحمه الله كل شيء إلا مسألة الصحبة التي لا يكادون يعيرونها اهتماما، ففاتهم الاستفتاح بالصحبة الشخصية، وفاتهم بفواتها البداية الصحيحة.

يتحدث الشيخ عبد القادر عن اليقظة القلبية التي هي الخطوة الأولى نحو الطريق، أي نحو الشيخ المربي، فيقول: «الذي يجب على المبتدئ في هذه الطريقة الاعتقاد الصحيح الذي هو الأساس. فيكون على عقيدة السلف الصالح، أهل السنة القديمة سنَّة النبيئين والمرسلين والصحابة والتابعين والأولياء والصديقين».

قال: «فعليه بالتمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما أمرا ونهيا، أصلا وفرعا. فيجعلهما جناحَيْه يطير بهما في الطريق الواصل إلى الله عز وجل. ثم الصدقُ، ثم الاجتهاد، حتى يجد الهداية إليه والدليل، وقائدا يقوده، ثم مؤنسا يؤنسه، ومُستَراحا (يقول الغزالي: معتصَما) يستريح إليه في حالة إعيائه ونَصبه وظُلْمته عند ثوران شهواته ولذاته، وهَنَاتِ نفسه، وهواه الـمُضل، وطبعه المجبول على التَثَبُّط والتوقُّف عن السير في الطريق».[1]

قلت: بعد صدق العقيدة، والطريقُ إلى الله لا يدخلها إلا من كمل صدقُه، وصدقِ الاتِّباع، وصدقِ الطاعة لله ورسوله، وصدقِ الاجتهاد وهو صدق الطلب، يتعين على السالك أن يجد «دليلا» يكون في نفس الوقت قائدا ومؤنسا وملجأ يثق به السائر ويستريح إلى هديه ونصيحته وتوجيهه ليحميه من غوائل نفسه وميولها، ويعالج هَناتِها، ويقوِّم اعوجاجها مع الهوى، ويجدِّد إرادة السالك إن فَتَرَتْ، ويرفعَ همَّته إن خَمدت. نجد عند الشيخ عبد القادر نفس الاهتمام بتعريف النفس وتطبيب القلب والخفارة من أهوال الطريق، وهي الوظائف التي قرأناها عند حجة الإسلام رحمه الله.

ثم يبين الإمام عبد القادر أهمية صدق الطلب والصبر الطويل في الطريق، وذلك مما يؤكد أهمية الصحبة والرفقة والخفارة. قال رحمه الله: «ثم يجب عليه أن يُخْلِص مع الله عز وجل عهدا بأن لا يرفع قدما في طريقه إليه ولا يضعها إلا بالله ما لم يصل إلى الله. فلا ينصرفُ عن قصده بمَلامَة مُلِيمٍ لأن الصادقَ لا يرجع، ولا بوجود كرامة، فلا يقفُ معها ويرضى بها عن الله عز وجلَ عوضا»[2].

قلت: هذا الإخلاصُ في السير يُحَرِّرُه بعض المشايخ بالعهد والبيعة يأخذانهما على المريد ويُقيِّدانه بهما. وبعض المشايخ لا يفعلون ذلك لئلا يُصبح العهد المأخوذ على ضعفاء الإرادة، يعاهدون اليوم وينْقُضون غدا، هُزُؤا ولَعِبا. ومسألة أخذ العهد تعطيها بعضُ المدارس الصوفية صِبغةً احتفالية لها طقوسها. تجد هذا غالبا عند

(1) الغنية، ج 2، ص:163.

(2) المصدر السابق، ج 2، ص:163.

شيوخ التبرك الذين لم يبق لديهم من السلوك إلا الذكريات والشكليات. أما المشايخ المربون فحالهم تنهض بالصاحب الصادق، قلوبهم مغناطيس جلاب جذاب.

على أن المشايخ مجمعون على ضرورة فطام المريد عن رفقة السوء، وهي عدوَّة الصحبة في الله الأولى. قال الإمام عبد القادر: «ولا يُخالط (المريد) المقصِّرين والبَطَّالين أبناء قيلَ وقال، أعداءَ التكاليف، المدعين للإسلام والإيمان».[1]

وقلت: ومن المقصرين والبطالين الذين ترجع صحبتهم بالتثبيط والإفشال المتكلمون بغير علم ولا تثبُّت في الولاية، المشككون في طريقها. وإنَّ سُمَّ التشكيك، يمتصه طالب الطريق قبل أن تتمكن قدماه على الجادة، أفتك من كل آفة تتربص بالمريد في بدايته.

لهذا لم يأْلُ المشايخ العظام نُصحاً بالثبات مع الشيخ المربي إن عثر عليه، وهو البُغيَة النادرة العزيزة. قال الإمام عبد القادر: «فالواجب عليه تركُ مخالفة شيخه في الظاهر، وترك الاعتراض عليه في الباطن. فصاحبُ العصيان بظاهره تارك لأدبه، وصاحب الاعتراض بباطنه متعرض لعطبه.

قال: «بل يكون خصما على نفسه لشيخه أبدا. يكف نفسه ويزجُرُها عن مخالفته ظاهرا وباطنا، ويكثر قراءة قول الله عز وجل: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾.[2]

وزيادة في التثبت والتريُّث يوصي الإمام المريدَ بالتحري قبل أن يتَّهم شيخه. قال: «وإذا ظهر له من الشيخ ما يُكرَه في الشرع، استخبر عن ذلك بضرب المثل والإشارة، ولا يصرح به لئلا يَنْفِرَ به عليه. وإن رأى فيه عيباً ستره عليه، ويعود بالتهمة على نفسه، ويتأول للشيخ في الشرع. فإن لم يجدْ له عذرا في الشرع استغفر للشيخ ودعا له بالتوفيق والعلم والتيقظ والعصمة والحمية».[3]

---

(1) الغنية، ج 2، ص:163.

(2) الحشر، 10.

(3) الغنية، ج 2، ص:164.

قلت: إن صحبة الناقص الدخيل في الطريق المتطفِّلِ المحتَرف وَبَالٌ من أصلها. لكنَّ السَّالكَ لا يميز بين الكامل والناقص، وقد تبهَره من الناقص كرامة أو كشف فيتخذه قدوة، ويتجنب الكاملَ الصامت. لهذا يوصي المشايخ العظام بالصبر مع المصحوب المتبوع ولو ظهرت فيه عيوب، فلا يغتَّر المريد بناموس من يظهر الكمالَ تَصَنُّعا، ولا يتعلق بمثاليةٍ تصوِّر له الوليَّ على صورة ملك كريم. فإن «قبة البشرية» مضروبة على الولي الكامل كما هي مضروبة على غيره، ولا تنبغي العصمة إلا للنبيئين والمرسلين.

قال الإمام: «ولا يعتقدُ فيه العصمة. ولا يخبر أحدا به».[1]

وشرح رحمه الله كيف يترقَّى الأولياء من درجة لدرجة، ومن حال إلى حال، ومن ولاية إلى ولاية. فَرُبَّ عيب اطلع عليه المريد من شيْخه أمسِ لم يكن إلا عن غفلة أو حدَثٍ أو ترَخُّصٍ شرعي ترقّى عنها الشيخ اليوم.

ومن وصايا الإمام للمريد بالصبر على بشرية الشيخ وخشونته قوله: «وإذا غضب الشيخ وعبس في وجهه أو ظهر منه نوع إعراض عنه لم ينقطع عنه، بل يُفتِّش باطنَه وما جرى منه من سوء أدب في حق الشيخ، أو التفريط فيما يعود إلى أمر الله عز وجل من ترك امتثال الأمر وارتكاب النهي. فليستغفر ربه عز وجل، وليتُبْ إليه، وليعزمْ على ترك المعاودة إليه. ثم يعتذِرُ إلى الشيخ ويتذَلَّلُ له ويتملَّقُه ويتحبَّب إليه بترك المخالفة في المستقبل، ويداومَ على الموافقة له، ويواظب عليها».[2]

وبعد هذا يأتي الإمام عبد القادر بكلام لا يستسيغه عقلُ من لا يفهم مقاصد القوم. ويرفضه، خاصةً من كان شبَحُ الكفر والشرك هاجسَ يقظته ومنامه، يتصورهما في كل من خالف رأيه.

قال رحمه الله: «فيجعله وسيلةً وواسطة بينه وبين ربه عز وجل، وطريقا وسببا يتوصل به إليه.كمن يريد الدخول على ملك ولا معرفة له به، فإنه لا بد أن يصادق

(1) الغنية، ج 2، ص:163.

(2) المصدر السابق، نفس الصفحة.

حاجبا من حجابه، أو واحدا من حواشيه وخواصه، ليبصِّره بسياسة الملك ودَأبه وعادته، ويتعلم الأدب بين يديه والمخاطبة له، وما يصلُح له من الهدايا والطرائف مما ليس مثلُها في خزانته. ومما يُؤْثِرُ الاستكثار منه».[1]

قلت: هذا ضرب مثل، ولله المثل الأعلى، لأصحاب الحس الكثيف والعقل السخيف ليتعلموا أن المقصود ليس اتخاذ الشيخ صنما كما يعبد المشركون أصنامهم ليقربوهم إلى الله زلفى في زعمهم الضال. لكن المقصود التأدُّب بأدب الشيخ مع الله عز وجل، والاقتداء به في آداب القلب كما نقتدي بالإمام في حركات الصلاة. وما قال أحد إن إمام الصلاة، وهو واسطة وضعها الشرع، صنمٌ حائل بيننا وبين القبلة. الشيخ قِبلة قلبية، ولا حاجة بنا إلى مثال حسيٍّ، ولا نجيد ضرب الأمثال كما يجيد الإمام رحمه الله.

قال: «فليأت البيت من بابه. ولا يتَسَلَّقْ من ورائه من غير بابه، فيلامَ ويُهانَ، ولا يبلغَ الغرض من الملك ولا المقصود منه. ولكل داخل دهشةٌ لا بد من تذكُّر ومِنَّةٍ، ومن يأخذ بيده فيقعده موضع مِثْلِه، أو يشيرُ إليه بذلك لئلا تتطرق إليه المهانة، ولا يشار إليه بسوء الأدب والحماقة».[2]

قال مطيع لربه عز وجل، نذر عمْرَه للقرب منه:

إذا كنـت أعلـم علمـا يقـينا ... بـأن جميـع حيـاتي كسـاعَهْ
فلِـمْ لا أكـون ضنيـنا بهـا ... وأجعلهـا في صـلاح وطـاعه؟

وقال حكيم يعظ طويل اللسان قاصر الجنان:

يـا خـاطـرا بالقبـور منطلـقاً ... لسـانه، قـف وقـوف مُعْتَبـر
وسـلْ عن أحبـابك الذين ثَـوَوْا ... فيهـا تجاوبـك ألسـن العبـر

(1) الغنية، ج 2، ص:163.

(2) المصدر السابق، نفس الصفحة.

أَلــم تكــن تُـرْبــةٌ تُبَـاشـرهــا   نعــلاك معــدودة مــن البشـــر؟
بالأمــس كنــا علــى مناكبهــا   نرفــل بــين الــمُلاَءِ والحِبَــر
واليــوم صرنــا ببطنهــا رممــا   نــدرس بــين الصفــيح والعَفَــر
أفٍّ لدنيــا مَــآلُ صحتهــا   وصفــوهــا للسَّقــام والكــدر
أُخَــيَّ لا تغتَــرِرْ بزهـرتهــا   إن كمــونَ الحــيّات في الزهــر
فالخطــب فــوق الذي سـمعت به   وفــوقــه فلتكــن عــلى حــذر
عنــد ورود الحمام ينكشــف الــ   غِطــاء، ليــس العيــان كالخــبر

وقلت:

يا عـابِراً بِديار العُمر تَقطَعها   تَعدُو وتـلهجُ باللَّذاتِ والصُّورِ
هَلاَّ اعتبرتَ برحلاَتٍ لمن سَبقوا   أودَتْ بحشدٍ غَفيرٍ في هُوى الحُفرِ
هلاَّ جعلتَ خطى الطَّاعاتِ مَنْهجة   إلى رِضى اللّه، يا مَغرورُ، في السَّفرِ

سلوك الإمام الرفاعي

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. اللهم اجعلني شكورا، واجعلني صبورا، واجعلني في عيني صغيرا، وفي أعين الناس كبيرا.

قال الإمام أحمد بن جلال اللاري المصري رحمه الله في كتابه: «جلاء الصدإ»: «كان السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه يسكت حتى يقال: إنه لا يتكلم. فإذا تكلم بَلَّ بعذوبة كلامه الغليل، وداوى العليل. ترك نفسه وتواضع للناس، من غير حاجة. وكظم غيظَهُ من غير ضجر. وكان ليِّن العريكة، هيِّن المؤنة، سهلَ الخلق، كريم النفس، حسن المعاشرة، بسّاما من غير ضحك، محزونا من غير عبوس، متواضعا من غير ذلة، جوادا من غير إسراف. اجتمعت فيه مكارم الأخلاق.

«كان فقيها عالما مقرئا مجودا محدثا مفسرا. وله إجازات وروايات عاليات. إذا تكلم أجاد، وإذا سكت أفاد. يأمر بالمعروف لأهله، وينهى عن المنكر وفعله. كان كهف الحَرائِرِ، وملجأ المحتاجين، وكعبة القاصدين، أبا للأرامل والأيتام، يعطي من غير سؤال، ويمنح من غير إهمال. وإذا قال قولا أتبعه بصحة الفعل، وصدقِ القول، ولم يخالف قوله فعله قط»[1].

كان يغلب عليه خُلُق التواضع وهو العالم الجليل، الشيخ المحترم. وكان يعالج المرضى والعُرجان والعميان بنفسه. قال رحمه الله: «سلكت كل الطرق الموصلة فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الافتقار والذل والانكسار. فقيل له: يا سيدي! فكيف يكون (هذا الطريق)؟ قال: تُعظِّم أمر الله وتُشفق على خلق الله، وتقتدي بسنة سيدك رسول الله»[2].

(1) مقدمة كتاب «حالة أهل الحقيقة مع الله».

(2) شذرات الذهب، ج 4، ص:260.

كان الافتقار الذي اتخذه رضي الله عنه طريقا هو الافتقار إلى الله عز وجل. وقد انتسب إلى طريقته من بعده طائفة جعلوا افتقارهم أكل الحيات والنزول في النار والدخول إلى الفَرَّان وركوب السباع. وهذا تزييف. وطائفة أخرى من تلامذة طريقته لا يزالون على مذهبه القويم.

كان ذله وانكساره لله عز وجل لا لغيره، وكان تواضعه ذلَّة على المؤمنين ورحمة للخلق المستضعفين. أما كُبَراءُ الدنيا من الظلمة فكان لا يقيم لهم وزنا. قال صاحب الشذرات رحمه الله: «كان لا يقوم لأحد من أبناء الدنيا، ويقول: النظر في وجوههم يقسي القلب».(1)

وصف الإمام أحمد الرفاعي طريق السلوك ومثَّل لها فقال: «أيْ سادةُ! الطريق إلى الله كطريق الرجل إلى البلدة الأخرى. فيه الصعود والهبوط، والاعتدال والاعوجاج، والسهل والجبل. فيه الأرض القفراء التي خلت من الماء والسكان، والأرض النضِرة الخضِرة الكثيرة المياه والأشجار والسكان. والبلدة المقصودة وراء ذلك كله.

«فمن انقطع بلذَّة الصعود، أو بذِلَّة الهبوط، أو براحة الاعتدال، أو بتعب الاعوجاج، أو بيُسْر السهل، أو بعُسْر الجبل، أو بغُصَّة الفقر ولوعة العطش، أو بحلاوة النضارة والخُضْرة والمياه والأشجار والأنس بالسكان، بقي دون المقصود.

«ومن لم يشتغل بكل ذلك، حاملا شدة الطريق، معرضا عن لذائذه، وصل إلى المقصود.

«وكذلك سالك طريق الله، إنْ صرفته صعوبة الأحوال عن محول الأحوال، وقلبته سكرة إقبال الخلق عن مقلب القلوب، فقد فاته الغرض، وبقي دون مقصوده، وانقطع بلا ريب. وإن ترك عقبات الطريق وراء ظهره فقد فاز فوزا عظيما».(2)

قلت: إن من لم يصحِّحْ الإرادة، ويحرِّرْ القصد، أو دخل الطريق دون خفير ودليل، ولم يستفتح بشخص، وتسلق من وراء الأسوار، يوشك أن تتخطَّفَهُ مهلكات

(1) شذرات الذهب، ج 4، ص:261.

(2) البرهان المؤيد، ص:92.

القواطع من ظلمات ونور. وقد يقف عند أول بارقة تبرق له، أو خارقة تظهر، فيظن أنه وصل، وهو لما يضع قدمه على الطريق.

لذا ولغيره كان الصبر مع الأستاذ شرطا لا يتخَطاهُ إلا جاهل به أو متهورٌ متكبر يأتي البيوت من غير أبوابها، فحقيق به أن يطرد، أو يترك سائما في بعض غَيْضاتِ الطريق ووهادها، وأوديتها وقِفارها.

ويؤكد الشيخ أحمد الرفاعي الشرط الأساسيَّ في المربي المصحوب كما أكده الغزالي وكما يؤكده كل العارفين الواصلين. ألا وهو شرط تسلسل السند الواصل إلى حضرة المصطفى ﷺ. قال رحمه الله: «صَحَّتْ أسانيد الأولياء إلى رسول الله ﷺ. تلقَّن منه أصحابه كلمة التوحيد جماعة وفُرادَى واتصلت بهم سلاسِلُ القوم».[1]

ويأتي الشيخ رضي الله عنه بحديث شداد بن أوس رضي الله عنه الذي يحكي كيف لقن رسول الله ﷺ أصحابهُ كلمة التوحيد. وقد أوردناه في الفصل الثاني من هذا الكتاب من رواية الإمام أحمد رحمه الله في مسنده. كما يأتي بحديث تلقين رسول الله ﷺ الذكر للإمام علي كرم الله وجهه. وهو حديث أجمع الصوفية على صحته، وأنكره بعض المحدثين وإن كان بعضهم يصححه.

ثم يقول رحمه الله: «وعلى هذا تسلسل أمر القوم وصح توحيدهم. وتجردوا عن الأغيار بالكلية، وأسقطوا وَهْمَ التأثير من الآثار، ورَدّوها بيد اعتقادهم الخالص إلى الـمُؤثِّر وقاموا على قدم الاستقامة، فكمُلت معرفتهم، وعَلَتْ طريقتهم.

«فعامِلوا الله عز وجل كما عاملوه تحصُل لكم المناسبة مع القوم، ويتِمَّ نظامُ أمركم وراءهم، فتكونَ أقدامُكم على أقدامهم».[2]

من تمام نصح هذا الرجل العظيم، الولي الفخيم، المطبوع على كريم الأخلاق، وعلى التواضع، السالك طريق «الذل والانكسار» أنه لم يترك أن دَلَّ أصحابه

(1) البرهان المؤيد، ص:53.

(2) المصدر السابق، نفس الصفحة.

ومعاصريه على حقيقة تصدم التواضع، وتنافي الانكسار. تَصْدِمُهما وتنافيهما لو كانا تصنعا وناموسا. دل رحمه الله على نفسه، وأعلن أهليته للمشيخة كما كان يعلنها قبله معاصر له اسمه عبد القادر الجيلاني، وكما أعلنها بعدهما الإمام الشاذلي، وغيرهم رضي الله عنهم.

دلالة هؤلاء الجهابذة من الرجال على نفوسهم كانت تكون سفها وطيشاً وتضليلا للعباد لو لم تكن تلك النفوس قد ارتاضت على طاعة الله عز وجل بالصدق، وتنورت بنور المعرفة، وحظِيتْ في خفارة القلب بمجد القُرب. فهي بعد إن أشارت إلى ذاتها المكسوَّة بِخِلَع العبودية لله عز وجل فإنما تذكر نعمة المولى عليها. لا وزن عندها لرأي الخلق كذبوا أو صدقوا، جاءوا أو غاروا تحت الأرض.

بهذا الصدق الخالص يقول الإمام الرفاعي: «نِعَم الله تعالى تُذكَر. من قرّبْته من العزيز فهو قريب. ومن أبعدتُهُ عنه فهو بعيد. أيها البعيد عنا، الممقوت منا! ما كان هذا منك يا مسكين! لو كان لنا فيك مَقْصَدٌ يشهَدُ بحسن استعدادك، وخالص حبك لله عز وجل وأهلِه، اجتَذَبْنَاك إلينا، وحسبناك علينا، شِئْتَ أو لا. لكن الحقَّ يقال: حظُّك منعك، وعدم استعدادك قطعك.

«لو حَسَبْناك منا ما تباعدت عنا!

«خذ مني يا أخي علم القلب! خذ مني علم الذوق! خذ مني علم الشوق! أين أنت مني يا أخا الحجاب! كُشِف لي قلبك!».[1]

ويصلُ الإمام رضي الله عنه وصيته بالذكر بوصيته بالصحبة. والصحبة والذكر، مع الصدق والإخلاص من جانبي الصاحب والمصحوب، هما الركنان الأساسيان، والشرطان المتلازمان، في رفع الأقدام ووضعها في الخَطْو على الطريق.

قال قدس الله سره العزيز: «عليكم، أي سادة، بذكر الله. فإن الذكر مغناطيسُ الوصل وحبل القرب. من ذكر الله طاب بالله، ومن طاب بالله وصل إلى الله.

(1) البرهان المؤيد، ص:42.

«ذكر الله يثبت في القلوب ببركة الصحبة. المرء على دين خليله (كما جاء في الحديث الصحيح).

«عليكم بنا! صحبتنا تَرياقٌ مُجَرَّبٌ! والبعد عنا سم قاتل!

«أيْ محجوبُ! تزعم أنك اكتفيت عنا بعلمك! ما الفائدة من علم بلا عمل! ما الفائدة من عمل بلا إخلاص!

«الإخلاص على حافة طريق الخطر! من ينهض بك إلى العمل! من يداويك من سم الرياء! من يدُلك على الطريق القويم بعد الإخلاص! «فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ»[1]. هكذا أنبأنا العليم الخبير.

«تظن أنك من أهل الذكر! لو كنت منهم ما كنت محجوبا عنهم. لو كنت من أهل الذكر ما حُرِمْت ثمرة الفكر. صدك حجابُك! قطعك عملك!»[2].

هذه الصفحة تلخِّصُ الشروط الثلاثة الأساسية في السلوك: الصحبة والذكر والصدق. في هذه الصفحة الرائعة تقرأ تلازمها وتسانُدَها وبناء بعضها على بعض، وانتقاض بعضها بانتقاض بعض. ولا تجد دَالاًّ على الله من أهل التربية إلا ونظام هذه الشروط عنده قارٌّ، وإن تنوعت الفروع والتطبيقات.

والصحبة هي الباب وهي المفتاح.

قال الإمام الرفاعي يوصي بالأدب مع الشيخ المربي: «ولا ترغب في الكرامات، فإن الأولياء يستترون من الكرامات كما تستتر النساء من الحيض. ولازم باب الله. ووجه قلبك لرسول الله. واجعل الاستمداد من بابه العالي بواسطة شيخك المرشد. وقم بخدمة شيخك بالإخلاص من غير طلب ولا أرَبٍ، واذهب معه بمسلك الأدب. واحفظ غَيْبَتَهُ، وتَقَيَّدْ بخدمته، وأكثر الخدمة في منزله، وأقلل الكلام في حضرته. وانظر إليه بنظر التعظيم والوقار، لا نظر التصغير والاحتقار»[3].

---

(1) النحل، 43.

(2) البرهان المؤيد، ص:43.

(3) المصدر السابق، ص:96.

ثم يجمل الشيخ الرفاعي نصائحه للسالك فيقول: «وقم بنصيحة الإخوان، وألِّفْ بين قلوبهم. وأصلح بين الناس، واجمع الناس، مهما استطعت، على الله بطريقتك. ورغب الناس بالصدق للدُّخول في باب الفقراء، والسلوك بطريق القوم.

«وعمر قلبك بالذكر، وجمل قالبك بالفكر، ونور نِيَّتَكَ بالإخلاص. واستعن بالله، واصبر على مصائب الله، وكن راضيا من الله. وقل على كل حال: الحمد لله.

«وأكثر الصلاة على رسول الله ﷺ. وإن تحركت نفسك بالشهوة أو الكِبْرِ فصم تطوعا لله. واعتصم بحبل الله. واجلس في بيتك، ولا تكثر الخروج للأسواق ومواضع الفُرَج. فمن ترك الفُرَجَ نال الفَرَجَ (...). واذكر الله في كل أمر، وأخلص له في السر والجهر».[1]

قال لاحق بركب ثلة الأولين من الأولياء الصالحين:

أُكَلِّفُ القلب أن يَهْوَى وألزمه ... صبرا وذلك جمعٌ بين أضداد
وأكتم الركب أوطارِي وأسأله ... حاجات نفسي لقد أتعبتُ رُوَّادي
هل مُدْلِجٌ عنده من مُبْكر خَبَرٌ ... وكيف يعلم حال الرائحِ الغَادِي
فإِن رَوَيْتُ أحاديث الذين مضوا ... فعن نسيم الصَّبا والبرق إسنادي

وقال عبد لا يعظم غير ربه، ولا يسعى في سوى قربه:

أمِنْ بَعْدِ بذل النفس فيما أرُومه ... أُثابُ بِمُرّ العيش حين أُثاب!
فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب!
وليت الذي بيني وبينك عامِر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الوصل فالكل هَيِّن ... وكل الذي فوق التراب تراب

وهي أبيات قيلت في مدح سيف الدولة الحمداني، تمثل بها الصوفي.

(1) البرهان المؤيد، ص: 96-97.

وقلت:

يَجتثُّك الموتُ لا محالَهْ	يا نَاعِمَ البالِ في السَّفالَهْ
تَطوي حَديثاً للمَوت لكنْ	يَومُك يأتيكَ في عُجالَهْ
فألْجِم النَّفس عنْ هَواهَا	وتب إلى الله مِن جَهالَهْ

سلوك الإمام الشاذلي

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. اللهم أصلح ذات بيننا، وألف بين قلوبنا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

تخَرَّجَ السيد أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في علوم الشريعة ثم سلك الطريق حتى تأهل للمشيخة قبل أن يغادر وطنه المغرب إلى مصر. وكان ضرير البصر ثاقب البصيرة، أوتي من النورانية والحكمة ما جمع حوله الخاصة والعامة، كما يدل على ذلك المشهدان التاليان.

قال الشيخ الصوفي مكين الدين الأسمر رحمه الله: «حضرت بالمنصورة في خَيْمةٍ فيها الشيخ الإمام مفتي الأنام عز الدين بن عبد السلام والشيخ مجد الدين بن تقي الدين علي بن وهب القشيري المدرِّس والشيخ محيي الدين بن سُراقة والشيخ مجد الدين الأخميمي والشيخ أبو الحسن الشاذلي، رضي الله عنهم، ورسالةُ القشيري تقرأ عليهم. وهم يتكلمون، والشيخ أبو الحسن صامِتٌ. إلى أن فرغ كلامهم. فقالوا: يا سيدي! نريد نسمع منك. فقال: أنتم ساداتُ الوقت وكبراؤه، وقد تكلمتم. فقالوا: لا بد أن نسمع منك!

قال: «فسكت الشيخ ساعة، ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة. فقام الشيخ عز الدين، وخرج من صدر الخيمة، وفارق موضعه، وقال: اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله!»[1]

(1) لطائف المنن، ص: 136.

هكذا كانت حَظْوة الشيخ الإمام عند الخاصة من أكابر العلماء. وكان لا يقبل أحدا من أهل العلم يتتلمذُ له حتى يعقد مجلس مناظرة يمتحن فيها تمكنه من علوم الشريعة.

أما دعوته للعامة فقد سلك فيها مسلكا زاد فيه على صنيع الإمامين الجليلين قبله، الجيلاني والرفاعي رحمهما الله. هما كانا يكتفيان في مجالس وعظهما العام بالتحدث بنعمة الله عليهما ليوجها قلوب الخلق إليهما، وهو كان يدعو إلى طريقته في الشارع، معلنا عن مقامه بما يُشبه الفخرَ والدعوَى في نظر من لا يدري مكانة أولياء الله.

قال في الشذرات: «كان إذا ركب تمشي أكابر الفقراء وأهل الدنيا حولَه، وتُنشَر الأعلام على رأسه، وتُضرب الكوسات (الطبول) بين يديه، وينادي النقيب أمامه بأمره له: من أراد القطب الغوث فعليه بالشاذلي».[1]

يتَّسم سلوك الشاذلي بالتيسير، فسُمِّيَتْ طريقته طريقة الشكر، وسنرجع إليها بحول الله في الفصل المقبل. لكن الخصائص العامة للإرادة والصحبة ودوام الذكر والإخلاص والصبر هي هي عنده كما عند الذين درجوا قبله، رضي الله عنهم أجمعين.

فهو يوصي المريد المبتدئ بقطع العلاقات مع رفقة الغافلين فيقول: «اهرُب من خير الناس (في نظرك) أكثر مما تهرب من شرهم. فإن خيرهم يصيبك في قلبك، وشرهم يصيبك في بدنك. ولأَنْ تُصابَ في بدنك خير لك من أن تُصاب في قلبك. وَلَعَدُوٌّ تصل به إلى الله خير من حبيب يقطعك عن الله. ودَعْ إقبالهم عليك ليلا وإعراضهم عنك نهارا. ألاَ ترَاهم إذا أقبلوا فتنوا».[2]

ويوصي بصحبة الكمَّل فيقول: «قال لي شيخي (وهو الشريف المولى عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه): لا تصحب إلا من تكون فيه أربع خصال: الجود من القلة! والصفح عن المظلمة، والصبر على البلية، والرضى بالقضية».[3]

---

(1) الشذرات، ج 5، ص:279.

(2) لطائف المنن، ص:215.

(3) المصدر السابق، ص:296.

ويفصل الشيخ تاجُ الدين بن عطاء الله تلميذ الشيخ أبي العباس المرسي تلميذ أبي الحسن رحمهم الله آدَابَ الصحبة في الطريقة الشاذلية فيقول: «الاقتداء لا يكون بوليٍّ مجهول العيْن في كون الله، بل الاقتداء إنما يكون بولي دلَّك الله عليه، وأطلعك على ما أوْدَعَه من الخصوصية لديه. فطوَى عنك شهودَ بشريته في وجودِ خصوصيَّتِه. وألقيت إليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد.

«يُعرِّفك برعونات نفسك وكمائنها ودفائنها، ويدُلك على الجمع على الله، ويعلمك الفرار مما سوى الله، ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله. ويوقفك على إساءة نفسك، ويعرفك بإحسان الله إليك. فتُفيدك معرفةُ إساءة نفسك الهرَبَ منها، وعدم الركون إليها. ويفيدك العلـمُ بإحسان الله إليك الإقبالَ عليه، والقيامَ بالشكر له، والدوامَ على مَمَرِّ الساعات بين يديه.

قال: «فإن قلت: فأين من هذا وصفُه؟ لقد دللتني على أغربَ من عنقَاءَ مُغْرِب!

«فاعلم أنه لا يُعْوِزُكَ وجدان الدَّالين، وإنما قد يعوزك وجدان الصدق في طلبهم. جِدْ صدقاً تَجِدْ مُرشدا. وتجدُ ذلك في آيتين من كتاب الله. قال الله سبحانه: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**﴾.[1] وقال سبحانه: ﴿**فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ**﴾.[2]

«فلو اضطُرِرْتَ إلى من يُوصلك إلى الله اضطرار الظمآن للماء، والخائفِ للأمن، لوجدتَ ذلك أقرب إليك من وجود طلبك. ولو اضطُرِرْتَ إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدتْه لوجدت الحق منك قريبا، ولك مجيبا. ولوجدت الوصول غيرَ متعذِّرٍ عليك، ولتوجه الحق بتبيين ذلك إليك. فهذا الكلام في طريق الجواز والوقوع جميعا».[3]

قلت: الاضطرار إلى الله عز وجل عطاءٌ منه سبحانه نفيس. وهو اتِّقادُ الإرادة وتوجُّهُها بصدق في الطلب. فمن وجد في نفسه صدقَ الاضطرار ورغِبَ عن كل

(1) النمل، 62.

(2) محمد، 21.

(3) لطائف المنن، ص:132.

ما سوى الله عز وجل وأظلمت الدنيا في عينه ما دام لا يعرف الطريق إلى الله، فذاك قريب من نيْل الرغائب. صدق الاضطرار أخرج حجَّةَ الإسلام الغزاليَّ من «حِشمته» في بغداد. وبخَلْفِيَّةِ صدق الاضطرار أشار الشيخ عبد القادر على الباحث عن الولي المرشد أن يقوم من الليل ويسأل الله تعالى والناس نيام، وقلبُه هو من بين المرتاحين مُتعَبٌ مُوَلَّهٌ مُلْتاع، قائلا: يا رب من أصحب! من الدليل عليك!

ويا ما أصْدَقَها حكمة: جِدْ صدقـاً تجدْ مرشدا. الاضطرار إلى الله عز وجل عطاء من عنده، ونداء من حضرته تعالى إلى العبد المحبوب. وبالمحبة المتعلقة بالجناب الأقدس، الفائضة منه على العبد في حقيقة الأمر، الراجعة إليه، تتمكن أسباب التواصل، وتتحرك حِبال التقريب حتى يصل الكتابُ أجله، فإذا بالعبد المتقرب قد تنوَّر.

قال الإمام أبو الحسن في المحبة، مستعملا مصطلحات القوم: «المحبة آخذة من الله لقلب عبده عن كل شيء سواه. فترى النفس مائلةً لطاعته، والعقل متحصِّنا بمعرفته، والروحَ مأخذوة في حضرته، والسرَّ مغموراً في مشاهدته. والعبدُ يستزيد فيُزاد، ويفاتَحُ بما هو أعذبُ من لذيذ مناجاته. فَيُكْسَى حُلَلَ التقريب على بساط القُربَة، ويَمَسُّ أبكارَ الحقائق وثيِّباتِ العلوم. فمِن أجل ذلك قالوا: أولياء الله عرائس، ولا يرى العرائِسَ المجرمون.

«قال له القائل: قد علمتُ الحب، فما شرابُ الحب، وما كأس الحب، ومن الساقي، وما الذوق، وما الشراب، وما الري، وما السكر، وما الصحو؟

«قال رضي الله عنهُ: الشراب هو النور الساطع عن جمال المحبوب. والكأس هو اللطف الموصِل ذلك إلى أفواه القلوب. الساقي هو المتولي الأكبر للمخصوصين من أوليائه والصالحين من عباده وهو الله العالم بالمقادير وبمصالح أحبائه. فمن كُشِفَ له عن ذلك الجمال، وحَظِيَ منه بشيء نَفَساً أو نَفَسَيْن، ثم أُرخِي الحجابُ فهو الذائق المشتاق. ومن دام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو الشارب حقا. ومن توالى عليه الأمر، ودام له الشرب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله المخزونة فذاك هو الري.

«وربما غاب المحسوس والمعقول. فلا يدري ما يقال ولا ما يقول، فذاك هو السُّكر. وقد تدور عليهم الكؤوس، وتختلف لديهم الحالات، فَيُرَدُّون إلى الذكر والطاعات، ولا يحجبون عن الصفات، مع تزاحم المقدورات فذلك وقت صَحْوهم، واتساع نظرهم، ومزيد علمهم».[1]

وهذه وصية جامعة لأبي الحسن تُلخص السلوك. قال قدس الله سره: «إنك إذا أردت أن يكون لك نصيبٌ مما لأولياء الله تعالى فعليك رفض الناس جملةً إلا من يدلك على الله تعالى بإشارة صادقة، وأعمال ثابتة لا ينقضُها كتاب ولا سنة. وأعْرِضْ عن الدنيا بالكلية، ولا تكن ممن يُعرض عنها ليُعطى شيئا على ذلك. بل كن في ذلك عبداً لله، أمرك أن ترفض عدوه.

«فإن أتيت بهاتين الخصلتين: الإعراض عن الناس والزهد في الدنيا فأقِم مع الله بالمراقبة، وملازمة التوبة بالرعاية والاستغفار والإنابة، والخضوع للأحكام بالاستقامة.

«وتفسير هذه الوجوه الأربعة: أن تقوم عبداً لله فيما تأتي وما تذَر، وتراقب قلبك أن لا يَرَى قَلْبُك في المملكة شيئا لغيره.

«فإذا أتيت بهذا نادتك هواتفُ الحق من أنوار العزَّة: إنك قد عَمِيتَ عن طريق الرشد! من أين لك القيام مع الله تعالى بالمراقبة وأنت تسمع قوله عز وجل: ﴿**وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً**﴾[2]».[3]

قلت: هذه مرحلة اعتماد السالك على جُهد نفسه، وهي لا تزال حيَّةً تسعى، تُسوِّلُ له أن الطاعات من كسبه المحض، وأن السلوك أخذ وعطاء. وكثيرا ما تجد السالك في هذه المرحلة يتعلق بنتائج الأذكار، ويهفو إلى لوائح الأسرار وبوارق الأنوار. ويترقَّب ظهور الكرامة وفتح الباب. وكل هذه التطلعات

---

(1) لطائف المنن، ص:110.

(2) الأحزاب، 52.

(3) شرح ابن عباد على الحكم العطائية، ج 1، ص:21.

والتخرصـات ظواهـر لعَرَامَـة النفس وشـرَّتها. فـإذا أراد الله بالسـالك أن يُوقِفَـه علـى أرض العبوديـة غيـر المشـروطة التي عليهـا السـير الحقيقـي تدارَكَـه بانكسـار نفسـه وتحطُّـم عزائمهـا، فـلا يبقـى لـه اعتمـاد إلا علـى فضـل ربـه المحـض. وهنـاك يبـدأ السـير القلبـي.

قال أبو الحسن: «فهناك يدركُك من الحياء ما يحملك على التوبة مما ظننت أنه قريب. فالتزم التوبة بالرعاية لقلبك أن لا يشهد ذلك منك بحال فتعود إلى ما خرجت منه.

«فإن صحت هذه منك نادتك الهواتف أيْضا من قِبَل الحق تعالى: التوبة منه بدأت، والإنابة منه تتبعها، واشتغالك بما هو وصف لك حجاب عن مرادك!

«فهناك تظهر أوصافك (النفسية)، فتستعيذ بالله منها. وتأخذ في الاستغفار والإنابة. والاستغفار طلب السِّتر من أوصافك إلى أوصافه. فإن كنت بهذه الصفة، أعني الاستغفار والإنابة، ناداك عن قريب (بإلهام أو وحي منام أو قرينة حال أو غير ذلك): اخضع لأحكامي، ودَعْ عنك منازعتي، واستقم مع إرادتي برفض إرادتك. وإنما هي ربوبيَّة تولَّت عبوديّةً. وكن عبدا مملوكـًا لا يقدر على شيء. فمتى رأيت منك قدرة وكلْتُك إليها. وأنا بكل شيء عليم.

«فإن صح لك هذا الباب ولزمته أشرفت من هنالك على أسرار لا تكاد تُسمَع من أحد من العالمين».

ومن وصايا الإمام الشاذلي رضي الله عنه، في معنى ما تقدم، قوله: «لن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته، أو تدْبيرٌ من تدبيراته، أو اختيار من اختياراته».[1]

قلت: وهذا هو شرط العبودية: أن تفوِّضَ له سبحانه، مع دوام التوسل والتضرع والطاعة والذكر والاستغفار والانكسار.

(1) لطائف المنن، ص:294.

قال الشيخ ابن عطاء الله تلميذ تلميذ أبي الحسن رضي الله عنهما:

بَكَرَتْ تَلُوم على زمان أَجْحَفا صَدَفْتُ عنها عَلَّها أن تَصْدِفا
لا تُكثِري عتباً لدهرك إنه ما إنْ يُطالَبُ بالوفاء أو الصَّفا
ما ضرَّني أن كنْتُ فيه خاملا فالبدْر بدرٌ إن تبَدَّى أو خفى
الله يعلم أنني ذو همة تأبى الدنايا عِفَّةً وتَظَرُّفَا
لِمَ لا أصون عن الورى ديباجتي وأُرِيهمُ عزَّ الملوك وأشرفا!
أَأُريهمُ أني الفقير إليهم وجميعُهم لا يستطيع تصرفا!
أم كيف أسأل رزقه من خلقه هذا لعَمْري -إن فعلت- هو الجَفَا!
شكوى الضعيف إلى ضعيف مثله عجز أقام بحامليه على شفا
فاسترزق الله الذي إحسانهُ عمَّ البريَّة مِنَّةً وتَعَطُّفَا
والجأ إليه تجدْه فيما تَرْتَجي لا تَعْدُ عن أبوابه مُتَحَرِّفا

وقلت:

بَكَرَ العَاذِلُ يَثْني هِمَّتي عَن مُبتَغاها
رَامَ يُطفِي عَطشَ النَّفسِ إلى وِردِ صَفاها
وَدَّ لَوْ مائِجُ رِجْس في دُجَى الغَيِّ رمَاها

سلوك الإمام السرهندي

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. اللهم بارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا. وتبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم. واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها، قابلين لها، وأتِمَّها علينا.

يستطيع من كان في جاهلية جهلاء فمن الله عليه بالإسلام والتوبة أن يَعتبر إسلامه وتوبته ميلادا جديدا. ثم لا يكون قوله: وُلدتُ ولادة ثانية إلا كلاما مجازيا. أما من ولدت روحانيته وأنشأه الله عز وجل النشأة الثانية التي يكون بها الولي وليا فحديثه عن الميلاد الجديد، وعن أبوة شيخه، وعن سلسلة آبائه الروحيين حقيقة أقوى في عالم المعنى من النسب الطبيعي والانتسال الجسمي. وحتى إن شب الولي عن الطوق واتصل حبله بقرب الله عز وجل وبروح رسول الله ﷺ فإنه لا ينسى آباءه في الروح أبدا. وكيف ينسى الأحرار فضلَ من جعلهم الله رحمة ورحِما!

الإمام السرهندي مجدد الألف الثانية يتحدث بنعمة ربه عليه بما يشبه الدعوى، وليس عند مثله من الكاملين مكان لأية دعوى، إذْ صح لهم التعامل الصريح مع الله عز وجل، فما لرأي الخلق عندهم من وزن، صدّقوا أم كذبوا، رضُوا أم سخطوا.

قال رحمه الله: «أنا مريد الله ومراد الله أيضا. وسلسلة إرادتي متصلة بالله تعالى بلا توسط، ويدي نائبة عن مناب يد الله تعالى، وإرادتي متصلة بمحمد رسول الله ﷺ بوسائط كثيرة».[1]

قلت: كونه ترقى في المعرفة والقرب لا يُنسيه أصلَه وفَضْلَه واستفتاحه في الطريق ونسبه فيها. فيقول: «فبيني وبينه في الطريقة النقشبَنْدية إحدى وعشرون

(1) المكتوبات، ج 3، ص:110.

واسطة، وفي الطريقة القادرية خمس وعشرون واسطة، وفي الطريقة الجشتية سبع وعشرون واسطة».

قلت: قد يأخذ السالك، بعد ميلاده وترقيه في حضن والده الروحي وبعد وفاة هذا الوالد أو تسريحه لابنه عَقِبَ فِطامه، عن شيخ آخر أو مشايخ آخرين لهم سلاسل وسندات أخرى بقصد التبرك والزيادة من الخير. ولا يقدح ذلك في نسبهم. فنسب السرهندي نقشبندي. ثم هو بعد أن بلغ مبلغ الرجال محمديٌّ رباني ككل كامل خرج من يد الوالدة والحاضنة فأبصر بعين قلبه أن المنة لله ورسوله من قبلُ ومن بعدُ. فيعمل بقول الله عز وجل: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.[1]

يقول الإمام: «وإن كان شيخي في الطريقة النقشبندية عبد الباقي رضي الله تعالى عنه فإنَّ المتكفل بتربيتي هو الباقي جل جلاله وعَمَّ نوالُه. وإني تربيت بالفضل، وذهبت من طريق الاجتباء. وسلسلتي رحمانية، وأنا عبد الرحمن. فإنَّ ربي رحمان جل شأنه، وعَمَّ إحسانُه. ومُربِّيَّ أرحم الراحمين. وطريقتي طريقة سبحانيَّة، لأني ذهبت من طريق التنزيه، ولم أُرِدْ من الصفة والاسم غير الذات الأقدس تعالت وتقدست.

«وهذا السبحاني (يعني نفسه) ليس ذاك السبحاني (يعني أبا يزيد البسطامي الذي قال في سكره: سبحاني ما أعظم شأني!) الذي قال به البسطامي. فإنه لا مِساسَ له بهذا. فإنه ما تخلص من دائرة الأنفُس. وهذا (يعني سبحانيته هو) ما وراء الأنفس والآفاق. وهو (أي البسطامي) تشبيه كُسِيَ لباسَ التنزيه. وهذا تنزيهٌ لم يصِبْهُ غبار التشبيه. ذاك فائر من منبع السكر، وهذا منفجر من عين الصحو».[2]

ويُنْهي رحمه الله حديثه عن نفسه بشكر ربه عز وجل على اعتنائه به حيث لم يجعل لغيره مدخلا في تربيته. هذا كما يشكر اليافعُ خالقه سبحانه على ما سوّاه وأحسن صورته وبسط نعمته عليه. وليس في كلام اليافع جُحُود لفضل والديه، ولا في كلام المشايخ جحود ليد من حضنهم صبيانا، وكساهم وغذاهم ونظفهم أطفالا.

(1) لقمان، 14.

(2) المكتوبات، ج 3، ص:110.

يقول الإمام السرهندي عن حقوق شيخ السلوك: «ينبغي أن يُعْلَم أن حقوق الشيخ فوق جميع أرباب الحقوق بلا نسبةٍ بين حقوق الشيخ وبين سائر الحقوق بعد إنعامات الحق سبحانه وإحسانات رسوله ﷺ. بل الشيخُ الحقيقيُّ للكل هو رسول الله ﷺ. والولادة الصورية وإن كانت من الوالدين فإن الولادة المعنوية مخصوصة بالشيخ.

«الولادة الصورية منشأٌ لحياة أيام معدودة، والولادة المعنوية مستلزمة لحياة أبدية».

قال: «والذي يَكْنِسُ نجاسة المريد المعنوية بقلبه وروحه، ويطهِّر كرِشَه هو الشيخ. وقد يُحس (الشيخ) في التوجُّهات إلى بعض المريدين والمسترشدين لتطهير نجاساتهم الباطنية أن التلوثَ يَسْري أيضا لصاحب التوجه ويَجْعله مُكَدَّراً إلى مدة.

«والشيخ هو الذي يوصل بتوسله إلى الله عز وجل. وهذه سعادة فوق جميع السعادات الدنيوية والأخروية.

«والشيخ هو الذي بوسيلته تتزكى النفس الأمارة الخبيثة بالذَّات، وتَطْهُر، وتتخلَّص من «الأمَّارية»، وتنْقلب مطمئنة، وتخرُجُ من الكفر الجِبلِّي، وتدخل إلى الإسلام الحقيقي.

«يطول إذا بيَّنْتُ تفصيل شرحه.

«للسالك أن يعتقد سعادته في قَبول شيخه له، وشقاوته في رده نعوذ بالله سبحانه من ذلك. وقد جعل الحق سبحانه رِضاه تحت حُجْبِ رِضَى المرشد».[1]

قلت: وهنا يصل الإمام إلى نقطة الأدب القلبي مع المرشد التي عليها الاعتمادُ، ويتخذها المريد السعيد دستور الصحبة معه، وهي نقطة خَطيرةٌ. إن انقياد الطالب لذي شهرة من أصحاب العمائم والسبحة والأتباع بطالة وعطالة إن لم يكن لَدَى الطالب هذا الاضطرارُ الظامِئُ إلى قرب ربه عز وجل، الذي يجعله الكريم الوهاب سبحانه مقدمة على طريق من يريد أن يقربه إليه، ثم يُهيِّئ له لقاء الصادقين الذين يُوصلونه بأمانة إلى ما سبق له من نيل الرغائب.

(1) المكتوبات، ج 2، ص: 108 وما بعدها.

قال رحمه الله في توضيح هذه النقطة المحورية: «وما لم يجعل المريد نفسه فانيا في رضى المرشد لا ينال نصيبا من مرضاته سبحانه وتعالى».[1] قف عند كلمة فانيا.

قال: «وآفة المريد في أذِيَّة شيخه. وكلُّ زلة يمكن تدارُكُها، إلا زلةُ أذية المرشد فإنه لا يمكن تداركها بشيء من الأشياء. وأذية المرشد أصل شقاوة المريد، وعِرْقُها، عياذا بالله من ذلك. والخلَلُ الطارئ في المعتقدات الإسلامية، والفتور الواقع في إتيان الأحكام الشرعية من نتائج تلك الأذية وثمراتِهَا.

«وماذا أقول عن الأحوال والمواجيد المتعلقة بالباطن؟ فإن بقيَ أثر من الأحوال مع وجود أذية الشيخ ينبغي أن يَعُدَّه من الاستدراج الذي يجر أخيرا إلى الخرابيَّة. ولا يُنْتِجُ شيئا غير الضرر. والسلام على من اتبع الهدى».[2]

قلت: إن الصحبة لكاملٍ من الأولياء المرشدين شرط مفروغ من أهميته الحيوية عند السادة الصوفية أهل المَعرفة بما هي الطريق. وإن شئتَ قلت باختصار: الطريق هي الشيخ الواصل الموصل الحبل بالسند المتصل. فما يبقى إلا شرطُ الصدق عند الطالب، وشرط الصبر مع المرشد، وشرط الاستقامة على السنة، وشرط الاجتهاد حتى يأذن الله سبحانه لمن يشاء بما يشاء، مع دوام الذكر والدعاء.

أما المتفرجِ من خارج الميدان، الذي لم يشمَّ شمة من الاضطرار إلى الله، ولا له صبر ليتعقَّب وصايا أهل الله بالصحبة، فهو يرفُض مبدأ الصحبة قبل كل نقاش ويسخَر من السند الروحي، ويكذب بالولادة الروحية، ويرى كل هذا هُراءً ومُبالَغة وخَبْطا وغلُوّا في الدين. ويُوصي المشايخ أنفُسُهم المريدين بالوقوف عند حد في تعظيم المرشدين، لأن شرط «الفناء في الشيخ»، وهو مِحْوَرِيٌّ في المسألة، قد يؤدي إلى الغلو المذموم، ويؤدي الغلو إلى الزيغ، ويؤدي الزيغ إلى الكفر. نعوذ بالله.

لذا قال الإمام السرهندي قدس الله سره: «ينبغي أن يُعلَم أن اعتقاد المريد أفضليَّة شيخه وأكمليَّتَه هو من تمام المحبة ونتائج المناسبة التي هي سبب الإفادة والاستفادة.

(1) المكتوبات، ج 2، ص:111.

(2) المصدر السابق، ج2، ص:111-112.

ولكن ينبغي أن لا يُفضِّلَ شيخه على قوم قد تقررت أفضليتهم في الشرع. فإنه إفراطٌ في المحبة، وهو مذموم. وقد كانت خرابية الشيعة وضلالتُهم من جهة إِفراطهم في محبة أهل البيت. واعتقد النصارى عيسى عليه السلام إلها من إفراط محبتهم إياه، ووقعوا في الخسارة الأبدية.

«أما إذا فضَّل شيخه على من سواه (من المشايخ) فجائز. بل هو واجبٌ في الطريقة. وهذا التفضيل ليس باختيار المريد، بَلْ لو كان المريد مستعدا يظهر فيه هذا الاعتقاد بلا اختيار منه، فيكتسبُ كمالات الشيخ».[1]

وفي مكان آخر يتحدث الإمام عن الكرامات والخوارق، فيقرر أن ظهورها ليس شرطا في الأهلية للمشيخة، ويُبَيّنُ أن الخوارق الكونية لا شيء بالنسبة للكرامة الكبرى التي هي إحياء القلوب. قال رحمه الله: «وكيف لا يُحِس المريد خوارق الشيخ وقد أحيى القلب الميتَ، وأوصل إلى المكاشفةِ والمشاهدةِ. فإذا كان الإحياءُ الجسدي عظيمَ الشأن عند العوام، فعند الخواص الإحياء القلبيُّ والروحي برهانٌ رفيع البنيان».[2]

ويستشهد السرهندي بكلام أحد مشايخ سلسلته قال: «ولما كان الإحياء الجسدي معتبرا عند أكثر الناس أعرضَ عنه أهل الله، واشتغَلوا بالإحياء الروحي، وتوجهوا إلى إحياء القلب الميت. والحق أن الإحياء الجسدي بالنسبة إلى الإحياء القلبيِّ والروحي كالمطروح في الطرّيق وداخل في العبث بالنظر إليه. فإن هذا الإحياءَ الجسدِيَّ سببُ حياة أيام معدودة، وذاك الإحياءُ الروحيُّ وسيلة للحياة الدائمة.

«بل نقول: إن وجود أهل الله في الحقيقة كرامةٌ من الكرامات، ودعوتُهم الخلق إلى الحق جل سلطانه رحمة من رحمات الله تعالى، وإحياؤهم القلوبَ الميتة آيةٌ من الآيات العظمى. وهم أمان أهل الأرض، وغنائم الأيام. بهم يُمطرون، وبهم يرزقون. كلامهم دَواء ونظرهُم شِفاء. هم جلساء الله، وهم قوم لا يشقى جليسُهم، ولا يخيب أنيسُهم.

(1) المكتوبات، ج2، ص:137.

(2) المصدر السابق، ص:140.

«والعلامة التي يَتمَيَّزُ بها مُحِقُّ هذه الطائفة من مُبْطِلهم هي أنه إذا كان شخصٌ له استقامة على الشريعة، ويحصل للقلب في مجلسه ميلٌ وتوجه إلى الحق سبحانه وتعالى، وتحصل برودة عما سواه تعالى، فذلك الشخص شخص مُحق، ولأَنْ يُعَدَّ من الأولياء، على تفاوت الدرجات، مُسْتحِقّ».[1]

هذه نبذة من كلام الإمام أحمد السرهندي الذي يحتاج المسلمون إلى دراسة تاريخه ليعرفوا ما هم مدينون به لجهاده أمام الطاغية «أكبر» من بقاء الإسلام في الهند، ويحتاج الصوفية لدراسة مكتوباته التي حرر فيها قواعد السلوك تحريرا مجدِّدا حقا واستحقاقا رحمه الله.

قال مشتاق محب، برّح به البعد وشفه الجفاء:

مـن رأى الـبرقَ بنجـد إذْ تَـراآى سُـلـبَ الـنـوم وأُهْـدِي البُـرحاء

فـاض فيهـا كجفـوني مـاؤُه والْتَـظَى وَهْنـاً كَأَنفـاسي الْتِظـاءَ

قـام سُمَّـار الدُّجَـى عـن ساهِـرٍ تَخِـذَ الهـمَّ سميـراً والبكَـاء

أسهرتـه دمعـة تفضَـحُه وإذا ما أحسـن الدمعُ أسَـاءَ

يـا خليلـيَّ ولـم أشـعرْ كمـا بالهَـوَى حتـى تَبَيَّنْـتُ الإخـاء

علِّـلا قلبِـي بذكـرَى قاتـلي رُبَّ داء قـادَ للنفـس دواء

وقال صادق في معاملته، ناصح مُؤَد لأمانته:

وإِنَّ امْـرأً لـم يَصْـفُ لله قلبُـه لفي وحشة من كل نظرة ناظـر

وإِنَّ امـرأً لـم يَرْتَحِـل ببضاعـةٍ إلى داره الأخـرَى فليس بتاجـر

وإن امـرأً يبتـاع دُنْيَـا بدينـه لمنْقَلِـب منها بصَفْقَـةِ خاسـر

(1) المكتوبات، ج 2، ص:140.

وقال موف بعهده، حافظ لوده:

أسُكَّانَ نُعمانِ الأرَاكِ تيقنوا   بأنكمُ في رَبْع قلبيَ سُكانُ
ودوموا على حفظ الوداد فإننا   بُلينا بأقوام إذا استُحْفِظوا خانوا
سلوا الليل عني مذ تناءت ديارهم   هل اكتحلتْ لي فيه بالغَمْضِ أجفان

وقلت:

سَحَبوكَ في غَفَلاتِهِم   قَذَفُوكَ في طُوفانِها
هذي السَّفينة يا فَتى   قَدْ صُنِّعَتْ أرْكانُها
نادَى لنَصبِ شِراعها   وَرَحيلِها رُبَّانُها

شعب الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾. اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين. إلى من تكلني. إلى عدو يتجهمني. أم إلى قريب ملكته أمري. إن لم تكن ساخطا علي فلا أبالي. غيرَ أن عافيتك أوسعُ لي. أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السماوات والأرض، وأشرقت له الظلمات، وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تُحِلَّ علي غضبك أو تنزل علي سخطك. ولك العتبى حتى ترضى. ولا حول ولا قوة إلا بك.

أكتب هذه السطور صباح السبت الحادي والعشرين من صفر 1409 . منذ عشرة أشهر بدأتْ مقاومة أطفال الحجارة في فلسطين، بل جهادُ الشباب الإسلامي تقاتل فيه الأيدي العزلاء إلا من قوة الإيمان وكراهية العدو اليهوديِّ أحدثَ ما اخترعته الصنائع العصرية من وسائل القمع. ومنذ أربعة أشهر بدأ انسحاب الجيوش الروسية من أفغانستان، هذا الانسحابُ الذي أعقب جهادا هو من آيات الله العظمى. قاتلت فيه الفئة المؤمنة القليلة الفئة الأكثر عددا، الأقوى شوكة، الأوفر سلاحا وعُدَّة بما لا يقارن حتى جاء نصر الله. نصر أفغانستان كرامةٌ عظمى لهذه الأمة تنزلت على فئة آمنت بالله وكفَرَتْ بما هم به مشركون.

ومنذ بضعة أسابيع وضعت الحرب الدّامية أوزارها بين الثورة الإسلامية الإيرانية وبين القومية العربية البعثية بعد أن طحنت رحاها مآت الآلاف من الجانبين، طحنت الجند المسلمَ أفرادُه، ويتبجح قادة البعث القوميون بالنصر المبين، في زعمهم، على شبَحِ الإسلام المخيف ورمزه المنشور وشعاره المعلن الذي تألَّبَتْ لإسكاته قُوى الجاهلية بأسرها.

ومنذ بضعة أيام قذفت دولةُ اليهود في فلسطين قمرها الصناعي الخاص بها، المصنوعَ بيدها، بعد أن أصبحت أقمارُ كافلتها وحاملتها الأمريكية لا تكفي لخدمة طموحها في الاستقلال والسيطرة. نجاحُ اليهود في إرسال قمرهم الصناعي يعني أن بلاد العرب وبلاد المسلمين قاطبة باتت تحت سمع التجسس الإلكتروني اليهودي المباشر وبصره. يعني أن الصواريخ التي أطلقته هي رهن إشارة العسكرية اليهودية لتحمل الرؤوس النووية، المصنوعة عند اليهود بيد اليهود، المخزونة بالمآت، إلى حيث تشاء القيادة الطاغوتية التي تقاتل بالنار والحديد شعبا مسلما أعزل لا يجد أطفاله اليائسون من أي عون خارجي إلا الحجارة يضربون بها عدو الله وعدوهم.

خذَلَ الرأيُ العام العالمي مسلمي فلسطين، وطاح شعار «حقوق الإنسان» الذي لا ترتفع صيحاتُه إنْ تكلم اليهود. وخذَلهم إخوانهم المسلمون، عجزا لما هم تحته في مشارق الأرض ومغاربها من معاناة للحكم الجبري القومي اللايكي. فلا يدْرِي المسلم المتفَرِّج على مشاهد الخزي في شوارع القدس والخليل داهيَةَ موقفه وبؤسه حين يفرح وحين يصفق مع فرح الإعلام الرسمي وتصفيقه لبطولة أطفال فلسطين ونسائها المبْسوطين في المجزرة اليهودية، المعذبين في سجون اليهود.

أكتُب هذا وكارثةُ لبنان، وحروب لبنان، وعدوان اليهود والنصارى على لبنان، مضى عليها ثلاث عشرة سنة والتمزُّق لايزال مستمرا. أكتب والمسلمون غُرباءُ في هذا العالم، بؤَساءُ فيه، مغلوبون فيه. فما الحديث على هذا البساط الواقعي عن التصوف والشيخ وسند الطريقة وأوراد الذكر والتلاوة!

ما الحديث عن الإيمان والإحسان وصدق الإرادة والتربية والأخلاق والأمة تحترق! ما الحديث في الغيبيات ومصيرُ الأمة في أرض الله مهدد! ما الحديث عن الآخرة! أليس هذا إِلْفاتا لأعين المسلمين عن إبصار حقائق الدنيا لمواجهتها! أليس هذا إحياء لما مات من خُرافيات التاريخ! ولا نهاية لأسئلة عَابِر السبيل في أرض الدعوة المتسكِّعِ في أرجاء العالم، المنْبهر إيجابا أو سلبا، أو إيجابا وسلبا معا، بالحضارة الماديةِ الجاهلية.

جاهليةُ الصناعة والكشوفات العلمية هي بلاءُ الله في هذه الأعصر للعباد، وهي بلاءٌ خاص للمسلمين الذين يمثِّلون في زماننا الكتلة الأوْهَنَ نَسْجاً من بين المستضعفين في الأرض.

قاتلَ رسول الله ﷺ وصحابته جاهلية اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى كما قاتل وثنية العصبية الجاهلية. ونصره الله عز وجل نصرا مؤزرا. وهاهم مسلمو هذا العصر يَحومون، نظراً حاسراً ومحاولاتٍ عاجزة، حول هيكل جاهلية القرن العشرين وما بعده، فلا يجدون مَنفذا إلى أسراره إلا به، ولا يدرون طريقا من نفوذه وهيمنة معانيه ومذاهبه وأفكاره وبضائعه إلا إليه.

وفي عُقر ديارنا نصبنا تمثالا لذلك الهيكل طِبْقَ الأصل وإن تنوعت الصباغة: الدولة القومية في بلادنا المقطعة أشلاءً هي اللاتُ والعزَّى. وسواء كانت دولة لبرالية تتولى غرب الجاهلية، أو كانت دولة اشتراكية تتولى شرق الجاهلية، فالمذهب واحد، والدين واحد. دين هذه الأصنام السياسية، ودين سدنتها من حكام العض والجبر، هو الولاءُ الأعلى يُعطَى طوعا وكرها للهوية القومية الوطنية. يُعطَى أوَّلا وأخيرا. ثم هنَاك في مقدمة الدستور الوطني الوثني فقرة تنص على أن دين الدولة هو الإسلام، وبَنْدا خامسا أو سادسا يعطي للمواطن حرية التدين. ثم لا بأس من تشييد المساجد للزينة والتاريخ.

في بلاد المسلمين هُوِيَّتان متناقضتان: هوية إسلامية شعبية فيها من الغموض والجهل والخرافة، وهوية وطنية قومية عصرية، ولا بأس من تزويقها بالأصالة وتمويهها بالتُّراث لصيانة ماء الوجه بين شعوب الأرض وأمجادها. الهويتان متناقضتان وإن كان يزعم القوميون العصريون أنهما متكاملتان. متعارضتان مَبْنىً ومَعْنىً وواقعا ومصلحة. ولا بد من كشف هذا التعارض وإزالته.

كان مصطفى كمال بعد ثورته ألبس المسلمين في تركيا لباس الأوربيين وحلق اللحى ومعها الرؤوس، وطرح العمائم، وفرض الأذان باللسان التركي، واستبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية. كل ذلك ليُحوِّلَ الولاء إلى الدولة والعصرنة

وفلسفة الغرب وظاهر الجاهلية وباطنها من الولاء لله ورسوله وكتابه، ومن الكعبة المشرفة والمساجد والعلماء.

ومن زمانه بدأ تزييف الهُويَّةِ المسلمة، في حركة موازيةٍ مساعِدة لهدم الهوية الإسلاميَّة. فقد اقترح أب الفكر التربوي اللاييكي المسخيِّ في تركيا المسمى إسماعيل حقي بلطاجي غولو أنْ تغير مظاهر العبادة الإسلامية. واقترح أن تُدْخَلَ الموسيقى في الصلاة وأن يُحذف منها الركوع والسجود، لكي تُصاغ شخصيةٌ جديدة وهوية عصرية للأتراك.

وجاء أب الفكر التربوي القومي العربي ساطع الحصري من إسطنبول المتعصرنة، بعد أن نزح منها إلى سوريا، بأفكار مصطفى وحزبه الشيطاني. وركَّزَ الحصري على اللغة العربية واقترحها وثنا يُعبد مستعينا بفكر فِخت الألماني، وبنموذج القومية الألمانية التي جمعت أشتات الإمارات الألمانية في القرن الماضي في وحدة قوية.

وأخذ أب الفكر القومي البعثي ميشيل عفلق مِشعَل الفكر القومي عن أستاذ المادة ساطع وتلامذته، وزاد في ذلك الفكر من مادة اطلاعه الفرنسي، كما نقل الفكر من قول إلى عمل.

«فبفضل» هذه «السلسلة» القومية وبجهود رجالها وأمثالهم السائرين في ركاب الجاهلية الموالين لها الولاء الأعمى المطلق تمكنت اللاتُ والعزَّى في بلاد المسلمين.

«نخبة» من ذراري المسلمين تربَّوْا تربية قوامها الولاء الجاهلي، والغِذاءُ الفكري الجاهلي، والتسليمُ الموافِق الـمُعْجَبُ للنموذج الجاهلي. وسند هذه «النخبة» إلى المعين الجاهلي متصل متواصل، وإن كان بعضهم، منذ ثورة إيران ومجد أفغانستان وحجارة فلسطين، أصبحوا يَقْدُرُون البَوْنَ الشاسع الذي لا يزداد إلا اتساعا بينهم وبين جماهير الأمة.

الأمة أصبحت تسمع شعار «الشهادة في سبيل الله»، وشعار «خير الدنيا والآخرة»، وشعار «العدل والإحسان». فهذا أوان إحياء الربانية، وإخلاص الولاء لله عز وجل، والاستمساكِ بالعروة الوثقى. وإنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلُح به أوَّلها، كما قال الإمام مالك رضي الله عنه. وإن صلاحَ أول هذه الأمة كان بتوحيد الولاء لله عز وجل ورسوله، وبالإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر وملائكته وقدره خيره وشره.

من قدره الابتلاءُ، ومن قدره الانبعاث المعلَنُ على لسان النبوة إلى الخلافة الثانية.

إن معركة تحويل الولاء من أصنام الجاهلية إلى الله ورسوله معركة فاصلة، وما أحداث العالم التي بدأت هذه الفقرة ببعضها إلا مُناوَشات جانبية وقتية.

وإن اكتساب الهوية الإحسانية الإيمانية الربانية هو الضمانة الوحيدة ليكون الله عز وجل معنا، ولتكون الدنيا وبروزُنا فيها وقوتنا وانتصارنا مَدْرَجةً لسعادة كل فرد منا في الآخرة، وليكون التقرب إلى الله عز وجل بالجهاد في سبيله ثمنا لمقعد الصدق الذي ينتظر المحسنين عند الله.

وقد جمعت في خصلة «الاقتصاد» في تصنيفي لشعب الإيمان ثلاث شعب. هي: حفظ المال، والزهد والتقلل، ثم الخوف من غرور الدنيا.

ولكل من هذه الشعب، ولسائر ما صنفته منها، وجه للسياسة والتنظيم ووجه للتربية التي هي محور المعركة.

قال مجاهد غلب حب الله ورسوله في قلبه كل ولاء:

هـذِي الصـوافِي وذي أعـلامُ نَـجْـران فاحبِسْ لعليَ أقضي بعض أشجاني
واستحبس الركب مقدار السؤال ففي سؤال تلك المغاني بعض سُلْواني
ما ذا الهوى الآن مما كنتَ تعهدُه قِدْمًا فتزجُرني عنه وتنهاني
هذا هَوىً جاز عن حد الهوى وجرى كالموت أحكامه تقضي بفُقْداني

وقال محب لجناب الحضرة النوارنية هائم:

بأيِّ فؤاد أحمـل البُعدَ والهَـوَى   وأنت قـريب، إنَّ ذا لَعَجيـب!
ملكـت فـؤادي عنـد أول نظـرة   كـمـا صادَ عُـذْريّـًا أَغَـنُّ رَبيـبُ
وحَيْثُ لِدائى كنت لي فيه عـائدا   شُفِيتُ وبعض العـائدين طبيب
على أنَّ ذكـراً لا تـزال سهـامُـه   تـرى مقتَلا من مُهجتي فتُصيب
أُعِيـرُ المنادي لاسمه السمـعَ كلَّـه   عـلـى عـلمِـه أني بذاك مُـريـب
ويا أسفِي! كم لي على الخَيْف شهْقَة   إلى خبـر الأحـلام وهـو كـذوب
ولا في النوى يَا مُنْيَة القلب راحةٌ   ولا في التـدانِي، إنني لَكَئيـب

وقلت:

اخلَـــع ثِيـــابَ مَـهـانـةٍ   واسمَـــعْ نِـــداءَ المـاجِـــدِ
الرِّحـلـــةُ الغَـــرَّاءُ قَـــدْ   بَـــدأتْ بركـــبٍ حاشِـــدِ
فاشْـهَقْ ومُـت مَـوتَ الجَبـا   نِ أوْ الحـقَـــنَّ وَجــاهِــدِ

الفصل الثاني عشر
الجهاد

- طريق المجاهدة
- طريقة الشكر
- المهدوية
- جهاد في الفتنة
- هوية إحسانية
- فضل الجهاد
- رجال
- القومة
- بناء الدولة الإسلامية
- الوحدة
- شعب الإيمان

طريق المجاهدة

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾. اللهم احفظني بالإسلام قائما، واحفظني بالإسلام قاعدا، واحفظني بالإسلام راقدا، ولا تشمت بي عدوا ولا حاسدا.

حديث: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» لا يثبت عند المحدثين، ولا يصح معناه، ولا ينبغي، إن قصدَ المستشهد به أن مجاهدة النفس تقوم مقام الجهاد. ذلك أن المجاهد لنفسه، المحاسِبَ لها، الحامل لها على الطاعات والإكثار من النوافل وعلى الورع والزهد والمكاره لا يعدو في أحسن الحالات إن أخلص النية أن ينتفع بالثواب في خاصة آخرته. فإن كان مع المجاهدة إرادة وتربية وصدق الوجهة إلى الله تعالى مع السابقة فيدرك المجتهد المجاهد لنفسه ما شاء الله من مراتب الصلاح والولاية والصديقية، ويخرج من الدنيا، إن ختم الله له بالحسنى، نسأل الله عز وجل لنا ذلك ولأحبابنا وإخواننا وللمؤمنين والمؤمنات، وهو صالح في نفسه.

فأصحاب المجاهدة صنفان: عُبَّاد زهاد كثيرو النوافل لا حظ لهم من الإرادة ولا رائحة عندهم من طلب وجه الله عز وجل ولا خبر عندهم من رقائق التربية وصفاء الصوفية. وصنف ثان هم الصوفية الأولون الذين تتسم طريقتهم التربوية بإمساك خِناق النفس والشدة عليها، والزهد الحسيِّ والمعنوي، والمداومة على العزلة والصمت والجوع والسهر والذكر. وعن هؤلاء الصالحين وطريقتهم نتحدث في هذه الفقرة.

لا يعدو صوفية المجاهدة رضي الله عنهم أن ينتفعوا برياضة نفوسهم وأن ينالوا المقاصد الفردية. وإن تسلّى بعضُهم بترديد حديث الجهاد الأكبر والأصغر، الذي

له وجه على كل حال، فإنما يَنْصِبون خيالا يتمتعون بتأمُّله لَمّا فاتهم الجهاد الحقيقي الذي عمَرَ القرآن بذكره والإشادة به، وعمرت السنة حياةَ الصحابة عملا بانيا مؤسِّسا تجاوزت نتائجه وفضائله الأفرادَ، فبه تكونت الأمة، وبه عاشت، وعليه عزَّتْ. ونال مع ذلك به جهابذة الصحابة السابقون من المهاجرين والأنصار مراتب في الولاية والقرب من الله عز وجل ودرجات الجنة ما لا يتيسر مثله لمن جاهد نفسه لنفسه، ما تعدت حياته بالإيمان عتَبة فرديَّته.

والقول عن طريقة الشكر التي تلت في مَهْيَع التصوف طريقة المجاهدة مثلُ ذلك. في كلٍّ خير، وخيرٌ كثير رفع الله مقامَهم، لكنَّ النموذج الصحابيَّ، بوجود الصحبة النبوية العظيمة وبوجود الجهاد، هو مُرتقى طموحنا في مَهْيَع السلوك الجهادي بين يديْ الخلافة الثانية الموعودة المقصودة إن شاء الله تعالى وتقدس.

روى الإمام أحمد وابن ماجه رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله! أخبرنا بعمل يعدل الجهاد في سبيل الله! قال: «لا تطيقونه!» مرّتين أو ثلاثا. قال: قالوا: أخبرنا فلعلنا نُطيقه. قال: «مثلُ المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد إلى أهله».

قال ﷺ: «مثَلُ». فالمجاهدُ نفسه العابد مثلٌ لا حقيقة. وقال: «لا يفتر»، ومن ذا الذي يصبر على القيام والقنوت الأسابيع لا يفترُ.

أما بعد فإن مجاهدة النفس حاصلة أيضا في جهاد العدو الخارجيِّ، وبكيفية أكثر صرامة وضبطا. وتبلغ رياضة المجاهد نفسه وهو يجاهد العدو الخارجي أن يُرغِمها على ترك المال والأهل والوطن جملة. تبلغ أن يودِّع الأهل والولدَ وداع من لا يرجع. تبلغ أن يواجه الأسنة والسيوف، وفي زماننا المدافع والدبابات، بنية من ينصب جسمه وقوته وحياته حصنا يحمي حمى الأمة، وهو حِمى الله، وفداء لتحيى أمة رسول الله، وثمنا مقدما في صفقة ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى**﴾[1]، ووفاء بمبايعة ﴿**إِنَّ الَّذِينَ**

(1) التوبة، 112.

يُبَايِعُونَكَ﴾[1]، وهي مبايعة قابلة للتجديد إلى يوم القيامة، كما هي الصفقة الإلهية مفتوحة ما دامت الدنيا.

علوُّ المعاملة مع الله عز وجل في صورة الصفقة، وعلو المعاملة مع رسول الله ﷺ في عهد المبايعة يضمنها القرآن، وهو كتاب جهاد في كل سوره. وفي طريق المجاهدة الصوفية علو، ومثال للعلو، جعله الله الحنان المنان عِوَضاً للمعذِّرين من المؤمنين الذين عاشوا عصور الفتنة تحت سيف القهر الحاكم، وتحت قدر الله سبحانه أولا وآخرا، فسلكوا إلى الله تعالى وتقدس فُرادى. وكان من مجاهدتهم لأنفسهم وتطويعهم لها آياتٌ للرجولة والفحولة ما أحوجنا للاهتداء بفقهها، لا بشكلها، في هذه الأزمنة التي طغى فيها المتاع الدنيوي، وتألهت فيها الأنانية الفردية، وانصبت فيها الشهوة ووسائل الشهوة انصباب البلاء الواصبِ.

قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله، وهو من فرسان المجاهدة وأئمتها: «سُقْتُ نفسي إلى الله وهي تبكي. فما زلت أسوقها حتى انساقت إليه وهي تضحك». وقال أيضا: «كنت ثِنْتَيْ عشرة سنة حدّاد نفسي، وخمسَ سنين كنت مرآة قلبي، وسنةً أنظر فيما بينهما. فإذا في وَسطي زُنَّارٌ ظاهرٌ، فعملت على قطعه ثنتي عشرة. ثم نظرت فإذا في باطني زُنّار، فعملت على قطعه خمسَ سنين أنظر كيف أقطع. فكشف لي فنظرت إلى الخلق فإذا هم موتى. فكبرت عليهم أربع تكبيرات».

قلت: الزُنَّار حزام كان يضعه النصارى ليتميزوا به عن غيرهم. ويقصد أبو يزيد بالزنارين، الظاهري والباطني، ما كان يراه عالقا بأعماله الظاهرة والباطنة من شوائبَ لا يرضاها وهو يحاسب نفسه ويسوقها كارهة باكيةً.

كان الأحباب في تلك القرون يؤكدون على أن الطريق إلى الله مغلقة في وجه من لا يجاهد نفسه. وهو كلام صدق، إن استثنينا الكيفية التي بنوا عليها حياتهم السلوكية في ترتيب الأوراد المتنوعة التي تستغرق الليل والنهار بالعبادة، لا مكان فيها لورد الكسب والسعي على العيال، ولا مكان فيها لوِرد التعلم والتعليم إلا لماماً، ولا

(1) الفتح، 10.

مكان فيها لورد إعداد القوة، ولا مكان فيها لورد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا مكان فيها إلا قليلا لوِرد البر بالضعفاء.

إذا استثنينا غياب نية الجهاد وغياب الأوراد الجهادية، واستثنينا العزلة المتخذة أسلوب حياة، والسَّهر للذكر والتعبد الذي يفْضُلُه، مع وجود الذكر، السهرُ حراسةً في سبيل الله، واستثنينا الجوعَ الإرادي الذي سبقه آلافَ الدرجات صبرُ الصحابة أيام العسرة على الجوع والتخويف وقيظ الهواجر وقرص برودة الليل وتعب السفر الطويل على الأقدام أو على رواحلَ نادرة يتعاقبونها. إذا استثنينا كل ذلك واستثنينا الصمت الذي يليق بالمعتزل عن الناس حين يليق بالمجاهد المسؤول عن تبليغ كلمة الله الصراخ في أعداء الله، فالمقالة التي تشرط السلوك إلى الله عز وجل بمجاهدة النفس مقالة صدق.

قال الإمام عبد القادر قدس الله سره: «كل من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من الطريقة شمّة». ويستشهد الشيخ عبد القادر بكلمة أبي عثمان المغربي رحمه الله حيث يقول: «من ظن أنه يفتح له شيء من هذه الطريقة أو يكشَف له شيء منها بغير لزوم المجاهدة فهو في غلط». ويورد كلمة أبي علي الدقاق رحمه الله إذ يقول: «من لم تكن له في بدايته قَومةٌ لم يكن له في نهايته جَلْسَةٌ». يقصد بالجلسة جلوس الشيخ لتربية المريدين. ويقصد بالقومة هذه النهضة القلبية الاجتهادية التي ينهضها طالب الحق بعد اليقظة والتوبة.

ولنا في كلمة «قومة» مأرب وإليها عودة عن قريب إن شاء الله.

وقد رسخت في أذهان العامة وقارئي كتب المناقِبِ وحياة الأولياء صورةٌ عن الولي الأشعث الأغبر المغرق في المجاهدة. لا يكون عندهم وليا ولا يبلغ في عرفهم العامي ذِروَة الكمال إلا من اخضرت أشداقه من أكل الربيع، ويبِس جلده على عظمه من هزال التقشف. هذا التصور الناتج عن الجهل بالدين وعن الجهل بفقه السلوك الذي اخْتُصَّ به الصوفية تحريف وانحراف نحو الرهبانية التي ما أنزل الله بها من سلطان.

كان المريد عبد القادر الجيلاني في بدايته على قدر غير قليل من التقلل والتقشف، فلما تقدم في سلوكه ونضج زرعه وطاب غرسه وبلغ درجة المعرفة لبس لباس العلماء، وهو من أكابرهم رواية ودراية وتحصيلا، وتوسع في الحلال باقتصاد أوساط الناس رحمه الله.

قال: «زرعي قد نبت وتجَمَّل، وزرعُك كلما نبتَ أُحْرِقَ، كن عاقلا! دع رياستك وتعال اقعد ههنا كواحد من الجماعة حتى ينزرع كلامي في أرض قلبك. لو كان لك عقل لقعدت في صحبتي، وقنعت مني في كل يوم بلقمة، وصبرت على خشونة كلامي. كل من كان له إيمان يثبت ويَنْبُتُ، ومن ليس له إيمان يهرُبُ مني».[1]

يعطي الإمام الصحبة أهميتَها، وهي في المكان الأول. لا تكون المجاهدة بدونها إلا غلُوّا في التعبد قد يكون قاطعا عن الله عز وجل من حيث لا يدري المعانِي المكابِدُ الذي يعتمد على جهده وعمله من دون الله، فإذا هو طريح جريح سليب قتيل على حافة الطريق. ثم يعطي الشيخ عبد القادر للمجاهدة حقها، ويضعها في نصابها بعد الصحبة فيقول:

«يا قوم! أنتم تَعْدُون خلف الدنيا حتى تعطيَكم، وهي تعدو خلفَ أولياء الله حتى تُعْطيَهم. تَقِفُ بين أيديهم ورأسُها مُطَأْطَأٌ.

«اضرب نفسك بصَمْصامةِ التوحيد، والبَسْ لها خوذَةَ التوفيق. خُذْ لها رمح المجاهدة وتُرْسَ التقوى وسيف اليَقين. فتارَةً مُطاعَنَة، وتارة مُضارَبَةٌ. ولا تزال كذلك حتى تذِلَّ لك وتصير راكبا لها: لجامها بيدك، تسافر بها بَرّاً وبحرا».[2]

لاحِظْ استعماله رضي الله عنه ألفاظ القتال وأدواته من مطاعنة وضرب وصمصامة ورمح وترس. وهيهات يبلغ المِثْلُ الممثَّلَ به إن كان مع سائق الدولة ومدبِّر الاقتصاد وقائد جند الله المجاهدين في سبيل الله الداعين إلى الله المتقدمين إلى موعود الله مِثْلُ ما كان عند الأبرار الأخيار الفارين بدينهم من حب الله والغيرة على دين الله

(1) الفتح الرباني، ص:282.

(2) نفس المصدر، ص:282.

والحرص على سنة رسول الله وإِرادة القرب من الله ورفع الهمة إلى الله، ثم زادُوا عليهم بما كان مع الصحابة من نية الجهاد، وممارسة الجهاد، والصبر على الجهاد.

قال صوفي جاد بروحه في ساحة الحب والمجاهدة لما فاتته الأخرى:

إن الحبيبَ الذي يرضيه سَفْكُ دمي دمي حلال له في الحِلِّ والحَرَم
إن كان سفك دمي أقصى مرادِكمُ فما غلَت نظرةٌ منكم بسفك دمي
والله لو علمت روحي بمن عَلِقَت قامت على رأسِها فضلا عن القدم

وقال مجاهد لنفسه يُجَرِّعها كؤوس المكاره بنفسه لنفسه:

صبرت على بعض الأذى خوفَ كله ودافعت عن نفسي لنفسي فَعَزَّتِ
وجرَّعتها المكروه حتى تدرَّبَتْ ولو لم أجَرِّعْها أذىً لاشمَأزَّتِ
ألاَ رُبَّ عزٍّ ساق للنفس ذلة ويا رُبَّ نفس بالتذُّل عَزَّتِ

وقال آخر أذل نفسه بهجر اللذات:

صبرت على اللذات لما تولَّتِ وألزمت نفسي هجرها فاسْتَقلَّتِ
وكانت على الأيام نفسي عزيزةً فلما رأت صبري على الذُّلِّ ذلَّتِ

وقلت:

سَرابِيلُ المَهانةِ يرتَديهَا وَسِربالُ الجهاد يَحيدُ عَنهُ
فَلو في سِرْبِنا أعْطَوهُ ثَوباً مَن التَّقوَى إذنْ لاشتَقَّ منهُ
ومَن لَم يَكُن قَرْماً شديداً إذَا يَمشِي بمنْهَجِنا يَكُنْهُ

طريقة الشكر

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. اللهم إني أسألك من كل خير خزائنُه بيدك، وأعوذ بك من كل شر خزائنُه بيدك.

يمر المريد من حيث نوعيةُ معاملتِه مع الله سبحانه بثلاث مراحل، قد يقف عند واحدة منها لا يتجاوزها، وقد تُطوَى له طيّاً كما يحدث للمراد الذي تحمله القدرة الإلهية على رَفْرَف العناية واللطف فلا يعرف مجاهدة ولا مراحل ولا غيرها إلا بعد الوصول، فيرجع وبصيرته نيرة ليستوفي آداب الطريق ويطَّلِعَ على معالم التوفيق.

المرحلة الأولى يكون فيها المريد متقد الشِّرَّة، حاد الهمة، كثير الاعتماد على نفسه وكسبه. وهذه المرحلة تتناسب مع المجاهدة، يسير فيها السالكون بالجوارح والأشباح. والصبر والمصابرة خلقها. والاستقامة حُداؤُها.

المرحلة الثانية تفتُر فيها الشرة ويغيب شهود السّالِكِ قُوَّتَه، وينكشف له ضَعْفُهُ وعَجْزُهُ، فلا يجد مستعاناً إلا بالله الكريم الوهاب، ولا يعتمد إلا على جوده وتوفيقه وعطائه سبحانه. هذه المرحلةُ خُلُقُها الشكر، وحُداؤها الهدايةُ.

المرحلة الثالثة يتعاظم في قلب المريد حقُّ الله عز وجل، وتتضاءل في عينه نفسُه، ويتلاشى فيها ما كان معتبَرا من شؤون الخلق وأمور الدنيا، ويَحْقُر عنده كل ما كان ذا بالٍ غير الله. هذه المرحلة هي دهليز المعرفة ومقدمة تحقيق العبودية.

وطريقة الإمام الشاذلي رضي الله عنه تأخذ بتسليك المريد من المرحلة الأولى بأسرع ما يمكن ليتجاوزها إحساساً قلبيا دون التفريط في شيء من الطاعات ودون الإغراق في المجاهدة. المرحلة الأولى خطيرة لما تتضمنه من اعتداد النفس بما

عندها. وذلك نَوْعُ التفات عن باب الجود الإلهي. فإن طال بالمريد الـمُقامُ في هذه المجاهدة الملتفتة صعب عليه التخلص من مشاهدة حوْله وقوته، ولزم أن يكون حدَّاد نفسه كذا وكذا سنة. وكم من حداد نَفَخَ في كير المجاهدة ولم تَنْقدح له شرارة إِخلاصٍ فبقي مع نفسه يلاحقها وتلاحقه، ويخبِطُها وتَخْبِطُه.

في طريق المجاهدة، ويمكن القول بإجمال إنها أكثر ما وجدت في القرون الستَّة الأولى، كان الشرط الراجح في السلوك هو عمل المريد وَأوراده وتطريقه نفسه العصيَّة يضربها بصمصامة التوحيد ويقاتلها برماح مخالفتها. ويأتي شرط الصحبة كاللاحق المكمل.

في طريقة الشكر التي تتجلى في سلوك الصوفية منذ الإمام الشاذلي يترجح شرط الصحبة، وتحمل همَّة الشيخ وإشعاعه الروحي قلوب تلامذته حملا من مواطن الخطر وكأنه سفينة نوح عليه السلام.

تلك تجليات القدرة الإلهية على طالبي الحق المترشحين لمقامات الإحسان في عهد ما بعد النبوة والخلافة الراشدة. ابتلَى الله عز وجل من شاء من أوليائه بسلوك المجاهدة، ووسَّع على آخرين فشكروه. فتح لأصحاب المجاهدة في الآفاق الكونية كونـًا بعد كون، فجالت عيون قلوبهم في الأسرار والأنوار من عالَم الملكوت، وما منها كونٌ طالعه السالك إلا أغراه جمالُه وأسراره بِالـمُكث. ومن تولى شيئا غير الله لم يفُزْ بالله. فكم قتيل وجريح. وطوى لآخرين الـمَهيعَ فلم تَحُطَّ قلوبهم الرحالَ إلا عنده، ولم تبصر عيونها إِلا نورَه. فإذا التفتت تلك البصائر بعد مشاهدة أنوار الربوبية هان عندها كل شيء دون الله جلت عظمته.

والمرجو من كرمه عزت قدرته وتقدست حكمته أن يَحْبُوَ أَجْيال الخلافة الثانية بما حبا به مجاهدي الأولى من سلوك جهادي تُطْوَى لهم فيه المراحل ليفرغوا لإعادة بناء الأمة وتوحيدها، وتشييد صرح الخلافة، وحمل رسالة الإسلام إلى العالمين. ويكونُ الله عز وجل وكيلا عمن اشتغل بمصير الأمة وحمل الرسالة ليصلح شأنه الخاصَّ، ويرفع درجتهُ. حتى إذا اكتمل سلوكُه وبلغ الكتاب أجلَه واستوت نشأته

الثانية فتحَ لهُ ليجد نفسه في عِداد الواصلين، وقد سبق أهلَ المجاهدة بالجهاد، وسبق أهل الشكر بشكر العاملين كما سبق داود الشاكرُ بالعمل، خليفةُ الله في الأرض عليه وعلى نبينا وعلى إخوانهما جميعا أفضل الصلاة وأزكى السلام.

قال الإمام الشاذلي رضي الله عنه: «الناس على ثلاثة أقسام: عبد هو بشهود ما منه إلى الله، وعبد هو بشهود ما من الله إليه، وعبدٌ هو بشهود ما من الله إلى الله».[1]

قلت: الذي يشهَدُ ما يصدُر منه هو إلى الله عز وجل هو العابد والسالك المبتدئ على طريق المجاهدة. فقلما يشهد هذا القصورَ في أعماله. والذي يشهدُ ما من الله إليه هو الحاضر مع مِنَّة المولى، الشاكرُ للعطايا. والثالث هو العارف العبد الذي ينطق لسان حاله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وللعارف نصيبٌ من شهود المرحلة الثانية. قال الإمام أبو الحسن: «العارف من عرف شدائد الزمان في الألطاف الجارية من الله عليه، وعرف إساءة نفسه في إحسان الله إليه. ﴿**فَاذْكُرُواْ آلاء اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.[2]

وقال: «قليل العمل مع شهود المنَّة من الله خير من كثير العمل مع رؤية التقصير».[3]

قلت: إذا كانت رؤية تقصير العبد في أعماله محمودةً في حق العُبَّاد والمبتدئين، وكان الاستغفار من التقصير والخطإِ والعمدِ والزلَلِ محموداً، فإن التفات المرء إلى عمله، مع ملازمة الأمر والنهي، ولو برؤية التقصير فيه نوع اعتداد بذلك العمل. وهذا سقوط من المرتبة العلية التي يغلب فيها شهودُ المنة، شهود ما من الله إلى العبد، كلَّ اعتبار، ويغلب شكر المنعم على كل اهتمام.

وقد بلغ حرص الإمام الشاذلي في تربية تلامذته على التعلق الكامل المطلق بالفضل الإلهي أن كرَّه إليهم طريقة الزُّهاد والعُبَّاد التي لا تخلو من رائحة فتح حسابِ المتاجرة مع الله. يزهِّدهم فيها وإن كانت لائقة بعوام المؤمنين لما يريد لهم

(1) لطائف المنن، ص:304.

(2) الأعراف، 68.

(3) نفس المصدر، ص:305.

من معارج الكمال انتقالا من طلب ما عند الله مُقَايضةً بما عندك إلى طلب وجه الله منة منه وتفضلا. وهذا من باب: «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

قال رحمه الله: «خرج الزهاد والعباد من هذه الدار وقلوبُهم مقْفَلَةٌ عن الله».

وقال: «من لم يتغلغل في هذه العلوم مات مُصِرّاً على الكبائر وهو لا يعلم»[1]. يعني رحمه الله علم رقائق المعاملة القلبية مع الله عز وجل، وعلمَ آداب العبودية، وعلم الشكر على المنة.

قال كبير تلامذة أبي الحسن، ووارثُ سره، وخليفته من بعده أبو العباس المُرسي رضي الله عنه: «دخلت على الشيخ أبي الحسن وفي نفسي أنْ آكلَ الخَشِنَ وألبَسَ الخَشِنَ، فقال لي الشيخ: يا أبا العباس! اعرف الله وكن كيف شئت».[2]

ودخل مرة على الشيخ أبي الحسن فقيرٌ زاهد عليه لباسٌ من شعر، وعلى الشيخ لباس نظيف. فلما فرغ الشيخ من كلامه دنا الزاهد منه وأمسك بلباسه وقال: يا سيدي! ما عُبِدَ اللهُ بمثل هذا اللباس الذي عليك! فأمسك الشيخ بلباسه، وكان ضريرا كما قدمنا، فوجد فيه خشونة فقال: ولا عُبِدَ اللهُ بمثل اللباس الذي عليك! لباسي يقول: أنا غَنِيٌّ عنكم فلا تعطوني! ولباسك يقول: أنا فقير إليكم فأعطوني.

ويلطف الشيخ ابن عطاء الله، وهو كبير تلامذة أبي العباس المرسي، العبارة فيقول رحمه الله: «لا تفهم رحمك الله أنَّا نَعيب بهذا القول من لبس زِيَّ الفقراء، بل قصدنا أنه لا يلزم كلَّ من له نصيبٌ مما للقوم أن يلبس ملابس الفقراء، فلا حرج على اللابس ولا على غير اللابس إذا كانَا مُحْسِنَيْنِ».[3]

قلت: كانت خُطْوةً مهمة خطاها الشاذلي وأساتذة مدرسته من بعده للخروج بالتربية الصوفية من الانغلاق والانزواء والتقشف. لذلك كان يُوصي الأتباع بملازمة المظهر العام في اللباس وبملازمة الحرفة والأشغال اليومية العادية من حيث كان

(1) لطائف المنن، ص:309.

(2) نفس المصدر، ص:291.

(3) نفس المصدر، ص:292.

مِنَ المشايخ، ولا يزالون بالأسف، من يشترط على المريد الخروجَ من المجتمع والتجرد المادي من الدنيا وتكاليف البيت. هنا تُعَلِّمُ طريقة الشكر أن القلبَ إذا تجرد عن الدنيا، وتجردُهُ من حجاب حبِّها شرط في السلوك، فلا يضر بل ينفع السعي المطمئن فيها رعيا لحقوق العباد وشكراً لِنعم المولى جل وعلا.

قال ابن عطاء الله الحكيم رحمه الله: «وأما لبس اللباس اللين، وأكل الطعام الشهي، وشُرْبُ الماء البارد، فليس القصد إليه بالذي يُوجِبُ العتب من الله تعالى إذا كان معه الشكر لله.

«وقد قال الشيخ أبو الحسن: يا بُنَيَّ! بَرِّدْ الماء، فإنك إذا شربت الماء السَّخِنَ فقلت: «الحمد لله» قلتها بِكَزَازَةٍ. وإذا شربت الماء البارد وقلت: «الحمد لله» استجاب كلُّ عضو منك بالحمد لله».[1]

وكان أبو الحسن رحمه الله يحُثُّ على الحرفة والكد على العيال ويقول: «من فعل ذلك وقام بفرائض ربه عز وجل فقد كمُلت مجاهدته».

هذه خطوة مهمة من دُنْيا التَقَشُّف الإرادي والزهادة ومقاتَلة النفس. لخَّصَ الشيخ رحمه الله المجاهدة تلخيصا حين أرجعها إلى وفاء العبد بفرائض الرب جل وعلا مع العمل المنتج النافع لعيال الله في الأرض وعيال نفسه.

ويوصي أبو العباس المُرسي رحمه الله باتخاذ أسباب الكسب والحرفة لكيلا يبقى المرء طفيليا أو كالطفيلي، عالةً على الناس كما يفعل بعض المتزهدة وبعض حاملي المسبحات الغليظة. قال أبو العباس: «عليكم بالتسبب، ولْيَجْعَلْ أحدكم مَكُّوكَه سُبْحتَه، أو قادومَهُ سبحتَه، أو تحريك أصابعه في الخياطة أو الضَّفْر سبحته».

وقال مخالف له يوصي بالعزلة لا يرى الخلاص في غيرها:

رأيت الانقباض أجلَّ شيء ... وأدعى في الأمور إلى السلامة
فهذا الخلق سالِمْهُمْ ودعهم ... فخلْطتهم تقود إلى الندامة

(1) لطائف المنن، ص:292.

ولا تعبأ بشيء غيرَ شيء يقودُ إلى خلاصك في القيامة

وقال متمتع فرح بمرقعته:

أنا في حاليَ الذي قد تراه إن تفكرت أحسَنُ الناس حالا
منزلي حيثُ من مستقر الأ رض أُسْقَى من المياه الزُّلالا
ليس لي كسوة أخاف عليها من مُغِير ولا ترى لِيَ مالا
ليس لي والدٌ ولا لِيَ مولـ ـود ولا حُزْتُ مُذْ خُلِقْتُ عِيالا
أجعل الساعِدَ اليمينَ وسادِي ثم أَثْنِي إذا انقلبتُ الشِّمالا
قد تمتعت حِقْبَة بأمور لو تدبَّرتَها لكانت خَيالا

وقلت:

أَلَبِّيكَ ربِّي بقلبٍ شَكورٍ لِترْفَعَ عنِّي حجابَ السُّجوفْ
أَلبيك ربي، لا مَكْرَ مَنْ تَولَّى فخرَّتْ عليه السُّقوفْ
بِصدْقِ الجِهادِ تُثيبُ العبيدَ اهْتِداءَ السبيل وقَهْرَ الحُتوفْ

المهدوية

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة، والنجاة من النار.

قام المشايخ الصوفية، خاصة الأواخر منهم، على ثغرة من ثغُور المسلمين هي الدخول على «الظلَمَة»، كما كانوا يُسَمون الحكام، من أجل قضاء حوائج المسلمين والشفاعة في المظلومين والمحرومين وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من براثِنِهم. فتقرأ في تراجم الأولياء كيف كان أحدهم يحافظ على وُدِّ الحاكم رغم اعتقاده بفساده، وكيف يصانعه لكيلا يكدِّر خاطرَه، وكيف يحتاط ويستعمل أساليب اللف والدوران والدبلوماسية لكيلا يأكلَ من طعامه ولا يقبلَ منه هدية.

هذه الظاهرة كانت أبرز ما تكون في مصر المملوكية وعند سلاطين العجم الذين كانوا يخافون أن يَدْعُوَ الأولياء عليهم، ويرجون من بركاتهم. وأحيانا يُصبح الشيخ الصوفي صاحب الكلمة المسموعة عند السلطان كما كان أبو الفتح نصر المنبجي غريم ابن تيمية رحمهما الله في بلاط الجاشنكير، وكما كان الشيخ أبو الهُدَى الصيادي الرفاعي عند السلطان عبد الحميد رحمهما الله، إذ كان أبو الهدى أكثر من وزير، كان شريكا لعبد الحميد العثماني في محاولاته الترميمية للدولة العثمانية. كان الصياديُّ وأمثالُه يعملون لخدمة الإسلام مع المحافظة على النظام القائم.

ومن المشايخ الصوفية من حمل السلاح مع أتباعه، وسمى نفسه مهديا. من هؤلاء المهديين من نجح في خطته فأسس دولة. ومنهم من ترك في التاريخ صدىً طيبا وأسدى للأمة خدمات جليلة.

يشترك أهل السنة والجماعة مع إخوانهم الشيعة في ترقب ظهور الإمام المهدي المنتظر. للشيعة الاثناعشرية اعتقادهم الخاص، يعتبرون الطفل محمد بن الحسن العسكري الذي غاب في سن الخامسة إمامَهم الثاني عشر. ويعتقدون أنه لا يزال حيا إلى أن ينزل آخر الزمان.

وسندنا نحن في ترقُّبِ الإمام المهدي ما تواتر من أحاديث بشأنه، تبلغ العشرات عدا، منها ما هو ثابت صحيح مثل ما رواه الحاكم وصححهُ ووافقه الذهبي، وأنت تعلم من هو الحافظ الذهبي تشددا، بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج في آخر أمتي المهدي. يسقيه الله الغيثَ، وتُخْرِجُ الأرض نباتَها، ويُعطى المالَ صِحاحاً وتكثر الماشية، وتعظُم الأمة. يعيش سبعا أو ثمانيا. يعني حِجة».

إذن فظهور الإمام المهدي، عندنا وعندهم، خبر يقين. وظهرَ من الجانبين «قائمون» ادعوا أنهم المهدي. فمنهم عبيد الله الذي انتسب إلى سيدتنا فاطمة رضي الله عنها وأسس الدولة الفاطمية الباطنية في مصر. وأمثال محمد بن عبد الله المعروف بابن تومرت الذي وَضع الأساس لدولة الموحدين في المغرب. وهو رجل اختلف الفقهاء فيه مع المؤرخين: المؤرخون يُوَثِّقون أن الدولة الموحدية أعظم دولة ظهرت في شمال إفريقيا، ووحَّدت البلاد، وأبْلَت البلاء الحسنَ في الدفاع عن الأندلس. والفقهاء، منهم ابن تيمية والشاطبي، يحملون حملة شعواء على الرجل وعقيدته. وإذا علمنا أن ابن تومرت اتهم المرابطين، وهم أرباب الدولة التي حاربها وهزمها، بأنهم مجسمة، وعلمنا أن ابن تيمية نفسه كان يقول بالجهة فألزمه خصومه القول بالتجسيم، أمسكْنَا بخيط لتفسير عدائه لابن تُومرت ومذهبه.

هؤلاء الزاعمون أنهم المهدي يقوم أحدُهم فيجد أنه من آل البيت، أو ينتحل نسبا فيهم ويجد أن اسمه محمد بن عبد الله، اسم النبي ﷺ واسم أبيه، فيستند إلى الأحاديث القائلة بأن المهدي «اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي»، ويعلن ثورته بعد أن يجمع الجموع حشدا كما فعل «المهدي» السوداني، أو بعد أن ينظمها تنظيما عسكريا ودعويا محكما كما فعل ابن تومرت.

ولِفُشُوِّ ظاهرة المدعين للمهدوية في تاريخنا كان الأشْرَافُ تُراقِبُهم السلطة القائمة. فإذا ظهر شريف صوفيٌّ واجتمع عليه الأتباع أصبح العدوَّ الذي لا يُنقِذُه من بطش الحاكم إلا فرارهُ أو كرامةٌ تَقْرَأُها في كتب المناقب.

لما استوطن أبو الحسن الشاذلي رحمه الله في تونس، قبل مجيئه إلى مصر، اجتمع عليه خلق كثير. فغار قاضي الجماعة ابن البَراءِ على سلطته العلمية وشعبيته. فوَشَى بالشيخ إلى السلطان أبي زكرياء، قال: «إنه يدَّعي الشرف. وقد اجتمع عليه خلق كثير ويدعي أنه الفاطمي (أي المهدي)، ويشَوِّشُ عليك بلادك».

قال الراوي، ونحن نصدق بكرامة الأولياء: فلما حَبَسَ الملكُ الشَّيخَ عن الخروج من القصر لم يلْبَثْ أن توجه الشيخ إلى الله تعالى فماتت جارية الملك وشبَّ الحريق في القصر فأتلف كنوزا وذخائر.

ومثل هذا، من وقوع الكرامة وخوف الحكام من المشايخ، ما وقع لأبي الحسن بعد رحيله إلى مصر حيث لاحقَته وشايَةُ ابن البراء. فلما جاء الشيخ إلى السلطان يستشفع لردِّ مظلَمة على «القبائل» أبَى السلطان وهدَّدَ الشيخَ. فقام الشيخ وتَجَمَّدَتْ أعضاءُ السلطان حتى ردّوا أبا الحسن واسترضَوْهُ. فمسح على السلطان فقام وأمْضَى الشفاعة.

جانب الغيب والكرامة كان باعثا مُهما جِدّاً في إنهاض القائمين الزاعمين أنهم المهدي، مُهِمّاً في جَمع الناس حوله. آخرُ مظهر للمهدوية دخولُ جماعة مع «محمد بن عبد الله» المسجد الحرام في مطلع القرن الخامس عشر مسلَّحين ليبايعوا صاحبهم بين الرُّكن والمقام عند الكعبة كما جاء في بعض الأحاديث أن المهدي يفعل ذلك. وكانت مجزرة وطِئَ فيها الأنجاس من فِرَقِ التدخل الفرنسي تلك البُقعة المقدسة.

ويعطي الإيمانُ بصلاح القائم جموعَ أتباعه شجاعةً لا تقاوم. روى أبو نعيم في الحلية أن الإمام محمداً الباقر، أبا الإمام جعفرٍ الصادق وأخا القائم العظيم الإمام

زيد بن علي، قال: «إن الله يُلْقي في قلوب شِيعتِنا الرعْبَ، فإذا قام قائمُنا وظهر مهدينا كان الرجلُ أجْرَأَ من الليث».

وتأمل مصداقَ قوله رضي الله عنه وعن آل البيت أجمعين في خمود الشيعة القروني وفي هبَّتِهم الـمُذْهلة على نداء الإمام الخميني وشجاعتهم وتسابقهم إلى الاستشهاد في حرب إيران مع حزب البعث العربي في العراق، تنصر العراقَ كلُّ قوى الشَّرِّ في العالم.

كانت الكرامةُ والإيمانُ بالغيب تأييدا من الله عز وجل حاضرا في حملة الإمام الصوفي أحمد بن عرفان رحمه الله في البنْجاب، وفي جهاد خلفائه من بعده المنتمين جميعا إلى الطريقة المجدِّدية التي أسسها الشيخ أحمد السرهندي رحمه الله المجاهد العظيم الذي لا نبالغ نُقْطَةً إن قلنا بأن بقاء الإسلام في الهند يرجع فضله إلى الله عز وجل ثم إلى وقفته الفريدة في وجه الطاغية «أكبر».

وكان الكشفُ والكرامة والغيبُ سدى قومة المهدي السوداني ولُحمتها. فإنَّه بعد أن سلك طريقة القوم على يد شيخه محمد شريف القادري السمّاني مَشْرَبـًا، جمع الناس حوله حتى قوِيَتْ شَوْكَتُهُ ودعا الناس إلى قتال الأنجليز حلفاء السلطة المصرية الحاكمة المبْغَضَة. خالَفَه شيخُهُ في الرأي ونهاه، وأصر هو على مشروعه الجهادي.

وكان هذا الـ «محمد بن عبد الله» نموذجا للقائم «المهدي». يرى أحدُ الصوفية رؤيا منام أو تَجلِّيـًا في اليقظة يبشره بأنه إمام وبأنه مهدي. فبعضُ الصوفية يَعتبر مقام المهدوية مرتبة في السلوك مثل مرتبة البدلية أو القطبية. وبَعضُهم لا يؤوِّل ولا يُحوِّلُ، وإذا كان اسمه محمد بن عبد الله قام ليفعل الله في ملكه ما يشاء.

قال المهدي السوداني: «أتانى من الحضرتين، النبوية وحضرة الأقطاب، سيفٌ. وقد أُعْلِمْتُ أنه لا يُنْصَر على من معه أحد. ومن أتانا بعداوةٍ يأخذه الله إما بالخسف أو بالغَرَق».[1]

(1) الفكر الصوفي في السودان، ص:99.

وقال: «وقد جاءني في اليقظة سيدُ الوجود ﷺ ومعه الخلفاء الراشدون والأقطاب والخضر عليه السلام. وأمسك بيدي ﷺ، وأجلسني على كرسيِّه، وقال لي: أنت المهدي المنتظر ومن شك في مهديتك فقد كفر».[1]

الأحداث التاريخية وحدها تَعنِي المحلل الوضعي الذي يدفع بالرؤى والتجليات إلى ركن الإهمال مع الخرافيات. وتعني الأحداث وحْدَها العلماء المصلحين مثلَ الأفغاني ومحمداً عبده اللذين راقبا انتصارات المهدي الباهرة من باريس، ثم حاول عبده اللحاق به فلم يستطع. ولعل بعضَ رؤساء القبائل الذين بايعوا المهديَّ لم يكونوا يُعَلِّقُون كبير أهميَّةٍ على الجانب الغيبي حين قالوا له: «نبايعك ولو لم تكن مهديا».

لكننا، ونحن نتحدث عن السلوك الصوفي ونرجو لنا ولمن بعدنا سلوكا جهاديا، تُهِمُّنَا الفاعليَّة في التاريخ بقدر ما تهمنا علاقتُها بالغيب.

ويلخص ما بين صوفية المسالَمةِ والمهادنة وما بين مهدي السيف من خلاف قول الشيخ محمد شريف في تلميذه المهدي:

لقد جاءني في عام «زع»[2] لموضع ... على جبل السلطان في شاطئ البحر
يروم الصراط المستقيم على يدي ... فبايعتُه على النَّهي والأمر
فقام على نهج الهداية مخلصا ... وقد لازم الأذكارَ في السر والجهر

(...)

وقال: أنا المهديّ! قلت لهُ: استقم! ... فهذا مقام في الطريق لمن يدري
وقلت له: دع ما نويتَ فإنه ... وتالله شَرٌّ قد يجُر إلى الخُسْر
وأوحى له الشيطان: بَشِّرْ ولا تَخَفْ ... فإنك منصور على البر والبحر
أكاذيبُ أبداها، فمنها عن النبي ... ومنها من المولى ومنها عن الخضر

---

(1) الفكر الصوفي في السودان، ص:102.

(2) عام زع بحساب الجمل هو عام 77 أي عام 1277 للهجرة.

قال رجل صالح يترقب من الرؤيا شأنَه الخاص:

إلهـيَ أرجـو العفـوَ منـك تكرُّمـا　　فإنـك مولـىً لا تُخَيِّـبُ عبدكـا
فيا ليت بُشْرَى لـو أتتنيَ في الكرى　　فأعلم منهـا كيـف حـاليَ عندكـا

وقال مصدق بالكرامات مثلما يصدق المؤمنون:

لا ينكـر الخـرقَ للمعتـاد ذو بصـر　　بالعقـل والشـرع للأبـدال في البَشـر
والطـيُّ لـلأرض معلـومٌ تواتـره　　والنَّصُّ في ذاك في الفرقـان والأثـر
وعـرش بلقيـس برهـان يـدل بـه　　على سـواه رجـالُ الفكـر والنظـر
والطَّـيُّ قـد جـاء للدجـال مشتـهرا　　يطـوي البسيطـة في أشياعه الفُجُـر
هـذا وحالتُـه كُفـرٌ ومعصيـة　　فكيـف حـال رجـال الفكر والحـذر!
فسـلم الأمـر تخفـى عنـك غايتُـه　　من لَـم يَرِدْ ليس يدرِي لـذةَ الصَّـدَر
إن لـم تُعايِـن مقامـاتٍ سـمعت بهـا　　فـلا أقـلَّ مـن التصديـق بالخَبَـر

وقلت:

وَاخَيْبتـي إنْ دَخلـتُ صَفّـًا　　أزعـم للنفـس مـا تمنـى
مِـن أنَّنـي فـارسٌ شُجـاعٌ　　يَقتَحـمُ المـوتَ إنْ تسنَّـى
ثُـمَّ أولِّـي الأدْبـارَ ركْضـًا　　إذا سَـمعْتُ الذُّبـابَ طَنَّـا

جهاد في الفتنة

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. اللهم إني أسلمتُ نفسي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، وخليْت وجهي إليك، لا ملْجأ ولا منجا منك إلا إليك. آمنت بنبيك الذي أرسلت، وبكتابك الذي أنزلت.

إذا كان أسلوب الصوفية في التعامل مع الحكام والظلمة هو الترفُّق والتوسُّط لقضاء حوائج المسلمين وإغاثة الملهوفين ودرء الجَوْر عن المساكين فإن الغالب على العلماء العاملين تجاه العامة والخاصة وتجاه الحكام هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

انتسب للصوفية خوَنَة باعوا دينهم بدنْيا غيرهم سماهم ابن تيمية «خفراء الظلمة» وحاربهم، كما انتسب إلى العلم وأهلِه خونَةٌ من علماء القصور وديدانِ القُراء كما سماهم الرسول ﷺ. الصنفان من الخونة هم الاستثناء وإن كان في عددهم كثرةٌ كما يتكاثر الذباب على النجاسات. وإنما انتشر الدين وحفظهُ الله تبارك وتعالى على يد الصادقين من الطائفتين. لكل من الصوفية الصادقين والعلماء المخلصين أسلوبُه في معاملة الخاصة والعامة. ولكلٍّ طريقتُه في التربية والتعليم والاختلاط مع الشعب في مجالس الذكر والوعظ. فبتلك الجهود التربوية التعليمية تعلم الناس الإسلام والإيمان والإحسان.

علمنا أن الشيخ الصوفيَّ أحيانا يكون فقيها كبيرا وأن العالم الكبير يكثُر أن يتتلمذ لشيخ يربيه. لوجود هذا الاشتراك في التكوين نَجِدُ أن العلماء والصوفية، إلا ما كان من «قائم» أو «مهدي»، كانوا محافظين سياسيا، يرون أن استمرار الأمر الواقع والحاكم الغالب المستولي خير من الفَوْضَى، وشوكةٌ لصد العدوان الخارجي.

وقد لقينا في فقرة سابقة عز الدين بن عبد السلام يقرأ رسالة القشيري في خيمة بمدينة المنصورة مع الشيخ أبي الحسن الشاذلي وثلَّةٍ من العلماء رحمهم الله، ويخرجُ بعد سماعه كلام الإمام الشاذلي يصيح: «هلموا إلى كلام حديث العهد بربه!». ما جاء أولئك الطاهرون إلى المنصورة ليقرأوا الكتب، لكن جاءوا مع جيش الظاهر بيبرس يَعِظُون الجيش ويشجعونه بحضورهم. وكان للمسلمين بقيادة السلطان المملوكي ومشاركة العلماء الأئمة النصر المبين في واقعة المنصورة المشهورة التي سُحِقَ فيها الجيش الصليبي في حملته السابعة، وأسِرَ قائدُه لويس التاسع ملك فرنسا.

وقد استشهدنا في هذا الكتاب مرارا بكلام سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام. ولا يَعْرِفُ قيمة كلامه إلا مع عرف من هو العز بن عبد السلام رحمه الله وما هو نوع جهاده.

كان إمامَ عصره بلا مدافعة، وعُرِفَ في الأمة أنه «القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». يكفي لمعرفة جلالة قدره أن الحافظ المنذري رحمه الله عالم مصر وزاهدها كان مفتي مصر، فلما رحل إليها العز بن عبد السلام امتنع المنذري رحمه الله عن الإفتاء وقال: «كنا نُفتي قَبل حضور الشيخ عز الدين. وأما بعد حضوره فقد تعيَّنَتْ الفُتْيَا عليه».[1]

هذا الجبلُ العَلَمُ من الرجال الذي لقَّبَه عالم المسلمين ابن دقيق العيد رحمه الله «سلطان العلماء» كان رجلا شعبيا متواضعا للعامة منقاداً للمشايخ الصوفية. وقد أخذ الطريقة عن الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي رحمه الله كما قرأنا في الفصل الأول من هذا الكتاب. لكنه كان شَجىً في حلق الحكام، لا يسكت عن منكر أبدا. وله مع سلاطين عصره مواقفُ هي معيارٌ مثاليٌّ لجهاد العلماء في الفتنة.

سبب خروجه من دمشقَ إلى مصر هو أن سلطان الشام إسماعيل ابن أخ عظيمِ ذلك العصر صلاح الدين الأيوبي تحالف مع الفِرَنجة ليساعدوه على قتال ابن أخيه الحاكم في مصر نجم الدين، وأعطاهم حصونا من حصون المسلمين منها مدينة صيدا ومدينة الشقيف، وسَمح لهم بالدخول إلى دمشق وشراء الأسلحة منها.

(1) طبقات الشافعية، ج 5، ص:81.

خيانة فاضحة ما هي أول خيانات حُكْمِ الصبيان الوراثي الذي كان يستعيذ من زمانه أبو هريرة رضي الله عنه لِمَا علَّمَه الرسول ﷺ من علم ذلك. جمَع صلاح الدين رحمه الله الرحمة الواسعة شملَ الأمة جمعا شاقّاً وجاهد جهادا شاقا. لكن استخلافهُ غفر الله له لبنيه وإخوته وأسرته كان من بعده سببا لشقاق أمثال إسماعيل ونفاقهم. وإن الجهاد المطلوب لهو جهاد يضع حدّاً نهائيا لحكم العض والجبر وباء هذه الأمة. وما على صلاح الدين، رجلنا العظيم، من ملام، فلم يكن ليُبطل في جيل واحد أعراف عصره وما كان الحكم مَبْنِيّاً عليه من عصبيات.

وانبرى سلطان العلماء لحرب الخائن، فأنكر فعلته وترك الدعاء له في الخطبة. وكان يقول في خطبته: «اللهم أبْرِمْ لهذه الأمة إِبْرامَ رُشْدٍ تُعِز فيه أولياءك، وتذل فيه أعداءك، ويعمل فيه بطاعتك، ويُنْهَى فيه عن معصيتك».

واعتقل الحاكم الظالم الشيخ في خيمة إزاء الخيمة التي كان يُفاوض فيها الأعداء الفرنجة. وقال لهم مقالة كلِّ زنيم دخيل على الأمة: «جدَّدْتُ اعتقاله وحبسه من أجلكم». فلما قصَّ على الأعداء موقف العالم الشجاع قالوا: «لو كان هذا قِسِّيسَنا لغسلنا رجليه وشربنا مَرَقَتَهُمَا!».[1]

وبعث إسماعيل للشيخ رسولا «فأخذ في مسايسته وملاينته ثم قال له: بيني وبينك أن تعود إلى منصبك وما كنت عليه وزيادَة على أن تنكسر للسلطان وتُقَبِّل يده لا غير. فقال له: «والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي فَضلا عن أن أقبل يده! يا قوم! أنتم في وادٍ وأنا في واد. والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به».

ورحل العالم الجليل إلى مصر فكان له فيها من الأعمال الصارحة والمواقف الرابحة ما تعطَّر بأخباره تاريخ أهل العلم.

قال التاج السبكي: «التتار لما داهموا البلاد عُقَيْبَ واقعة بغداد (قلت: وهي الكارثة العظمى سنة 656) (...) جَبُنَ أهل مصر عنهم، وضاقت بالسلطان (المملوكي قُطُزَ) وعساكِره الأرضُ، واستشاروا الشيخ عز الدين رحمه الله. فقال:

(1) طبقات الشافعية، ج 5، ص:101.

اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر. فقال السلطان له: إن المال في خزانتي قليل، وأنا أريد أن أقترض من أموال التُّجار. فقال له الشيخ عز الدين: إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحُلِيِّ الحرامِ، وضربته سِكَّةً ونقْدا، وفرقته في الجيش، ولم يقم بكفايتهم، عند ذاك اطلب القرض. وأما قبل ذلك فلا.

قال: «فأحضر السلطانُ والعسكرُ كلهم ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ. وكان الشيخ له عظمة عنده وهيبة، لا يستطيعون مخالفته. فامتثلوا أمره».[1]

قلت: وكانت واقعة عين جالوت التي هزم الله فيها جيش الكفر على يد شوكة الإسلام المملوكية. وهي واقعة تاريخية مجيدة، ما كان أحد يظُن أن الجراد المغوليّ ترده مقاومة. وقتل بيبرس السلطانَ قُطُزَ أثناء المعركة وتسلطن مكانَه، وقاد الجيش للنصر. عجائب ومتناقضات هي من لوازم الفتنة وأوصافها.

وكان لسطان العلماء موقفٌ آخر يكتب بمداد الخلود من الأمراء المماليك الأتراك. قال ابن السبكي رحمه الله: «لم يثْبُتْ عند الشيخ أنهم أحرار. وثَبَتَ لديه أن حكم الرِّقّ مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين. فبلغهم ذلك، فعظم الخطبُ عندهم فيه، واحتدم الأمر، والشيخ مصمِّمٌ لا يصحح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا. وتعطلت مصالحهم بذلك.

«وكان من جملتهم نائب السلطنة، فاستشاط غضبا. فاجتمعوا وأرسلوا إلى الشيخ. فقال: نعقد لكم مجلسا (للمزاد العلني) وننادي عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصُل عتقكم بطريقٍ شرعيٍّ.

«فرفعوا الأمر إلى السلطان، فَبعث إليه فلم يرجع، فجرت من السلطان كلمة فيها غلظةٌ،حاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر، وأنه لا يتعلق به.

قال: «فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار، وأركب عائلته على حميرٍ أُخْرَى، ومشى خلفهم خارجاً من القاهرة قاصدا نحو الشام.

(1) طبقات الشافعية، ج 5، ص:83.

«فلم يصل إلا نحو نصف بريد (بضع كيلومترات) إلا وقد لحقه غالب المسلمين. لم تكد امرأة ولا صبيٌّ ولا رجل لا يُؤْبَهُ به يتخلف، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنْحاؤُهم.

«فبلغ السلطانَ الخبرُ وقيل له: متى راح الشيخ ذهب ملكُك. فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيَّب قلبه.

«فرجع الشيخ، واتفقوا معه على أنه يُنادي (بالمزاد العلني للبيع) على الأمراء. فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة، فلم يُفِدْ فيه. فانزعج النائب وقال: كيف يُنَادِي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض. والله لأضربَنَّه بسيفي هذا!

«فركب بنفسه في جماعة، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلولٌ في يده. فطرق الباب، فخرج ولد الشيخ، أظنه عبدَ اللطيف، فرأى من نائب السلطنة ما رأى. فعاد إلى أبيه وشرح له الحال.

«فما اكترث لذلك الشيخ ولا تغيَّر. وقال: يا ولدي! أبوك أقل من أن يُقتَل في سبيل الله. ثم خرج كأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطنة».

قلت: كيف لا يُصْعَقُ نائب السلطنة من مشهد رجل منوَّرِ القلب بنور الله!

قال رحمه الله: «فحين وقع بصره على النائب يبسَتْ يدُ النائب، وسقط السيفُ منها، وأُرْعِدَتْ مفاصله. فبكى وسأل الشيخ أن يدعُوَ له. وقال: يا سيدي! خَبِّرْ! أي شيء تعملُ ؟ قال: أنادي عليكم للبيع وأبيعكم. قال: ففيم تصرف ثمنَنَا ؟ قال: في مصالح المسلمين. قال فمن يقبضهُ؟ قال: أنا. فتَمَّ له ما أراد، ونادى على الأمراء واحدا واحدا، وغالى في ثمنهم، وقبَضه وصَرَفَه في وجوه الخير. وهذا ما لم يُسمع بمثله من أحد. رحمه الله ورضي عنه».[1]

قال غريب فريد انفراد العز ونُدْرةَ مثله بين الرجال:

أصبحتُ فيمن له دين بلا أدبٍ ومن له أدبٌ عارٍ عن الدين

(1) طبقات الشافعية، ج 5، ص:84.

أصبحتُ فيهم فقيد الشكل مُنفردا كبيتِ حسانَ في ديوانِ سَحْنون

وقال جبان لا تتطلع همته لمثل تلك المعالي:

ذَريني تَجِئْني ميتتي مطمئنَّةً ولم أتَجَشَّم هَوْلَ تلك الموارد
فإن عُليَّات الأمور مشوبَةٌ بمستودَعَاتٍ في بُطُون الأسَاوِد

وقال رجل أمله أن يُقتَل في سبيل الله عز وجل:

روحي إليك بكُلِّها قد أجمَعَت لو أنَّ فيك هلاكها ما أقْلَعَتْ
تبكي إليك بِكُلها عن كلها حتى يُقال: من البكاء تقطعت
فانظر إليها نظرة بتعطُّف فلطالما متعْتَها فتمتعت

وقلت:

تهدَّلَت الرُّؤوسُ مُنكَّساتٍ يُروِّضهُنَّ بالتَّهديدِ نِكْسُ
فقام هِزَبْرُنا صِدقاً وعَدْلاً كأنَّ سُراهُ لِلمَيدَانِ عُرسُ
وقوَّضَ من زَريبتهم حُصوناً وأصبَحَ جَمعُهمْ في «هل تُحِسُّ»[1]

(1) إشارة إلى قوله تعالى في آخر مريم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾.

هوية إحسانية

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم، والقسوة والغفلة والعيلة والذلة والمسكنة. وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق، والشقاق والنفاق، والسمعة والرياء. وأعوذ بك من الصمم والبكم، والجنون والجذام، والبرص وسيئ الأسقام.

عندما استعمرت بريطانيا الهند انبثقت عبقرية اللورد ماكولي الفيلسوف المشهور عن مخطط تربوي وضعه لتنشئة أجيال هندية ممسوخةِ الهوية. وحيثما حل الاستعمار وضع مخططاً له نفس الأهداف معلنة أو مطوية، لا يضير طيُّها ما دامت النتائج المتوخاة تحصل. فلما انسحب الاستعمار من بلاد المسلمين تبنّى الحكَّام، وهم النخبة المثقفة التلميذة للمخطط التربوي الاستعماري، روح المنهج الماكولي وإن نوَّعوا العبارة والصيغة والجسم.

قال اللورد ماكولي في ديباجة منهجه التربوي: «هدفنا أن نُكَوِّنَ طبقة يكون منها تراجمة بيننا وبين الملايين التي نحكمها. طبقةٌ من أشخاص هنود بالدم واللون، لكن إنجليز بالمهمة والآراء والأخلاق والفكر».

قلت: لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار وجود هذه الطبقة من التراجمة عن الفكر الأوربي والأخلاق الأوربية والآراء والمذهب في الحياة في تخطيطنا لتربية منقذة مجدِّدة، وفي بحثنا عن الهوية الإحسانية الإيمانية الضائعة، بل الكامنة لا تزال وإن أصبح منهاجها ووصفها والطريق إليها غامضا على العقول المغزُوَّة.

طبقة العلماء لا تزال تنجبُ بحمد الله أمثال يونس خالص وسياف وإخوانهما المجاهدين في أفغانستان وغير أفغانستان، والصوفية أنجبوا في هذا القرن عمر المختار وجيشه، والبنا وجماعته، وأبا الحسن الندوي وموقفه وفكره وجهاده الحكيم.

إلى جانب العلماء والصوفية، بما لهم وما عليهم، توجد «النخبة» المثقلة المغرَّبة المترجمة عن الجاهلية، التي ولدت ولا تزال تلد أمثال مصطفى كمال وجمال عبد الناصر وبورقيبة، ولا تزال هي الماسكة لدواليب الدولة، القادرة في زعمها وحدَها من دون طبقة العلماء وطوائف الصوفية على تسيير شؤونها وعلى فهم العصر ومتطلباته. ومن لم يكن مُغرَّباً ماسخا للهوية من بين المتعلمين في المدارس العصرية فهو مائل مع المائلين، منبهر مع المنبهرين، بالحضارة الصناعية التقنية المنتجة، يبتلع دون شعور ولا سؤال فلسفة الغرب مع ما يبتلع من مُنتجاته الصناعية. نَحتفظ بنعت الصناعة المتطورة أنها غربية وإن كانت الحقيقة أنها من سنَةٍ لسنَةٍ ترحل عبقريَّتُها وتهاجر إلى اليابان وكوريا الجنوبية وتلك الأصقاع من جنوب المحيط الهادئ. وإلى الصين.

المغربون التراجمة هم بنو جلدتنا، من لحمنا ولوننا، والحوارُ معهم يتحتم ولو طال. والأيام تعلمهم أنهم زبد على سطح الأمة يوشك أن تذهب به أمواجُ الأحداث جُفاءً. ويعبِّر لسان حالهم، بلغتهم المغَرَّبة وقلوبهم الـمُخرَّبة، عن إفلاسهم بأنهم يراهنون على فرس خاسر إن هم تمادوا بعد هزائمهم السياسية في ترديد عقيدتهم الاشتراكية أو «لا عقيدتهم» اللبرالية.

هذه «النخبة» جادة الخطوات في ارْتداء رداء الإسلام لِما ترى من كون الإسلام وصحوته هو كلمةَ هذه الحِقبة من تاريخنا، وهو أفقَ المستقبل. هو، بلغتهم المجروبة المخروبة، الورقةُ الرابحة. حتى القوميون منهم لبسوا مظاهر الإسلام كما تلبس الذئاب الثياب، فرأى الناس البعثيَّ صدام حسين على التلفزيون ناسكا مصليا، وأمسك بالـمُصحف في حجره على الصور اليومية التي تنشرها الجرائد. حدث هذا التحول فَجْأَةً إِثْرَ عدوان صدام المنافق على الثورة الإسلامية بإيران.

وسمعتُ بالأمس على المذياع قصائدَ طنانة ترثي عبد الناصر وتبكي فيه حاميَ الإسلام وفخر الإسلام وبطل الإسلام. ولا كلمة واحدة في مراثي التزوير عن العروبة المهزومة بقيادة عبد الناصر في سيناء.

هذه «النخبة» المُجَيَّحَةُ عن الإسلام تحتاط اليوم لنفسها، وتنحاز شيئا فشيئا إلى إعلان «عطفها» وقبولها لإسلام «أصوليٍّ» لا يكون «متطرفا» ولا يكون للغرب وقواه السياسية عليه كبير اعتراض.

جند الله طبقةٌ خارج طبقاتِ العلماء والصوفية والمغربين. جاءوا أفرادا من هنا وهناك، ولهم مشاركة من علم أولئك ورُبما من تربية الآخرين وتقنيتهم. يرث جندُ الله يومَ يفتح الله مقاليد الحكم، فيتعين عليهم، من بين ما يتعين، الحوارُ والتعاون والتعامل مع الطبقات الأخرى. ويتعين عليهم رسمُ الخطة التربوية العملية الكفيلة بتكوين أجيال سليمة من لوثات علماء القصور، سليمة من البدع والتراكمات الطرقية، سليمة من الفلسفة المادية الإلحادية السارية سريان السم في الماء.

لا يمكن أن تولَدَ الشخصية الإيمانية والهوية الإحسانية في فراغ الخلوة وقارورة المختبَر. من بين فرث المجتمع ودمه يتعين أن تبرُزَ هذه الهوية من ضَرْع التربية لبناً خالصا. لا يمكن أن نستغني عن كل مساهمة صادقة، وربما يتحول موقف «ديدان القراء» من مداهَنةٍ ومزايدة على الشعار الإسلامي إلى توبة وولاء حقيقيين إذا جدَّ الجد وظهرت النتائج العملية فحصْحَصَ الحق وزهق الباطل. إن الباطل كان زهوقا.

جاء عند الحكيم الترمذي رحمه الله في «نوادر الأصول» عن سيدنا أنس رضي الله عنه أن مولانا رسول الله ﷺ قال: «يكون في آخر الزمان ديدان القراء. فمن أدرك ذلك الزمان فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وهم الأنتنون». الحديث.

نعوذ بالله من الشيطان الرجيم كما أُمِرْنا، ثم ننظر من أحق الناس أن يُشبَّه بالديدان أحطِّ الكائنات: أهم علماء السوء، أم المتمشيخون المبتدعون، أم طبقة المغربين الذين لم يعُدْ أحد منهم يجسر على الطعن في الإسلام، بل يجزع المسيَّسون منهم ويحتجون على من يطعن في إسلاميتهم. السَّترُ أولى من النَّبْش، ولا يصحّ لأحد

إسلام إن لم يَسْلَم المسلمون من لسانه ويده. وافتح أنت صفحة حساب جديدة لكل تائب عائد.

نحملُ همَّ ضرورة التعامل مع أصناف ديدان القراء في اليد اليسرى. وباليمنى نخطط لتربية الهوية الإحسانية.

قرَّرنا أن الإحسان بمعنى الإتقان والدِّراية هو بمثابة الآلة الضرورية ضرورة حيوية للتصرف في تنظيم جهاز الدولة وتسيير الاقتصاد وتصنيع البلاد، وقَرَّرنا أن سلامة الناس من شر الناس هي علامة إسلام الناس، ثم يرتقون إيمانا وإحسانا حتى يتقربوا إلى رب الناس بالإحسان إلى الناس والبر بالناس. وبقي أن نعرف ما حظُّ الهُوية الإحسانية المطلوبة من الإحسان إن كانت مركَّزة على إنتاج «قراء» بالعقل ولم يكن لها بطبِّ القلب إلمام.

قال الإمام الجنيد قدس الله سره: «إذا أراد الله بالمريد خيرا أوقعه على الصوفية ومنعه صحبة القراء». تعليقا على هذه القولة الحكيمة كتب شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله ما يلي: «القراء في لسانهم (أي في لسان الصوفية) هم أهل التنسك والتعبد، سواءً كانوا يقرأون القرآن أو لا. فالقارئ عندهم هو الكثير التعبد والتنسك، الذي قصر همته على ظاهر العبادة دون روح المعارف، دون حقائق الإيمان وروح المحبة وأعمال القلوب. فهمتهم كلها إلى العبادة، ولا خير عندهم مما عند أهل التصوف وأرباب القلوب وأهل المعارف (...).

«فسير هؤلاء بالقلوب والأرواح، وسيرُ أولئك بمجرد القوالب والأشباح. وبين أرواح هؤلاء وقلوبهم وأرواح أولئك وقلوبهم نوع تناكرٍ وتنافرٍ».[1]

قلت: إن سطحية الفكر المغرب المادي سرت إلى ثقافة الإسلاميين من باب التضاد ورد الفعل الذي يحولك في سخونة المعركة من ضد كلي إلى تماثل جزئي. وسَرَى في هذه الثقافة تناكر وتنافر موروث خاصة عن بحث ابن الجوزي عن الشرور وعن جدل ابن تيمية في كل الواجهات والثغور. والمطلوب الذي ما فتئنا نقلب النظر فيه هو تربية جهادية جامعة مانعة.

(1) مدارج السالكين، ج 2، ص: 368.

عن هذه التربية يبحث أبو الحسن الندوي عندما كتب بعد الإشادة بجهاد الشيخ الصوفي أحمد بن عرفان رحمه الله، فقال: «كيف يصحُّ القول إذن مع هذه الشهادات المتواترة المتلاحقة أن التصوف هو رمز البطالة والكسل، والفرار من معترك الحياة، والانسحاب عن ميدان الكفاح والنضال! فإذا وجدنا هناك أمثلة شاذة لبعض أصحاب الطريقة والمتصوفين الذين آثروا الانعزال، ومالأوا بعض الحكومات الأجْنبية أو خدموها، فهناك في جانب آخر عدد أكبر من أئمة التصوف وشيوخ الطريقة (...) امتازوا عنهم في الكفاح والجهاد، والقتال والنضال، والبقاء في معترك الحياة.

«إن التصوف إذا وُجِدَ في صورته الأصلية الصادقة، وانسجم مع منهاج النبوة وحمل راية اليقين والحب، التي هي من أهم أغرَاضه ونتائجه، فإنه ينفخ في أبنائه روح العمل والشوق إلى الجهاد».[1]

وفد النابغة رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فكان مما أنشده من شعر يفتخِر بالمروآت التي ما بُنِيَت الهوية الإسلامية على خير منها قوله:

سقيناهم كأسا سقونا بمثلها ... ولكننا كنا على الموت أصبرا
بنفسي وأهلي عُصبةٌ سُلَمِيَّةٌ ... يُعدّون للهيجا عناجيج ضُمَّرَا
نُميتُ ولا نُحيي، كذاك صنيعنا ... إذا البطلُ الحامي إلى الموت هجرا
مَلكْنا فلم نكشف قناعا لحُرَّةٍ ... ولم نستلب إلا الحديد المُسَمّرا
ولو أننا شئنا سوى ذاك أصبحت ... كرائمهم فينا تُباع وتُشتَرى
ولكنَّ أحسابا نمتنا إلى العُلا ... وآباء صدق أن نروم المُحَقَّرا
وإنا لقومٌ ما نُعوِّدُ خَيْلنا ... إذا ما التقينا أن تحيد وتَنْفِرا
ونُنْكرُ يوم الرَّوْعِ ألوان خَيْلِنَا ... من الطعن حتى نحسب الجون أشقرا
وليس بمعروف لنا أن نرُدَّها ... صحاحا ولا مستنكرا أن تُعَقَّرا
أتينا رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتابا كالمجرة نَيِّرا

(1) ربانية لا رهبانية، ص: 136.

وقلت:

بِنفْسي وأهْلي ثُـلَّةٌ مَعْ مُحمَّـد   أبادُوا من الكُفارِ جَمعـًا مُكَبَّراً
أطاعُوا رسولَ اللّه إذ جاءَ بالهُـدى   وأنشأ جِيـلاً سادَ في الدَّهر خَيِّـراً
شِـداداً على الأعْـدا أحبَّـاءَ بينهُم   ليوثا لَدى الهيجاء جنـدا مُظفَّـراً

فضل الجهاد

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾. اللهم اجعل أوسع رزقك علي عند كبر سني وانقطاع عمري.

ساحة الجهاد مدرسة، وعمليات الجهاد مَفْرَزَةٌ ومصفاة ومحَك لتخليص الصادقين من أهل دعوى الإسلام. مرَّ المجاهدون في صفِّ القتال بأفغانستان من امتحان مواجهة العدو الروسي الكافر فاستحقوا التأهيل للمرتبة الإحسانية، بقيت عليهم درجة لينالوا ويحظوا بالشهادة الكبيرة من الله عز وجل. الدرجة الباقية عليهم هي أن يوحدوا صفهم ويصرعوا وحش العصبية القبلية كما صرع الله بهم وحش الكفر. عندما يتجاوز المجاهدون من ذلك الشعب الكريم من الأمة ما ابتُليت به الأمة من الطائفية والقبلية ينالون شهادة الله عز وجل الكبرى الواردة في قوله عز من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[1]. نسأل الله لهم ذلك ولهذه الأمة، آمين، حتى تتوحد أمة الحق.

مرّ الإسلاميون، ولا يزالون في قاعات الامتحان، باختبار المواجهة السياسية. كل في قطره حسب اجتهاده وإمكاناته. أمام جند الله الزاحفين إلى نصر الله إن شاء الله لائحةٌ ترسم خطَّ الارتقاء في سلم الفلاح والصلاح. أول بنودها قول رسول الله ﷺ: «أحب الجهاد إلى الله كلمةُ حق تقال عند إمام جائر». رواه الإمام أحمد رحمه الله عن أبي أمامة رضي الله عنه بسند حسن.

فكل من نهض مستنكراً للجَوْر وقال بلسان قاله أو بلسان حاله مقالة الحق ونصيحة الصدق لله ولرسوله وللمؤمنين داخل في وعد هذه المحبوبية، بل الأحبية،

(1) الصف، 4.

الشريفة. فإذا أضاف إلى غضبه لله ورسوله ودينه القيامَ بواجب إعداد القوة السياسية، وتنظيم الصفوف، وتربية الرجال، فقد أشرف وأشرفوا على مطالع الإحسان بقدر ما تنطبق عليهم صفات من أمر الله عز وجل بنهوضهم في قوله الحكيم: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[1]

يشرُفُ الإسلاميون المرابطون على ثغور الأمة يصدون عنها رياح الوباء ويطالعون ويرتفعون إلى الفلاح والنجاح بقدر ما يلهمهم الله ربّ العزة من دراية بما هو المنكر، وما معقِده، وكيف انبرمت عُراه بانتقاض عرى الإسلام، ومن سدَنَتُه، وما سُبُل تغييره. ويرتفعون بقدر ما لديهم من دراية، وخطَّة عملية يكلِّلُها التوفيق الإلهي، بما هو الجور المطلوب إبدال المعروف به، وبما هي القواعدُ التي يجب بناء صرح الحق عليها بعد هدم الباطل وتقويض دعائمه.

الجهاد القتالي، إن تعيَّن، لا يقيل من الجهاد السياسي قبله وبعده، ولربَّما كان الجهاد السياسي التربوي البنائي أصعب منالا وأشقَّ طريقاً وأحوج إلى خصال الصبر الطويل والمرابطة المستمرة والرفق من القتال الذي تهوِّنُ ريح الشهادة وكرامات التأييد الإلهي فيه صبرَ ساعة وصبرَ الإصابة.

كلا الجهادين مِرْقاة إحسانية ومدرسة تربوية وامتحان يوشِّح القرآن وتوشِّح السنة صدورَ مستحقيه بأوسمة الفلاح الأبدي. وقد أصبح العالم كله يُبصر ويسمع تميُّز الجهاد الإسلامي بالمضاء والعزيمة والقوة. ومن الجهة الأخرى تَخْزى حكوماتُ التراجمة عن الجاهلية المستبدين على المسلمين. يَخْزَوْن، بَلْ يخزيهم رب العزة سبحانه لـمَّا أرادوا العزة بغير الإسلام، يخزيهم سبحانه وتعالى بِحلفهم للكفار، وتبعيتهم لهم، وفشلهم السياسي والاقتصادي، وانقطاعهم عن القاعدة الشعبية التي لا تخضع لهم إلا مُكرهة.

إن العاملين للإسلام يتميزون عن الخائضين في معترك السياسة بولائهم لله عز وجل وبعدائهم للجاهلية. ويزدادون تميزا إن هم كانوا تراجمة عن الحق عز وجل،

(1) آل عمران، 104.

موقِّعين عنه، ضدّاً مناقضين للذراري المفتونين عن دينهم، الفاتنين عنه، الذين تلقوا فلسفة ماكولي المعلِّمة، ورضعوها، وتغذت بها أوصالُهم، فهم ناطقون بيننا على لسان الجاهلية، مترجمون عنها، متقمصون هويتها قلبا وقالبا.

نكون نقيضا لهم، وضدّا عليهم متميزاً، إن ارتقينا من إسلام هم به لصيقون لحما ودما واسما ورسما، لا مجال لتكفير من لم يجاهر بكفره منهم. نرتقي من ذلك الإسلام الاِسمى الوراثي الفردي إلى إيمان فإحسان.

بهذا التميز عنهم في العقيدة والخُلُق والسلوك والاعتصام بأوامر الله عز وجل ونواهيه تنكشف الهويةُ (المسخُ) وينكشف تقليدُهم القِرْدي لنواميس الحضارة الكافرة أمام تقليدنا لشرعة القرآن ومنهاج السنة.

وإنه لا سبيل إلى التحيُّز عن ظلام الجاهلية إلا لمن انغمس روحا وقلبا وعقلا وخطاباً وحركة في نور الإيمان والإحسان حتى أصبح لقب «مجاهد» في حقه اسما على مسمى، لا مجرَّدَ صياح متفائل متمسح بالإسلام. ويبدأ هذا من إخلاص النية، والنية عمل قلبي، وللقلب أمراض، ودون الصدق والإخلاص عقبات، وللقلب طب، ولاقتحام العقبات ضوابط.

وهكذا ترتبط ضرورة الجهاد بضرورة التربية كيلا يختلط تحركنا القتالي والسياسي بتحركهم، ولكيلا تكون مواجهتنا للجاهلية الخارجية والداخلية الدخيلة فينا ضربا من تقارع الأمثال كما تتقارع الأحزاب السياسية على أرضية واحدة، وكما تتقارع عصبية ضدَّ عصبية، ولفيف ضد لفيفٍ، كل يقاتل تحت راية جاهلية عُمِّيَّة.

إن إخلاص النية لله عز وجل هو الطابع الذي يطبع حركتنا بميسم الجهاد. كل تحرك لا يحمل هذا الميسم فهو فتنة من الفتنة، رائده يقودك إلى النار ولا يهدي للجنة.

سألوا رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً، ويقاتل حَمِيَّة، ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا». رواه الشيخان رحمهما الله عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

يلاحِظُ المطلع على حقائق الحركة الإسلامية أن الباعث على الانخراط في الصف الإسلامي هو على العموم اهتداءٌ إلى طريق الاستقامة، وابتهاج بالتحول الذي يطرأ على الناشئة فتلمس القلوبَ الواردةَ من بيداء التلفِ بشاشةُ الإيمان وأخوة الإسلام. لكن سَرعان ما تتقلص هذه النشوة الإيمانية، ويقع لها جزر فتدع الأخ في ضحالة مياه الولاء للجماعة، والانتماء للفئة، في شبه انقطاع عن الله ورسوله، إذ لم يتلقَّ التربية الإحسانية التي تتجاوز به مناطق الانحدار.

فيبقى المرشَّحون للجندية في سبيل الله على حساب أنفسِهم، لا على حساب مشروع لتجاوز النفس الفردية والعصبية الفئويَة. ومادمنا لا نتجاوز هذه المناطق المزروعة بألغام الهوى والغفلة عن الله، والكسل في العبادة، والإعراض عن الذكر، والصحبة المشبوهة، والجماعة المُعْصَوْصِبَة، فإن الراية التي نقاتل تحتها ليست راية الإسلام مهما رُفِعت الشعارات، ومهما ظهر من شجاعة، ومهما تقدم للفداء شبابٌ ينفجرون بعُبُوات الغضب على أعدائهم. بل إن اضطرام الحميَّة الغضبيّة قد يكون مؤشرا لغلبة النوازع النفسية. وتجد كثيرا من الشباب الإسلامي، المحسوب على الإسلامية، لا يفكر إلا في الانتقام من الظلم، وفي زرع المتفجرات، وفي الاغتيال السياسي. ويبصر البصير تأثير نموذج «الألوية الحمراء» وأضرابها من عصابات الإرهاب السياسي في أوروبا على سلوك شبابنا الغاضبين.

أما إذا كان العدو متميزا فالتفجير الغضبي منجاة من الذل الذي يأباه الدين. وحيّى الله شباب فلسطين.

إن التميز على صعيد النية والتبرُّؤ من الأساليب الجاهلية والنوازع النفسية لَهُوَ الإحسان المطلوب العزيز الوجود الذي لا يُنال إلا بربط الحبال مع الله عز وجل بروابط المحبة والعبودية والطاعة والمتابعة للسنة المطهرة. بدون هذا التميز لن يعرف الناس زَيْفَ الدعايات الرسمية القومية التي تدلس حتى سيرة التاريخ الماضي حين تقدم جَزَّار المسلمين جمال عبد الناصر على أنه بطل الإسلام.

بالتميز الإحساني يكون قتالنا الحربي لعدوِّ الله وعدوّنا، ويكون جهادنا السياسي للفاجرين من بني جلدتنا، وهدمنا للباطل الذي يرعَوْنه، إِحقاقاً للحق الذي نُشَخِّصُه.

قال رسول الله ﷺ: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية. ومن قاتل تحت راية عُمِّيَّة (أي مطموسة المعالم لا يتبين فيها الحق من الباطل ولا يتميز)، يغضَبُ لعَصَبَةٍ، أَو يدعو إلى عَصَبَة، أو ينصر عصبَة فقُتِل، فقتلة جاهلية. ومن خرج على أمتي يضرب بَرَّها وفاجرها، لا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي بعهد ذي عهدها فليس مني ولست منه». رواه مسلم والنسائي رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنه. لسنا أحق منهم بإمامة الأمة إن لم يكن ولاؤنا خالصا لله ورسوله كما أخلصوا ولاءهم للطاغوت.

روى مسلم هجاء حسان لأعداء الله ورسوله، فدعا له رسول الله ﷺ وقال: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك كما نافحت عن الله ورسوله». قال حسّان رضي الله عنه:

هجـوتَ محمـدا فأجبتُ عنـه ... وعنـد الله فـي ذاك الجـزاء
هجـوتَ محمـدا بـرّا تقِيّـاً ... رسـول الله شيمتـه الوفـاء
فـإن أبـي ووالـدَه وعِـرْضـي ... لعـرض محمـد منكـم وقـاء
ثَكلْتُ بُنَيَّـتي إن لـم تَـرَوْها ... تُثيـرُ النَّقْـع مَـوْعِدُها كَـدَاءُ
يبـارين الأسنـة مُصعِـدات ... علـى أكتافِهـا الأسَـلُ الظِّمـاء
تظـــل جيـادنـــا متمطِّـرات ... تُلَطِّمُهُـنَّ بِالخُمُـــرِ النســـاء
فـإنْ أعـرضتم عنـا اعتمَـرنا ... وكان الفتـح وانكشـف الغطـاء
وإلا فاصبـروا لضـراب يـوم ... يعـز اللـه فيـه مـن يشـاء
وقـال الله: قـد أرسلـت عبـدا ... يقـول الحق لـيس بـه خفـاء
وقـال الله: قـد يسـرت جنـدا ... هـم الأنصـارُ عُرضتُهـا اللقـاء
لنـا في كـل يـوم مـن مَعَـدٍّ ... سِبـاب أو قتـــال أو هجـــاء

فمـن يهجـو رسـول الله منكـم ويمـدحـــه وينـصُـرُه ســـواء
وجبريـــلٌ رســـول الله فينـــا وروحُ القـدْس ليـس لـه كِفـاء

وقلت:

لَنَـا بِمحمَّـدٍ في كُـلِّ يـوم بِسنَّتـــه وســـيرتــه اقتِـداءُ
وبِالصَّحب الكِرام لنا إسَـــاءٌ لَنِعْـمَ عِمـــادنا ذاك الإِســاءُ
فإنَّ اللّه رَبَّ العـــرشِ يُعطِي ويُكـــرِم مَن يشـاءُ بِما يَشاءُ

رجـــــال

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾. اللهم إنّي أسألك من الخير كله، عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم. وأعوذ بك من الشر كله، عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم.

الرجال في لغة القرآن هم الجامعون بين خصلتي الصدق والذكر، لقوله تعالى: **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾**.[1] وقوله جلت عظمته وتقدست كلمته: **﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ﴾**.[2]

هاتان الخصلتان إن ركزَتا في فِطرةٍ من معدِنٍ بشري نفيس كان كمال الاستعداد وتمام الخيريَّة والرجولة لقول النبي ﷺ: «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقُهوا». الحديث رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأهمُّ ما يتمايز به الرجال من حيث المعدنُ والفطرةُ الكرمُ والعقلُ والخلق وما يتفرع عنها من محامِد، لقول رسول الله ﷺ: «كرم المرء دينه، ومروءته عقله، وحسَبه خلقُه». رواه الإمام أحمد والحاكم والبيهقي رحمهم الله بسند حسن عن أبي هريرة.

وقرأنا في قصيدة النابغة التي أنشدها بين يدي النبي ﷺ فخره بمحامد قومه، وهي أخلاق تعارفت العرب، على جاهليتها وكفرها قبل البعثة، على احترامها. فكانت هي المرجع القِيَمي والمعيار السلوكي لديهم. افتخر النابغة بالشجاعة والعفة، وخلق الشجاعة والعفة: الصدق والكرم والشهامة.

(1) الأحزاب، 23.

(2) النور، 36.

من ذلك المعدن العربي، ومن تلك الأعراف الحميدة صاغ الخالق جل جلاله رجالا اصطفى أفضلهم لرسالته وقيض لنصرته في حمل الرسالة والدفاع عنها وتأصيل النموذج الذي عرضت عليه نفْسَها أجيال الأمة من الصادقين والتابعين بإحسان. وكان من العرب خيار وأراذل، كما كان من الشعوب العجمية أراذل وأخيار. وقد حسم الإسلام في مسألة القومية إذ لم يجعل الخِيرَة في الإسلام إلا مشروطة بالفقه في الدين، وقرر أن لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى. ويكذب العنصريَّة والعصبيَّة القومية النهيُ النبويُّ القاطعُ عنها إذ وصفها بأنها رايةٌ عُمِّيَّةٌ، كما يكذبها تاريخ المسلمين الذي شاهدَ بروز رجال من العجم منذ البعثة كانوا هم السُّرُجَ المنيرة وفرسان الحمى. كفاكَ أن تذكُر جهاد الأفغان في عصرنا. بهم أعز الله دينه، فله الحمد وله الشكر. أصلح الله ذاتَ بَيْنِهم. وآه! آه! على ما آل إليه أمرهم من فظيع التقاتل الجاهلي القَبَلي.[1]

لا يصح إسلاميا أن نؤسس الهويَّة الإيمانية الإحسانية على شيء من اعتبارات الدم واللون واللغة. وإن كانت لغة القرآن، تعلُمها وخدمتُها، مكوِّنـًا جوهريا لهذه الهوية.

ولا يصح أن نصنف المجتمع المسلم، المنتشر جغرافيا، المتنوع مَحتِداً، الممزَّقَ سياسيا، تصنيفا قوميا أو طبقيا.

كنت أكتب معتمدا التصنيف القرآنيَّ للمسلمين إلى مهاجرين وأنصارٍ هم نواة أهل الإيمان والإحسان، ثم دائرة الأعراب وفيهم ما شاء الله من المسلمين المستورين والمنافقين والقليلي الفقه في الدين، والساقطين في سلم المروءة والكرم والعقل والخلق. ثم وجدت ابن تيمية سبقني إلى تبني التصنيف القرآني واعتبره ترتيبا للمجتمع المسلم. قال رحمه الله: «فكل هذه الأصناف مذكورة في القرآن، وحكمهم باق إلى يوم القيامة في أشباههم ونظائرهم».[2]

---

(1) ملاحظة عند المراجعة قبل الطبع، أواخر جمادى الثانية 1418.

(2) الفتاوي، ج 11، ص:39.

وكذلك معاني القرآن ينبغي أن تعود هي المعيار لتحليل الأنفس والآفاق كما كانت عند سلفنا الصالح قبل أن تغزونا الفلسفات. ينبغي أن يكون القرآن والسنة، وهي شرح القرآن وبيانُه وتطبيقُه، هما المرجع لا المقارنات المادية الوضعية التي يعتمدها ما يسمى بـ«العلوم الإنسانية»، فيسحب سلوكَ الحيوان على سلوك الإنسان، ويقارن أنظمة المجتمعات البشرية بعضها مع بعض من نقطة الارتكاز ومنطلق النظر ونموذج الكمال، وهو الحضارة الغربية الدوابِّيَّة.

الذهنية الثورية ترفض التصنيف القرآني للمجتمع وتأبى إلا التحليل الطبقي والتصنيف الطبقي. تعتبر كل تصنيف غير طبقي أخلاقيّة رخوة، ومثالية حالمة. وتعتبر المقدمات الفلسفية للجدلية المادية ولواحقها ولوازمَها الإديولوجيةَ هي وحدها الوعي الصحيح للتاريخ، وهي وحدها التركيبة الذهنية الضرورية لتكوين الطليعةِ الثورية صانعة التاريخ.

لنا عودة في الفقرة التالية لهذه إن شاء الله تعالى للموضوع. ونمضي في البحث عن النموذج الإيماني الإحساني المروئي الكرمي العقلي الخلقي الذي جعله الله تعالى في كتابه الخالد على قمة التصنيف الاجتماعي. والذي لا نَرقَى، ولا نستطيع، إلى مستوى مسؤوليات تهييء الخلافة الثانية وبنائها إلا بتربية أجيال مكتملي الشخصية، سليمي الهُويَّة، مشربُهم من القرآن، ورضاعُهم من السنة.

ولئن كنا في هذا الفصل تعرضنا لجهاد رجال من المشايخ الصوفية وأشدنا بجهاد الأمناء الأقوياء من العلماء العاملين، فإنما فعلنا لنستأنس بأن هذه الأمة لم تكن عقيمة من الرجال يوما ما. ثم نصعَد للبحث عن النموذج عند الصحابة الذين نزل عليهم القرآن، ونزل فيهم، وعاشوا به، وجاهدوا به، وقضوا نحبهم معه ومن أجله.

كان الصحابة رضي الله عنهم مجاهدين، والقرآن كتاب جهاد قبل كل شيء. لا أعني بالجهاد جهاد السيف فقط، فما ذاك إلا صورة ولحظة من الجهاد الكلي. وكان من الصحابة ذوو كفاآت عالية متنوعة لهذا الجهاد، يتفاضلون فيها.

قال رسول الله ﷺ: «أرحمُ أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأشدهم حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضُهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبيٌّ بن كعب. ولكل قوم أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح. وما أظلت الخضراءُ، ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر. أشبه عيسى في وَرَعِهِ». قال عمر: أفتعرف له ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم، فاعرفوا له ذلك». رواه الترمذي رحمه الله عن أنس بن مالك رضي الله، وقال: حديث حسن صحيح.

وامتاز أبو بكر رضي الله عنه خليفة رسول الله ﷺ عن سائر الصحابة بقربه القريب وصُحبته الملازمة وبذله المتفاني للجناب النبوي الشريف. روى الشيخان رحمهما الله عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في خطبته: «إنّ من أمنِّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر. ولو كنت متخذا خليلا غير ربي عز وجل لاتخذت أبا بكر. لكن أخوة الإسلام ومودتُه. لا يبقى في المسجد باب إلا سدّ، إلا باب أبي بكر». الحديث. ومن يفهم عن الله ورسوله يعلم ما وراء سدِّ الأبواب إلا باب أبي بكر من إشارة لأفضلية الصديق رضي الله عنه.

وكان الخليفة الثاني أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أشد الأمة في أمر الله. من شدته وحزمه وعزمه أنه «أول من كتب التاريخ للمسلمين، وأول من جمع القرآن في المصحف، وأول من جمع الناس على صلاة التراويح، وأول من عسَّ في عمله، وحمل الدِّرّة وأدب بها، وفتح الفتوح، ووضع الخراج، ومصر الأمصار، واستقضى القضاة، ودون الديوان، وفرض الأعطية».(1)

يكفي تشريفا للخليفة الثالث سيدنا عثمان رضي الله عنه ما روته أمنا عائشة الصديقية رضي الله عنها من أن رسول الله ﷺ كان جالسا وفخذُه الشريفة مكشوفة، فاستأذن أبو بكر ودخل فلم يستر النبي ﷺ فخذه. ثم دخل عمر وبقي على حاله. فلما استأذن عثمان أرخى عليه ثيابه وقال لعائشة لما سألته لِمَ لم يفعل ذلك إلا لمجيء عثمان: «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة؟!». الحديث انفرد به مسلم رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها.

(1) صفة الصفوة، ج 1، ص:276.

أما أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه فكان باب العلم وصاحب السيف، وأقضى الصحابة وجرثومة الشرف، وقمَّة الأخلاق. ترك بصمات شخصيته القوية على كل من عرفه، وافتتنت به غلاة الشيعة حتى ألَّهوه. وهذا وصف رائق، من محب وامق صادق كما رواه ابن الجوزي رحمه الله قال: «قال معاوية بن أبي سفيان لضِرار بن ضَمُرة: صف لي عليا. قال أوْ تُعفيني! قال: بل صفه! قال: أوْ تُعفيني! قال: لا أُعفيك! قال: أمّا إذن فإنه والله كان بعيد المدَى، شديد القُوَى، يقول فصلا، ويحكم عدلا. يتفجر العلم من جوانبه، وينطق بالحكمة من نواحيه. يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته.

«كان والله غزير الدمعة، طويلَ الفِكرة، يقلِّبُ كفّه، ويخاطب نفسه. يعجبه من اللباس ما خَشُن، ومن الطعام ما جَشُبَ.

«كان والله كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعوناه. ونحن والله مع تقريبه لنا، وقربه منا، لا نكلمه هيبة ولا نَبتدئه لعظَمه.

«فإن تَبَسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين ويحب المساكين. لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.

«وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سجوفه، وغارت نجومُه، وقد مَثُل في محرابه قابضا على لحيته، يتململ تملـمُلَ السليم (الذي لدغته الحية)، ويبكي بكاء الحزين.

«وكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا! يا دنيا! أبي تعرَّضْتِ! أم لي تشوَّفْتِ! هيهات هيهات! غرّي غيري! قد بتَتُّكِ (طلقتك) ثلاثا! لا رجعة لي فيك! فعمرك قصير! وعيشك حقير! وخطرُكِ كبير. آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق!»

قال الراوي: «فذرفت دموعُ معاوية رضي الله عنه حتى خرَّت على لحيته فما يملِكُها، وهو يُنَيِّفها بكمه، وقد اختنق القوم بالبكاء». [1]

---

(1) صفة الصفوة، ج 1، ص:315.

روى البخاري رحمه الله أن سيدنا خُبيباً رضي الله عنه قال لما أسرته قريش وذهبوا به ليقتلوه:

فلست أبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يَشَأْ يُبارِكْ على أوصال شِلْوٍ مُمَزَّع

ونسبوا إليه في رواية أبي الأسود عن عروة رحمهما الله قوله:

لقد أجمع الأحزاب حولي وألَّبُوا قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
إلى الله أشكو غُربتي بعد كربتي وما أرصد الأحزاب لي عند مَصْرَعي

وروى البخاري رحمه الله أن رسول الله ﷺ نقل التراب يوم الخندق وهو يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بَغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

وقلت:

لَولاَ الإلهُ الرَّبُّ ما اعْتلَيْنَا ذُرى المكارِم ولا دَرَيْنا
نَهْج الشريعةِ ولا صلَّينا ولا صَبَرْنا إن عِدىً لاقَيْنا
رَسولُه الحِبُّ بِه اهْتدينَا والعَودَ في الكُفرانِ قَد أبَينَا

القــومـــة

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. اللهم إني أسألك من خير ما سألك منه عبدك ونبيك، وأعوذ بك من شر ما عاذ بك منه عبدك ونبيك.

أتحاشى أن أستعمل كلمة «ثورة» لكيلا أوافق مصطلح غيرنا، فإن الأسماء تُفيض من معانيها وحقائقها على المسميات إن اسْتُعيرَتْ. وأستعمل كلمة «قومة» للدلالة على نهوض الأمة بقيادة طليعتها من جند الله لفَرْض العدل والإحسان على الواقع الكئيب المتميز بالتخلف والاستبداد في الحكم، والظلم في القسمة، والنفور العام عن دين الله، والجهل به، والإعراض عن الآخرة وعن الله عز وجل، والاستقالة من التشريف الإلهي والتكليف الذي عين هذه الأمة لحمل رسالة الحق للعالمين.

أستعمل كلمة «قومة» موافَقَةً للقرآن الكريم ومطابقة في تسمية الانطلاقة الثانية بما سمِّيت به الأولى. أستعمل الاسم تحرِّيًا من مسايرة التيار العام الذي يستهلك مصطلحاتهم كما يستهلك منتجاتهم الصناعية، فيَنْبت لحمُ فكرِه ويتكون عظمُه ويجري دمه بعناصر هي خليط من ذاته وذات غيره. أستعمل «قومة» بدل «ثورة» لأسجل اختلاف نيتي عن نياتهم واتساع أهدافي عن أهدافهم وحضور غايتي -وهو الله عز وجل- وغياب هذه الغاية في حسبانهم.

قال الله عز وجل يحكي مقالة الجن لما أتوا رسول الله ﷺ وسمعوا القرآن وآمنوا: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾.[1] في هذه الآية الكريمة وحدَها عنوان وبرنامجٌ. أبرز أوصاف القائم أنه عبد لله. وتلبُّد الكفار على القائم الكريم ﷺ

(1) الجن، 19.

ومعارضتهم له ومصابرتُه على الدعوة حتى النصر برنامج كاملٌ، ونموذجٌ هاد تُفَصِّلُه سيرتُه الجهادية ﷺ.

باعتناق الهويَّة الإحسانية تكون قومتنا في ضمان الاتِّباع والاهتداء بعبد الله الذي قام في قريش. وبقراءة واقعنا على ضوء سيرته النيرة يكون عملنا في أمانٍ من أن تَسْرِقنا أساليب العنف الثوري والحلول الصراعية والتصنيف الطبقي، وهو المقدمة التنظيرية لذلك العنف ولتلك الحلول.

يعتبر الثوريون من بني جلدتنا أن كل تحليل للواقع الحاضر وللتاريخ الماضي لا يصنِّف الناس إلى طبقات اجتماعية-اقتصادية هو ظلاميَة. وسواء اعترفوا بمنابعهم الماركسية اللينينية أو لم يعترفوا فـ«الاشتراكية العلمية» هي عندهم وحدها الكلمة الفصل. لا يزالون أوفياء للنظرية بعد خراب ديارها.

لا يزالون، كشأن من يترجم عن ذاتية غيره لا يعرف لنفسه هوية غيرها، يجرون في وهم المطالبة بالتغيير على سكة عتيقة بالية غادرها كل قطار اشتراكي، ووضعها جرباتشوف في معرض الأزياءِ الخطإِ التي لا تشرف صانعها.

المتمسحون منهم بالإسلام لا يزالون يقرأون تاريخ الإسلام تلك القراءة البليدة التي تقسم المجتمع الإسلامي الأول إلى يسار تُضفى عليه كل أوصاف الكمال، وإلى يمين هو معدن الرذيلة، وإلى وسط لا من هؤلاء ولا من هؤلاء.

هذه الماركسية التبسيطية كانت أفيونا أسكرَ المثقفين من كل جنس وقومية بعد انتصار لينين وعُصْبَته. ثم أفاق الجميع وبقي بُلداؤُنا يُنْتِجون الإديولوجِية المتخلفة.

متخلفة هي بشهادة رئيس الدولة العظمى المؤسَّسة على التحليل «العلمي» وعلى الصراع الطبقي، وعلى معتقلات الجولاج. يشهد جورباتشوف اليوم أن الاتحاد السوفياتي متخلف حضاريا عن أوروبا وأمريكا، ويعلن لقومه أن الاتحاد بحاجة إلى «شفافية» ليكون له وجه مقبول أمام الديمقراطيات، بحاجة لاحترام حقوق الإنسان التي يكوِّن خرقُها مبدأً من مبادئ العنف الثوري. هذه الهمجية القمعية ثغرة أخلاقية منها يطعن المتحضرون في العالم ممارسات الثوار الحمر الهَمَج في كمبوتشيا.

لا يحب اليساريون من بني جلدتنا المتمركسون أن يسمعوا جورباتشوف ولا أن ينظروا إليه وهو يخوض المعارك المحمومة لإعادة هيكلة الاقتصاد والصناعة والفلاحة ونظام الحزب ونظام الحكم هيكلة تليق بالدولة العظمى المتخلفة عن الركب في كل الميادين.

ذلك الركب الجاهلي، اشتراكيا كان أو ليبراليا، لن نكون إلا عربة من عرباته إن لم نتمسك بهويتنا ورسالتنا في العالمين. إن كنا متخلفين عنه حضاريا وإنجازات أرضيةً علميةً فلا يُنْسينا هذا التخلف أننا حملةُ رسالة، نؤمن بالله واليوم الآخر وهم يكفرون. ثم لا ينسينا إسلامنا الموروث وتفاخرنا بحضارتنا المتألقة عصرا ما في التاريخ أنه كان فينا ظُلْم، وأن جراثيم الفساد سرت إلينا من ميزابِ فسادِ الحكم وانتقاضِ عروته بعد عهد الخلافة الراشدة الأولى، وأن هذا الفساد وصلَ الآن إلى أحطِّ دَرَكٍ.

ولا يَحْمِلْنا إنكارُنا على اليساريين من ذرارينا استمدادهم من الإديولوجية المادية الملحدة محامِل الجهل أو التجاهل بأن الطبقية داؤُنا الوبيل. لا يمكن ولا يجوز أن نُسَمِّيَ أَنفسنا قائمين إن لم يكن عدل الحكم بالشورى والعدل الاجتماعي بالقِسمة الرشيدة أبرزَ بَنْدَيْن في برنامجنا.

فرق ما بيننا وبين المتياسرين أنهم يعادون البرجوازية وأجهزة الحكم العشائرية انطلاقا من غضبٍ على الظلم، وهو غضب إنساني محترم على صعيد المروآت. بينما نعادي نحن الكفر والإلحاد وما يمت إلى الكفر والإلحاد بصلة. والإلحاد في دين الله عندنا أفظع وأشد سواداً من فروعه الظُّلمية.

فإذا رجعنا إلى التصنيف القرآني، وهو مرجعنا الوحيد، وجدنا أن المنافقين في الدَّرك الأسفل من النار، وأن الشرك هو الظلم الكبير، يصغر معه كل ظلم خلا من النفاق والشرك. وعلى هذا فاليساري الذي يقترح علاج الوباء الطبقي بدكتاتورية البرولتاريا يريدنا أن نستبدل بالظلم الصغير الذي نكرهه كما يكرهه كل ذي مروءة، بل نكرهه أشد من كراهيتهم، ظلما كبيراً هم يحبونه ويتدينون به، وهو عندنا الموت الزؤام.

نريد في قومتنا عدْلا بالإسلام والإيمان والإحسان لا بالكَشْطِ الثوري تمارسه طبقة اجتماعية-اقتصادية على طبقة عدوة. في التصنيف القرآني يفترق الناس ثروة وفقرا، فيدفع الإثراءُ الظالـمُ الاستغلالي إلى الترف الذي لا يحبه الله، ويدفع التفقيرُ الظالـمُ الفقراءَ إلى ما يشبه الكفر، مصداقا للأثر «كاد الفقر أن يكون كُفرا».

في التصنيف القرآني يقترن الظلم السياسي الاقتصادي الاجتماعي الطبقي، وهو الظلم الأصغر، بالظلم الأكبر وهو الشركُ، فيكون المستكبرون طبقيّا هم الـمُضطهِدين للمستضعفين في المعاش والدين معا. والدين عدل وإحسان! لا يقبل الدين الظلـمَ الصغيرَ لكونه مطيَّة للظلم الكبير، ويقاتل المؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين ببواعث تختلف اختلافا جوهريّا عن بواعث الملحدين والمنافقين.

على هدي التصنيف القرآني لا على الاعتبار الطبقي الاجتماعي جاهد الإمام علي كرم الله وجهه الذي يجعله الناظرون بمنظار الجدلية المادية زعيما لليسار الإسلامي. وكلامه رضي الله عنه يكذب ترهاتهم.

روى ابن كثير رحمه الله في تفسيره لسورة التوبة أن الإمام عليا رضي الله عنه قال: «بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيفٍ للمشركين ﴿**فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1]، وسيف للكفار أهل الكتاب ﴿**قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾[2]، وسيف للمنافقين ﴿**جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾[3]، وسيف للبغاة ﴿**فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ**﴾[4]».

جاهد رسول الله ﷺ المستكبرين في الأرض، وجاهد أصحابهُ في سبيل الله والمستضعفين. كانوا في غنى عن سيف خامس لأن المستكبرين في الأرض هم في الجملة الأغنياءُ المترفون المستبدون الجاحدون للدين.

(1) التوبة، 5.

(2) التوبة، 29.

(3) التوبة، 73.

(4) الحجرات، 9.

وبسيف الإسلام لا بغيره يجب أن نقوم لنقطع دابر هذا التحالف الظالم الكفري بين الترف والاستبداد والكفر. لا خبر عند المحللين الإديولوجيين بهذا التحالف الذي يأمر الإسلام بقتاله لأنه لا خبر عندهم بالدين.

وعندما يجلجل نداء الإسلام تفتح أبواب التوبة ليتمايز أهل الإيمان من أهل الكفر، بشرط أن يتبرأ المترفون في أمس الفتنة من ترفهم واحتكارهم كما يتبرأ الضارب بالأمس في ظُلم الإديولوجيات من الزندقة والزَّيغ.

قال أحد أبناء الخنساء رحمها الله في مصاف غزوة القادسية:

يا إخوتي إن العجوز الناصحة — قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
مقالة ذات بيان واضحه — فبادروا الحرب الضروس الكالحه
وإنما تلقون عند الصائحه — من آل ساسان كلاباً نابحه
قد أيقنوا منكم بوَقع الجائحه — وأنتمُ بين حياة صالحه

وقال آخر يتذكر وصية أمه لهم بالصبر عند اللقاء:

إن العجوز ذاتُ حزم وجلدْ — والنظرِ الأوفق والرأي الأسَدّ
قد أمرتنا بالسَّداد والرشدْ — نصيحة منها وبرّا بالولد
فباكروا الحرب حُماةً في العدد — إما لفوز باردٍ على الكَبدْ
أو ميتةٍ تورثْكم غُنْمَ الأبَد — في جنة الفردوس والعيش الرغِدْ

وتقدم الثالث بعد أن استشهد الأولان فارتجز قائلا:

والله لا نَعصي العجوز حرفا — قد أمرتنا حَدَبا وعطفا
نُصحا وبرا صادقا ولطفا — فبادروا الحرب الضروس زحْفا
حتى تَلُفُّوا آل كِسرى لفَّا — وتكشفوهم عن حماكم كشفا

فلما استشهد تقدم الرابع رحمهم الله جميعا وقال:

لست إلى الخنسَا ولا للأحزم ... ولا لعَمرٍو ذي السَّناءِ الأقدَم

إن لم أَرِدْ في الجيش جيش الأعجم ... ماض على الهول خضمٍّ خَضْرَمِ

إما لفوز عاجل ومَغنَم ... أو لوفاة في السبيل الأكرم

وقلت:

يا إخْوتِي سِيروا على النَّهج السَّعِيدْ ... لا تَقْبلُوا الذُّلَّ وأخْلاقَ العَبيدْ

كُونوا حُماةً مِن ذوي البَأس الشدِيدْ ... والأمرُ شُورى ليُرى الرَّأيُ السَّديدْ

وَيَمِّمُوا قَصْدكُمُ القَصدَ الرَّشيدْ ... فالنَّصرُ مِن مَولاكُمُ غَيرُ بعيدْ

بناء الدولة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ﴾. اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل. وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لي خيرا.

ليس قصدي هنا أن أتعرض لنظام الدولة الإسلامية، فقد كتبت عن ذلك في غير هذا الكتاب. إنما أعرض هنا للبناء المعنوي للدولة الإسلامية، وأُلَخِّصه في ولاء الأمة لـمَطْلَبَيْ العدل والإحسان، وولائها من خلال المطلبين للقائمين من رجال الدعوة ولاية لا ينقضُها ما يتعرض له الحكم الإسلامي في بداياته من مصاعب لأنها نابعة من الولاء الأعلى لله ورسوله وشريعته.

نرجع إلى هذه الأسس إن شاء الله بعد أن نتساءل لماذا نُشاهد ذرارينا المثقفين يميلون كل الميل لإديولوجية التحرر حتى إنهم، كثيراً منهم على كل حال، يتنكرون للدين، ويُلحدون في الدين، ويفرون من الدين؟

قد يكون باعث بعضهم المسخُ الثقافيُّ والإباحية الأخلاقية، يرون في الدين عقالا لحريتهم كما يفهمون الحرية تسيُّباً بلا حدود. لكنَّ منهم من أُتوا من قِبَل جهلهم بالدين، لا يعرفون الدين إلاّ مُشَخَّصا في حكام الجَوْر وفي طبقة المترفين الذين يَدُعُّونَ اليتيم، ولا يحُضُّون على طعام المسكين، ويتذرعون بآية **﴿وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ﴾**[1]، يؤولونها حسب هواهم ليحافظوا على مصالحهم الأنانية.

أعطَى أهلُ المروءة والغضب الشريف على الظلم ولاءَهم للإديولوجيةالمحرِّرة، يرون أنها وحدها الوسيلة لكنس هذه الرذيلة الطبقية التي أكلت فضيلة الدين ولا تزال

(1) النحل، 71.

تأكل. ولجهلهم لما هو الدين، ولاستمرار علماء القصور وقرّاء التقليد في الإشادة بأمجاد «الخلافة الأموية والعباسية» وهلم جرّاً، نفضوا أيديهم من الدين جملة، وطرحوه كما يطرح الشيء المتخلف تخلفَ الذهنية الكاذبة في الدين، المحتكرة للخطاب الديني، تخدم به إثبات الحكم الوراثيِّ ومكتسبات الطبقة المترفة.

لذا لا نفتأ نكرر أن من العُقَدِ المتشابكة في فهمنا للدين عُقدة تسمية الحكم العاض والجبري الذي دشنه الانقلاب الأموي «خلافة». وهذا تزوير فظيع، قلَّد فيه الخلف السلَفَ. وحلُّ العقدةِ المعقدة هذه على صعيد الفقه الديني والتاريخي مقدمة ضرورية لوضع أسس الدولة الإسلامية، قطرا قطرا،حتى يكتمل بناء صرح الخلافة الثانية إن شاء الله. والقوة التي نستند إليها والحجة التي نعتمد عليها في إرجاع الحق إلى نصابه هي الأحاديث الصحيحة الـمُبلَّغةُ عن المعصوم ﷺ التي سمَّى فيها الأمور بأسمائها. منها قوله ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك». الحديث. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في «الفتح»: أخرجه أصحاب السنن وصححه ابن حبان رحمهم الله.

بعد هذا نقول بوضوح نسأل الله رب العزة أن يجعله إحسانا من الإحسان: إنَّ من عادى الدين من أساسه جهلا بالدين واتهاما للدين بجريرة إقرار الظلم والطبقية يعذر في حالة واحدة، وهي إذا تاب إلى الله تعالى في أصل عقيدته وفروعها واتهم الناس الذين استغلوا الدين بدل اتهامه للدين. وعندئذ نعرف له مروءَته وشرف غضبه على الظلم إن وظَّف قدراته لإعادة الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى نصابها الديني.

أما من نقض فروع الإسلام والإيمان، مع سلامة العقيدة، وظَلم واختصَّ بالأموال واحتكر وكان من المترفين، ومعهم، وركيزة لطبقتهم الرديئة، فتوبتُه أن يراجِع الاستقامة ويسابق إلى الإنصاف بإعطاء حقوق الله وحقوق العباد. نعرف له مروءته ودينه إن التَفَّ حول طلائع الإسلام، ونصر وآزر، ولم ينتظر حتى يُصيبَ منه وازعُ السلطان الإسلامي.

مطلوب إلى كل طبقات الأمة أن تحول ولاءها إلى الله ورسوله وإلى المشروع الإسلامي الذي يعرضه جند الله. ومطلوبٌ من جند الله أن يتعلموا أن رياح الولاء

الانتهازي سرعان ما تهب في اتجاه من أمسك زمام السلطة. فبعد إسقاط الأنظمة الفاسدة، لا بد للقائمين أن يرفعوا إلى مقام إخلاصهم خيارَ الأمة من الصامتين بالأمس ومن التائبين من كل الآفاق مهما كان الانتماء الطبقي السابق. يرفعونهم إلى مقام الإخلاص بالجدية والمثال الحي حتى يُعطي الأخيارُ ولاءهم للدعوة وللمشروع الإسلامي واثقين أنه يتضمن الولاء لله ورسوله وشريعته.

ولمن بقي من الأصناف القرآنية من زُمَرِ المنافقين وعامة الأعراب من المسلمين وازعُ السلطان وسَيفُ الدولة الضارِبَيْنِ بالعدل والإحسان لا بالانتقام والبهتان.

هذا المخطط يبدو مثاليّا حالما غير واقعي لمن تشرب مبادئ الصراعية الطبقية. عند الـمُبْعَدين يكون الانتماء السابق للبرجوازية وصمة عار لا يمحوها إلا دماء البرجوازية تُراق، وأموالها تُصادَر. ويكتسبُ، بعد الثورة، المناضل المنتمي إلى طبقة العمال فضيلةً أبديَّةً تخوله حق ممارسته دكتاتوريته على الأعداء الطبقيين.

وفي الإسلام يَجُبُّ الإسلام ما قبله، وتجبُّ التوبة الصادقة المعلنَةُ على الملإِ المراقبَةُ ما قبلها، وتطهَّر الأموال بردِّ المظالم السابقة وتجنيد ما بقي منها في المِلْكِ الخاص لبناء اقتصاد التكامل والكفاية والقوة.

في الإسلام نقرأ نموذج القومة النبوية فنرى كيف تَحوَّل بالتدريج ولاء المهاجرين والأنصار من العصبية القومية والسيادة والحسب إلى الولاء لله ورسوله وشريعته، هذا الولاء الإيماني الإحساني الذي صاغ قاعدة مندمجةً كانت هي الأساس البشري للدولة الإسلامية، وكان الولاء لله ورسوله، والولايةُ بين المؤمنين التي يفرضها الدين، هو الأساس المعنوي لهذه القاعدة.

في البناء الإسلامي يجب أن تُذَوَّبَ الفوارق الطبقية، يذيبها وازعُ السلطان بالقهر، ويُبطل أسباب استمرارها وعودتها. فإن كثيرا من الناس لا يحركهم إلا الإخلاصُ لمصالحهم، ولا يحُدُّ من أنانيتهم إلا قَهْرُ وازِعِ السلطان والخوف من سطوته. أولئك هم أعراب المسلمين بمصطلح القرآن وتصنيفه. ليس الأعرابيُّ بهذا المصطلح وفي هذا التصنيف من سكن الخيمة ورعى الجمال، لكن الأعرابيَّ هو كل شخص

انطبقت عليه أوصاف الأعرابية كما بينتها سورة التوبة وغيرها. والأعرابُ طبقةٌ من المسلمين خليطٌ، لا تتميز بإيمان ولا هجرة ولا نصرة.

بعد هذه الاعتبارات التأسيسية نقول بعون الله كلمة في الاعتبارات العارضة.

في البناء الإسلامي يجب أن يكون جهاز الدولة آلة تنفيذ تأتمر بأمر الدعوة. الدعوة تضع الرسم العام للسياسات، وتحدد الأهداف، وتختار الرجال، وتراقب الإنجاز. لكن واجبَها أن تترك التشغيل اليومي للحكومة، فلا تتدخَّلَ في تفاصيل التنفيذ، فتحجُبَ مسؤولية المنفذين، وتبذُر بذلك بَذْرَة المحسوبية والاستثناءات والفوضى.

إن مرض التخلفِ وقلَّةِ الجدوى يرجع، فيما يرجع، إلى انعدام المسؤولية. فالحاكم المستبدّ، أو الزمرة المتسلطة، لا يُناقَش لهم قول ولا فعل ولا أمر ولا اختيار. وينطلق الملأ العاض على الحكم في تبذير الأموال، ورفع الصنائع إلى مناصب النهب.

وبما أن الحكم العاض والجبري لا أساس له من ولاء الشعب، فإنه يشتري ولاء تجاريّاً بالتوسعة على لفيفِه، وبإطعام الشعب طعام البؤس الذي لا بد من حد أدنى منه. لا يدخل في اهتمام الحاكم المستبد إلا استمرار وجوده. لذلك يقترض ويقترض، ويمده حلفاؤُه بالسَّلفة بعد السلفة، يَرْشُو هو دعائم سلطته في الداخل، وترشوهُ هو حامِيَتُه الخارجية.

في الدولة الإسلامية الناشئة، ينبغي أن تُطالَع الأمةُ بالحقائق، وأن يكشف عن الحسابات، وأن يُدعى المسلمون جميعا إلى شد الحزام، في مقدمتهم على واجهة البذل والصبر رجال الدعوة مثلما قرأنا عن الإمام علي كرم الله وجهه الذي كان يحب المساكين ويعيش عيشة الكافة، لا يتميز عنهم بالأرزاق الخصبة.

في البناء الإسلامي يجب أن يكون عَقْدُ الولاء بين الدعوة والقاعدة عقدَ وفاء ورباطَ دين لا تنال منه ولا تُوهِنُه أخطاء الدولة المنفِّذَة، ولا صعوباتُ الاقتصادِ ولا أزمات الطوارئ.

إن من اللازم إعادة هيكلة الدولة بعد مرحلة الوصول إلى الحكم، وإعادة ترتيب الإدارة، وإعادة توضيب الاقتصاد، مع ما يلزم من قمع الاستغلال وما يتبع من تهريب الأموال وتخريب أعداء الداخل وحصار أعداء الخارج. كل هذا يُظهر أهمية عقد الولاء بين الدعوة والقاعدة، والقدْرَ الواجب من الوفاء له مهما كانت الزعازع.

وليكن شعارَ جند الله النداءُ للبذل ومقاسمةِ التضحيات بالعدل، بدَلَ شعارات الوعود المُخلَفَةِ وتملُّقِ المحكومين.

ليت لنا لغد الإسلام رجالا كحمزة الذي رثاه حسان رضي الله عنهما فقال:

دع عنك داراً قد عفا رسمها ... وابك على حمزة ذي النائل

المالئ الشِّيزَى إذا أعْصَفَت ... غبراء في ذي الشَّبِم الماحِل

والتاركِ القِرْنَ لَدى لِبْدَةٍ ... يعثر في ذي الخُرُص الذابل

أظلمت الأرض لفقدانه ... واسود نور القمر الناصل

صلى عليه الله في جنة ... عالية مُكْرَمَة الداخل

كنا نرى حمزة حِرزا لنا ... في كل أمر نابَنَا نازِلِ

وكان في الإسلام ذا تُدْرَءٍ ... يكفيك فقدَ القاعِد الخاذل

لا تفرحي يا هند واستَحْلِبي ... دمعا وأَذري عَبْرة الثاكل

وابكي على عتبة إذ قطَّهُ ... بالسيف تحت الرَّهِج الحائِل

إذْ خرَّ في مشيخة منكمُ ... من كل عات قلبُه جاهلِ

أرداهم حمزة في أُسرةٍ ... يمشون تحت الحَلَقِ الفاضل

غداة جبريل وزيرٌ له ... نعم وزيرُ الفارس الحاملِ

وقلت:

الخيلُ أنْذرَتْ بصُبح الجِهادْ	يَركَبُها كلُّ فَتىً عادِلِ
فَعُنقَ البَغْيِ الْوِهِ ثُمَّ قُمْ	لِوَضْعِ أسِّ المَجْمَع الفَاضِل
قَوِّضْ عِمادَ الظُّلم وابْنِ لَنا	صَرحَ خِلافَةِ النَّبي المَاثِلِ
صَلَّى عَليهِ اللّه رَبُّ العُلى	نِعْمَ أمِينُ وَحْيهِ النَّازِل

الوحـدة

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾. اللهم إني أسألك باسمك الطاهر الطيب المبارك الأحب إليك الذي إذا دعيت به أجبت، وإذا سئلتَ به أعطيت، وإذا استرحمت به رحمت، وإذا استفرجت به فرجت.

تقاس فداحة الفتنة التي شتَّتت شمل الأمة ولا تزال تشتتها بكثرة العوامل المعادية للوحدة وبعمقِ تأثيرها النفسي وثِقْلها في حياة المسلمين، حيث أصبحتِ الفرقة هي الأصل والوحدة حلما ضائعا أو مطلبا معجزا أو قضية غير ذات موضوع.

على قدر ترسُّب العوامل المفرقة، وعلى قدر فتكها وإضرارها تكون الحاجة إلى تعميق التربية الإيمانية وتصعيد الهمة الإحسانية لتجاوُز العوامل الأرضية الثقيلة، والتحرر من فعلها، وقهرها، وإسكاتِها، وإبطالها. بتوفيق الله جلت عظمته.

لا يمكن التغلب على شرك الولاء إلا بتوحيد الإسلام، ولا يمكن علاج القلوب المريضة المستجيبة للأنانيات المفرقة، والعصبيات الطاغوتية، والخلافات المذهبية، والسيادات الإقليمية، والعادات المحلية، والخصوصيات العرقية، إلا بتقوية الإيمان. ولا مطمع للأمة في استعادة هويتها وتثبيت وجودها في العالم إلا بتأليف القلوب، ذلك التأليف الذي لا تتحكم فيه الإرادة البشرية ولا تتصرف فيه الحيلة السياسية، وإنما يأتي نصرا من عند الله عز وجل وتأييدا يَتَنَزَّل بركات من سماء الفضل الإلهي على جماعة المؤمنين حين تتوجه القلوب إلى ربها مخلصة ضارعة. **﴿هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**[1].

(1) الأنفال، 63.

العوامل الخارجية التي تشير إلى ضرورة توحُّد المسلمين يزداد الوعي بها كلما أفلست الدويلات المسلمُ سكانها، وغرِقتْ في المديونية، وبارت صناعتها لضيق السوق، وعجزت جهودُها لانعدام التعاون، وازدادت تبعيتها للدول القوية المصنعة، واشتدت قبضة هذه الدول الشمالية الغنية القوية على الاقتصاد العالمي حتى لا يقدر على التفاوض معها بشيء من الوزن والمصداقية وتحصيل النتائج إلا الكتَل الكبيرة.

الحكام على المسلمين أكثر الناس وعيا بهذه الضرورات الخارجية الاقتصادية السياسية. وهم يحاولون بين الفينة والأخرى طرح مشروعاتهم الوحدوية الحماسية منذ جمال عبد الناصر. لكن النفاق في الدين عند هؤلاء الحكام ورِقَّة الدين عند العامة يُضعف قدرة هذه المحاولات على تحمل مقتضيات التوحيد. وتفشل محاولات التوحيد من أعلى كما تفشل «الثورات» من فوق، وتضاف خيبة أمل جديدة إلى خيبات الأمل المصفوفة في ضمير الأمة، فيزداد الشعور العام بالعجز، ويرسخ في الأذهان أننا لن نقدر أبداً على شيء.

ما هي السبيل إذن لتوحيد المسلمين؟ السبيل جَزماً هو علاج المرض الكلِّيِّ ليَصِحَّ جسم الأمة بصحة دينها. المرض الكلي وصفه رسول الله ﷺ بأنه الوهْن. الوهْن هو حب الدنيا وكراهية الموت كما عرفه الحبيب الطبيب.

حب الدنيا وكراهية الموت هو مرض الأمة منذ أصبحت كمّاً غثائيا. ويمكن تلخيص عوامل الغثائية الذاتية في أربعة أشياء لها فروع: انهيارُ التربية على الإسلام، وقوة الولاء للقومية، واستفحالُ الطبقية، وفسادُ الحكم.

إذا جمعت كل هذه العواملِ وسألْتها عن معاشها ومعادها ومَرْتَعِها وجدْتَها عناكبَ في بيت «الدولة القومية».

كانت دولة باكستان تأسست على مطلبٍ إسلامي. وتحمس المسلمون في الدنيا لقيام هذه الدولة. بعد خمس وعشرين سنة تقاتل البنغال المسلمون مع بقية شعوب باكستان لتتكون دولة قومية هي بنجلادش. دولة تعيش على الصدقات. وفي هذه الأيام الأخيرة من شهر صفر 1409 كانت مذابح بين مسلمي الهند الأصليين

وبين «المهاجرين» الذين هربوا من الهند بعد التقسيم واستوطنوا مدينتي حيدرآباد وكراتشي منذ تأسست باكستان. لا يمكن إحصاء الفواجع المخبِرة عن فرقة المسلمين ووحشة ما بينهم.

إنما نأتي بمثالين «سَرِيرِيَّيْنِ» لنتأمل ملامح المرض الغثائي: حب الدنيا وكراهية الموت مرض مسؤول عن وجود بعض الدويلات البترولية التي يبلغ الدخل الفردي في بعضها أكثر من ضعف الدخل الفردي الأمريكي بينما يموت المسلمون كرها وفقراً ومرضا في بنغلادش وغير بنغلادش.

حب الدنيا وكراهية الموت مرض تَتَنَغَّص جراثيمه بالتربية الإسلامية الإيمانية الإحسانية، وتنمو وتزدهر في مَرَقَةِ القومية والطبقية والحكم الفاسد.

حارب البنغال المسلمون ليستقلوا بدولتهم لأن القسمة في دولة باكستان يومئذ لم تكن عادلة، ولأن البنغاليين يحسون أنهم بنغال أكثر مما يحسون بأنهم مسلمون.

ويقتل القوميون السِّنْد مواطنيهم «المهاجرين» لأنهم لا يشعرون إزاءهم بأخوة لأنها لم تتألف قلوب على أخوة الإيمان ولم تترب عليها، فهي لا تتدين بها. إنما تتدين بقوميتها ومصالحها الأنانية. وقد جاء هؤلاء الأجانبُ المهاجرون فاستولوا على التجارة والصناعة والمال، وتفوقوا فأصبحوا الطبقة الظاهرة العدوة.

لا تُملى الفضائل الإسلامية الإيمانية الإحسانية إملاءً من أعلى. والفرق بين وازع السلطان الإسلامي وتسلّط اللاتِ والعزّى القومية أن الطاغوت يسمح بتفشّي جراثيم المرض الغثائي بينما يحاصره السلطان الإسلامي ويُطلق عليه مبيدات النهي عن المنكر، ومنعشات الأمر بالمعروف، ومُحْيِيات التنشئة على حب الله وخوف الله والولاء الوحيد لله.

بل إن صيغة الدولة القومية، المترجمة في واقعنا استبدادا طبقيا، لا تعيش ولا تبقى ولا تسمُنُ إلا بهُزال جسم الأمة وتبعثر قُواها وانحلالِها وغثائيتها.

لا تُمْلى الفضائل الإسلامية، وثمرتها السياسية الاجتماعية الاقتصادية هي الوحدة، من فوق. لكن هذه الفضائل تزرع بأيدي الدعوة، وتُغرس على أراضي القلوب والعقول، وتسقى بمدد الكتاب والسنة على مدى الأجيال. وسلطان الإسلام نَاطُورٌ حارس يحفظ الغَرسَة أن تعيث في أرضها الحشرات فسادا.

وقد بين لنا رسول الله ﷺ أسباب الصحة كما بين لنا أسباب المرض وأعراضه. وترك لنا نموذَجاً حيّاً للوحدة ومراحل التوحيد نقرأه في السيرة العطرة وفي التعايش الأخوي بين المهاجرين والأنصار، وأعراب المسلمين على عهده ﷺ وعلى عهد الخلافة الأولى.

وترك لنا ﷺ مع ذلك النموذج التاريخي الفريد العتيد صورة مثالية أودعها وصيته الشريفة حين قال: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد الواحد: إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». رواه الشيخان رحمهما الله عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

ترك لنا الحبيب هذه الصورة المثالية الـمَثَلِيَّة لنحقق من شَبَهِها ما نستطيع. ويكون الواحد منا أقربَ إلى الله ورسوله وأعلى مرتبة في الإيمان والإحسان ومقاعد الآخرة كلما كان شعور الإخاء وبذلُ الإخاء وتوادُّ الإخاء وتراحمه وتعاطفُه أغلبَ في قلبه وأكثر تحكما في سلوكه من مشاعر الأنانية والأثرة والعصبية والولاء الطاغوتي المتقلص المتحجر المتجسد في الولاء للدولة القومية.

يقرأ بعض المسلمين التمثيل النبوي للوحدة الأخوية بين المؤمنين فيتصورها وحدة عضويَّة حقيقيَّة، ويحنُّ إليها حنين المؤمن إلى الفردوس، ويطلبُها عاجلة ناجزة مبرأة من كل عيب. وإنها لمثالية الشباب، وشيكة أن تعقبها مرارة الفشل وغُصة الإخفاق عندما يصدم الواقع الثقيل تلك الآمال الخيِّرةَ.

وإنه لفهم خياليٌّ أن نتصور وحدة المسلمين على صفات ملائكية، أو على غرار ما يتسابق إلى ذهننا من أن مجتمع المدينة على العهد الفاضل كان فردوسا على الأرض.

غاية ما يُطلب إلينا أفراداً أن نتوسل إلى الله عز وجل ونتقرب إليه ليحبنا. ومن شروط حب الله عز وجل لنا أن نحب المؤمنين.

وغاية ما يُطلب إلينا جماعة أن ندنو قدر الإمكان من النموذج الحي بالمدينة ومن التمثيل النبوي بالوحدة العضوية في الجسد الواحد.

وفي حوافز الإيمان وشرائع الإسلام من موجبات العدل والشورى والبذل والتعاون على البر والتقوى ما هو كفيل أن يُعطِيَ للدعوة بُرهانا وللحكم الإسلامي سلطانـًا لبناء وحدة المسلمين لبنةً لبنةً وقطراً قطراً حتى يستوي الصرْح في مدىً نستقبله ولا نستعجله، نندفع إليه بإيماننا، وتدفعنا إليه ألطاف الله الخفية المتجلية في ضرورات السياسة والاقتصاد والتكتل اللازم لخوض غمار العصر.

ذاك مدى يعز الله فيه المسلمين في خطواتهم إلى الخلافة الثانية، ويطيبُ فيه عيش المسلمين في الدنيا عربونا مسبقا على طيب عيش المجاهدين في الآخرة. إن شاء الله.

ولن نَرِيحَ ريحَ ذلك الوعد السَّنِيِّ بالخلافة إلا عندما نعافُ نتانة «المُنْتِنة» وقبح ريحها. المنتنة تركها الصحابة بتربية المصطفى ﷺ الذي قال لأصحابه وقد سمع رجلين يناديان بالعصبية القبلية: «دعوها فإنها منتنة!» رواه البخاري رحمه الله عن جابر رضي الله عنه.

قال سيدنا عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يشجع المسلمين في غزوة مؤتة:

جلبنا الخيل من أجإ وفرع — تُغَرُّ من الحشيش لها العُكوم
حذوناها من الصَّوّانِ سِبْتا — أزلَّ كأن صفحته أديم
أقامت ليلتين على معان — فأعقب بعد فترتها جُموم
فَرُحنا والجِيادُ مُسَوَّمات — تنفَّس في مناخرها السَّمُوم
فلا وأبي مآبَ لنَأْتِيَنْها — وإن كانت بها عربٌ وروم
فعبَّأنَا أعنَّتَها فجاءت — عَوابِسَ والغُبارُ لها بَريمُ

بـذي لَجَـبٍ كأن البَيْـضَ فيـه إذا بـرزت قوانِسُـها النجـومُ
فـراضيةُ المعيشـة طلَّقَتْهـا أسنَّتُهـا فتنكِـحُ أو تَئيـم

وقلت:

أقِيمُوا للصَّلاة صُفُـوفَ تَقوى وَقُـومُـوا للجهـادِ مُصَممينَـا
وحَيثُ سَرَتْ كَتائبُكُم بصُبح فَعُـودوا بالفَخـار مُعمَّمينَـا
أفُرسَانَ النَّهارِ رِجـالَ لَيْـلٍ فَكَـونُـوا للعِبـادِ مُعَلِّمِينـا

شعب الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت. اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني. أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون.

أي جهاد يتعين علينا لكي نخوض غمار الدنيا أفرادا دون أن نقع في حبها فننسى الله واليوم الآخر؟ أي جهاد يتعين علينا كأمة لنخوض معارك الحياة دون أن نفقد الروح، ودون أن يبتلعنا تيار الحداثة ويتحكم في مصيرنا ناموسُ العرض والطلب وقانون التعايش مع الحضارة، فالاندماجُ في الحضارة المادية الوثنية الصائلة اليوم على وجه الأرض بكامل قوتها وموفور أرزاقها وكفاءة رجالها ومغْريات زينتها؟

كنت صنفت تحت خصلة الجهاد ست شعب من شعب الإيمان هي: الحج والعمرة، ثم الجهاد في سبيل الله، ثم التأسي برسول الله ﷺ وأصحابه في الجهاد، ثم الخلافة والإمارة، ثم المبايعة والطاعة، ثم الدعوة إلى الله عز وجل.

هذه الأعمال الإيمانية المكمِّلة لشعب الإيمان المتكاملة معها هي مراسيم الولاء لله عز وجل والطاعة له. مناطُها ذمة المؤمن وقيمتها الروحية التي بها يكون لها المغزى في الدنيا والخلود في سجلات الملائكة والقبول عند الله عز وجل هي ما صحبها من إخلاص لله رب الجلال عند أدائها، وما صحبها من تقوى. **﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾**[1].

(1) المائدة، 27.

تعايش المسلمين مع الحضارة المادية، ودخولُ الفكر المادي والفلسفة الوضعية والتصور الجدلي التاريخي للإنسان والمجتمع في عقل المسلمين وقلبهم وسائر كيانهم المعنوي أفقدهم الروح، فدل خطابُهم على الخَواء من الإيمان وعلى الغربة الكاملة عن الدين، وعن النية الدينية، وعن ذكر الله عز وجل، وعن الآخرة، وعن التقوى. أمامي مجلة تتمسح بالإسلام وهي قومية صرفة، لا تخفَى هُويتها على القارئ المؤمن من أول عنوان: «الحج فريضة تربط سابق تاريخ الأمة بلاحقه».

خطاب وثني قومي يوظف فريضة الحج لتربط تاريخا بتاريخ. وكأن الحج تراث حضاري وطقوسٌ وراثية يتعرف فيها الممارس على هويته بتقليد الآباء والأجداد، ويوثق الصلات بجذوره القومية بالسير حيث ساروا وترديد ما قالوا. أين نحن من الأمر الإلهي المقدس: ﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾(1)؟ وأين نحن من العباد المخلصين يجأرون نحو بيت الله: «لبيك اللهم لبيك»؟

حكمة اللقاء العام في «مؤتمر» الحج لها كل الاعتبار في واقع الأمة، إذ الحج تُقضى فيه منافع بإذن الشرع في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾(2). من أجلِّ المنافع لقاء الحاج بإخوانه من كل بقاع الأرض ليعيش إحساس الوحدة وشكل الآخرة، وليأخذ عن علماء الأمة العلم إلى آخر ما تحمله كلمة «منافع» من دلالات.

كل ذلك أذن به الشرع لنهدف إلى تحقيقه بالقصد الثاني بعد القصد الأول الذي هو إخلاص العبودية لله تعالى. لكن الفكر المغرَّب السطحي هجم علينا وأَرْعَبنا فأصبحنا لا نكاد نتكلم عن الحج إلا من الزاوية المحترمة حضاريا وهي كونه مؤتمرا عالميا نُباهي الناس بسعة موسمه وكثرة الوافدين إليه.

جئت بمثال الحج، وهو ركن من أركان الإسلام وشعيرة من شعائر الله العظمى، لأعطِيَ مثالا على تسطح الخطاب الإسلامي والمتمسلم. زهقت منه الروح وبقي جسما ثقافيّـًا يتنفَّس هواء الجاهلية وينطق نطقها.

(1) البقرة، 196.

(2) الحج، 28.

وفي ختام هذا الكتاب أريد بحول الله أن أذَكِّر أن كل تحليل لواقع المسلمين نستعمل فيه الآلات الفكرية المستوردة إنما هو تهييء لعلاج الأمة بالتي كانت هي الداء. وأن كل محاولة تغيير لما بالأمة من شر بما تقترحه العقول الفارغة من التفكر في خلق الله ما هي إلا تضييع للأمة. وأن المشاريع السياسية والاجتماعية وغيرهما التي تحلم بها وتنتجها وتفرضها على الأمة أفئدة لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر إن هي إلا تيه في تيه.

لا يمَلُّ المفكرون القوميون التقدميون الاشتراكيون الثوريون وغيرهم من التحرريين المتفتحين الحضاريين يَلُوكُونَ في أفواههم ويخطون بأقلامهم المقولاتِ الجدلية المتزاوجة زواجا كسيحا. إشكاليتهم التصالح بين «التراث والمعاصرة»، بين «التراث والتجديد»، بين «العروبة والإسلام»، بين «القديم والحديث»، وهلم جَرّاً وسحباً في أراضي اللاييكية وسواحل الجاهلية.

ويرحم الله شهيد الإسلام سيد قطب حيث ركَّز كتاباته البليغة على التناقض الأساس الجوهري بين الجاهلية والإسلام. ينبغي أن نغرس فكرة التمايز وعقيدة التغاير والتناقض في ناشئتنا بين الجاهلية والإسلام، وأن نجعلها بساطا للتربية الإيمانية الإحسانية التي كان ضمورها وغيابها عن الساحة الثغرةَ التي تدفَّق علينا منها السيلُ الجارف سيلُ المياه الفاسدة التي طمَّت وعمَّت.

وأخشى أن تكون خشخشة الثقافة الممسوخة وفَخْفَخَتُها استخفَّت بعض الأقلام الإسلامية فتنازلت عن شموخ خطاب سيد قطب رحمه الله لتعرج على دِمَنِ المواضعات الثقافية التقدمية التحررية الحضارية الخ.

ذلك الشموخ القطبي والاعتزاز بالإسلام صح لنا قولا على لسان شهيدنا العزيز. بقي أن يصح لنا عملا وأن يتجسد واقعا. وذلك هو مطلب العدل والإحسان الذي يبدأ من البداية الوحيدة الصحيحة: التربية ثم التربية ثم التربية.

في الفقرة الأخيرة ذكرنا أن مرض الأمة هو حب الدنيا وكراهية الموت كما وصفه النطق النبوي المعصومُ. وذكرنا أن أعراض هذا المرض الغثائي تتجلى في

انعدام التربية الإسلامية الإيمانية الإحسانية، وفي الولاء للقومية، وفي الطبقية، وفي فساد الحكم.

لكون الأعراض الثلاثة الأخيرة تترتب على السبب الأول نقول: علاج هذا المرض العضال التربية. منَعة أجيال مؤمنة محسنة.

في قلب المسلم الفرد وعقله ونفسه وخلُقه ومروءته تحتدم المعركة الحاسمة بين الإسلام والجاهلية. فسلاح القتال إنما تعطيه التربية. قوة أجيال نُشِّئت على الإيمان والإحسان والجهاد في سبيل الله.

استيلاء الولاء للقومية والطاغوت، وتحكم الطبقية وتسلط الحكم الفاسد نتائج ترجع في آخر التحليل كما يقال لضعف المسلم الفرد خلقا وإملاقِهِ من الإيمان، وفاقته من العقل، وفقره من المروءة. فمقاومة داء الوهن في الأمة إنما هو ضرب من العبث إن لم تُرس في كيان المؤمن ركائز الإيمان، ودعائم العلم، ومقومات المروءة، وقويمات الأخلاق، ومُخْلِصات النيات، وعزمات التنفيذ، وملزمات الطاعة لله ورسوله وأولي الأمر القائمين. ترجمة كل هذا تلخصه كلمة تربية. تنشِئَة أجيال على الإيمان والإحسان.

التربية الإحسانية على منهاج النبوة وصفنا معالـمَها في هذا الكتاب بعرضها على فقه الصوفية تارة، وبمعارضة السلوك الصوفي من جانبها تارة أخرى.

فالقوابل الصالحة رسمْنا لها خط الإرادة والطلب بصدق مع الصادقين. ويفعل الله بعباده ما يشاء، ويهدي سبحانه لنوره من يريد، ويبلغ الكمالَ من هم في علمه الأزلي أهل الكمال.

ويجد إن شاء الله عامة أهل الإيمان فيما كتبناه ذكراً لمعنى الولاء لله وتذكيرا به، ليأخذ كل نصيبه. جعلنا الله وإياكم ممن رزقهم الله رزقا حسنا.

أما خاصة جند الله فكلمتي الأخيرة إليهم أن يربطوا مصيرهم الفردي المرجوَّ عند الله عز وجل بمصير الأمة في الأرض. فإن فعلوا، والله الملك الوهاب الموفق،

فوعد الله للمجاهدين قائم إلى يوم القيامة. وعَدَ الحق سبحانه المجاهدين ﴿**بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾[1].

فطوبى لعبد سار مع الصادقين في ركب الجهاد، وصدَّق بكلمات ربه وكتابه، وعبد الله حق عبادته، وذكره كل وقته، وتعرض لنفحاته آناء الليل وأطراف النهار، وبذل في سبيل الله ماله ونفسه، وجاد بعطائه حتى عمَّ بره المسلمين والخلائق أجمعين، وتعلم علم الحق وعمل به وعلمه، وتشبه باستقامة رسول الله ﷺ، واتخذ رِفقه ﷺ أسلوبا، وصبره الكريم الجميل أسوة، واصطباره على مشقات الطريق مثالا، وجهاده الشريف وجهاد أصحابه وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم من بعده رائدا. طوبى له ثم طوبى.

إن الله عز وجل حدد لنا معالم الجاهلية وخصائصها ومظاهرها في أربعة: ظن الجاهلية، وحكم الجاهلية، وتبرج الجاهلية، وحمية الجاهلية.

وصف لنا سبحانه الرحمن الرحيم ينابيع الشر لنحذرها، ونقاومها، ونقاتلها، ونكفها عن أنفسنا وعن أمتنا.

ظن الجاهلية جماعه وفلسفتُه وثقافته الكفر بالله واليوم الآخر، والشرك بالله، والإلحاد في دين الله.

حكم الجاهلية سنده وعماده وقوته الولاء لغير الله.

تبرج الجاهلية مظهره إرضاء شهوات النفس بقتل الروح.

حمية الجاهلية هي الشيء المنتن وكفى.

فيا أيها الحبيب القارئ في كتابي هذا! إنما تُكتَبُ في مرتبة أعلى من مراتب الإسلام والإيمان والإحسان على مقدار قطعِك لحبال الجاهلية في حق نفسك ورعيتك وأمتك، ومقدار جهادك لها، ومقدار صدقك مع الله، وحبك لله، وذكرك لله. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

---

(1) التوبة، 120.

قال كعب بن زهير رضي الله عنه لما قطع حبال الجاهلية وجاء تائبا إلى رسول الله ﷺ:

وقـال كـل خليـل كنـت آمـلـه — لا ألهينَّـك إني عنـك مشغـول!
كل ابـن أنثـى وإن طالـت سلامتـه — يـوما على آلـة حدبَـاءَ محمـول
نبئـت أن رسـول اللـه أوعدنـي — والعفـو عنـد رسـول الله مأمـول
إن الرسـول لسيـف يُستضـاء بـه — مهنـد مـن سيـوف الله مسلـول
في فتيـة مـن قـريش قـال قائلهـم — ببطـن مكـة لمـا أسلمـوا: زولـوا
زالـوا، فمازال أَنكـاس ولا كُشُـفٌ — عنـد اللقـاء ولا مِيـلٌ معـاذيـل
لا يقطـع الطعـن إلا في نحـورهم — وما لهـم عن حيـاض الموت تمهيل

وقلت:

تَمزَّقـتْ أمَّـةُ الـمُختارِ في عُصُـرٍ — تَداعَتِ الأممُ الأقوى عَلى النَّفَلِ
في فِتْنـةٍ غُـصَّ بَادِيهـا بِحاضِرهـا — والكُلُّ يَربضُ في رُكْنٍ عَلى وجَلِ
قُومُوا فَشمسُ الهُدى قد حان مَشرِقها — وَوَحِّدوا الصَّفَّ وابنوا في خُطى الأُوَلِ

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. ورحم الله عبداً لله وأمةً من إماء الله ذكرانا في دعائهما. أو أهديانا بعد رحيلنا من هذه الدار وانقطاع عملنا إلا ما استُثْنِيَ ثواب سور وآيات من كتاب الله. ختم الله لنا ولكم بالحسنى وزيادة. آمين والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

الفصل السابع: العلم

الفصل الثامن: العمل

الفصل التاسع : السمت الحسن

الفصل العاشر: التـؤدة

الفصل الحادي عشر: الاقتصاد

الفصل الثاني عشر: الجهـاد